

عبد الكريم الخطيب

النبي محمد

مكتبة دار الفكر العربي

دار الفكر العربي





5723

عبد الكريم الخطيب

المعهد العالي لمكتبة الاسكندرية

رقم التصنيف: 297.63

ن . د . ع

رقم التسجيل: 71271

النبي محمد

إنسان الانسانية ونبي الانبياء

297.63

الطبعة الثانية



١٩٧٧

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

في سنة ١٢٧٢
في شهر ١٢
في يوم ١٢

وزارة الشؤون الدينية
 لصاحبها: محمد عبد الرزاق
 كنيسة الأرمين من الجيش
 ١٣٤٠٩٤

سيرة الرسول الكريم

أشهد لقد ظلمت نفسي ، إذ أقدمت على هذا العمل ، بعد أن ظلمت سنين كثيرة أتهيبه ، وأحاذر الإقدام عليه !

فإن الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم - وإن يكن طلبه النفس في كل حين ، ورغبتها في كل حال - فقد كان الهمس به ، والتخافت فيه أحب إلى قلبي ، وأرضى لمشاعري وأروح لنفسي ، ... إذ كنت أدع لخواطري الانطلاق في معاني السيرة النبوية ومجانيها ، إلى المدى الذي تقدر عليه ، دون أن آخذ نفسي بمنهج ، أو أقف بها عند مورد . بل كان لها أن تروى كل منهج ، وترد كل مورد ، وتنتقل من حال إلى حال كما ينتقل النحل بين ألوان الزهر !

° ° °

ولا أدري ماذا حدث حتى انتقل هذا الحديث الهامس الخافت من سيرة الرسول ، الذي كان يدنى وبين نفسي ينساب في مسارب الضمير ، ويسرح بين حنايا الصدر لا أدري كيف انتقل هذا الحديث الهامس الخافت ، إلى هذه الصورة المسموعة المقررة في هذا الكتاب ، الذي يجده القارئ بين يديه ؟ ؟

فلقد كنت حريصاً أشد الحرص على أن أظل قارئاً أو مستمعاً لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم دون أن أكون مقرئاً أو مسمعاً لها يوماً من الأيام !

إنني أعرف حق المعرفة جلال هذا المقام ، وأقدره قدره من الاحترام والتوقير ، كما أعرف حق المعرفة ما ينبغي لسيرة الرسول الكريم من حرمة وتعمق من أن يباح حماها لكل من يقول بعلم وبغير علم ، ولكل من يرتاد حماها بزاد أو بغير زاد !

فليس كل من عرف طرفاً من سيرة الرسول ، وضم صدره على حبه والولاء له ، بقادر على أن يمرر مناعره وأحاسيسه . وأن ينتقل ما بنفسه من معاني الجلال والعظمة التي تفيض عليه من جلال النبوة وعظمتها إلى كلمات مسموعة

مقروءة ، وأن ينفض ما بمصدره من مشاعر الحب والولاء على الأسطر التي يسود
بها صفحات ، ثم يحملها كتاباً في السيرة ١١

ولو كان ذلك مما يقع في الإمكان ، أو لوقع جاء بحىء الرضا والقبول لا يخرج
كل مسلم كتاباً عجباً من أعماقه ؛ في تلك السيرة الكريمة ، ولكانت هذه الكتب
آية الآيات فيما تحمل من معاني الحب الصادق ، التي ضمت عليها صدور المسلمين
للنبي الكريم ١

ولكن ما في الصدور شيء ، وما تستطيع أن تحمله الكلمات من هذا الشيء -
شيء آخر ١١

فكيف إذا كانت المعاني من السمو والكمال ، وكانت المشاعر من الصدق
والعمق على هذا النحو الذي يجده من يطوف بحمى النبوة ، ويطالع أنوارها ؟؟
إن ما تأخذ الكلمات هنا من هذا الجلال ، وما تحمل من تلك المعاني لا يكون
إلا كما يأخذ القلم من ماء البحر ، وإلا كما تمسك اليد من شعاع الشمس ، أو تلتقط
العين من ضوءها ١

• • •

فإذا ماتميببت هذا الموقف ، وأخذتني منه رهبة ، فليس ذلك إلا لأنى أعرف
للوقف جلاله ، وأقدر خطره ، وخطر العثار فيه ١

إن العثرة هنا بقاء مشهورة ، تلتظ بها الشفاه ، وتشرع لها الأفلام ، ويكثر
من أجملها الطعن والتمثال .. فلا يقال للعائر لعمراً ، ولا تقبل منه معذرة .. إذ
كان ذلك العثار محمولا عند أكثر الناس على أنه تطاول على مقام الرسول ،
وتجديف عليه ..

وقد يحسن الظن عنده بعض الناس فيخفف الزلة ، ويثقل من العثرة ، وإمكانه
لا يخلى صاحبها من الرمي بالجهل أو الاستخفاف .. وقد يشتم بعض آخر فيسوق
التهم ويرى بالكفر والإلحاد ،

وقل في الناس من يقع على الزلة هنا فيلقاها بالسامح والصفيح ، ويجهد لها في

باب النفرة مدخلا ، حين ينظر إلى الأمر بعينه معاً ، وحين يرى الحسنات
والسيئات جميعاً !

* * *

وعذيري عند نفسي من هذا الموقف الذي سقته إليها ، أو ساقتنى هي إليه -
أفنى نسجت لها ، ودعوتها إلى الريث والمهل فيه ، فطاولت معها الأيام ، ولويت
زمامها عن هذا القصد من أطويلا ، لعلها ترضى من سيرة الرسول بما أريد لها
الرضا به ، وهو أن تعيش فيها وحدها ، وأن تلتقي بها على غير مشهد من أحد !
وأكثر من هذا ، فلقد تطلقت بها ، وترفقت في صرفها ، فلم أدعها تهيم في
كل واد ، وتسقط على كل مرعى ، حين صرفتها عن وجهتها تلك ، وأخذت
عليها الطريق إليها - بل قدمت إليها زادا عتيذا طيباً ، وهو أن تلتقي مع صحابة
رسول الله وخلفائه الراشدين ، وأن تعيش معهم في السر والعلن ؛ تتحدث إلى
الناس بما تشاء من حديث عنهم ، إن كانت تشتهي الحديث إلى الناس في هذا
الباب ، وتحصر عليه .

وقد كان !

فأرخت لنفسي العنان لتجيا في سيرة صحابة الرسول ، وخلفائه الراشدين ،
وأن تأخذ الوضع الذي ترضيه لتتحدث بما تشاء من صور الحديث : مقروءة
أو مسموعة !

وكان ذلك - فيما بدا لي أول الأمر - سياسة ناجحة فيما أردت ، إذ سكنت
تلك النوازع التي كانت تطلع بها على نفسي بين الحين والحين ، وتصرخ بها في
أعماقي ليكون لي في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كتاباً !

وفعلا .. كاد يقع التصالح بيني وبين نفسي على هذا الموقف ، وأمسكت بالقلم
لأبدأ بسيرة الخليفة الأول ، أبي بكر ، رضى الله تعالى عنه !
وهنا ألقت النفس إلى خاطراً غريباً ، وهو أن أبدأ بسيرة الخليفة الثاني
عمر بن الخطاب !

فسألها: ولم عمر؟ أترأه يفضل أبا بكر، ويقدم عليه؟
قالت: مالك ولهذا الظن؟ ولم تحمل الأمر على المفاضلة، والتفاضل بين
خلفاء الرسول؟

قلت: وبهم يفسر هذا... بليني وبينك على الأقل؟
قالت: إن ما اجتمع بين يدك من سيرة «عمر» يصلح أن يكون كتاباً،
يقرؤه الناس، وربما كان القلم هنا أسرع وأطوع في تصوير الحقائق التي تريد عرضها
أما «أبو بكر» فإني أرى أن سيرته لم تكتمل لديك ولم يبلغ عندك ما تريد منها!
وخيل إلى أن هذه نصيحة ناصح، ومشورة أمين!
فأقبلت أكتب سيرة «عمر» فكتبتها، وأخرجتها كتاباً بين أيدي الناس!

* * *

وأشهد أني حين كنت متوفراً على الكتابة في سيرة «عمر» كنت أكاد أتب
وثباً، لأبلغ خاتمة الكتاب، حتى ألتقي لقاء مباشراً مع سيرة الرسول، وأفريغ
جهدى كله في الحياة معها، وإعلان الحديث عنها، ومجاهرة الناس بها!
وإذ ذاك عرفت الكيد الذي كادته نفسي، وانكشف لي سر التدبير الذي
دبرته، حين ألفت إلى هذا الخاطر الذي حملني على البدء «بسيرة عمر»!
فقد كانت سيرة «عمر» عندي خير آذن يأذن لي بالدخول إلى السيرة
النبوية، ويمهد لي الطريق إليها، ويفتح كنوز الجلال والعظمة المحجبة في
أنوارها!

فلقد وجدت في سيرة عمر ريح النبوة، نفاذ الشذى، فواح الطيب!
ووجدت في عمر العظمة الإنسانية، والكمال البشري، النامي في ظلال
النبوة، المستضيء من مشكاتها.

فكان ذلك إغراء قوياً لي بالتطلع إلى موطن العظمة، وإلى مصدر الإشعاع!
وليس ثمة شك في أن سيرة صحابة رسول الله وخلفائه الراشدين، لاتنكشف
جوانب العظمة فيها، ولا تتجلى مطالب الأنوار منها حتى ترد إلى المصدر الذي
أفاض عليها ما أفاض، من جلال وعظمة، وإشراق!

إن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم هي النور الكاشف الذي ترى فيه مغارس النبوة ، ويستدل به على ما في مجانها الطيبة من ثمر طيب !

* * *

وبعد :

فإذا عذرت لنفسى بالكتابة في سيرة الرسول ، والمعالجة بالحديث في تلك السيرة المباركة الطيبة - نحن يؤذرنى عند الناس إن وجدوا زلة أو عثرة ؟؟
حسبي أنها كانت نية خالصة ، أردت بها إرواء نفس متعطشة إلى أن تحيا مع الناس في أكرم حديث ، وأطيب سيرة .

وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى .

فاللهم تقبل هذا العمل ، واجعله صلاة وسلاماً دائماً على نبيك المصطفى وحبيبك المجتبي ، محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهديه واتبع سنته إلى يوم الدين ؟

المؤلف

القاهرة في : ٣٠ رجب سنة ١٣٨٣ هـ

٢٧ ديسمبر سنة ١٩٦٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، وعلى آله وصحبه ومن امتدى بهديه . وسلك سبيله إلى يوم الدين . .
وبعد :

فهذه الطبعة الثانية من كتاب « النبي محمد ، إنسان الانسانية وفي الانبياء » نعود فنلتقي مع أولياء الله وأحباب رسوله ، والمتأسين بسيرته . .
وقد كنا ونحن على فية تقديم هذا الكتاب للمرة الثانية بين أمرين :

الأمر الأول : أن نعيد صياغته من جديد ، وأن تدخل عليه ما دخل على مشاعرنا من أنوار الهدى النبوى ، وما اكتسبته به أبصارنا من أضواء سيرته المباركة الطيبة ، التي تتجدد بها الحياة كلما تقيأت ظلالها علينا ، وكلما هبت أنسامها العطرة في أجوائنا . . وكان ذلك من شأنه أن يجعل من هذا الكتاب كتاباً جديداً ربما اختلط به الأمر على من قرأه في صورته الأولى : حين يرجع إلى فصل من فصوله . أو باب من أبوابه . .

والأمر الثانى : هو أن نقدم الكتاب كما هو ، وأن نجعل هذا الذى زودتنا به السيرة النبوية المباركة من زاد جديد ، كتاباً آخر يلحق بهذا الكتاب ، ويكون مكملاً له .

وقد أثرت الأمر الثانى . وها هو ذا الكتاب فى صورته الأولى ، لم نزد عليه إلا بعض العبارات التى نراها لازمة لتوضيح معنى أو استيفاء فكرة . .

نسأل الله أن ينفع به ، وأن يشبعنا عليه ، وأن ينزل منزل الرضاء والقبول من صاحب السيرة . صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه والتابعين إلى يوم الدين .

وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ؟

المؤلف

القاهرة فى : جمادى الأول ١٣٩٦ هـ
أبريل ١٩٧٦ م

صلوات .. وابتهالات الكلمة الطيبة

« ضرب الله مثلاً

« كلمة طيبة .. كشجرة طيبة ..

« أصلها ثابت .. وفرعها في السماء ..

« تؤتي أكلها كل حين .. بإذن ربها ..

« ويضرب الله الأمثال للناس .. لعلهم يتذكرون »

° ° °

« محمد .. محمد .. محمد .. »

يا للكلمة الطيبة .. المباركة ..

ويا للروعة جرسها .. وصفاء لحنها !

من جوهرها الكريم يصاغ الكلم الطيب .. وتولد الكلمات الحسان !

محمود ، وأحمد ، وحمد . ومدح !

فأى إلهام . وأى تدبير ، وأى قدر اصطفاك — أينما الكلمة المباركة

الطيبة — لابن عبد الله اسما ، ولخاتم النبيين سمة وعلياً ؟ !

وأى إلهام ، وأى تدبير ، وأى قدر حفظك — أيها الاسم النبيل — في

ضمير الحياة تلك القرون الكثيرة المتطاولة .. لم ينطق بك فم ، ولم يكتس

بجلاك وليد ؟ !

حتى إذا وضعت آمنة بنت وهب وليدها اليتيم ، وملأت عينها من قسما

وجهه الوضوء ، وثغره الباسم ، وجبينه المشرق — أحست أن وليداً آخر

يتفلس من صدرها ، وينطلق إل فيها .. وإذ لسانها يتحرك ، وشفها

تتصادحان بنغم وادع ، رقيق .. محمد .. محمد .. هذا هو وليدى .

وذاك اسمه .. وإني لأرجو أن يحمد ، وأن يكون محمداً ! !

فحمد . . الكلمة الطيبة المباركة .
ومحمد . . النبي الأسمى . . مبعوث السماء بالهدى ودين الحق . .
محمد . . كلمة . . هي سيدة الكلام !
ومحمد . . إنسان . . هو سيد الأنام !

° ° °

ويلقى البظيان :
الذات . . والكلمة !
المسمى . . والاسم !
فيشهد التاريخ معجزة الحياة . . المعجزة الخالدة . . التي تخلقت من كلام .
وجرت على لسان !

* * *

فلقد تفجرت من الكلمة ينابيع الحكمة ، وصورت آيات البلاغة والفصاحة
فيجزم لبلاغتها البلغاء ، ويخرس لفصاحتها الفصحاء .
ولأول مرة في حياة البشر . تكون الكلمة آية ، وتصبح الآية معجزة
خالدة ، تتحدى الناس على مدى الأجيال ، وتطاول الأزمان !
ولأول مرة في حياة الرسل تكون معجزة الرسول في فمه . . كلمات تجري
على لسانه . فتعزو لها الوجوه ، وتخرس لها الألسنة . . !
وأم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . . . وادعوا
من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . .

° ° °

دمحمد . . !
كم أنت موفورة الحظ أيها الكلمة المباركة الطيبة !
إنك أبداً في قلب كل مسلم ، وعلى لسانه ، وملء فمه وسمعه !
فمن يوم أن ولد ابن عبد الله وأنت فور يبدد الظلام ، وهدى يدفع الضلال .
وحق يدمغ الباطل . . وإذ أنت رحمة راحمة حيث ضمك قلب ، أو تحرك
بك لسان !

ومن يوم أن ولد ابن عبد الله ، وأنت تستأثرين بالمكان الأول ، في مقام
الذبيوع والانتشار ، بين الكلمات الحية العاملة في الحياة . .
لقد اختصك الله - أيتها الكلمة الطيبة المباركة - بهذا الفضل الغدق ، فجعل
ذكرك عبادة ، وصلاة ، ودعاء !

وكان مما فضل الله به عليك - أيتها الكلمة المباركة الطيبة - أن جمع بينك
وبين اسمه تعالى ، وجعل الإيمان به لا يتم إلا ولك نصيب فيه ، وذكر معه !
فالصلاة على محمد ، في شريعة الإسلام مرضاة للرب . . مغفرة للذنوب .
والشهادة برسالة محمد ركن من أركان الإسلام . . لا يكمل إلا بها ،
ولا يقبل إلا معها !

في كل أذان تتردد كلمة محمد ، وفي مفتاح كل صلاة تذكر كلمة محمد ،
وفي التشهد من كل صلاة ، وفي مختتم كل صلاة تذكر كلمة محمد !

إن أدنى ما يجب على المسلم أن يذكره من كلمة محمد ، لا يقل عن عشرين مرة
كل يوم في مقام الصلاة المفروضة . . أما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فلا يقف المسلم
بها عند حد أبداً ، والزيادة فيها زيادة من خير ، واستزادة من رحمة ورضوان .
إن أى كلمة قد تعيش في الناس زمناً ما . . يطول أو يقصر ، ولكنها
لن تحيا مع الناس حياة ملازمة أبداً . . ولن يرتبط مصيرهم بها في كل حين !
بل تدور معهم دورة ثم ينتهى دورها ، وتختلفها غيرها من الكلمات . . وهكذا
دوايك . . تولد كلمات ، وتموت كلمات ، شأنها شأن الكائنات الحية ، من إنسان
وحیوان ونبات .

أما كلمة محمد ، فقد عاشت ، وستعيش في الناس أبداً الدهر !
لأنها تكسب كل يوم السنة جديدة تهف بها ، وتستقبل كل وقت أهلاً
وأنصاراً ، يجتمعون عليها ، وينضون تحت لوائها . .
لأنها كلمة مباركة طيبة . . تؤق أكلها كل حين بإذن ربها . .
مانطق بها مؤمن بالله إلا ارتفع في الملاء الأعلى ذكره ، وزاد في ميزان
الخير خيره !

ذلك هو بعض محمد ، الكلمة . . الكلمة التي انتسبت إلى ابن عبد الله
الوليد . . اليتيم . النبي . . الأُمي . . رسول رب العالمين !

أما محمد ، الذات . . ذلك اليتيم الفقير الذي عرفته ، مكة ، وليدًا ، وعرفته
البادية رضيعًا ، ثم استقبلته مكة غلامًا ، وشهدته نبيًا مرسلًا ، يحمل في فمه دعوة
الحق ، يؤذن بها في الناس : « أن آمنوا بربكم . . وشهدت قومه يلقونه بالسوء ،
ويرمونه بالضر والاذى ، ورأته يلقى ما يلقى في صبر جميل . . لا يبرم ولا يضجر . .
وإن ضجرت لذلك الأرض ، وضجت السماء . . ثم نظرت إليه في أسى وحزن
وهو يهاجر إلى المدينة ، حاملاً معه رسالته ، طالعاً بها في هذا الأفق الجديد من
آفاق الجزيرة العربية .

— أما محمد ، هذا الإنسان الذي عرفته الحياة ، وعرفه الناس ، فما أجد
الكلمة التي تحمل بعض مشاعري لهذا الإنسان العظيم . . الإنسان الذي شاعت
إرادة الخالق أن يكون مبعوثه إلى الناس كافة . هدى ورحمة للعالمين !

غرق أعرابي في لجج الليل المتضاربة في صدر الصحراء العريض ، وضلت
في ناظره معالم الطريق . فوقف مقيداً بالحيرة والذهول ، لا يدرى إلى أى
اتجاه يتجه . ولا إلى أى منصرف ينصرف ! وجأه طلع القمر فلا الصحراء
بوجهه المشرق الوضئ ، وليست الموجودات حلة زاهية من النور الفضى الرقيق !
وتطلع الأعرابي إلى القمر ، وقد ملأت الفرحة كيانه ، واستبده العجب به . .
وجمدت الكلمات على لسانه فما يدرى ماذا يقول . . ؟

إنه يود لو أن القمر منه دان قريب . . إذن أضمه إلى صدره ، واحتواه
بين ذراعيه وغمره ثمًا وحنًا !

أما والقمر أبعد من أن ينال ؛ فإنه لابد من أن ينفس الأعرابي عن تلك
المشاعر بما يقدر عليه من صور الكلام !

فعاد يتطلع إلى القمر من جديد ، ويملا عينيه من نوره المتدفق ، وجعلت

شفتاه تحتاجان ببعض كلمات هامة حاملة .. هي خفقات قلبه ، وذوب مشاعره
لأنها كلمات أشبه بتغريدة طائر ، أو قمييدة شاعر !

ماذا أقول فيك !

أأقول زادك الله جمالا ؟ فأى جمال بعد هذا الجمال ؟

أأقول زادك الله علوا ؟ وأين ؟ وهل وراء السماء سماء ؟

ثم سكن الأعرابي في صمت بليغ !

وما موقف هذا الأعرابي من القمر في حاله تلك يكون شيئا إلى حال من يقف
من رسول الله موقف المطالع لسيرته ، الدارس لرسائله ، المتأمل في دعوته ،
المتابع لهذه الدعوة ، والمتابع لآثارها في الحياة ، وفي أجيال الناس ؛ عصر أثر
عصر إلى يوم الناس هذا ، وإلى ما بعد هذا اليوم !

إن الذى يقف من سيرة هذا الرسول الكريم موقف التأمل المنصف ليجده
أنه أمام ظاهرة رائعة من ظاهرات الوجود ، لم تشهد الحياة من قبل شيئا لها ،
ولم تقع العين على مثلهما ، فيما يطلع في الوجود من ظواهر وعجائب !

إنسان من الناس .. ولد لأبوين كما يولد سائر الناس ، ثم لم يتلق من الحياة
إرثا من المالك أو الفنى كما يتلقى بعض المولودين ، وإنما كان الذى تلقاه هو اليتيم
والفقر ، منذ استقبل الحياة ، بل من قبل أن يستقبل الحياة !

هذا الوليد .. اليتيم .. الفقير .. ماذا تظن به ؟ وماذا تقدر له مع الأيام ؟
لو جرت الحياة به على طبيعتها لكان مصيره إلى الضياع في دنيا الضائعين من
اليتامى والفقراء ، في عالم البادية ، وفي كثف الصحراء !

ولو أحسنا الظن بالحياة في شأن هذا الوليد اليتيم الفقير لما بلغ بنا الظن فيه
إلى أكثر من أن يكون فتى من فتيان قريش .. يقطع أيامه ولياليه في معاقرة
الغمر ، ولعب الميسر ، وفي مغازلة النساء ، ومخاللة الثيان .. ثم ينتهى به الأمر
في شيخوخته إلى أن يكون شيخا من شيوخ قريش ، يأخذ مكانه بين رواد
الندوة ، يستمع إلى ما يدور من أحاديث الجد والهزل فيها ، ثم تطويه الأيام
فيما طوت من سادات قريش وصعاليكها !

ولكن الذى جاء من هذا اليتيم الفقير كان على غير هذا كله .. كان شيئاً لم يقع فى حسابان أحد ، ولم يدر فى خلد إنسان ! وأحسبك تنتظر أحداثاً مفاجئة .. وعجائب مذهلة ! كلا !

لم تتغير طبيعة الحياة من أجل هذا اليتيم الفقير .. كل شيء يجرى فى مجراه المقدور له .. فلم تهبط عليه ثروة مفاجئة تقبّل بها حاله .. ولم يتحول فى قرىش شيء عما عهد فيها من خير وشر ، ومن جد ولهو ، ومن رشاد وغى ، ولم يتغير وجه الصحراء وما يعلوه من جدد وجفاف ، وما يتعاور عليه من زمهرير الشتاء ، وسموم الصيف !

لقد ظل كل شيء كما عهدته الناس .. اليتيم على يتمه وفقره .. وقرىش على عهدا فى صحوها ، ونومها ، والحياة على سيرها ، فى نهارها وليليها ! تجرى الحياة ، ويجرى الناس معها ، وكأن لم يكن شيء قد دخل عليها وعليهم ، يوشك أن يبدل سير الحياة ، وأن يعدل موقف الناس فيها . ويغير أوضاعهم منها !

على حين أن هذا اليتيم الفقير كان يمنع حياته فى رفق ، وعلى مهل ! فهو يصدق القول حيث يكذب الناس .. وهو يؤدى الأمانة حيث يخون الناس ! وهو يدف عن الخمر حيث يتهاقت عليها النيب والنبان ، ويمزف عن اللهو حيث يتهالك الرجال والغلمان .. وهو يحقر الأوثان ويزوى وجهه عنها حيث يتخاشع لها قومه ، ويسعون إليها مصبحين ومسيين !

كل ذلك وما إليه من الشئائل الخلوة ، والصفات المكرّمة كان يجرى فى وداعة ورفق ، دون أن يثير فى الناس ضجة ويحدث فى الحياة هزة .. لأن ذلك كله كان يجرى عن طبيعة لا تكلف فيها ، ويصدر عن فطرة سليمة لا صنعة معها !

ومن هنا كان إحساس الناس بتلك الصفات فى محمد إحساساً قوياً راسخاً ، واقعاً منهم موقع اليقين ، لأنه دخل عليهم فى هوادة ورفق ، وتأذى إليهم يوماً بعد يوم ، وحالا بعد حال ، حتى فضج واستوى ، كما ينضج ويستوى النظم الخلو فى الثمر الطيب ، والعنبر الذكي فى يافع الزهر !

(محمد) ... الصادق الأمين

(محمد) ... العفّ الزّيه

(محمد) ... العاقل الرشيد

(محمد) ... البرّ الرحيم

(محمد) ... الزاهد العابد

هذا بعض (محمد) فيما عرف الناس منه ، وهو بعد في فِياضة الصبا . وفي
مِيعَة الشباب ؛ قبل أن يبلغ عمر الرجال ، وقبل أن يتلقى دعوة السماء ، ويؤذن
بها في الناس : أنى لكم رسول أمين .

ولقد تسأل ويسأل الناس :

من أين لهذا اليتيم الفقير بهذا الأدب العالى الرفيع ؟

ومن أين له بهذه الأخلاق المجتمعة على الفضل والنبل ؟

إنه قد يتهيأ لإنسان أن يستقيم على خلق فاضل حيناً من الدهر . . . ولكن
هيات أن يستقيم عليه العمر كله على درجة واحدة من سمو ، دون أن يميل
أو ينحدر !

وهيات أن يجمع بين اثنين أو ثلاثة من الصفات الفاضلة على هذا المستوى
العالى ، وأن يمسك بها جميعها فى قوة وفى استقامة دون أن تهتز ، ويتصرم
عقدها !

فأنى لهذا اليتيم الفقير أن يربى نفسه هذه التربية ! وأن ينشأ هذه النشأة
التي لم تقم لأحد فى قومه ؟ وكيف لهذا الفقير اليتيم أن يحوى الفضائل
الإنسانية كلها ، ويمسك بها جميعها ، فى قوة وفى استقامة ، على جميع الظروف
وفى كل الأحوال ؟

أسئلة ظل الناس سنوات غير قليلة ينتظرون جوابها ، كلما رأوا ، محمد ،
أو جلسوا إليه ، واستمعوا منه !

سعى إذا جاءت أنباء السماء تحدث عن أن « محمدًا » هو النبي المرسل إلى الناس بالهدى ، والمبعوث فيهم بالرحمة . تنبهوا إلى أن لهذه العلاقة بين « محمد » وبين السماء صلة بتلك الصفات التي اشتمل عليها ، وهذه الأخلاق العالية التي تفرد بها ، وبدأ الناس يعيدون النظر في « محمد » على ضوء هذا الإحساس الجديد الذي دخل عليهم من دعوته : أنه رسول رب العالمين !

والناس — بين مصدق ومكذب بنبوة محمد — . . وقد تغيرت نظرهم إليه منذ ذلك اليوم الذي لبس فيه ثوب النبوة ، وطلع على الناس به .

فالذين آمنوا به وصدقوه ازدادت هذه الصفات في أعينهم سموا وقداسة ، وبدأ لهم « محمد » من خلالها إنساناً يحيا في الناس بحسده ، ويحيا في الملأ الأعلى روحه . . إنساناً هو وحده بين الناس جميعاً الذي يملأ الفراغ . . بين الأرض والسماء . . بين الناس والملائكة !

وأما الذين أخذتهم العزة بالإثم ، وأعمى الحقد أبصارهم ، وطمس الحسد على قلوبهم فإنهم استكثروا أن يكون ذلك الشأن العظيم لمحمد وحده من بين سادة قريش وعظمائها ! فجعلوا يرمونهم بالسحر والكهانة ، وينسبون هذه القوة الروحية التي اشتمل عليها ، وملأ بها قلوب الناس هيبة — ينسبون هذه القوة إلى قوى السحر والكهانة ، لا إلى أمجاد السماء ورحمة الرحمن ! . . لمنهم لم يستطيعوا أن ينكروا هذا الواقع الذي تشهد به الحياة كلها ، وهو أن « محمدًا » ليس على شاكتهم ، وإنما هو إنسان نسيج وحده بين الناس . . ولمكنهم مع هذا أبوا أن يضيفوا هذا الذي بان به « محمد » عليهم ، وتفرد به بينهم — إلى الله وأن يقرروا لمحمد بما فضل الله به عليه ، إذ جعله مبعوثه إلى الناس بالهدى ودين الحق !

• • •

لأنه تدبير السماء بلا شك !

ولكن ماذا يدري الناس من أمر السماء وتدبيرها في شريعة محمد ، وفي تشيئته تلك الذئبة الربانية ؟

لأن ذلك لم يكن عن معالنة ومجاهرة ، حتى أن « محمدًا » نفسه لم يكن يعلم من أمر ذلك شيئاً إلى أن آذنه الله بما اختاره له ، حين نزل عليه جبريل في غار حراء ، بأول نبأ من أنباء السماء ! وقد بلغ الأربعين من السنين . . . عندئذ عرف « محمد » أن بينه وبين السماء شيئاً ، وأن هذا الشيء صائر به إلى خير . . . وخير كثير !

أما قبل ذلك اليوم الذي اتصل فيه محمد بالسماء فإفقه : لم يكن يدرى من أمر نفسه أكثر من أنه واحد من آحاد قومه ، قد ارتبط مصيره بمصيرهم في زمانهم ومكانهم . . . لا يستطيع أن يغير من واقع القوم شيئاً ، وإن يكن قد بدا له من حياتهم ما يكره ، وإن يكن قد حجز نفسه عن أن يدخل عليها ما كره من حياتهم وما أنكر من أمرهم !

• • •

بهذه الأخلاق الكريمة الرضية ، وبذلك السيرة الطيبة القويمة عاش « محمد » في قومه وبين أهله !

ومن أجل هذه الأخلاق الكريمة الرضية ، ومن أجل تلك السيرة الطيبة القويمة أحب الناس « محمدًا » وأحلوه من قلوبهم مكان الإعزاز والإكرام . . . فحيث كان « محمد » ارتفعت إليه العيون تملأه ، حيث تجددت الراحة والرضا في هذا الإنسان الذي يعيدش في الناس أشبه بالنسمة العطرة في الهواجر اللالحة !

قطع « محمد » من عمره أربعين عاماً قبل البعثة لم تجرب عليه كذبة ، ولم تعلق به شائبة ، ولم يتحرك لسان بكلمة سوء .

كذلك أمضى « محمد » حياته كلها قبل البعثة بين قومه . لم يقع بينه وبين أحد منهم شر ، ولا قامت بينه وبين إنسان عداوة ، على كثرة ما كان يقع بين الناس والناس من شرور ، وما كان يقوم من مشاحنات ، في تلك الحياة التي كل ما فيها أو أكثره قائم على العداوة والشحناء !

يا سبحان الله !

كيف يسلم إنسان يعيدش في تلك المواطن التي يترامى فيها أهلها بالشر الذي

(م - ٢ - النبي محمد)

يؤكد في النفوس ليران العداوة . ويؤجج سمير الشر ، فيلتهم ما بين الناس من
أواصر القرى ، وأسباب الحب والمودة ؟

فاللون الغالب في هذه الحياة التي كان يحياها العرب قبل الإسلام هو لون
الدم الذي يسيل ظلمات السيوف وعوالي الرماح . فما يستطيع لإنسان في هذه
البادية أن يتوقى الشر ، أو يأمن مبادرة الأحداث ، في أية ساعة من ليل
أو نهار !

إن القوم هناك قد فرغوا لأنفسهم ، وشدوا عزائمهم كلها إلى الحرب
والطمان . . وآمنوا جميعاً بسلطان القوة ، وأسلبوا وجودهم ووجوههم لهذا
السلطان . . فمن لم يكن ذنباً أكلته الذئاب !

هكذا كان الشر بادياً صارخاً مطلقاً على الناس من كل أفق ، طالماً عليهم
من كل وجه . .

وشهادة القرآن الكريم عن هذه الحال أصدق شهادة . . حيث يقول جل
شأنه — منبهاً العرب إلى النعمة التي جاءهم الإسلام بها ، فنزع عنهم لباس الخوف
وخلع عليهم خلع السلام والأمن — « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً
فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار ،
فأنقذكم منها » (١) !

نعم ، كيف يستطيع لإنسان أن يدفع عن نفسه هذا الشر المحيط به من كل
جهة . وأن يسلم من هذا الأذى المتدفق إلى الناس من كل صوب ؟ ؟ لأنه لا يكفي
في مثل هذه المواطن النارقة في الشر والعدوان أن يكف المرء بده عن الناس ،
ويحبس لسانه عنهم ، ليسلم منهم . وينجو من أذاهم . فما أكثرهم ما يكون هذا
الموقف العف التظيف داعية إلى الهزم والسخرية من لاخلق لهم ، أولئك الذين
لا يقيمون وزناً لخلق كريم ، ولا يحفلون بأصحاب الخلق الكريم . وما أكثر
ما يفرى الحلم والاحسان وكثيراً من السفهاء ، بالتطاول والسفاهة ، إذ يحسبون
هذا الموقف تعظماً وتعالياً أو جبهةً وعجراً . . وعلى كلا الحالين ، فإن هذا الموقف

يُتيح للسفهاء والضلال فرصاً للتعرّش بأصحاب الاستقامة والجد ، ويفتح لهم طرقاً إلى النيل من المستقيمين الجادين ، لينخوضوا معهم في الإثم والضلال كما خاضوا ، حتى لا يكون في المجتمع من يشهد سفههم وضلالهم ، وهو عن السفه والضلال بمنزل ١

والعجب في أمر « محمد » مع قومه هؤلاء الذين عاش معهم في عزلة روحية ، وفي هجرة نفسية — أنه مع هذا لم يحدث بينه وبينهم ما يشير شرّاً ، أو يبعث عداوة ، أو يدعو إلى قطيعة . .

فلقد كان « محمد » مع هذا الاحساس الذي يعيش به في قومه آثراً لإنسان في قريش عند قريش . . . أحبه العقلاء لعقله وكماله ، وهابه السفهاء لجلال حلمه ، وكمال عقله ، وعظمت نفسه ، فلم يكيدوا إله بكيد ، ولم يتفخوا له في طريق ١ .

على أن هذا العجب من تلك الحال يرتفع ، ويصبح أمراً مألوفاً ، واقعاً مع منطق الحياة ، ومجريات الأمور فيها ، إذا عرفنا أن الأخلاق الكريمة والسجايا النبيلة التي لبسها « محمد » منذ نشأته الأولى لم تكن ثياباً مستعارة أو حلياً زائفاً ، وإنما هي بعض نفسه ، وطبيعة من طبيعته . . فهي — والحال كذلك — سمة من السمات الذاتية في « محمد » ، أشبه بملامح وجهه ولون جسده ، ثم هي مع هذا الارتباط الوثيق بينها وبين صاحبها — تبدو للتوسم فيها شيئاً فريداً في الكمال والتمام ، لا يرى في غير « محمد » ، ولا يقدر على الوفاء له ، والحفاظ عليه ، بلا وهن ولا انعكاس غير « محمد » ، ومن أجل هذا كان الذي يرى محمداً في صفاته العالمية تلك لا يرى شيئاً غريباً ، وإنما يرى إنساناً سورياً ، زانه الخلق الكريم ، كما يزين الوجه المصبوح صاحبه ١

ويحدث الذين أسعدهم الزمان بمباهدة الرسول أنه ، كان على الله عليه لو سلم إذا التفت التفت معاً ، وإذا مشى مشى مثبى ثقلماً (١) . .

إنه كيان واحد . وليس أوصالاً ممزقة يحويها جسد ، ويشتمل عليها إهاب ١ كما يرى ذلك في أكثر الناس ١

، إذا التفت التفت معاً ،

طبيعة متجانسة . تؤلف بين أعضاء الجسد ، وكما يؤلف النغم الموسيقى بين
عديد الألوان من الألحان !

كذلك شأنه صلى الله عليه وسلم فى صفات الكمال التى اشتمل عليها . .
لأنها أشبه بالصفة الواحدة ، تعمل جميعها متساندة ، متفاهمة . . للحق ،
والعدل والاحسان .

وهكذا الشأن فيما بين ذاته وصفاته . . فليست صفاته شيئاً دخيلاً عليه .
لأنها بعض ذاته ، ولأنها لى المستوى الذى تنقطع دونه الأمانى والاطماع عن تطعمهم
همهم فى مساماته ، أو تنزع بهم أمانيتهم إلى التشبه به .

ومن هنا سكنت فيمن عاصروا ، محمداً ، - قبل البعثة - دواعى
الحسد ، وانقطعت أسباب العداوة والبغضاء ! إذ لا يتحاسد الناس فى الميئوس
منه . ولا يتباغضون ! !

ويتلقى محمد ، دعوة السماء أنه رسول الله إلى الناس ، وحامل كلماته لإيهم
بشيراً ونذيراً لقوم يؤمنون . .

وما أن يصدع محمد ، بأمر زبه ، ويؤذن فى قومه : أنى رسول الله إليكم -
حقى تغلى مراحل الحق والحسد ، وحقى تقصدع صدور كثيرة ، فتلقى إلى محمد ،
بكل ما فيها من حنى ، وبغضة ، وشر ! !

فماذا جد فى الأمر ؟ وماذا فى محمد ، مما لم يعهد القوم فيه من قبل ؟ !
إنه الصادق غير المكذب ، .

ولأنه الأمين غير المتهم . .

ولأنه الطيب الذى لا يخبث أبداً . .

ولأنه الرشيد الذى لا يهتر أبداً . .

ولأنه الجاد الذى لا يهزو . والمستقيم الذى لا ينحرف !

فماذا عداها بدا ؟

أن جاءهم رجل منهم على فترة من الرسل يدعوهم إلى الهدى ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور — أنكروا ماضيه فيهم ، وتنكروا لحاضره معهم ! أن كان الرسول إنسانا بشراً يقوم بالسفارة بين الله والناس ، تمتلئ القلوب ضغناً ، وتفيض النفوس حسداً .

إن القوم قد استكثروا على « محمد » اليتيم الفقير أن يكون مثل السماء على الأرض ، وسفير الله إلى الناس .

أفرغت الدنيا من أصحاب الجاه ، والرياسة حتى لا تجد السماء غير هذا اليتيم الفقير ، تجعله سفيرها إلى الناس ، وحامل كتابها إلى العالمين .

إن كل ماعرفوا من صفات النجاة في « محمد » لن يرشحه لهذا المنصب الخطير ، ولا يقيمه على رأس هذه الجماعة التي لاتأخذ الحياة إلا من جانبها المادى ، ولا تحسب حساب الناس إلا به . .

« وقالوا : لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقُرَيْبِينَ عَظِيمٍ (١) أَمْ هُمْ يَسْتَمُونُ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ نَحْنُ قَدْ مَنَّا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْخِيًّا ، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْمَعُونَ (٢) » .

وهب « محمدآ » الرجل الأول في قريش ، فإن ذلك لا يخرج به عن أن يكون بشراً .

وأنى لبشر أن يطول السماء ، وأن يعرف الطريق إليها ، وأن يأخذ ويمطى معها . ذلك إن يكن فلتقع الواقعة ، وليكن بطن الأرض خير من ظهرها ! وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً

(١) القرينان : مكة والطائف ، والرجل العظيم الذى يزعمونه في مكة هو الوليد بن المغيرة ، وفي الطائف عروة بن مسعود .

(٢) سورة الزخرف آية ٣٢ .

رسولا ، (١) . . . وقالوا : لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، (٢) .

* * *

« أَلَمْ يَقْسِمُوا رَحْمَةً رَبِّكَ ؟ » .

هيهات . . . هيهات !

« إنك لرسول الله . والله يعلم إنك لرسوله . . . » (٣) .

« فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » .

« يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبِّكَ فَكْبُرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » .

وهنا يجمع « محمد » من كيانه رصيد أربعين عاما من الشجائل الطيبة التي احتواها ، ومن الأخلاق الكريمة التي اشتمل عليها . . من الصدق ، والأمانة ، والعفة ، والاستقامة ، والصبر ، والرضا ، والقناعة ، والرحمة ، والحنان ، والحب ، فيضمها جميعاً إليه ، لتكون له رداءً وسنداً ، مع ما تمده به الشهادة من قوى وأمداد . . فإنه في وجهه عداوة صارخة ، وفي مواجهة عدو مغيب محقق ، وفي قوم قد جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا ، واستكبروا استكباراً . . وهو مطالب أن يسمعهم كلمة الله ، وأن يقيم الحاجة عليهم . ثم هو حريص أشد الحرص على أن يستنقذهم من العمى . وأن يخرجهم من الظلمات إلى النور ، بما يحمل في قلبه الطيب الرضى من خير وعطف ومودة :

« نَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » . . « إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَايِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هَدَى » .

(١) سورة الإسراء آية ٩٤ .

(٢) سورة الفرقان آية ٧ .

(٣) سورة المنافقون آية ١ .

يُضِلُّ وما لهم من ناصرين . . . إنك لا تهدي من أحببت . ولكن الله يهدي من يشاء ،

« وما أرسلناك عليهم حفيظاً . . إن عليك إلا البلاغ » .

« اللهم اهد قومي . . فإنهم لا يعلمون »

ومن قلب مغمم بالحسرة^١، غنوق بالآسى . لهذا اللجاج في العناد ، ولهذا الإصرار على الضلال الذي تقيم^٢ عليه قريش ، وتؤذى فيها من أجله ، حتى لتنوشه رماحها ، وتتعاوره سهامها^٣ يوم أحد فتدعى جهنم ، وتكسر رباعيته - من هذا القباب الرحيم الكبير تفيض معاني الآسى والحسرة ممزوجة بالإشفاق والرحمة ، مصورة في تلك الكلمات الرقيقة : « اللهم اهد قومي . . فإنهم لا يعلمون » .

يا رسول الله !

يا نبي الرحمة . . !

ماذا يقال فيك في مقام المدح والثناء — وكل مقاماتك مدح وثناء — بعد أن زكك السماء ، وقال فيك رب العالمين : « وإنك لعلی خلق عظيم » .

وأى كلام يبلغ صفتك ، ويحلى حقيقتك . وقد منحك الرحمن صفتين من صفاته : الرأفة والرحمة ، فقال فيك جل شأنه : « بالؤمنين رءوف رحيم » ، !

فلا مدح ولا ثناء بعد أن خلع عليك ربك حلال المدح والثناء !

إن كل قول يقوله المادحون بعد^٤ هذا ليس وصفاً لذاتك ، ولا تشخيصاً لصفاتك ، وإنما هو تسليح وتمجيد ، وصلاة ودعاء ! يجد فيه القائلون سعادة ورضى ، ويقبسون منه نوراً وهدى ، ويستمدون منه مضاءً وعزماً !

فإذا وقفت ببابك أقبس من أضواء سيرتك ، وأنشق من عبير هديك ، وأنهل من موارد فيضك وفضلك ، فانما هي وقفة صلوات وتسليمات عليك ،

استجابة لما أمر الله به المؤمنين في قوله تعالى : « إن الله وملائكته يصلون على
النبي . يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه ، وسلموا تسليما » .

فلا مدح ولا ثناء ! فانك فوق المدح ، وفوق الثناء ! .

ولكن . .

صلوات ، وتسليمات . .

ورحمات ، وبركات . .

الباب الأول الاسم والمسمى

«وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ»
«قرآن كريم»

هل هناك علاقة بين الاسم وصاحبه ! بمعنى أن دلالة الاسم تتحقق في المسمى ، وتفسر في صفاته ، وفي سلوكه في الحياة !

والذى يطلب الجواب على هذا السؤال لا يمكن أن يقع عليه في مقررات علمية ثابتة ، إذ لم تخضع هذه الظاهرة لدراسة علمية منظمة بعد ، وغاية ما عرف الناس من وشائج القربى بين الاسم والمسمى إنما كان عن ملاحظات شخصية لأحوال فردية ، تصدق أحيانا ، ولا تصدق في كل حين !

على أن الذى يعنى بالتمعق في دراسة هذه الظاهرة ، ورصد النتائج التى تلوح من خلال هذه الدراسة — يقع على كثير من عجائب الاتفاق بين المسميات والأسماء ، وقل ألا ينكشف للتأمل فى اسم ومسماه شىء من التطابق والتوافق بينهما ، حتى ليكاد يعد ذلك من قبيل الخطأ فى التأويل للحالات التى لا تتضح فيها علاقة بين الاسم وصاحبه ، استناداً إلى الحالات الكثيرة التى تبدو فيها تلك العلاقة واضحة أشد الوضوح ، لا تحتاج إلى كثير من النظر والتأمل !

وعلى أى ، فإنا — كما قلنا — لا ندخل هذه الظاهرة مدخل الحقائق المقررة ، أو النظريات المحققة ، وإنما نعدها من الأمور التى تنطوى على حقائق جديدة بالبحث عنها ، والوقوف على أسرارها .

وقد يبدو لسائل أن يسأل : إذا كان هناك علاقة أو شبه علاقة بين الأسماء ومسمياتها فكيف لا يتجه الناس جميعاً إلى أن يسموا ، أو يتسموا بالأسماء ذات الدلالات الجميلة الطيبة ، لتتضح على ذواتهم بعض ما فيها من طيب وجميل ؟

والأسماء مريحة للناس جميعاً ، ميسرة لهم أعظم اليسر ، لا يتكلفون لها ثمناً ، ولا يبذلون من أجلها جحماً — . . . فليكل لإنسان أن يتخير لنفسه أو لولده ما شاء من الأسماء ، غير مضيق عليه ، ولا مطالب بحساب ، لما يختار ويؤثر من أسماء . . . فلم يعدل كثير من الناس عن الأسماء الكريمة الطيبة إلى أسماء كريمة مشوهة ؟ ولم تشيع فيهم هذه الأسماء الكزة الثقيلة لفظاً ومعنى ؟ ؟

وندع الجواب على هذا السؤال الآن إلى أن ننتهي من حديثنا عن العلاقة التي قلنا إنها قائمة بين الاسم والمسمى ، وأن نعرض لذلك بعض الشواهد المعتمدة على الملاحظة والتجربة !

يقول ابن قيم الجوزية : « لما كانت الأسماء قوالب للمعاني ، ودالة عليها اقتضت الحكمة أن يكون بينهما ارتباط وتناسب ، وألا يكون المعنى معها بمنزلة الأجنبي المحض ، الذي لا تعلق له بها . فإن حكمة الحكيم تأتي ذلك ، والواقع يشهد بخلافه . . بل للأسماء تأثير في المسميات . وللمسميات تأثير بأسمائها في الحسن والقبح ، والخفة والثقل ، والطاقة والسكافة . . كما قيل .

وقل أن أبصرت عينك ذا لقب

إلا ومعناه — إن فكرت — في لقبه

« وكان صلى الله عليه وسلم يستحب الاسم الحسن ، وأمر إذا أبردوا إليه يريد أن يكون حسن الاسم ، حسن الوجه . . . !

« وكان صلى الله عليه وسلم يأخذ المعاني من أسمائها في المنام واليقظة . .

« فقد رأى — في منامه — أنه وأصحابه في دار عقبة بن رافع ، فأتوا برطب من رطب طاب . . فأوله — صلى الله عليه وسلم — بأن لهم العاقبة في الدنيا ، والرفعة في الآخرة : وأن الدين الذي اختاره الله لهم قد أرطب وطاب (١) . .

(١) تأول الرسول الكريم : عقبة بالعاقبة ، ورافع بالرفعة . . وجعل العاقبة في الدنيا ، والرفعة في الآخرة لأن عقبة جاء في النطق قبل « رافع » وكذلك الدنيا تليها قبل الآخرة .

« وتأول - صلى الله عليه وسلم - سهولة أمرهم يوم « الحديبية » من مجيء سهيل بن عمرو إليه (١) . فقال : « سهل الله أمركم . »

« وكان - صلى الله عليه وسلم - يكره الامكنة المنسكرة الاسماء ، ويكره العبور فيها . كما مر في بعض غزواته بين جبيلين ، فسأل عن اسميهما ، فقالوا : فاضح ، ومخز ، فعذر عنهما ، ولم يجوز بينهما (٢) .

« وقد ثبت عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه غير اسم « عاصية » وقال : أنت جميلة (٣) .

« وغير - صلى الله عليه وسلم - « حزن » - جد سعيد بن المسيب - وجعله « سهلاً » فأبى صاحب الإسم وقال : « السهل يوطأ ويمتنع » (٤) .

وسمى - صلى الله عليه وسلم - « حرباً » سهلاً ، وسمى « المضطجع » المنبعث ، وأرضاً عفرة سماها خضرة ، وشعب الضلالة سماه شعب الهدى ، وبنو الزنية سماهم بنو الرشدة (٥) .

ويقول ابن قيم الجوزية أيضاً : « ولما كان بين الاسماء والمسميات من الارتباط والتناسب والقراءة ما بين قوالب الأشياء وحقائقها ، وبين الأرواح والأجسام - عبر العقل من كل منهما إلى الآخر كما كان إياس بن معاوية (٦) ، وغيره ، يرى الشخص فيقول : ينبغي أن يكون اسمه كيت كيت ، فلا يكاد يخطئ . »

و ضد هذا ، العبور من الاسم إلى معناه ، كما سأل عمر بن الخطاب رجلاً عن اسمه ، فقال : جمره ، فقال : واسم أبيك ؟ قال : شهاب ! قال : من ؟ قال : من الحرقه ! قال : هنالك ؟ قال : بحرة النار ؟ قال : فأين مسكنك ؟ قال : بذات

(١) سهيل بن عمرو هو الذي نذبه قريش لابقى النبي وهو على جيش المسلمين في الحديبية قرب مكة ، فعقد معه صلحاً .

(٢) صحيح مسلم .

(٣) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٧ .

(٤) ابن أبي داود .

(٥) صحيح البخاري - وسنن أبي داود .

(٦) يضرب به المثل في الذكاء ، ونفاذ البصيرة .

لظن . . قال : اذهب ، فقد احترق مسكنك ، فذهب فوجد الأمر كذلك (١) ،
فعبّر عمر من الألفاظ إلى أرواحها ومعانيها . .

ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة واسمها « يثرب » ، لا تعرف
بغير غدا الاسم ، غيره « بطيبة » لما زال عنها ما في لفظ يثرب من العثرب ،
بما في معنى طيبة من الطيب استحققت هذا الاسم ، وازدادت به طيباً آخر ،
فأثر طيبها في استحقاق الاسم ، وزادها طيباً إلى طيبها . .
ويقول ابن القيم أيضاً :

« ولما كان الاسم الحسن يقتضى مسماه ويستدعيه من قرب ، قال النبي صلى
الله عليه وسلم لبعض قبائل العرب ، وهو يدعوهم إلى الله وتوحيده : « يا بني
عبد الله . . إن الله قد حسن اسمكم ، واسم أبيكم » .

« فانظر كيف دعاهم إلى عبودية الله بحسن اسم أبيهم ، وما فيه من المعنى
المقتضى للدعوة ؟

ويأخذ ابن القيم من الواقع العملي للحياة شاهداً حياً على ما بين الأسماء
والمسميات من علاقة التجانس والتطابق . فيعرض مشهداً من مشاهد القتال
بين طائفتين من الناس . . الأولى مؤمنة ، والأخرى كافرة . . تدور بينهما
الحرب فتنتصر الأولى وتنهزم الثانية .

والذى يقع في نفس المشاهد للمعركة ، أو المستمع لانتصارها أن المعركة كانت
بين الإيمان والكفر ، بين المؤمنين والكافرين . . وأن النصر الذى أحرزه
المؤمنون إنما كان بما فى قلوبهم من قوة الإيمان الذى ثبت أقدامهم ، وملا
قلوبهم حية وقوة !

ولكن ابن القيم ينظر فى ظلال هذه الواقعة فىرى فيها إلى جانب الإيمان
الذى كسب به المؤمنون المعركة دلالة أخرى من شأنها أن تكتب لأصحابها
النصر والغلب . . تلك هى دلالة الأسماء . . التى أدلت بنصيبها هذه المعركة ،
فكان النصر فى جانب الأسماء ذات الدلالات الموحية بالقوة والعزم ، وكان
الاندحار للأسماء ذات الدلالة الدالة على الضعف والخور !

(١) موطأ مالك .

يشول ابن القيم : وتأمل أسماء الستة المتبارزين يوم بدر (١) . . كيف اقتضى
القدر مطابقة أسمائهم لأحوالهم يومئذ . .

« فكان الكفار . شيبه ، وعتبة ، والوليد . . ثلاثة أساء من الضعف ،
فالوليد له بداية الضعف ، وشيبه له نهاية الضعف ، كما قال تعالى : « الله الذي
خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفاً
وشيبه » ، وعتبة من العتب — أى اللوم — فذلك أسمائهم على عتب يحل بهم ،
وضعف يناهم .

وكان أقرانهم : « عليا » و « عبيدة » و « الحارث » (٢) رضى الله عنهم . .
ثلاثة أسماء تناسب أوصافهم ، وهى العلو ، والعبودية ، والسعى الذى هو الحارث
فعلوا عليهم بعبوديتهم وسعيهم فى حرث الآخرة (٣) .

وسواء أكل هناك تلازم خفى بين الاسم ومسماه بحيث يمثلان معاً حقيقة واحدة
أم لم يكن . . فإن الذى لاشك فيه أن للاسم موحيات تقع فى النفس عند
ذكرها لاسم من الأسماء أو كلمة من الكلمات . . فكلمات النجاح والنصر ،
والغنى والسعادة ، والشباب ، تبعث فى النفس رضى ، وتشجيع فى القلب غبطة
وروحاً ، على خلاف أضدادها من كلمات : الإخفاق ، والهزيمة ، والفقر ،
والشقاء ، والحرم ، فإنها تشيع فى النفس اقتباساً ، وتبعث فى الصدر وحشة
وكآبة !

(١) يشير ابن القيم إلى المبارزة التى وقعت أول معركة بدر ، فقد نذبت قريش لمبارزة
ثلاثة نفر ، هم : شيبه ، وعتبة ، والوليد ، فتصدى لهم ثلاثة من الأنصار ، فأبت قريش
منازلتهم ، وقالوا نريد من ينازلنا من قومنا ، فندب النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة : على ،
وحزمه ، وعبيدة بن الحارث .

(٢) المشهور فى كتب السيرة أن الثالث هو حمزة رضى الله عنه وقد جعل ابن القيم
هبيده بن الحارث اسمين ، هما : عبيدة ، والحارث . . ولهذا أغفل ذكر حمزة .

(٣) زاد المعاد جزء ٣ ص ١٩ ،

ولذلك حين تسمع اسم سعيد ، ومحمود ، ومحمد ، وحسن ، وغيرك حين يصطك سمك بأسماء .. حرب ، وغضبان ، وأعرج ، ومجنوب ونحوها .. فإنه يلتصق من الأولى روح من ريحها الطيب ، على حين يهب عليك من الثانية ريح بارد ثقيل ، قد يثير قشعريرة تسرى في كيانك كله ، وتملأ نفسك هما وكدرا . وليس هذا شأن الأسماء ، والكلمات وحدها بل هو الشأن كذلك في المسموعات جميعها من أصوات وألحان .. فهديل الحمام ، وزقزقة العصافير غير نقيق الغربان والبوم والفرق بينهما كالفرق بين موسيقى الأفراح والموسيقى التي تصحب الجنائز ، وتمشي في مركب الموت .

وليس هذا أيضاً شأن المسموع من الأصوات والألحان وحده ، بل هو شأن المنظور من كل شيء .. فالمنظر الحسن الجميل يبعث في النفس ألواناً من مشاعر الحسن والجمال ، على خلاف المنظر الشائن القبيح ، فإنه يلقى إلى الناس صوراً مفزعة مزعجة ..

وقد جاء توجيه النبي الكريم : « إذا أبردوا إليه يريد أن يكون حسن الاسم حسن الوجه » .. جاء هذا التوجيه جامعاً لاختيار ما يحسن في السمع والنظر .

وننظر بعد هذا فيما كان لنبي الإسلام من حظ إلى سلام هو فور في اختيار الاسم اللائق به ، وبالرسالة التي فدته السماء لها .

فقد بشر به عيسى عليه السلام باسم أحمد ، كما يقص القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » . وإذا كانت نسخ الانجيل الأربعة التي في أيدي الناس اليوم قد خلت من هذه البشرية على هذا الوجه الصريح ، فإن ذلك لا ينقض ما جاء به القرآن الكريم في الآية السابقة . إذ القرآن هو الحجة القائمة على مافي الكتب السماوية ، لأنه آخرها ، وضابط محكمها والمهيمن عليها ، وفي هذا يقول الله تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب بالحق ، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيماً عليه » . . وهيمنة القرآن على الكتب السماوية السابقة إنما تجيء من هذا الوجه الذي أشرنا إليه ، وهو أنه آخرها والضابط لها ، كما تجيء من وجه آخر ، وهو أن التوراة والإنجيل قد دخل عليهما من التعريف ، والتبديل ،

مالاً يحمل الأطمئنان إليهما أمراً مسلماً به ، إذ أن الأناجيل ذاتها قد تعددت ، واختلفت فيما بينها ، وهى على رغم تعددها - اختلافها لا تعتمد على أصل واحد ، ولا ترجع إلى الإنجيل الذى أنزل على عيسى عليه السلام .. وإنما هى روايات تتحدث عن سيرة المسيح ، رواها عنه بعض حواريه ، أو من اتصل بحواريه أو سمع منهم ، وفى هذه السيرة عبارات من عظات السيد المسيح ووصاياه ، وقد يكون فيها بعض آيات من الإنجيل السماوى ، كان السيد المسيح يضمها عظاته ووصاياه ، وإذن فالأناجيل التى ذكرت سيرة المسيح ، تختلف فى تشخيص شخصية المسيح ، وفى تناول مواقفه باختلاف الكتاب الذين كتبوا هذه السيرة ، ونضجوا عليها من عواطفهم ، ومن ألوان ثقافتهم ، ما جعل هذه الأناجيل تختلف ذلك الاختلاف ، كما يختلف إنسان عن إنسان فى تفكيره ، وفى تصوره للأحداث .

وقد جمع العالم المسيحى « فابرى سيوس » أكثر من خمسة وسبعين إنجيلاً ، وطبعها فى ثلاث مجلدات ، وكشف عن أوجه الخلاف بينها .

غير أن المعمول به الآن فى الديانة المسيحية أربعة أناجيل هى : « متى ، ولوقا ، ومرقس ، ويوحنا » حيث استقر العمل بها فى أول القرن الثالث .

وليس من همنا هنا دراسة تاريخية محققة للإنجيل السماوى ، أو الأناجيل التى لجأت محدثة عنه

ولما الذى نقف عنده هنا هو أن القرآن الكريم قد ذكر آية صريحة تذكر على لسان السيد المسيح تلك البشرى التى أعلنها فى بنى إسرائيل مبشراً بمولد نبي اسمه « أحمد » . . . « إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد » ثم لا نجد هذه البشرى صريحة تلك الصراحة فى الأناجيل الأربعة التى اعتمدتها المسيحية . وإنما الذى لجأت فيها إشارات يمكن أن تقول — فى شيء من التعسف والعسر — لتؤدى معنى يفهم منه ظهور نبي عربى يأتي من بعد المسيح ، موصوفاً بصفات الحمد . فشلا فى إنجيل

يوحنا . « إن كنتم تحبوني ، فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الرب ليصليكم
البارقليط آخراً ليكتب معكم إلى الأبد (١) .

وفي هذا الانجيل أيضاً : متى جاء البارقليط الذي سيرسله إليكم الرب ، هو
روح الحق الذي من عند الرب ينبثق ، فهو يشهد لي ، وتشهدون أفتن أيضاً ،
لأنني معكم من الابتداء .

وتفسير كلمة « البارقليط » في القاموس العبري ، بكلمة الحمد ، أو كثير الحمد .
ولعل أعجب ما في هذا الأمر الذي يبلغ مبلغ المعجزة أن يحى عيسى مبشراً
بني يأتي من بعده اسمه « أحمد » ، ثم يظل هذا الاسم في كتاب مكنون لا يمسسه
أحد ، حتى يحى صاحبه « محمد » صلى الله عليه وسلم ، فيلبسه ، ثوباً من أثواب
الحمد التي خلعها الله سبحانه وتعالى عليه .

يقول القاضي عياض :

« فهو — أي النبي — أحمد الحامدين ، وأحمد المحمودين ، ومعناه الحمد
يوم القيامة ، ويعتبه ربه هناك مقاماً محموداً كما وعده . . يحمده فيه الأولون
والآخرون بشفاعته لهم . وسمى أمته في كتاب أنبيائه بالحامدين (١) ، فحقيق أن
يسمى « محمداً » و « أحمد » .

« ثم في هذين الإسمين من عجائب خصائصه ، وبدائع آياته فن آخر . . هو
أن الله جل اسمه حمى أن يسمى به أحد قبل زمانه » .

أما « أحمد » الذي أتى في الكتب ، وبشرت به الدنيا فنع الله تعالى بحكمته
أن يسمى به أحد غيره . ولا يدعى به مدعو قبله ، حتى لا يدخل لبس على ضعيف
القلب أو شك . وكذلك « محمد » أيضاً ، لم يسم به أحد من العرب أو غيرهم ،
إلى أن شاع تبيل وجوده صلى الله عليه وسلم وميلاده أن نبياً سيبعث اسمه « محمد » ،
فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو ، و « الله
أعلم حيث يعمل رسالته » ثم حمى الله سبحانه كل من تسمى به أن يدعى النبوة

أو يدعيها أحده له ، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره ، حتى تحققت السمات (١) له صلى الله عليه وسلم ، ولم ينازع فيهما (٢) .

وقد أخبر القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى اختار لنبيه ، يحيى ، عليه السلام الاسم الذى سمي به ، فقال تعالى : « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سمياً » .

فقد حفظ الله سبحانه وتعالى اسم « يحيى » من أن يسمى به أحد حتى جعله سبحانه اسماً لنبيه الكريم « يحيى » عليه السلام !

كذلك سمى الله سبحانه اسم « أحمد » ، أن يسمى به أحد حتى كان النبي الكريم « محمد » هو الذى يخلع عليه هذا الاسم الكريم .

على أن هناك آية معجزة من آيات الإعجاز فيما أراد الله سبحانه لنبيه « محمد » من تكريم بهذا الاسم الكريم ، فقد أعلن اسمه على لسان عيسى عليه السلام قبل مولده بنحو ستة قرون ، ثم ظل هذا الاسم فى أفواه الخواريين ، وفى صحف الإنجيل ، دون أن يخطر ببال أحد أن يسمى به ابناً من أبنائه على عادة الناس فى تلك السنين على تسمية أولادهم بأسماء النبيين ، والتقدمين ، وأهل الفضل والخير من الناس ، عسى أن يسميوا من بركة أصحابها شيئاً ، أو أن يكون لهم من اسمهم الطيب نصيب .

و « أحمد » فى ذاته اسم جميل ، سمح ، حلوا النغم ، عذب الجرس ، يفرى بالتسمي به ، حتى عند من لا يحسن العربية ولا يعرف مدلوله الذى يدل عليه . فكيف ظل هذه القرون دون أن يتفق لإنسان أن يقع عليه أو ينتفع به ؟ إن ذلك إن دل على شيء ، فإنما يدل على أن الله قد أثر نبيه بهذا الاسم الكريم ، واختصه به ، وجعله على أفواه الناس ، لإرهاصاً بمولد النبي الذى سيحمل هذا الاسم ، وبشرى بين يدي بعثته . وفى ذلك آية للمستبصرين من أهل الكتاب الذين يعرفون صفات هذا النبي الأمي ويجدون مكنوناً عندهم

(١) السمات : هما الاسمان : أحمد ، محمد .

(٢) « الشفا » للقاضى عياض جزء ١ ص ١٩٠ .

في التوراة والإنجيل، ثم تصرفهم عنه قوة علوية، وتعتقد ألسنتهم عن أن تتعامل به، وتجعله علماً لإنسان من الناس .

و (محمد) اسم علم ، وهو منقول من صفة .. من قوهم رجل (محمد) وهو الكثير الخصال المحموده ، والمحمد في لغة العرب هو الذي يحمد حمداً بعد حمد ، مرة ، بعد مرة (١) .

قال السهيلي : لم يكن محمداً حتى كان أحمد .. حمد ربه ، فنبأه — أى جملة نبياً — وشرفه ، فلذلك تقدم اسم (أحمد) على الاسم الذي هو (محمد) ، فذكره عيسى ابن مريم باسمه (أحمد) (٢) .

وانظر بعد هذا كيف اختار الله لنبه هذا الاسم الطيب « محمد » فسماه « أحمد » ، قبل أن يولد . و « محمداً » بعد أن ولد .. فهو الحامد لربه ، المحمد من عباده .. حمد ربه على ما أفاء عليه من فضل ، وما أسبغ عليه من نعم ، وحمده الناس بما جاءهم به من الحق ، وما هداهم إليه من الإيمان ، فهو حامد لله ، محمد ، محمود من الله ومن الناس .

وبهذا كان النبي بهذين الاسمين جامعاً لصفات الحمد كلها .. فهو الحامد الحمد المحمود ، فإذا كان بعد ذلك من يحمد الله فهو من حمد « أحمد » يعترف ، وعلى هداه يهتدى ، وإذا كان بعد ذلك في الناس من يحمد الله فهو لما يحمد به « محمد » تبع ، ولما يثنى به عليه تابع ومقتد .

ثم انظر في ذات « محمد » نفسه ، وكيف كانت الحامد كلها مجمعة إليه في أكل صورها ، وأجل أوضاعها . فما كان من خلق كريم محمود فهو في « محمد » على أوفى صورة وأتمها ، وما كان من فعل طيب محمود ، فهو في « محمد » على أجمل حالة وأحسنها .

(١) نهاية الأرب للتويرى جزء ١٦ ص ٧٥ .

(٢) الروض الآف للسبيل جزء ١ ص ١٥٦ .

وليس يجمع هذه الصفات الكريمة اسم أتم وأعدل من اسم « محمد » . فقد يكون في أسماء : أمين ، وصادق ونبي ، وعظيم ، وطيب ونحوها ما ينفي عن صفة أو أكثر من الصفات الطيبة التي إن صدقها منها ، أو صدقت هي في المسمى بها كان ذلك دلالة على انصاف صاحبها بالصفة التي تدل عليها دون أن ينسحب ذلك ، إلى غيرها من الصفات : حمداً ، أو ذماً . . فالمسمى بالأمين ، إن طابق الاسم فيه المسمى ، كان نصيبه من الصفات الطيبة صفة « الأمانة » ، وقد يكون له إلى جانبها صفات أخرى لا تحمد كالجن أو البخل ، ونحوها . . وكذلك قل في الصادق ، والنبي ، والعظيم ، والطيب ، وما شابه ذلك من صفات . . فقد ينال الإنسان منزلة النبل أو العظمة بصفة كريمة أو أكثر دون أن يكون من لوازم ذلك أن يحوى الصفات الطيبة كلها . . أما « المحمد » فلا يكون على تلك الصفة حتى يجمع المجامد كلها ، وحتى تكون كل أقواله وأفعاله على الوجه الذي تحمد فيه عن كل الناس ، وفي جميع الأحوال ، وإن يكون « محمداً » من جمع أكثر المحامد ثم فاته بعضها أو القليل منها .

فإذا نقول بعد هذا في ذلك التوافق بين محمد ، الذات ، ومحمد ، الاسم لذى سميت به تلك ، الذات ، ؟ .

قد يقول قائل : وماذا في هذا التوافق ؟ ولم لا يكون الصدقة وحدها هي التي جمعت بين « محمد » الوليد وبين هذا الاسم « محمد » ؟ حتى إذا تألق « محمد » وعلا ذكره في الوجود كان كل شيء مهما صغر ، وكل حدث مهما ضؤل ذائماً أي شأن . . له تقدير وحساب ، تكثر دلالاته ، وتعدد مفاهيمه ، ما دام قد اتصل بالنبي ولا بس حياته ؟ ؟

ونقول : إن في ظاهر ذلك القول شيئاً من الحق . . ولكن ليس على إطلاقه في كل ما يتصل بالنبي . .

حقاً إن عظمة العظيم تلقى على كل شيء اتصل به ألواناً وظلالاً تجعل له في مشاعر الناس مكاناً غير مكانه الذي له ، فيبدو صغيره كبيراً ، وقليله كثيراً ، وواضحه غامضاً ، وقرينه بعيداً . .

ولكن ليس ذلك على إطلاقه - كما قلنا - إذ هناك في حياة العظيم أمور هي في ذاتها رائعة ، مبهجة ، مذهلة ، معجزة . . لا يختلف عليها الناس ، ولا تتباعد بينهم شقة الخلاف إن اختلفوا !

وهنا في تسمية « محمد » بمحمد لا يمكن أن يكون ذلك وليد الصدفة بحال أبداً ذلك أن اسم « محمد » لم يكن من الأسماء المعروفة الشائعة يوم مولد النبي . . وأن الذين تسموا بمحمد كانوا أفرادا . . قيل إنهم خمسة ، وقيل إنهم سبعة . . وكلهم كانوا في عصر النبوة وبين يديها ، وقد أدرك معظمهم الإسلام فمن أين لآمنة بنت وهب أن تقع على هذا الاسم ، الذي ربما لم يكن قد طرق سمعها ، أو جرى على لسانها من قبل أن تتحرك به شفتاها ، حين اختارته اسما لوليدها اليتيم ؟

ثم لو فرض أن اسم « محمد » كان من الأسماء المعروفة عند العرب ، فإن الاتجاه إليه لم يكن من الأمور المنتظرة في شأن هذا الوليد القرشي ، الهاشمي . . إذ أن ضخامة الأسماء . في لفظها ، وفي مدلولها . كان لها الشأن الغالب في تسمية المولودين من أشرف قريش . . مثل : حنظلة ، ومرة ، وأسد ، وفهر ، وغالب ، وعبد العزى ، وعبد الدار ، وعبد اللات ، وعبد مناة . .

وما أشبه ذلك من الأسماء التي تلقى في قلوب سامعيها الرعب ، والفرع ، وتسكسو منهاها هيبة وقوة . . وقد أشرنا من قبل إلى موقف « حزن » جد سعيد ابن المسيب من الاسم الذي أراد الرسول أن يسميه به وهو « سهل » ، فأبى ، وقال : إن السهل يوطأ ويمتن ، : فكان المتوقع لوليد آمنة بنت وهب أن تتخير له اسما من تلك الأسماء ذات الإشعاع القوى النفاذ إلى مواطن الإرهاب في الناس !

فكيف تنفذ الصدفة بين هذه الحوائل جميعها ، وتحمل إلى ذلك الوليد اليتيم هذا الاسم الفريد اليتيم من بين هذا العديد من الأسماء المتصوِّبة في قائمة أشرف العرب وأبطالها ؟ ثم كيف تظل هذه الصدفة ذلك الزمن الطويل . . والصدفة لحظة عابرة . تجيء خلصة وتذهب خلصة . كيف تظل هذا الزمن الطويل محتفظة للنبي بهذا الاسم الذي سمي به ، دون أن يرحضه عن مكانه لقب ، أو دون أن تشاركه كنية ؟ وما أكثر الالتفات والسكنى : . . وقل أن يكون في العرب من

لا يكون له كنية أو لقب ، أو كنية ولقب معاً . أو عدة ألقاب وكنى ! تغلب على اسمه فلا يكاد يذكر على لسان ؟

كيف يظل « محمد » هو « محمد » . . لا كنية ، ولا لقب حتى يكون هو الذى يكنى نفسه « أبيا القاسم » . . بعد أن ولد له مولوده « القاسم (١) » . كيف يكون للصدفة هذا التصرف المتمكن من الأحداث ، الممتد مع الزمن الجارى على الحكمة والمنطق ؟ كيف وشأن الصدفة أن تكون خلسة خاطفة ، وأن تجيء على غير حساب ، وأن تتمتع بغير تقدير . هكذا خبط عشواء ؟ ! إن يكن ذلك شأن الصدفة فإذا تركت للتدبير والحكمة ؟ وأين تكون مواقع أفضال الله . ومنازل رحمته ؟ وأين آيات تدبيره وحكمته ، فيمن يصطفى ويختار من عباده ؟

وأكثر من هذا ١ .

فإن الفرعين الزكيين اللذين ولدا « محمدا » ، قد أراد الله لهما اسمين كريمين يليقان بهذا النبى العظيم الذى سينسب إليهما . فأبوه « عبد الله » ، وأمه « آمنة » ، والدين الذى جاء به « محمد » هو دين العبودية الخالصة لله : « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » ، والشريعة التى يدعو إليها « محمد » شريعة أمن وسلام : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين .

فالعبودية والأمن هما اليدان المكرمتان اللتان قدمتا محمداً إلى الإنسانية ، وأطلعتا شمسهما على هذا الوجود !

وأكثر من هذا أيمناً فإن اسم المرأة التى أَرْضَعته يدخل فى هذه الظاهرة التى نتحدث عنها . . فاسمها « حليلة » ، وموطنها « نجد » ، وقومها بنو « سعد » ! ولنا أن نقول إن محمداً قد رضع الحلم من حليلة ، إلى ما أفاض عليه ربه من فضله ، وأذاقه من رحمته ! وأن شأنه وشأن شريعته العلو والإسعاد .

(١) والقاسم : صفة من صفات النبى .

وإذا كان من الجائز أن يسلم اسم الأب أو الأم أو الموضع من ضلالات
أسماء الجاهلية وشناعاتها ، وسوء مواردها ومصدوها ، فإن مما لا يمكن أن يكون
إلا بتدبير أن تسلم لهذه المسميات أسماءها جميعاً ، فيسلم اسم أبيه ، واسم أمه ،
واسم مرضعته ، ثم لا تكون بحيث تخلو من العيوب والمقايح ، بل تزين
بأحسن ما يمكن أن يزين به اسم من صفات ، ويجمع إليه من خير .
ومن عجب أن تكون هذه الأسماء . . عبد الله ، وآمنة ، وحليمة ، أسماء
غير شائعة ولا غالبة ، ثم يجتمعن على نسق !

وقليل جداً في العرب - قبل الإسلام - اسم « عبد الله » ، فما عرف العرب
العبودية الخالصة لله ، حتى عند من عرف منهم أن للعالم إلهاً هو الله ، بل كان
ولاؤهم ، وعبوديتهم للأصنام التي عبدوها من دون الله . فضافوا أنفسهم إليها
وقالوا : عبد العزى ، وعبد اللات ، وعبد مناة ، وعبد ود ، وقد كان أقرب
شيء إلى عبد المطلب إذا أضاف ابنه « عبد الله » ، هذا إلى معبود ، أن يضيفه إلى
صنم من تلك الأصنام . . أما أن يضيفه إلى « الله » ، فذلك أمر لا يعلم تأويله
إلا الله . . !

وكذلك اسم أمه « آمنة » ، بنت وهب ، واسم مرضعته حليمة السعدية . .
كان أقرب شيء إليهما من الأسماء ماشاع بين العرب الجاهليين : كعفراء ،
وخندساء ، وأم الهيثم ، وما شابه تلك الأسماء . . ولكنه فضل من الله الذي شمل
النبي من قبل أن يولد ، وبعد أن ولد ، واصطفى للنبوّة . . وفي هذا يقول الله
سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « وكان فضل الله عليك عظيماً » .

وبعيد أننا نلتبس هنا من دلالات الأسماء على مسمياتها شيئاً يضاف إلى
جلال النبوة ، أو يزيح قيامها على أصول ثابتة وطيدة من الحق والعدل والخير ،
فإن ما نقيمه السماء ليس في حاجة إلى شيء يدعمه أو يسنده !

ولكن الذي نلتمسه من هذا التوافق المطرد في اجتماع الأسماء الطيبة الزكية
كلها للنبي في شخصه ، وفي أبويه ، وفي مرضعته - الذي نلتمسه من ذلك هو تلك
الغاية الصمدانية التي حمت حمى الرسول أن يطوف به طائف سوء ، أو يلم

به طيف خبيث ... إنه حمى النبوة العظيم ... وإنه لنى حماية الله ورعايته
وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

° ° °

ونجيب الآن على السؤال الذى اقترضناه آنفاً .. وهو : إذا كان هناك
علاقة ، أو شبه علاقة بين الأسماء وسمياتها ، فكيف لايته الناس جميعاً إلى
أن يسموا ، أو يتسموا بالأسماء ذات الدلالات الجميلة الطيبة ، لتندمج على
ذواتهم بعض ما فيها من طيب وجميل ؟؟

ذلك سؤال يدور فى نفس أى إنسان يقف على هذه الظاهرة ، ويعلم من
أمرها شيئاً .

والأمر ليس من السهولة واليسر كما يبدو لأول وهلة . إن الأمر فى ظاهره
مطلق إطلاقاً تاماً ، بلا قيود ، ولا حدود .. يتناوله المرء من قريب ، كما يتناول
الهواء برئته ، أو يغترف من النور بعينه .. فما على الإنسان إلا أن يعتمد أى
اسم يريد ، فيحرك به شفتيه ، ويسمى به من يشاء ، فإذا الاسم ملك له ، وإذا
المسمى محكوم بهذا الاسم مستظل به !

هذا ما يبدو فى ظاهر الأمر ، ولكن الواقع يشهد لخلاف ذلك .. فحين
تستعرض أسماء الناس ، أو أعلامهم ، نجد عجباً عجباً ... فهناك كثرة كثيرة
من الأسماء الجافية ، أو الموحشة ، أو المستقبحة ... قد ألقاها الناس على أبنائهم
وكأنهم تحت سلطان قاهر حملهم عليها ؛ حتى ليبدو أن الناس لو خالوا وشأنهم
لما جرت هذه الأسماء على ألسنتهم ، ولقروا منها فراراً ..

فإنك لتجد فى الناس من سمي ابنه . مشحوتاً ، أو شحاتاً ، أو مسروقاً .
أو حابساً ، أو كلباً ، أو حماراً ، وليس بينه وبين الأسماء الجميلة — فى ظاهر
الأمر — حاجز أو حائل .

ولكن الأمر على خلاف هذا .. إن الحياة تفرض على الأحياء أن يشغلوا
كل جانب فيها : الحسن والقبيح . والسهل والوعر ، والخصب ، والجلب ، حتى
تحتفظ بتوازنها ، فلا يرجح جانب ويخف جانب ، فتضطرب ، وتفسد ،

ولو كان للناس أن يتطلقوا من غير أن تصكهم هذه الخيوط غير المنظورة التي تمسك بهم — لكأن وجعهم جميعاً واحدة ... ولاختاروا الحسن منها وهجروا القبيح ، ولعمروا السهل ذى الوعر ، وأغرسوا فى الخصب دون الجذب ، ولما رأينا أماً تسكن الصحراء أو تعيش بين الثلوج أو فى الأدغال ؟

وليس ذلك شأن الإنسان وحده ، بل إنك لتجد عالم الحيوان محكوماً كذلك بهذه القوة الخفية ، ومشدوداً بتلك الخيوط غير المرئية ... فهناك طيور تعيش فى القفر ، لا ظل ، ولا ماء وليس بينها وبين الماء والظل إلا أن تفرد أجنحتها وتنطلق إلى هذا النعيم الذى حرمت منه ، فتبلىه فى غدوة أو روضة من غدواتها أو روحاتها !

وأكثر من هذا ، فإذا نرى « العصفير » مثلاً فى المكان الواحد ، فى البلد الواحد ، بعضها يغشى الدور ، ويخترق الأبواب والنوافذ ، ويتعرض للهلاك فى سبيل القاط حبة أو فتاة خبز ، على حين يسكون على رمية منها مخازن الحبوب فى العراء ، وفى مواطن الحصاد والدرس . يغشاها كثير من هذه العصفير ، وينال حاجته منها من قريب !

ولا تسأل : ما هذا ؟ فذلك تقدير العزيز العليم .. الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى !

ولا نجد بدأً من أن ننقل هنا نظرة من نظرات « الجاحظ » النافذة فى هذا الأمر ، فإنه لم تقل منه ملاحظة هذه الظاهرة ، ولم تغب عن باله فى دراساته للحياة وللأحياء !

يقول الجاحظ :

« وعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ولم يجب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم .

« لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا خيرين (١) »

(١) فى الأصل مجبرين وهو تعجيف .

في الأمور المتفقة والمختلفة لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة ،
وفي هذا ذهاب العيش وبطلان المصلحة ، والبوار والتواء (١) .

« ولم يكونوا مسخرين بالأسباب ، مرتبذين بالعلل لرغبوا عن الحجابة
أجمعين ؛ وعن البيطرة . والقصابة والدباغة (٢) .

« ولكن كل صنف من الناس مزين عندهم ما هم فيه ، ومسهل ذلك عليهم
فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حذق ، أو خرقاً ، قال له :
باحجام ! .

« والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له : يا حائك !
ولذلك لم يجمعوا على إسلام أبنائهم في غير الحياكة ، والحجابة ، والبيطرة
والقصابة .

« ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبباً للاتفاق والائتلاف ؛
لما جعل واحداً قصيراً ، وآخر طويلاً ؛ وواحداً حسناً والآخر قبيحاً ؛
وواحداً غنياً ، وآخر فقيراً ، وواحداً عاقلاً وآخر مجنوناً ؛ وواحداً ذكياً ؛
وآخر غيباً .

« ولكن خالف بينهم ليختبرهم ؛ وبالاختيار يطيعون ؛ وبالطاعة يسعدون !
« ففرق بينهم ليجمعهم ؛ وأحب أن يجمعهم على الطاعة ليجمعهم
على المشورة .

« ف سبحانه وتعالى .. ما أحسن ما أبلى . وأحكم ما صنع . وأتقن ما دبر !
« لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة . ولو رغبوا
بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعراء ، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات ؛
ولبطل أصل المعاش .

« فسخرهم على غير إكراه ، ورغبهم من غير دعاء !

(١) التواء : الهلاك .

(٢) كانت أمثال هذه الصناعات والحرف مما تأباه النفس العربية .

ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الأشياء إلا أحسنها ،
ومن البلاد إلا أعدلها ، ومن الأمصار إلا أوسطها .

• ولو كان كذلك لتناحروا على طلب الواسط ، وتشاجروا على البلاد
العليا ، ولما رجعهم بلد ، ولما تم بينهم صلح !
• فقد صار بهم التسخير إلى غاية القناعة !

• وكيف لا يكون كذلك وأنت لو حولت ساكني الآجام إلى القياقي ،
وساكني السهل إلى الجبال ، وساكني الجبال إلى البحار ، وساكني الرب
إلى المدر — لأذاب قلوبهم الهم ، ولألق عليهم فرط النزاع ...
ثم يقول :

• وليس على ظهرها — أي ظهر الأرض — إنسان إلا وهو عجب بعقله ،
لا يسره أنه له ما غيره . ولولا ذلك لما نوا كدأ ، ولذا بر حسدا ! .
• ولكن كل إنسان وإن كان يرى أنه حاسد في شيء فهو يرى أنه محسود
في شيء !

ثم يسير الجاحظ إلى ما نحن فيه من الأسماء والمسميات فيقول :
• ولولا اختلاف الأسباب لتنازعوا بلدة واحدة ، واسما واحداً ، وكنية
واحدة .

• فقد صاروا — كما ترى — مع اختيار الأشياء المختلفة إلى الأسماء القبيحة ،
والألقاب السمجة !

• والأسماء مبذولة ، والمسمعات مباحة ، والمتاجر مطلقة ، ووجوه الطرق
مخللة .

• ولكنها مطلقة في الظاهر ، مقسمة في الباطن ، وإن كانوا لا يشعرون
بالذي دبره الحكيم من ذلك ، ولا بالمصلحة فيه .

فبجنان من حجب إلى واحد أن يسمى ابنه محمداً ، وحجب إلى آخر أن
يسميه شيطاناً ، وحجب إلى آخر أن يسميه عبد الله ، وحجب إلى آخر أن
يسميه حماراً .

و لأن الناس لو لم يخالف بين علمهم في اختيار الاسماء ، و جاز أن يجتمعوا على شيء واحد ، كان في ذلك بطلان العلامات ، و فساد المعاملات (١) ، .
 هذا ، و لا يدع أعداء الإسلام و نبي الإسلام وسيلة يتوسلون بها إلى الطعن في رسول الله - صلى الله عليه و سلم - إلا أناسكروا بها ، و لو غرقوا في الزور و البهتان ..
 و حتى لقد نازعوا في اسم رسول الله صلى الله عليه و سلم . و جعلوا يذسجون حوله من الأوهام و المضلالات ، ما يشيرون به القبار في وجه الشمس ليحجبوا أضياءها و هيئات هيئات ١١
 و لقد كان من جرأتهم على الحق أن ادعوا أن النبي الكريم لم يكن اسمه أول الأمر ، محمدآ ، بل لقد سماه جده عبد المطلب ، قثم ، و رروا في هذا تلك الأسطورة المفضوحة ، .

يقول المستشرق : : إميل درمنقم :

وهنا نذكر أن الاسم الأصلي للنبي محمد هو ، قثم ، ١١ ثم لم يلبث هذا الاسم أن عدل عنه بعد ولادته بوقت قصير أو حين بعثته ١١ - إلى محمد ، الذي هو لقب نبوي أكثر منه أن يكون اسماً ١١

و يعلى الأستاذ عادل زعير على هذا بقوله :

« هنا أغرب ما انتهى إليه المستشرقون ، و أول من ذهب إلى ذلك ، سبرنجر ، مستنداً إلى ما جاء في باب تسمية الرسول ، من ، السيرة الحلبية ، نقلاً عن كتاب : الإمتاع ، : أنه لما مات قثم بن عبد المطلب ، قبل مولد النبي صلى الله عليه و سلم بثلاث سنين ، وهو ابن تسع سنين ، حزن عليه أبوه حزناً شديداً . . فلما ولد رسول الله صلى الله عليه و سلم سماه ، قثم ، حتى أخبرته أمه آمنة ، أنها أمرت في منامها أن تسميه محمداً ، فسماه محمداً ، ثم يقول الأستاذ زعير : و فن هذه الرواية البادية الوضع ، و التي تدل أقل نظرة إليها عند قبولها على علامتها - على أن عبد المطلب عدل عن اسم ، قثم ، إلى اسم ، محمد ، بعد ولادته بدقائق معدودات .
 و تابع ، هرشفلد ، و سبرنجر ، على رأيه ذلك ، و لم يلبث كثير من المشركين أن وجدوا في هذا فتية جديداً لهم ، و بلغ بهم من التذسف و التذخي ما صار يزعم

به . أن ماورد في القرآن من ذكر لمحمد وأحمد قد أضيف إليه فيما بعد ، وذلك رداً على الحجة القائلة : إن أمر الرسالة ما كان ليستقيم ، لو عدل بعد الرسالة إلى اسم محمد .

وفي القرآن الكريم : ولما قال عيسى ابن مريم ، يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد . ونفساً على الإسلام ما كان من اشتغال كلمة البارقليط ، اليونانية التي وردت في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا ، والتي يدل معناها على (محمد) ١ .

ونقول : إن ما استدل به المستشرق « سبرنجر » بما نقله من بعض الروايات المدسوسة في كتب السيرة ، ينطقي بالكذب والتلفيق :

فأولاً : ما قيل من أن عبد المطلب جد النبي - صلى الله عليه وسلم - كان ولدوله اسم « قثم » ، وأنه لما مات هذا الولد حزن عليه ، ثم لما ولد لآمنة بنت وهب « محمد » سماه « قثم » ، إحياء لذكرى ابنه الميت ، وذلك بعد ثلاث سنوات من موته - هذا القول يكذب بعضه بعضاً . إذ كيف ينتظر الأب ثلاث سنين حتى يولد « محمد » ليسميه « قثم » - أفأكان في أبناء عبد المطلب من يولد له ولد خلال هذه المدة ؟ وكيف وكان له عشرة أبناء ؟

وثانياً : إذا كان عبد المطلب قد سمي حفيده محمداً « قثم » ، ثم عدل عن ذلك بعد أن علم من أمه أنه قد أمرت في منامها أن تسميه محمداً ، فعدل عن ذلك وسماه محمداً - إذا كان ذلك كذلك فكيف يحفظ هذا الاسم المقترح ، الذي لم يشع في الناس ولم يكن إلا حديثاً عابراً بين عبد المطلب وآمنة - كيف يبقى له ذكر في الحياة بعد هذا ؟

أما القول بأن رسول الله قد ظل يحمل اسم « قثم » ، إلى أن كانت البعثة : فكان ذلك الاسم لقباً أنيولاً له . على حين ظل اسم « قثم » ، هو العلم عليه - فإن هذا القول تكذبه الشواهد كلها ، ولو أن ذلك كان له أثر من الصحة لما كان حديث قريش إلى النبي إلا بهذا الاسم « قثم » ، ولما عدلت عنه أبداً !! فهل كان شيء من هذا ؟

« سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم . »

• • •

نعود بعد هذا ، فنقرر أن الاسم الذي سمي به النبي ، والاسم الذي بشر به عيسى قبل مولده ببضعة قرون - هذا الاسم ليس مجرد اسم ، وإنما هو دلالة من دلالات النبوة ، ومعجزة من معجزاتها . .

فقد سمي الله اسم « أحمد » ، أن يسمى به أحد قبل النبي ، ثم سمي اسم « محمد » ، أن يظهر إلا بين يدي النبوة ، وألا يسمى به إلا بضعة فقر من العرب ، طمعوا أن يكون أبناؤهم النبي المنتظر ، الذي أظل زمانه ، وبدت تباشير مبعده ، ثم سمي الله كذلك من سمي بهذا الاسم أن يلعنوا النبوة أو يدعيها لهم أحد !

ولو أراد أتباع « محمد » الذين آمنوا بشريعته ، وعرفوا حقيقة نبوته ، وشاهدوا عن قرب أنوار السماء تفيض عليهم من فيهم . . لو أنهم أدوا أن يتخيروا له الاسم الذي يروونه جديراً به ، مناسباً لجلال النبوة وعظمة النبي ، لما وجدوا أعدل ، ولا أكرم ، ولا أنسب من اسم « محمد » ! .

فسبحان من له الخلق الأمر ، ومن بيده ملكوت السموات والأرض ، ومن إليه يرجع الأمر كله ! . .

« ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين . »

الباب الثاني

النبوة .. والنبي

هل النبوة ضرورة إنسانية :

نازع كثير من الناس - قديماً وحديثاً - في أمر النبوة .. وهل هناك ضرورة إنسانية تدعو إلى أن يقوم في الناس أنبياء ورسول يسفرون بين الله وبين الناس ، حاملين إليهم وصايا السماء وشرائعها ؟

والناس في هذا مذاهب وشيع :

فالمؤمنون بالشرائع السماوية يعتقدون أنهم إنما أخذوا شريعتهم عن رسول من عند الله . وأن هذا الرسول لإنسان من بينهم ، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإنما اختاره الله منهم ليحمل إليهم شريعته .

وأما غير المؤمنين بشرائع السماء فلا يتصورون أبداً أن يكون بين إنسان من الناس صلة بالعالم العلوى ، لاختلاف الطبيعة في كل من العالمين : الأرضى والعلوى .. هذا إذا صح - عند القائلين بهذا رأى - وجود للعالم العلوى .. أما الماديون فلا يعترفون أصلاً بوجود للعالم العلوى . أو عالم الروح . وإذن فالرأى عندهم في رسل الله هو الإنكار الصريح للرسالات السماوية ، وللرسل ، والله أيضاً !!

* * *

ولا نريد أن نقف طويلاً عند هذه الآراء المتخالفة في شأن الرسل ، وفي طبيعتهم ، وفي الضرورة الإنسانية الداعية إليهم ، وفي إمكان اتصال الإنسان بالمالأ الأعلى إذا دعت السماء لنقل رسالتها إلى الناس !

لأنريد أن نقف طويلاً هنا ، حيث أن لنا وقفه في هذا الشأن عند الحديث
عن الرسالة المحمدية !

ولكن أريد أن أعرض - في إيجاز - وجهة نظر المؤمنين بالرسول والمنكرين
لهم ، لنجعل من ذلك مدخلاً إلى الحديث عن نبوة النبي الأعظم : محمد بن عبد الله ،
عليه صلوات الله وسلامه !

ولا حديث لنا مع المؤمنين برسل الله وأنبيائه في هذا الأمر ، فذلك هو
إيماننا وعقيدتنا . . وإنما نقف معهم صفاء واحداً في وجه المنكرين للنبوات ،
على اختلاف مذاهمهم وتعدد آرائهم . . ولا حديث لنا أيضاً مع الماديين الملحدون
الذين ينكرون ما وراء المادة ، ولا يعترفون بالإله الخالق ! إذ أن الحديث في
شأن الرسل والأنبياء القائمين بالسفارة بين الله والناس لا مساغ له إلا في ظل الإيمان
بالله ، عند الذين يؤمنون به ! وإنما حديثنا مع أولئك الذين يعترفون بوجود
الله ، ويؤمنون به ، ولكنهم لا يتصورون قيام رسل بين الله والناس . ولا يرون
داعية تدعو إلى نبي أو رسول يحمل إلى الناس وصايا السماء !

والذين يذهبون هذا المذهب هم طائفة من الفلاسفة والحكماء الذين تلبس عليهم
الأمر في شأن الرسل ، وأبت عليهم عقولهم أن تستسيغ هذه المهمة النبيلة ، التي
قام عليها أنبياء الله ورسله .

وهؤلاء الحكماء والفلاسفة ينظرون إلى هذا الأمر نظرتين متباعدتين :
نظرة تحقر الإنسان ، فلا تراه أكثر من كائن حيواني كسائر الحيوان . .
لا يعدو أن يكون فصيلة من فصائل الحيوانات ، وسلالة من سلالاتها . . فهو -
والأمر كذلك - مقضى عليه أن يمينا حياته في هذا المركب ، أو في هذا القطيع ،
دون أن يدعى لنفسه شيئاً يتغير به وضعه . ويعزله عن المجتمع الحيواني ، في هذا
الكوكب الأرضي !

تلك هي نظرة الفلاسفة المشائمين الذين نظروا إلى الحياة بمنظار أسود فراءوا
الوجود كله بجلال بالأسود ، ورأوا الإنسان دودة غارقة في أكوام من التراب .
وفي بحار من الأوحال .

وكثير من الفلاسفة الأقدمين آمنوا بالله ولكنهم لم يؤمنوا برسول الله ، ولم يرضوا لإنسان أن يلتقى بالملك الأعلى ويتعامل معه ! وكان هؤلاء الفلاسفة الذين يذهبون هذا المذهب قد نظروا فيه إلى أنفسهم . فحين وجدوا أنهم وهم الفلاسفة ، وأكمل الناس عقلاً - لم ترفعهم عقولهم إلى الملك الأعلى ، ولم تمنح لهم الوصول إليه .. فكيف يكون ذلك لإنسان ليس له عقل الفيلسوف ولا فلسفته ! ؟

يقول ابن تيمية عن هؤلاء الفلاسفة : « والمتفلسفة من اليونان والهند منازل عن وجود كمال الجنس - أى الجنس البشرى - ، وإن أقروا ببعض صفات الأنبياء ، فإنما أقروا منها بما لا يختص بالأنبياء ، بل هو مشترك بينهم وبين غيرهم ، فلم يؤمن هؤلاء بالأنبياء ألبتة (١) » .

وقد عاشت هذه النظرة التى تمسك بالإنسان أن يرتفع إلى ما فوق هذا التراب - عاشت فى أجيال الناس جيلاً بعد جيل ، وكان لها دورات عاصفة فى عقول كثير من الفلاسفة والمفكرين .

يقول نيتشه : « لا نريد ملكوتاً فى السموات . ففتح بشر .. نريد ملكوتاً أرضياً » .

نحن بشر ! أى نحن من دواب الأرض . لا ينبغي أن نرفع أبصارنا إلى السماء ، ولا أن نجاوز هذا الملكوت الأرضى !

فالإنسان فى مفهوم هذه الفلسفة السوداء محكوم عليه أن يظل فى هذا الوضع الذليل المهين فى الحياة ، كائناً تراجياً ، ليس فيه قيس من العالم العلوى . وليس هو كما تحدث عنه الديانات السماوية خليفة الله فى الأرض ، والموعد بالعودة إلى العالم العلوى الذى خرج منه !

ويقول نيتشه أيضاً : « إذا كان الله قد خاق الإنسان : فإنما خلقه قرداً يلهو به فى أبدية الطويلة » !

هذه هي إحدى النظرتين اللتين تنظر بهما الفلسفة المأثومة إلى الإنسان وهي نظرة تسمك على الإنسان أن تكون له صلة بالسما ، وأن يكون في الناس من يطول يديه إلى الأعلى . ويتعامل معه .

أما النظرة الأخرى فهي على خلاف النظرة الأولى في تقييمها للإنسان . . وفي تقديرها للرسالة السماوية . . ومن ثم كانت هذه النظرة ذات شعبتين : شعبة تحلق بالإنسان ، وتجاوز به قدره ، وتراه في مستوى يستغنى به عن وصاية السما ، وعن تدبيرها لحياته ، وتوجيهها لسلوكه . وتصحيحها لعقيدته . . فلا ضرورة إذن لمبعوث من السماء يحمل إلى الناس شريعة ، ويقوم لهم ديناً . . وحسب الناس في هذا أن يقوم فيهم قادة ، ومصلحون ، وفلاسفة . . منهم ولهم . . من الأرض وفي الأرض !

وشعبه أخرى ترتفع بمقام الرسالة ، فتري أن الإنسان مهما يبلغ من العلو والصفاء فلن يكون له أن يحمل رسالة سماوية عن طريق الاتصال المباشر بالله أو ملائكته !

فإذا كان من الحتم أن تنزل على الناس شريعة سماوية فليكن الذي يحملها إليهم مبعوثاً من عالم العلو . . ودعوى من يدعون أن المسيح هو الله ، أو هو ابن الله ، قائمة في ظل هذا الإحساس الذي يتدافع في صدور الذين يرفعون مقام الرسالة عن أن تتناولها يد إنسان من الناس ، أو أن يستأثر بهذا الشرف العظيم واحد منهم . إنها أكبر من أن يستقل بها فرد ، وأعظم من أن يختص بها إنسان !

ولهذا تتحول بعض الرسل عند بعض الناس عن طبيعة غير طبيعة البشر . وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله . . ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . . قاتلهم الله أنى يؤفكون ؟ ، وقد كشف القرآن الكريم عن هذا اللون من التفكير الانساني في

هـ واجهة دعوى الرسل . فيقول سبحانه وتعالى في قوم صالح : « فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه ؟ إنا لذن لفي ضلال وسعر ! ألقى الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر (١) » . . . ويقول جل شأنه في فرعون وقومه : « فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون (٢) » . . . ويقول سبحانه في قوم نوح : « ولئن أطعتم بشراً مثلكم لئنكم لذن لخاسرون (٣) » . . . ويقول جل وعلا في كفار قريش : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لسحرج مبين (٤) » . . . ويقول سبحانه : « وقالوا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا . لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً (٥) » . . . ويقول سبحانه وتعالى : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون (٦) » .

بشرية الرسل :

لو وقع للناس ما يتمنون من أن يكون الرسول ملكاً لما استقام للناس معه أمر ولا صلاح بينه وبينهم شأن . . . إنهم سيفتقنون به ، ويذهلون عن رسالته ، وفي هذا يقول القرآن الكريم : « وما منع للناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا ، قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا (٧) » . . . وكيف يطمئن للملائكة مقام بين الناس ؟ إن الملك لا يمكن أن يظهر للناس في أية صورة غير صورة الإنسان إلا كان مبعث فتنة للناس . . . إنهم سيتدافعون إليه تدافع الفراش إلى ضوء الصباح ، يدور حوله في لهفة مجنونة إلى أن يسقط نصيباً وإعياء ! .

كذلك لا يستقيم أمر الناس إذا جاءهم الرسول ملكاً في صورة إنسان .

- | | |
|--------------------------|------------------------|
| (١) سورة القمر ، ٢٤/٢٥ . | (٢) سورة المؤمنون ٤٧ . |
| (٣) سورة المؤمنون ٣٤ . | (٤) صورة يونس ٢ |
| (٥) سورة الفرقان ٢٦ . | (٦) سورة الأنعام ٩ . |
| (٧) سورة الإسراء ٩٥ . | |

لأنه لا يغير عما في نفوسهم شيئاً من أمر الرسول البشرى ما دام الملك يلقاهم في صورة آدمية . . فإنه في حالة تلك إنسان ، يرونه رأى العين في صورة بشرية ، ولا تختلف عما ألفوا من صور الآدميين . . وبهذا كان رد القرآن على هذا المقترح الغبي الأحق . . . ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، وللبسنا عليهم ما يلبسون ، (١) أى أنه لو جاءت الملائكة رسلاً إلى الناس لما جاءوا إلا في صورة بشرية ، لأن مجيئهم في صورتهم الملكية لا يجعل لهم بين الناس مكاناً يطمئنون فيه ، ومجيئهم في صورة بشرية لا يجعل لهم عند الناس شأنًا غير شأنهم مع الرسل الآدميين . وإذن فلا معنى لأن يكون الرسول ملكاً مادام لا يمكن أن يحى إلا في صورة بشرية

وأنت ترى التفات القرآن إلى تقرير بشرية الرسل واضحا في هذا الأسلوب المفحم — في موقف الخصومة والجدل . . وهو موقف واحد هنا ، يقف فيه السكفار المعاندون موقف المنكر على الرسول أن يكون بشراً ، وأن دعوى من يدعى من الناس — أياً كان — أنه رسول ادعاء لا يقبل . . . وكان من صنيع القرآن في دفع هذا الضلال ، وكشف المستترين به ، أنه جعل القضية قضية جدية يمكن النظر فيها ، والاستماع إلى دعوى الخصوم عليها . . فلم يلقها من أول الأمر بالكلمة الحاسمة ، وأنها ضلال مكشوف ، لا يستأهل الوقوف إزاءه ، والنظر فيه . بل بسط لهم القرآن مجال القول ، وأراهم أن لقضيتهم شأفاً ، وأن عليهم أن ينتجوا آذانهم لسماع الحكم فيها . . . لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ، (٢) فإنه قادر على أن يبعث إليهم ملكاً . . . ولكن هل يمكن أن تستقيم حالهم معه ؟ هل يجروا أحد أن يقول نعم ؟ فإن قال سفيه أحق ؟ نعم ، قيل له : على أية صورة يلقاك الملك ؟ أعلى صورته النورية ؟ إنك لن تراه ؟ ولن تعرف إليه ، ولن تأخذ شيئاً عنه ! أم على صورة بشرية ، يخاطبك بلسان بشر ومهيئة لإنسان ؟ قد يمكن

(١) الأنعام آية ٩ .

(٢) الإسراء آية ٩٥ .

أن يكون هذا . . . ولكن من يدلك على أنه ملك في صورة إنسان ؟ هو كما يبدو لك إنسان ، لا فرق - في ظاهر الأمر عندك - بين الإنسان الملك ، والإنسان الرسول ، وإذن فما يدخل عليك من أمر الرسول البشر سيدخل عليك من أمر الرسول الملك . . وهذا ما يكشف عنه القرآن الكريم في قوله تعالى : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

الله يصطفى من الملائكة رسلاً • ومن الناس :

لهذا اقتضت حكمة الله أن يبعث إلى الناس رسلاً من الناس حتى يكون بين الرسول ومن أرسل إليهم إلف وأنس . فلا يجدون في رسولهم شيئاً لم يألفوه . . على خلاف ما لو جاء الرسول إليهم في أية صورة غير صورة الإنسان . . لأنه حينئذ سيكون مبعث عجب ودهش ومثار فتنة وابتلاء ، أضعاف ما يقع لهم من الرسول الإنسان . . ولهذا أنكر القرآن على المشركين أن يعجبوا من أن يبعث الله فيهم رسولا منهم : « أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس . . » (١) ، ولهذا كان فيما امتن الله سبحانه وتعالى به على الأمة البرية أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم . . حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » (٢) ، وهو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليه آياته ويذكهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين (٣) . وكذلك كان فضل الله على الأمم السابقة . كل رسول جاء إلى أمة كان منها ، ولبسانها . . وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، لينين لهم ، (٤)

صفوة الخلق :

وإذا كان الرسول بشراً فما ظنك أن يكون في الناس ؟

(١) سورة يونس : آية ٢ . (٢) سورة التوبة : آية ١٢٨ .

(٣) سورة الجمعة : آية ٢ . (٤) سورة إبراهيم : آية ٤ .

أتراه واحداً من آحاد الناس لا امتياز له في عقل أو خلق ؟ أم تراه إنساناً
فانتكاجباراً ، ملاً لقلوب الناس فرعاً ورعباً ؟ أم أنه متخاذل ضعيف يلقى من
الناس الذل والهوان ؟

وكلا . . فإن الرسول ليس إلى هؤلاء ، ولا أولئك !

إن الرسول قبل أن ترشحه السماء لخل الرسالة ، وقبل أن يلقى الناس بها ،
ينبغي أن يكون فيه أمارات ودلائل تشهد له برجاحة العقل ، وكمال الروءة ،
والعفة ، وحسن الاحدوثة بين الناس ! فلا يعرف الناس منه قبل بعثته فيهم
إلا ما يحمدون ويكبرون !

هكذا رسل الله في أقوامهم . . خيار من خيار . . لم تجرب عليهم كذبة ،
ولم تظهر فيهم ريبة . . وما تكذيب قومهم لهم ، وتطاولهم عليهم بعد الرسالة
إلا عن حسد واستكبار ، وإلا عن شقاق وعناد ! وقد كشف القرآن الكريم
عن شهادة ثمود في نبيهم صالح ، وهي شهادة — على رغم ما واجهوه به من عناد
وتحد وإعنات — لم تستطيعوا إنكارها ، لأنها أكبر وأظهر من أن تنكر . .
« قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا (١) » أى قد كنت قبل رسالتك
موضع أمل ورجاء لما نرى فيك من الخير والصلاح . . فلما جاءهم يدعوهم إلى
الهدى وبلغهم رسالة ربه أنفكروا ما كانوا قد عرفوا منه . . !

وقريش . . مع النبي الكريم . . كان عندها الصادق الأمين . . فلما جاءت
دعوة السماء أنفكروا ما عرفوا . . ولهذا يهزبه الله سبحانه وتعالى بقوله : « فأنهم
لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، . . ويقول له أبو جهل :
(والله لا تكذبك ، ولكن نكذب ما جئت به) . !

إن حكمة الله اقتضت أن يكون الرسول المختار لهذه المهمة الجليلة خلاصة
الإنسانية وهاماتها ، في كل عصر ، وفي كل مكان تبرز فيه شمس النبوة وتتلألأ
أنوار الرسالة . . فيكون النبي أو الرسول هو الرجل الأول في السجال الإنساني

بين قومه ، ويكون هو الإنسان الذى تتمثل فيه كمالات الجنس البشرى لعصره ،
وتجتمع فيه كل فضائله !

والرسول بهذه الصفات التى اجتمعت له جدير بأن يكون صلة بين السماء
والأرض ، وسفيراً بين الله والناس !

إنه لا بد أن يكون الرسول الذى يوكل إليه إبلاغ رسالة سماوية إلى الناس
على أكل صورة إنسانية ، وأتمها فى ظاهر وباطن معاً ، كي يتقبل الناس دعوته
ويستجيبوا لما يدعوهم إليه !

وشتان بين أن تسمع الكلمة الطيبة الرشيدة من إنسان تعرف فيه الطهر
والتقوى ، وتجذب فى سيرته وسلوكه الآثار الطيبة لهذه الكلمة الطيبة التى يلقاك
بها ، ويدعوك إلى الاستماع إليها ، والاستجابة لها — شتان بين هذا وبين أن
تجىء إليك هذه الكلمة ذاتها على لسان إنسان هازل عاثر ، لا ترى فى حاله
ما يحملك على احترامه وتوقيره .. إنه لن يكون لكلمته هنا ثمن . ولا أثراً
لأنها كلمة — على ما بها من حسن — ميتة ، فتمتد ما فيها من حرارة وحياة ؛
حين انطلقت من هذا الكيان الخرب ، كما تنطلق القذيفة الفاسدة من المدفع ،
لا تبلغ غاية ؛ ولا تصيب هدفاً !

والرسول هم حملة الكلام الطيب كله إلى الناس .. على ألسنتهم تجرى الحكمة
والموعظة الحسنة ، فتثمر ثمرتها الطيبة فى العقول ؛ وفى القلوب ؛ لما يجد
الناس فى هذه الكلمات من ربح النبوة ؛ وما يشقون من شيم شذائها الطيب
الطهور !

إن فى كيان رسل الله قوى روحية تشيع فى وصاياهم وتشريعاتهم القوة
والنفوذ إلى أعماق النفوس ؛ فتملك ناصيتها ؛ وتأخذ بزمامها !

وأظهر دلالة يستدل بها العقلاء من الناس على صدق الرسول ؛ ويفرقون
بينه وبين أذعياء النبوة من السكبان والمشعوذين أن الرسول لا يدعو الناس
إلى فضيلة من الفضائل إلا كان قائماً عليها فى كل أطوار ؛ حياته قبل النبوة وبعدها ؛
ولا ينهى الناس عن ذنوب من الرذائل إلا كان مجانباً لها ؛ عروفاً عنها ؛ فى كل

حال من أحواله . . وبهذا يراه الناس قد وافق فعله قوله ؛ وصدق خبره خبره !

وواقع الحياة يشهد لهذا الذى نقول به . . فصادفت دعوة من دعوات الإصلاح فى أى مجال من مجالات الحياة ؛ الاجتماعية ؛ أو السياسية ؛ أو الفكرية حظاً من النجاح إلا بمقدار ما فى الداعين إليها والقائمين عليها من صدق ومن إخلاص ؛ يراه الناس فى هذا التوافق بين مدلول الدعوى وسلوك الداعى ؛ وعلى عكس هذا ما يصادف كثيراً من الدعوات من تفسخ والتحلال ؛ أو من انشكاس واضطراب ؛ إنما هو بما يكون بين مفهوم الدعوة وبين القائمين عليها من فجوات وخلللات ، يأخذ فيها كل من القول والعمل طريقاً غير طريق صاحبه .

وقد ذم الله سبحانه وتعالى هذا الخلق الذى يخالف فيه المرء بين قوله وعمله . . فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا . . لم تقولون ما لا تفعلون ؟ . . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (١) .

وإذا كان الخلق على تلك السمعة من الشناعة فى حال الإنسان الفرد ؛ وفى خاصة نفسه ؛ فما ظنك به إذا كان هذا الخلق فى إنسان ينصب نفسه لدعوة عامة ؛ يبشر بها فى الناس ؛ أو يحملهم عليها ؛ إنه لشناعة محسدة ؛ وبلاء غليظ !

وانظر كيف رفع الله سبحانه وتعالى قدر رسوله « محمد » فعزله عن جماعة الشعراء ؛ ودفع عنه هذه القرية التى كان يرميه بها كفار قريش ؛ وهو قولهم إنه شاعر ؛ لما رأوا فى القرآن من جلال وروعة لم يجدوا لها تفسيراً لما يتلو عليهم الرسول من كلام الله ؛ إلا أن ينسبوه إلى « الشعر » الذى هو غاية ما عرفوا للكلام من تأثير وسلطان على النفوس . . فكان رد القرآن على هذا بقوله تعالى : « إنه يقول رسول كريم ؛ ذى قوة عند ذى المرش مكين ؛ مطاع ثم أمين ؛ وما صاحبكم بمجنون ؛ ولقد رآه بالأفق المبين ؛ وما هو على الغيب بضنين » (٢) ؛ وفى قوله تعالى : « وما هو بقول شاعر ؛ قليلاً ما يؤمنون ؛ ولا بقول كاهن ؛

(١) سورة المنافقون آية ١ .

(٢) سورة التكوير آية : ٢٤/٢٢ .

قليلاً ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين « (١) ، وفي قوله سبحانه : « وما علمناه الشعر ؛ وما ينبتى له ؛ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » (٢) .

ورفع مكانة النبي عن مواقف الشعر والشعراء إنما هو لما يغلب على الشعر من خيال هو في الحقيقة صورة كاذبة للواقع ... ولما يغلب على الشعراء من جريهم في حياتهم على غير ما تنطق به ألسنتهم من شعر ... : « والشعراء يتبعهم الغاؤون .. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون .. وأنهم يقولون ما لا يفعلون » (٣) ... والأفنياء لا يقولون إلا ما يفعلون . فما ينبغى لنبي أن يكون شاعراً ؛ لأنه يدعو إلى المعروف وينهى عن المنكر .. والشاعر محمول على أن يترضى مشاعره ؛ بما يخلط بين الجد والهزل ؛ وبين الحق والباطل ؛ والهدى والضلال : « والشعراء يتبعهم الغاؤون .. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » ، بل إن الشاعر في أصدق أحواله وأعدلها إنما يذبح شعره من خيوط الخيال ، إذ كان واقعاً دائماً تحت تأثير وجدانه ، ونداء مشاعره ... وهيات أن تسلم الحقائق — إذا تحكم فيها الوجدان ، وتسلط عليها الشهور — من أن تتغير معالمها . ثم هيات أن يأخذ الشاعر نفسه بما يقول ، أو يجرى في حياته على ما أوحى إليه شياطين شعره . إنه يعلم أن ما يقول من شعر ليس إلا أمانى وأحلاماً ، إن صح بعضها في حال ، فلن يصح أكثرها في معظم الأحوال ، ولهذا قيل : « أعذب الشعر أ كذبه » .

• • •

(١) سورة الحاقة آية : ٤١/٤٣ .

(٢) سورة يس آية : ٦٩

(٣) سورة الشعراء آية : ٢٢٤ — ٢٢٦ .

الباب الثالث

المعجزة... والإعجاز

ومع ما في الرسول من صفات نفسية، وروحية، وعقلية يعرف بها في قومه، ويأخذ بها المسكان الأول فيهم، فإنه يطالب دائماً بآيات وبراهين تثبت دعواه التي يدعيها بأنه رسول من عند الله، يحمل إلى الناس كلمة الله!

ولهذا كانت رسل الله تزود دائماً بالمعجزات القاهرة التي تجيء إلى الناس على غير ما ألفوا، وتخرج عليهم بما لا يستطيعونه، أو يجدون له تفسيراً، إلا أن يذهب إلى الله، ويحسب شهادة على صدق الرسول، وتأيد دعواه!

المعجزة:

فالمعجزة حدث فريد يجري على غير مألوف الحياة، ويخرج على ما بين الأسباب والمسببات من تلازم!

وقد ذكرت السكتب المقدسة كثيراً من المعجزات التي أجراها الله على أيدي الرسل، كطوفان نوح، وذاقة صالح، وعصا موسى، وكلمة عيسى في إحياء الموتى، وهي معجزات مادية تقع في مجال الحس والمشاهدة! وتقوم الشواهد على عجز الناس عن مجاراتها. والوقوف إزاءها! فنخرس الألسنة، وتخضع الأعناق؟ ومع هذه الحجة القاهرة التي تنطوي عليها المعجزة، فإن اللجاج يذهب بالناس، أو بكثير منهم إلى التهرب من الواقع، والاحتباء وراء التهم المنقطة، والمعاذير التافهة، ليخلصوا من هذا الموقف الذي انكشف فيه أمرهم، فأسقط في أيديهم، ولم يكن لهم من سبيل إلا الإيمان أو الفرار!

ويعصور القرآن الكريم بعض هذه المواقف المتهافئة المتخاذلة التي يقفها

المكابرون المعاندون في وجه المعجزات القاهرة التي لا يحجدها إلا الصنفاء السفهاء من الناس !

فهؤلاء بنوا إسرائيل مثلاً . . لقد رأوا من المعجزات ما ينطق الحيوان ، ويحرك الجماد . . العما يلقيها موسى من يده فإذا هي ثعبان مبین ، ويضرب بها البحر فيمتلئ ؛ فإذا كل فرق كالطود العظيم ، ويضرب بها الحجر فتفتجر منه عيون الماء . . اثنا عشر عينا ، بعدد أسباطهم الاثني عشر .

لقد رأوا كل هذا بأنفسهم رأى العين ، ومع هذا فقد ظلت غيوم الشك تحجبهم عن الإيمان بالله ، وبرسوله . . فكانت قوتهم تلك الآثمة التي حكها القرآن عنهم في قرله تعالى . « وإذ قلتم يا موسى إن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة . . فأخذنكم الساعة وأتم تنظرون (١) .

فأى عناد بعد هذا ! وأى لجلاج في الضلال والزيغ بعد هذا الضلال والزيغ ؟ ومن قبل كانت دعوة نوح إل قومه ، وحثه عليهم بحيث لا يستليعون لها دفعا ، فكانوا إذا دعاهم إلى الإيمان بالله جعلوا أصابعهم في آذانهم كي لا يسمعوها فيؤمنوا ، ودخلوا في ثيابهم كي لا يروا فيثأثروا . .

يقول الله سبحانه على لسان نوح : « وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا ، واستكبروا استكبار (١) » . . لأنه الفرار من هذا النور الذي يطلع عليهم من فم النبي الكريم ، فلا يجدون دفعا له إلا هذا العمل المحبول : « جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم » .

ويذكر القرآن الكريم ما كان عليه بعض كفار قريش من العناد والإصرار على الكفر والإقامة على مشاقة الرسول مهما تكن الآيات والمعجزات التي تساق إليهم . فيقول سبحانه وتعالى : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظفروا فيه يمرجون لقولوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون (٢) » .

لأنه العناد والليناج فيه ؛ ولأنه الكبر والتمسك به ، والحرص عليه . وإن

(١) سورة البقرة آية : ٥٥ . (٢) سورة نوح آية : ٧ .

(٣) سورة الحجر آية : ١٤/١٥ .

يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل القى يتخذوه سبيلا (١) ،

امكانيات المعجزات :

تقف بعض المذاهب الفلسفية من « المعجزة » موقف النك أو الإنكار ، وكثير من الفلاسفة لا يسلون بإمكانها ، وإن كانوا يؤمنون بالله ، ويهتفون بالخالق المبدع لهذا الوجود !

وحجة الفلسفة أو الفلاسفة على إنكار المعجزة أو الشك فيها حجة داحضة مترافة ، لا تستند إلى حقيقة علمية . ولا تعتمد على شهادة من واقع الحياة ، أو من صف التاريخ !

« المعجزة » عند المؤمنين بالمعجزات حدث خارق للمادة ، لم يجر على سنن الحياة ، ولا ناموس الطبيعة على الوجه الذى ألفه الناس ، وعرفوه !

إنها خرق لدواميس الطبيعة ، وخروج على أوضاعها !

والفلاسفة المنكرون للمعجزات يرون أن كل ما يقع فى الحياة ، مألوف ، وغير مألوف ، هو جار على طبيعتها ، واقع على ما تقضى به سننها !

إن التلازم بين الأسباب والمسببات لا يمكن أن ينك أبدأ . وإن الأمور التى تقع من غير أن تنكف لنا أسبابها هى فى الواقع نتيجة لأسباب ملازمة ، إذا تحققت الأسباب تحققت هذه الأمور . .

وإن الأحداث التى تبدو غريبة أو خارقة لمألوف الحياة هى فى الواقع أحداث طبيعية ، لم نعرف أسبابها التى لا بد أن تكون قائمة وراءها ، وأنه متى عرفنا أسبابها أصبحت غير غريبة ، وزايلها العجب الذى أخذ الناس منها .

ومعجزات الرسل - على هذا - كما يرى الفلاسفة ليست إلا أموراً طبيعية تجري مع ناموس الطبيعة ، وترتبط بالأسباب كما يرتبط غيرها من الأمور ، وإن دهش

الناس منها ، وتسليمهم بها إنما لخناء أسبابها عنهم ، وظهورها بينهم ، منقطعة عن كل علة ، غير مستندة إلى سبب .

وإذن فالمعجزات - على هذا التقدير - أمور واقعة في حين الإمكان ، وإن أى إنسان يستطيع أن يخرج على الناس بمثل هذه المعجزات إذا أمسك بين يديه بأمر لم يعهده الناس ، ووقع هو على أسبابه دونهم ؟ لأنه يستطيع أن يجعل من هذا الذى بين يديه معجزة يتحدى بها الناس ، ويعجزهم عن الإتيان بمثلها !

فلو فرضنا أن مخترع البخار ، أو الكهرباء طلع على الناس لأول عهدهم بما اخترعه . وأراه آلة تتحرك بالبخار ، أو مصباحاً يضيء بالكهرباء ، وأراه أن ذلك خاصة من خصوصياته ليس لأحد أن يأتي به أو يمثله ، ثم أفهمهم أنه إنما استمد هذه القوة من الله ، وأنه رسوله إليهم ، لو أن واحداً من هؤلاء المخترعين فعل ذلك لوجد كثيراً من الناس من يصدقونه ويستعجبون له ، ويؤمنون بما يدعوه إليه !

وتصوير المعجزة ، هذا التصوير ، ووضعها بهذا الموضع فيه تليدسات ومغالطات .

فأولاً : لم تشهد الحياة مخترعاً من المخترعات ولد كاملاً . بل يبدو لأول ظهوره في يد مخترعة خفيها لم تتمتع معاملة . ولم تتحدد ملاحظته . ثم يدرج شيئاً فشيئاً نحو النضج والكمال ، ولا يزال مع الأيام موضع زيادة وحذف حتى يبلغ غايته !

وثانياً : أن المخترع مهما يكن شأنه من الغرابة والعجب عند ظهوره : فإنه لم يكن منقطع الأسباب عن سوابق كثيرة من المعارف الإنسانية استند إليها وتعلق بها . فهو ليس من صنع إنسان ، وإنما هو من صنع الإنسانية المعاصرة له ، والسابقة واللاحقة .

وثالثاً : لم يجرؤ مخترع من هؤلاء المخترعين أن يقول إن هذا مما تعجز الحياة عن أن تلد مثله ، أو تكشف المستور عن سره .

ومن أجل هذا لم تكن مخترعات المخترعين ، ولا أعمال العباقرة في العلوم والفنون والآداب مما تدعى له ، المعجزة ، أو مما يتحدى به في مقام الإعجاز ، إذ كانت كل هذه المخترعات وهذه الأعمال مما ينازع الناس في مساهمتها والحقاق بها أو سبقها ، ولم يحدث قط إزاء اختراع من المخترعات ، أو عمل من هذه الأعمال الخالدة أن انقطعت عزائم الناس دونها ، أو وقفت منازعهم عن بحارها ، ومحلولة الإتيان بمثلها ، أو أحسن منها ..

وليس هذا أمراً مستغرباً ، لأن هذه الأعمال - مهما كان لها من روعة - هي من صنع بشر ، يظهر فيها الطابع الإنساني ، وتشم منها ريح الإنسان ، الأمر الذي يفرى الناس بها . ويدنينهم منها ، ويقرب بويدها إليهم .. فلا تنقطع آمالهم دونها ، ولا تسكن عزائمهم إلى التسليم بالعجز عنها .

وليس كذلك ، المعجزة ، فهي تأتي من أول ما تأتي كاملة لا يدخل عليها بعد هذا زيادة أو نقص ، لأنها لا تقبل الزيادة ولا النقص . لأنها من صنع الخالق ، وما كان لمخلوق أن يدخل شيئاً على صنعة أرادها الخالق ، معجزة .

ومن هنا كانت ، المعجزة ، مصحوبة بالتحدي من جهة ، وبدعوى النبوة من جهة أخرى .. فهي شهادة صدق على نبوة النبي ، وأنه مرسل من عند الله ، وأن العمل الذي جرى على يديه هو من عند الله . والدليل على أنه من عند الله ، أن أحداً من الناس لا يستطيع أن ينقضه أو يأتي بمثله .

يقول ابن تيمية : : ثم إنه تعالى جعل مع الرسل ، آيات من علامات وبراهين ، وهن أفعال يفعلها مع الرسل ، يخصهم بها ، لا توجد لغيرهم .. فيعلم العباد لاختصاصهم بها أن ذلك لإعلام منه للعباد ، وإخبارهم أن هؤلاء رسله .. (١) .

ويقول أيضاً : : إنما تكون - أي المعجزة - آية إذا كانت من فعل الله مع التحدي بمثلها ، ودعوى النبوة . . فلا لتها على وجه لا يمكن أن يشترك في ادعائه الصادق والكاذب ، فإذا ظهرت على هذا الوجه كانت آية لمن فعلت على

يده ولهذا لم تمكن أشرط الساعة آية لأحد ، وإن خرق العادة . إذ لم يكن معها دعوى نبوة ... ولأن موت زيد عند قول الرسول : آتيت أن يميت الله زيدا عند دعائي بموته ... فإذا مات عند دعوته صار ذلك آية له ، وإن كان فعل الموت في الإنسان وغيره من الحيوان معتاداً !

ويقول ابن خلدون :

« ومن علاماتهم — أى الأنبياء — وقوع الخوارق لهم شهادة بصدقهم ؛ وهى — أى الخوارق — أفعال يعجز البشر عن مثلها ؛ فسميت بذلك معجزة ! وليست — أى المعجزة — من جنس مقدور العباد ؛ وإنما تقع في غير محل قدرتهم ! ثم يقول :

والناس في كيفية وقوعها ودالاتها على تصديق الأنبياء خلاف :

« فالتكلمون » بناء على القول بالفاعل المختار — أى بأن الإنسان هو الذى يخلق أفعاله — قائلون بأنها - أى المعجزة — واقعة بقدره الله لا بفعل النبي ... وإن كانت أفعال العباد عند المعجزة — من المتكلمين — صادرة عنهم ؛ إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم ؛ وليس لنبي فيها عند سائر المتكلمين إلا التحدى بها بإذن الله ؛ وهو أن يستدل بها النبي قبل وقوعها على صدقه فى مدعاه ؛ فإذا وقعت تنزل منزلة القول الصريح من الله بأنه أى النبي — صادق ؛ وتكون دالاتها على الصدق قطعية ! فالمعجزة الدالة بمجموع الخارق والنحدي ؛ ولذلك كان التحدى جزءاً منها .

« وأما الحكماء — ويريد بهم الفلاسفة المؤمنون — فالخارق عندهم من فعل النبي ... وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية ؛ منها صدور هذه الخوارق بقدرته ؛ وطاعة العناصر له فى التكوين ... والنبي عندهم — أى الفلاسفة — مجبول على التصريف فى الأكوان مهما توجه إليها ؛ واستجمع لها ؛ بما جعل الله له من ذلك .

« والخارق عندهم يقع للنبي ... كان - أى الخارق - للتحدى أم لم يكن ؛ وهو شاهد بصدقه ؛ من حيث دلالة على تصرف النبي فى الأكوان ؛ والذي هو أى التصرف - فى الأكوان - من خصائص النفس النبوية ؛ لأن يتنزل منزلة القول الصريح بالتصديق .. فلذلك لا تكون دلالتها عندهم قطعية كما هى عند المتكلمين ؛ ولا يكون التحدى جزءاً من المعجزة ! ولم يصح - أى التحدى - فارقاً لها عن السحر والكرامة .

وفارقها عندهم عن السحر ؛ أن النبي مجبول على أفعال الخير ، مصروف عن أفعال الشر ؛ فلا يلم الشر بخوارقه ؛ والساحر على الضد ؛ فأفعاله كلها شر ؛ وهى فى مقاصد الشر !

« وفارقها عن الكرامة أن خوارق النبي مخدوعة ؛ كالصعود إلى السماء ؛ والنفوذ فى الأجسام الكثيفة ؛ وإحياء الموتى ؛ وتكليم الملائكة ؛ والطيران فى الهواء - وخوارق الولي دون ذلك كتكثير القليل ؛ والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله ؛ مما هو قاصر عن تصريف الأنبياء ... » (١) .

وأنت ترى فيما نقل ابن خلدون من آراء المتكلمين والفلاسفة أن الفريقين متفقان على أن « المعجزة ، خارقة للعادة لا يقدر الناس على مثلها !

كما ترى أن اقتران المعجزة بالتحدى شرط لازم عند المتكلمين ؛ على حين أنه غير لازم عند الفلاسفة ! وهذا الخلاف متفرع عن الأصل قامت عليه المعجزة عند كلا الفريقين ...

فإذا قرر المتكلمون أن « المعجزة ، من فعل الله ؛ وليست من فعل النبي .. فإنه ينبئ على هذا أن « المعجزة ، لا تقع إلا حين تقتضيها ضرورة ، وهذه الضرورة إنما هى الشهادة على صدق النبي ؛ وأنه مبعوث السماء ومؤيد منها بما يشهد له بصدق دعواه ... حيثئذ تنزل « المعجزة ، التى يقترحها القوم .. كما اقترح الحواريون على المسيح أن ينزل عليهم مائدة من السماء ... وفى هذا يقول القرآن الكريم : « إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع

ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال: انقروا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا يريد أن تأكل منها وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين ، (١) . فهو لاء حوار يو عيسى والمؤمنون برسالة الله . ولكنه إيمان متلبس بالكسب والريية .. فهم من أجل هذا يقتربون عليه آية ، ويحددون له صفتها .

وانظر في هذه الطبيعة الساكرة الخبيثة التي تندس في كيان اليهود .

فهم الذين يقتربون المطلوب ، ويحددون صفته . حتى لا يكون هناك مجال للتلبس إن كان فيهم من أدعياء النبوة ، فلو أنهم طلبوا معجزة مطلقة فقد تخطط معجزة النبي بشعور المشعوذ . . ولكن إذا اقترحوا أمراً على صفة محددة ، وجاء على هذا الوصف كان لا شك أنه معجزة ، وأن الذي يتعامل معهم في .

هذه واحدة .. وأخرى .. هي أنهم — فيما حكى القرآن عنهم — قالوا لعيسى: هل يستطيع ربك . . ولم يقولوا ربنا ، لأن إيمانهم بالله مازال متردداً في مواقع الظن والشك . . ولو كانوا مؤمنين بالله حقاً لمسا قالوا في حق الله سبحانه وتعالى . هل يستطيع . . فتعالى الله أن يعجزه شيء في الأرض أو في السماء ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، (٢) .

وثالثة من فعاليات اليهود هنا . . هي أنهم كما وصفهم القرآن ، أحرص الناس على حياة ، وعلى كل مافى الحياة ، فلم يذهبوا مذهب كفار مكة عندما أرادوا أن يتبشروا من دعوى النبي فقالوا فيما حكى القرآن عنهم : ، وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، (٣) لم يذهبوا هذا المذهب ، بل طلبوا مائدة ، حافة بألوان الطعام وأطاييه ! ومائدة . . . يريد أن تأكل منها وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين ! ، ،

(٢) سورة يس آية ٨٢

(١) سورة المائدة آية ١١٢ / ١١٣

(٣) سورة الأفعال الآية : ٢٢ .

فكم عصفوراً صيد بحجر واحد من هذه الرمية الماسكة ؟
وقد تقع المعجزة ابتداء من غير طلب محدد لها واصفاً لها ، كما هي في ناقة
صالح ، وعصا موسى !
وهذا كله بناء على رأى المتكلمين فى أن « المعجزة » من فعل الله ، وليس
للنبي شأن بها إلا أنها تجرى على يديه . . وبهذا تجيء معلنة التحدى !
أما الفلاسفة فإنه ينبئ على رأيهم القائل بأن « المعجزة » من فعل النبي وأن
أعمال النبي كلها خارقة للعادة — ينبئ على هذا أن النبي نفسه « معجزة » وأن
الخوارق تجرى عليه من غير قصد ولا التفات إلى التحدى بها !
هذا خلاصة ما بين المتكلمين والفلاسفة من خلاف فى شأن المعجزة على حسب
ما نقل ابن خلدون عن الفريقين .

امكان اتصال الانسان بالآ الأعلى :

« المادية » فى كل عصر هى التى تعزل الإنسان عن العالم العلوى ، وتأتى
عليه أن يرتفع عن هذا التراب الذى يعيش عليه .

ولا نريد هنا أن نشرح فلسفة الماديين ، وما تقضى به هذه الفلسفة فى شئون
الإنسان ، وخاصة ما يسميه المؤمنون الجانب الروحى منه . . فقد عرضنا
فى كتابنا الثانى من « قضية الألوهية » (١) مذاهب الماديين ومقولاتهم عن عالم
ما وراء المادية ، وبسطنا القول فى إيراد حججهم على ما وراء الحس . .

والذى يعنيننا هنا أن نقرره هو أن الماديين إذ ينكرون العالم الروحى كله
ينكرون تبعاً لهذا رسالات السماء — إذ لا سماء ، ولا رسالة عندهم —
كما ينكرون الأنبياء ، والديانات ، ويعدون الحديث عن الأنبياء والديانات
أحاديث ملفقة ، وادعاءات كاذبة ، لا تنف أمام النظر العقلى ، ولا تثبت أمام
البحث العلمى !

(١) « قضية الألوهية بين الفاسفة والدين : » « الله والإنسان » للؤث . الناشر
دار الفكر العربى .

ولا نجادل الماديين ، ولا نقف معهم موقف الخصومة في هذه القضية . .
فقد قلنا ما عندنا في هذا في أكثر من موضع .

ولأننا نود أن نقف هنا وقفة قصيرة مع الذين يؤمنون بالعالم الروحي ،
ويقولون بأن وراء المادة عالماً آخر غير مادي أرحب وأوسع بما لا يقاس به
هذا العالم المادي ، ولا يحسب بحسابه .

هؤلاء الذين يؤمنون بما وراء المادة بينهم أعداد غير قليلين يشكون
في قيام صلة بين العالمين — المادي ، وغير المادي — ثم يسألهم هذا الشك إلى
شك آخر في « الروحي » الذي يتلقاه رسل الله من السماء ! ومن ثم فهم شاكون
في الرسل ، وفي الديانات السماوية التي يحملها رسل الله إلى الناس .

وكان الفيلسوف العربي « المعري » من هؤلاء الشاكين في النبوات ،
وفي رسالات السماء . . وقد ترددت أصدااء هذا الشك في كثير من شعره
في اللزوميات .

يقول المعري — جاعلاً « العقل » هو النبي الذي يقوم بالهداية ، وهو
النبي القائم في كيان كل إنسان :

أيها المغرور إن خصصت بعقل

فأسأله فكل عقل فبي (١)

وواضح من هذا أن « المعري » لا يحمل هذا الحكم للعقل عند كل الناس ،
بل لعقول الصفوة الممتازة منهم ؟ ولهذا قال : « إن خصصت بعقل » . فهو يخصص
ولا يععم ، فلا يجعل العقول بهذه المنزلة إلا عنده هو ، وعند أمثاله من الحكماء
والفلاسفة .

والمعري مواقف كثيرة يزرى فيها بالشرائع السماوية ، ويهون ، بل يستخف
من آثارها في حياة الناس . ويود لو نبذ الناس التعاقب بتلك الشرائع ، ورجعوا
إلى ما يوجبهم والعقل ، أو بمعنى آخر ، إن الناس لو أسلموا أنفسهم لأراء الفلاسفة
والحكماء ، واستمعوا إليهم ، لمكان ذلك أجدهم عليهم مما يتلقون من الشرائع

التي يقوم عليها الكهان والرهبان ، والنقهاء ، وغيرهم من علماء الدين في كل ملة . . يقول :

والمقل يبحث . . والشرائع كلها خبر يقلد لم يقسه قانس
متمجسون ، ومسلون ومعشر متعصرون ، وهاندون رسائس (١)
ويوت نيران تزار تعبدوا ومساجد معمورة وكنائس
والصابئون يعظمون كواكباً وطباع كل في الشرور حبايس (٢)

وغيره المعري ، كثير من الفلاسفة ممن سبقوه أو جاءوا بعده يرون هذا الرأي . . وقد أشرنا إلى بعض هؤلاء الفلاسفة وإلى آرائهم في الرسائل السماوية .

ونعرض هنا وجوهاً من الرأي ، يدافع بها أصحابها عن الرسائل السماوية وعن صدق الأنبياء في تلقيها عن الله .

رأي ابن خلدون :

وابن خلدون يبذل جهداً مضنياً موفقاً في إقامة صرح مثين من الأدلة على إمكان الوحي ، والتقاء السماء والأرض عن طريق مخلوق أرضي ، هو قوة مخلوقات العالم المادي ، ومن هذه القوة يمكن أن يلبس السماء ، ويلبس أضواءها . وهذا المخلوق هو الإنسان الذي يضع قدميه على الأرض ، ويطاول برأسه السماء . وقد امتد نظر ابن خلدون إلى آفاق بعيدة في الوجود . وفي هذه النظرة رتب الموجودات وتدرج بها في منازل والترقى درجة درجة حتى انتهت إلى الإنسان ، الذي جملة غاية ما يمكن أن تثمر ، المادة ، من ثم طيب ؛ يمكن أن يترقى ، درجة أخرى ؛ ينزع بها عن وجوده كثافة المادة وظلامها ، فيكون من العالم النوراني الشفاف . . عالم الملائكة . . وهذا يمكن أن يتلقى الإنسان — في شخص النبي — بالملك في شخص جبريل . . . ويتلقى عنه رسالة السماء !

(١) الرسائس : جمع رسيس ، وهو المبطل . (٢) اللزوميات جزء ٣ صفحة ٣٢

يقول ابن خلدون :

ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ، ثم الحيوان ، في هيئة بدیعة من التدریج . . آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات ، مثل الحشائش ومالا بذرله : وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم ، متصل بأولى أفق الحيوان مثل الجلازون والصدف ، لم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط ، ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد القريب أن يصير أول أفق المدى الذى بعده .

ثم ينتقل ابن خلدون بنظره إلى عالم الحيوان . . فيقول :

و اتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه ، وانتهى في تدریج التكوين إلى الإنسان ، صاحب الفكر والروية .

ثم يعرض ابن خلدون بعد هذا أثر العالم العلوى فى الموجودات كلها ، ويجعل لهذه الموجودات تحركا يتدرج بها من حال إلى حال حتى تصل إلى الإنسان ، ثم يتدرج إلى العالم الإنسانى فى أفرادہ ، حتى يبلغ نهاية الأفق الذى يلامس فيه الملك الأعلى ، ويتهيأ للانتقال إليه .

يقول :

و فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى المسكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة . وقتاً من الأوقات فى لحظة من اللحظات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية بالفعل (١) .

وأياً كانت هذه النظرة ، وأياً كان حظها من الصحة والصدق ، فإنها تنبئ عن حاجة الإنسان إلى قوة فوقه ، يتعامل معها ، ويفيد منها ، ويطمح إلى بلوغها أو مداناتها .

اختلاف المميزات باختلاف الأمم :

ثرى ماذا يكون لو أن مميزات الرسل كانت جارية على أساليب واحد

في صورة واحدة . يتلقاها رسول بعد رسول . فتظهر للشاهدين كما ظهرت
لأسلافهم . معجزة قاهرة ، تخرس معها الألسنة ، وتخضع لها الأعناق ؟
ماذا يكون لو أنها معجزة واحدة تنتقل مع الرسل . رسولا رسولا ؟
وتظهر في الأمم أمة أمة ؟ ماذا لو حدث هذا ؟

عصى موسى مثلاً . لو أنها كانت في يد نوح ومن بعده من الأنبياء : هود ،
وصالح . وشعيب ، وإبراهيم ، وعيسى ، ومحمد .. لو أنها كانت لهؤلاء الأنبياء ،
وجرت على أيديهم في أقوامهم أما كان لها في نفوس هؤلاء الأقوام ما كان لها
في قوم موسى ؟

وبمعنى آخر : أما كانت معجزة كافية للتحدى والإعجاز ؟

ويمكن أن يقال في ترجيح هذا الرأي القرضى - : إن تطويع المعجزة
الواحدة ليد الأنبياء ، وانتقالها من سابق إلى لاحق ، فيه تأكيد لها ، وشهادة
مجددة على أنها ليست وليدة الصدفة ؛ ولا أنها فلتة من فلتات الحياة وقمت
لبد الإنسان من الناس . فأتخذ منها أداة للتعالي على الناس بما في يديه . وإذلال
كبريائهم وفضح مدعياتهم من العلم والقوة .

فإذا تظاهر ظهور هذه المعجزة مرة بعد مرة في أزمان مختلفة ؛ مع احتفاظها
بكل ما فيها من ملامح وسمات - كان في ذلك ما يحسم الشك فيها ، ويقطع باليقين
بأنها من عند الله ، وأنها لا تظهر إلا لمن اختارهم الله رسلا إلى عباده .

هذا ما يمكن أن يقال في هذا الوجه من الإعجاز ..

ولكن هذا الوجه على ما يبدو من وجاهته مدفوع من وجوه :

فأولاً : بحجى المعجزة على صورة واحدة متكررة يفقدها كثيراً من التأثير
العقلي والنفسى الذى كان لها على الناس عند وقوعها لأول مرة . . فإن ظهورها
في الناس بعد احتياجها - الطويل أو القصير - لاثير فيهم تلك المشاعر العاصفة
التي كانت تثيرها عند ظهورها أول مرة .. إذ أن الناس في المرات التالية للمرة
الأولى يلقونها وقد عرفوا عنها كثيراً من صفاتها وأفعالها .. فلا تقع من

نفوسهم الموقع الذى كان لها فى نفوس من شهدوها لأول مرة عرفتها الحياة فيها ... وهكذا الشأن فى كل أمر يعيش فى الحياة ، وتكرر دوراته فيها
.. فالشمس على ما هى عليه من عظمة وجلال ، قل ، لا يلتفت إليها الناس ، وقل ما يرون ما فيها من عظمة وجلال ! وذلك لتكرار دوراتها بين المشرق والمغرب ! حتى لقد صار ذلك منها أمراً مألوفاً ، وكل مألوف تلقاه النفس لقاء فائراً ، غير واقفة عنده ، أو ملتفتة إليه ! !

وثانياً : تكرار المعجزة الواحدة ، فى صورة واحدة يوقع فى كثير من النفوس أنها ليست من عند الله . وإلا لما وقفت قدرة الله عندها . مهما كان مبلغها من الدلالة على قدرة الخالق وسلطانه . !

إن الفنان العبقرى لا يرضى أن يحسب فى الفنانين العباقرة بأثر واحد من آثاره . ولا تنفصح له الحياة مكاناً بين العباقرة الفنانين حتى يأتى بأكثر من شاهد يشهد له على مكانته وأصالته . ورسوخ قدمه !

فالعامل الفنى الواحد - مهما يكن فيه من لمسات العبقرية ومخايلها - ليس إلا نبأ تلقت الناس إلى أن فناً يوشك أن يولد ، ويخرج إلى الحياة . . . ويتقرب الناس بعد هذه النبأ مولد الفنان فيما يقدم من أعمال . . . فان وقف عند العمل الأول تزاورت عنه الأبصار ، وحسب عمله الأول فلتة من الفلتات ، أو مصادفة لم يكن له تدبير فيها !

والناس فى جناب الله ، وفى قدرته يتوقعون أعمالاً لا تقف عند حد فى مجال الاستدلال على تدرية الله . . فكل شيء مستخر لله ، خاضع لأمره ، مستجيب لدعوته ..

« إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

والرسل هم السفراء بين السماء والأرض . . بين الله والناس ! .
والذى يتوقعه الناس هو أن يروا هؤلاء السفراء فى حلل جديدة من الرواء والجلال . . كل حلة منفردة بألوانها وأصباغها ، لا تشبه لاحتقائها

سابقتهما . فإذا جاء الأمر على خلاف هذا ، وجاء السفراء واحداً إثر واحد في ساحة يأخذها اللاحق عن السابق ، ساء ظن الناس - وحق لهم أن يسوء ظنهم بهؤلاء السفراء ، وأن يشكوا في صدق دعواهم أنهم رسل من عند الله . فإن ما عند الله كثير لا ينفد ، ولا يحصى على تلك الصورة التي لا تدل إلا على العجز والفقر ١١ ومن شأن المعجزة أن تحدث الناس بلسان فصيح عن قدرة الله . وعن جلاله وعظمته ، وأن ترى الناس الله الذي له ملك السموات والأرض .. الله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم ..

وثالثاً: المعجزة في حقيقتها لسان يحدث الناس على قدر عقولهم ، وباللغة التي يتعاملون بها .

وسواء أكانت المعجزة حسية أم عقلية ، فإنها لكي تكون حجة على الناس - ينبغي أن تقدر بقدرهم ، وتحسب بحسبهم ، أو بمعنى آخر ينبغي أن تجري معهم على مقتضى الحال كما يقول علماء البلاغة .. فإذا كانت من الناس بحيث تبعد الشقة بينهم وبينها صعوداً أو هبوطاً - لم تلتق بالناس ، ولم يلتقوا بها ، فذهبت مذهباً ، وذهبوا هم مذهباً آخر وكانت وهم كما يقول الشاعر :

أيها المذبحك الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى

وإذا كان الناس مختلفون في طبائعهم . متفاوتون في ذكائهم ؛ حسب أزمانهم وأوطانهم ، فاللسان الذي يخاطبون يجب أن يكون مختلفاً بحسب هذه الطبائع ، متفاوتاً بتفاوت هذا الذكاء ، حتى يكون لساناً مفهماً يجد من يستمع إليه . ويتلق عنه !

من أجل هذا كانت معجزات الرسل واقعة على حسب كل أمة واستعدادها العقلي والنفسي .. وكان لكل رسول معجزة أو أكثر تناسب حال قومه ، وتجيء إليهم من الجانب الذي بلغوا فيه غاية ما عندهم من فطنة وذكاء ، ومالهم من قوة وجهه !

وكان من هذا أن جاءت معجزات الأنبياء على هذا التقدير . . محسوبة بحساب الأمم واستعدادها .

يقول الجاحظ : « وعلى قدر جهل الأمة ، وغباء عقولها ، وسوء رغبتها ، وخبيث عاداتها ، وغلظ مخنتها ، وشدة حيرتها — تسكون الآيات . ، كفلق البحر ، والمشي على الماء ، وإحياء الموتى » (١)

وسنرى فيما نستقبل من أبواب هذا الكتاب بياناً شارحاً للحكمة في اختلاف المعجزات . ومناسبتها لأحوال الأمم كما سنرى لماذا كانت معجزة النبي ﷺ ، معجزة عقلية ، تخاطب العقل الإنساني في أعلى مستوياته وأدناها جميعاً ، فيما حل القرآن من آيات بينات .

• • •

الباب الرابع

مصادر الرسالة الإسلامية

محمد ، والقرآن ، والصلة التي تجمع بين محمد ، والقرآن . تلك هي موضع البحث والنظر لمن يريد أن يتعرف على المصادر التي أقامت الشريعة الإسلامية على تلك الصورة ، التي تعرفها الحياة ، ويدين بها المسلمون .

من أجل هذا كانت هذه الدراسات الكثيرة لشخصية محمد ، ولحقيقة القرآن ، ولما بين محمد والقرآن من صلة — كانت هذه الدراسات منظوراً إليها من آفاق مختلفة ، متعددة ، سواء أكان ذلك من المسلمين أنفسهم ، أم من غير المسلمين .

فقد استبد بكثير من المسلمين الشعور الديني ، وغلبتهم العاطفة الدينية ، وصور لهم الوهم الخاطيء أن يأنفوا بشخصية الرسول بألوان وأصباغ ليترضوا بها مشاعرهم الساذجة ، فجاءت هذه الأصباغ الغريبة وتلك الألوان الصارخة على غير ما قدروا وعلى غير ما أرادوا .. إنها تنزل من جلال النبوة وجمالها بمنزلة أصوات دخيلة مزعجة في نشيد علوي ملائكي ! بل إنها — في أحسن أحوالها أشبه بالمصاييح الموقدة تحت أشعة الشمس ، في وجه النهار المشرق !

وكما استبد الحماس الديني ببعض المسلمين ، فجاءوا إلى شخصية الرسول بهذه البضاعة الرخيصة ؛ كذلك استبدت الكراهية للإسلام ، والحق على نبي الإسلام ببعض الناس فحاولوا أن يلقوا على الإسلام ، وعلى نبي الإسلام ظلالاً معتمة من الريب والشكوك ، وأن ينزعوا عنهما ما عليهما من عظمة قدسية ، وجلال رباني .. فجاء عملهم هذا على غير ما قدروا ، وعلى غير ما أرادوا فإن ما يبينه الله لن يهدمه الناس ! وهل يحجب الدخان المتصاعد من الأرض والغياب التأثير من أعاصيرها وعواصفها وجه الشمس عن الحياة يوماً أو بعض يوم ؟ بل إن الشمس لتزداد في العين بهاء وجمالاً إذا أسفرت من وراء النمام ، وتبدت من خلال السحاب !

على أن كثيراً من الدراسات التي تناولت شخصية الرسول ، وحقيقة القرآن ، من علماء المسلمين ، وغير المسلمين قد جاءت مقصدة في أغلب أحوالها ، تنزع منزع الوقوف على الحقيقة والتهدي إلى مواطن الحق .

ولا نريد أن نقف هنا على تلك الدراسات المستقيمة المبتدلة التي قصد بها أصحابها وجه الحق في سيرة الرسول ، وفي شريعة الإسلام ، فإن طريقها واضح لا تهمي سبله على من يلتمس الحق ، ويطلب الوصول إليه .

ولنأما الذي نريده هنا هو أن نعرض بعضاً من هذه الوجوه الشائبة الممسوخة التي أدخلها على سيرة الرسول ، وعلى حقيقة القرآن هؤلاء الجهلة المتقطعون من المسلمين ، أو أولئك الجهلة المتعصبون من غير المسلمين .

وأهم ما يعنيننا في موقفنا من تلك القضية أن نضل بأمن من هذه التيارات المتدافعة من المتطعين والمتعصبين ، فلا تغلبنا العصبية للعقيدة ، ولا يحملنا الشنآن للمعادين للإسلام على أن نجور في الحكم ، أو نستبد بال رأي . وذلك مانستعين الله عليه ، ونرجو السداد والتوفيق فيه .

شخصية الرسول

كانت شخصية الرسول موضع نظر عميق ، وبحث متصل من أولياء الإسلام ، وأعدائه على السواء ! .

ذلك أن الإسلام وإن كانت تعاليمه منزلة من السماء ، لا دخل لمحمد فيها — إلا أن تناول محمد ، لهذه التعاليم ، وقيامه عليها ، وتطبيقه لها قد جعل بينه وبين هذه التعاليم رابطة وثيقة ، بل إنه جعل منهما كيافاً واحداً . .

فأى ما يقع في القرآن من ضروب السكال والجلال — وكله كال وجلال — يضمني على محمد ، كالا وجلالا . . كما أن أى سناً يضىء من حياة محمد ، — وكل حياته سناً وضياء — يزيد القرآن ألقاً وإشراقاً على ألقه وإشراقه .

وعكس هذا يأخذ هذا المأخذ ، فإن أى عوج يبدو في شخصية الرسول —

وهيئات هيئات — يتسرب إلى القرآن ذاته ، ويناله في الصميم منه . . وإن أرى
أأخذ يؤخذ على القرآن — وهيئات هيئات — ينال من محمد ، في شخصيته ،
وفي مكانته !

ولإنه لاختلاف بين المسلمين وغير المسلمين على شخصية محمد ، التاريخية ، فهو
شخصية تاريخية معروفة الزمان ، والمكان ، تشهد لها الوثائق التاريخية شهادة لم
يقدّمها التاريخ لأية شخصية أخرى غير « محمد » .

من أجل هذا لم يستطع أشد أعداء الإسلام عداوة ، وأكثرم جرأة على
الحق ، وعدواناً على الحقائق أن يبدؤ بذرة واحدة من بذور الشك حول شخصية
« محمد » من ناحية وجوده في الحياة ، في زمانه ومكانه الذي وجد فيه ، كما لم
يستطع أحد أن ينكر الانقلاب التام الذي قام به « محمد » في الجزيرة العربية ،
وفي الحياة الإنسانية ، وما أثار في العقول من أفكار ، وما ألقى في القلوب
من معتقدات .

ولكن الذين نصبوا أنفسهم لمحاربة الإسلام لم يسلّموا بهذه الحقيقة على
إطلاقها ، ولم ينطقوا بكلمة الحق فيها . . إذ أنهم لو سلّموا « محمد » بما عرفت
الحياة منه ، وبما حفظ التاريخ له لسلّموا للإسلام بأنه دين الله ، وبأنه وحى
السماء ، وشرعية الحق . ودون ذلك أهوال وأهوال . . فإنهم والإسلام في حرب ،
ولن يسلّموا له أو يستسلموا إلا بعد أن يرموا بأخسر سهم بين أيديهم ، وإلا بعد
أن ينفثوا ما في صدورهم من حقد وحسد . .

تخطيط وهديان :

كان أقرب شيء إلى الذين حاربوا الإسلام وكادوا له أن يلقوا ظلالاً من
الريب والشكوك حول سيرة الرسول ، وأن يبعثوا من صدورهم المريضة نفثات
من الحقد الأسود المموم فيشير دخانها ينحرف على تلك الشخصية ، فيبين من
حقيقتها ، أو يخفي من معالمها . . فذلك وإن بدا لأول أمره أنه عمل طائش لا يلقى
من الناس إلا استهزاء واستخفافاً ، إلا أنه مع الزمن ، ومع تردد هذا الافتراء
قد يصبح يوماً ما حديثاً يروى في الناس ، ثم لا يعدم على الأيام أنصاراً ، ثم قد

لا يعدم من أولئك الأنصار من يدخل به على التاريخ ، ويفسح له مكانا فيه ..
فما أكثر المفتريات التي ولدت في الحياة مولدا غريبا شائها ، ثم استطاعت مع
الزمن أن تندس في تفكير الناس ، وأن تجدد من العقول و الرخوة و المريضة
طواعية لها ، وقبولا لقوالها الممسوخة المعوجة ! .. وكفى في التاريخ من أكاذيب
وأباطيل ومفتريات غلبت الحقائق ، وأزالها عن مكانها .

كان أقرب شيء إذن إلى الذين حاربوا الإسلام وكادوا له أن يذهبوا
هذا المذهب ، وأن يحكموا رميتهم من هذا الجانب ، فإنها إن صحت أصابت
من الإسلام مقتلًا لا يقوم بعده ، وأنهم هذه الحرب التي لا تنتهي بينهم
وبين الإسلام .

ولسكن الأمر — أمر محمد — أكبر من أن يتغشاها كذب ، أو يظهر
عليه افتراء !..

ولا تحسبن الذين حاربوا الإسلام ، وحاربوا في الإسلام بحجوش زاحفة
في الحملات الصليبية ، وغير الحملات الصليبية التي شرع لها العلماء والفلاسفة
أقلامهم ، وأقاموا لها دراسات أكاديمية ودارسين محترفين للمفتريات والأكاذيب
المطيلة بطلاء العلم ، والمموهة ببريق البحث عن الحقيقة — لا تحسبن هؤلاء
جميعا قد غفلوا عن هذا السلاح ، سلاح التشويش على شخصية محمد وإذابتها
بالدعاوى الباطلة ، والأسانيد الملققة ، ليحيلوا شخصية محمد بعدها خرافة عاشت
في خيال العرب مع كثير من الخرافات التي تأثروا بها في حياتهم . ولسكنهم
كانوا كلما حاولوا خلق عناصر الضلال والبهتان لينسجوا من خيوطها نسيجًا يلفون
فيه شخصية محمد وجدوا أنهم إنما ينسجون بيتًا من بيوت العناكب ، يحاولون
أن يسدوا به وجه السماء ، وأن يجبروا ضوء الشمس في رابعة النهار ! فكان إذا
ولد لهم من هذه الأكاذيب مولود وأدوه ، وواروه التراب .. أشبه بالأجنة التي
تلفظها الأرحام قبل أن تدب فيها الحياة !

إن حقيقة محمد ، التاريخية لم تكن يوما من الأيام موضع شك أو منار
خلاف بين المسلمين وغير المسلمين على كثرة ما كان بينهم من خلاف متصل ، وجدل
ملتعب في كثير من أصول الشريعة وفروعها ..

عظمة محمد :

وعظمة « محمد » ليست محل شك عند كل من يعول عليه من أهل المعرفة ، وأصحاب الرأي من غير المسلمين ؛ فضلاً عن المسلمين الذين يرتفعون بمقام نبيهم إلى مستوى من العظمة لا يرتفع إليه بشر ، ولا يدنو منه إلا أنبياء الله ورسله الكرام .

وعظمة « محمد » عظمة بارزة ، أكبر من أن يشكرها مكابر ، أو يعمى السبيل إليها مضلل أو مخادع .

لقد فرضت على أعداء الإسلام أن يشهدوا لمحمد بأنه واحد من آحاد العظماء في تاريخ الإنسانية ، ورائد من روادها ، ومصلح من مصلحيها .

ولكن أبى كثير من هؤلاء أن يعترف لمحمد بأنه نبي ، وأنه تلقى شريعته من السماء . . ضناً منهم على شريعة الإسلام أن تفيض من هذا الينبوع العلوى ، وأن تتصل أسبابها بالسماء . وهم بهذا إنما يريدون أن تذهب هذه الشريعة مع ماذهب من شرائع سنها المصلحون من الناس . . عن كانت شرائعهم مستمدة من إلهاماتهم الروحية دون أن تتصلها بالسماء أسباب . . وبذلك يذهب « محمد » كما ذهب العظماء في متاحف التاريخ .

لقد ذمبت شريعة « حمورابى » وبهت ظل القانون الرومانى . وعفى الزمان على الإسكندر . ونابليون وغيرهما . . ذلك على خلاف الشرائع السماوية ، ورسلك تلك الشرائع . . وإن دخل على بعض تلك الشرائع ما دخل من تبديل ، وتحوير . . فإنها على ما دخل عليها لا تزال محتفظة بطابع سماوى ، يضىء عليها الجلال ، والخلود !

عظمة الانسان ، وعظمة النبى :

ولا شك فى أن « محمداً » لو لم يكن نبياً ، لكان إنساناً مرموقاً فى قومه ، ولكان له شأن بينهم .

ولكن مهما يكن من شأن الأخلاق الكريمة ، والصفات الطيبة ، والذكاء البهيمى الذى يشتمل عليه كيان أى إنسان فى الجزيرة العربية ، فإنه لن يتجاوز

هذه الحدود التي كانت تدور فيها قواهم الروحية ، أو النفسية ، أو العقلية ، أو الجسدية . .

فلقد كان يمكن أن يكون « محمد » — لولا أن أكرمه الله بالنبوة ، واصطفاه بالرسالة — كان يمكن أن يكون واحداً من أولئك الذين كان لهم مكافئة في قومهم ، وكانوا بموضع التجلة والاحترام فيهم .

وانظر فيمن عرف في الأمة العربية — قبل البعثة النبوية — بحال أوجبت له التقدير والاحترام ، وأضفت عليه ثوب الزعامة والقيادة . . فإنك تجد في الحكماء مثلاً « أكرم بن صيفي » . وفي الخطباء البلغاء « قيس بن ساعدة » . وتجد في الشعراء : امرأ القيس ، وعنترة ، ولييد ، وعمر بن كلثوم ، وغيرهم من أصحاب المعاني . . وتجد في الأبطال الفرسان عنترة ، وعمر بن عبدود ، والحارث بن شهاب . . وتجد في السكهان شقياً ، وسطيحاً ، وغيرهم كثير من تلك الأسماء التي حفظها تاريخ الأمة العربية في الجاهلية لذوى النباهة والشأن من رجالها .

كان « محمد » لولا النبوة — يمكن أن يكون واحداً من أصحاب المعاني ، أو الحكماء ، أو الخطباء ، أو الفرسان ، أو السكهان . . أو أن يكون فارساً ، أو شاعراً ، أو خطيباً . . ولكن يظل مع ذلك في هذا المستوى الذي عاش فيه « محمد » قومه ، وشعراؤهم وخطبائهم وكهانهم ، وأصحاب المسكنة المرموقة فيهم .

وماذا تعطى بلاد كالبلاد العربية المجذبة أكثر من هذا ؟ بل ماذا تعطى أعدل البلاد جواً ، وأخصبها أرضاً ، وأوفرها خيراً ؟ ماذا تعطى في مجال العظمة ، وماذا تقدم للحياة من عظماء ؟ بل ماذا تعطى الحياة الانسانية كلها من عظمة وعظماء ؟ إن كل نتاج أرضي مهما يكن من الصفاء ، والقوة ، والسلامة لا يمكن أن يكون شيئاً إلى جانب تلك الثمرات الطيبة التي تتخبرها السماء من العالم الأرضي فتسكب فيها شعاعات من النور العلوي ، وتطلق فيها شرارة من روح القدس فتكون هذه الثمرات الزكية الطيبة أنبياء الله ورسله إلى عباده . إن عظمة النبي عظمة لإنسانية سماوية معاً . . التي فيها الإنسان في أكرم خصائصه وأصفى صفاته

بالعالم العلوى ، فهل من مناهله ، واقتبس من أنواره ، وتزود لروحه من
شعاعات الحق التى لا تخبو أبداً !

موقف .. وموقف :

لم يستطع أعداء (محمد) - قديماً وحديثاً - أن ينكروا هذا الذى بين يديه ،
وعلى لسانه من علم وحكمة . . كما لم يستطع أعداؤه - قديماً وحديثاً - أن يفضوا
الطرف عنه ، وأن يجربوا عن أبصارهم أضواء هذا الجلال الذى يحف به ،
أو أن يكسروا شعاعات تلك العظمة التى يجد ريحها كل من يخالطه أو يدنو منه ،
أو يطالع سيرته !

ولكن الذى ياباه هؤلاء الأعداء - قديماً وحديثاً - على محمد هو أن يكون
متصلاً بالسماء ، متلقياً عن الله تلك الرسالة التى يدعو الناس إليها ، ويبشر فيهم بها !
لأنهم يرضون لمحمد أن ينزل من منازل العظمة الانسانية حيث يشاء ، ويسلمون
له أن يكون ما يشاء فيهم ، وفى مناصب السيادة والقيادة عليهم ، ولكن على أن
يمزل نفسه من منصب النبوة ، ومن مقام الرسالة ، وأن يحىء لهم عن طريقته
الشخصى ، فإن ما فيه من الصفات الكريمة يؤهله للزعامة المطلقة فيهم !

وقد عرضنا للدوافع التى تحمل الناس على هذا الموقف من أنبياء الله ورسله ،
واستكثارهم على بشر منهم أن يطاول السماء ، ويتعامل معها (١) !

وكان موقف قريش من (النبي) هذا الموقف الضاد قائماً على هذا التقدير ،
ومقدراً بهذا الحساب . . وهو أن يكون لبشر معاملة مع السماء . . . إن هذا
لأقول البشر . . . ! وأنزل الذكر عليه من بيننا ؟ بل هو كذاب أشرا . . .

وقد تولى القرآن الكريم فضح مقولات المعاندين من كفار قريش حالا
بعد حال : فحين قالوا عن النبي إنه ساحر كان رد القرآن :

« هل أتاكم على من تنزل الشياطين ؟ نزل على كل فاكٍ إنيهم
ينلقون السمع ، وأكثرم كاذبون . »

وما جربت قريش على محمد ، حالاً كذب فيه ، ولا عدت عليه في حياته
كذبة واحدة !

وحين قالت قريش عن النبي إنه شاعر أجابهم القرآن : « والشعراء يتبعهم
لغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » ..
والقرآن - كما تعرف قريش - ليس بشعر ، والنبي - كما تعرف قريش -
لا يهيم في أى واد من أودية الضلال ، ولا يقول ما لا يفعل أبداً ... والشعراء
يهيمون في أودية الخيال . ويقولون في أشعارهم ما لا تصدقه أفعالهم .

أنشد « الرزدق » سليمان بن عبد الملك قوله :

ثلاث واثنتان فبن خمس وسادسة تميل إلى شمام
فبن بجانبي مصرعات وبت أفض أغلاق الختام

فقال سليمان : ويحك يا فرزدق ! أحلت بنفسك العقوبة ! أقررت
عندى بالزنا ، وأنا إمام ، ولا بد لي من أن أحبك .. فقال الفرزدق : بأى
شئ أرجبت على ذلك ؟ قال : بكتاب الله ! .. قال : فإن كتاب الله هو الذى
يدرأ عنى الحد ! قال : وأين ؟ قال : قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » ..
ألم تر أنهم في كل واد يهيمون : وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، .. فأنا قلت
بأمر المؤمنين ما لم أفعل ؟

ما أشبه الآية بالجارحة

والموقف الذى رقت قريش من النبي ، قد وقفه أعداء الإسلام بعد هذا
من محمد ، ورسالته ..

فلقد نازع خصوم الإسلام في نبوة محمد ، وإن لم ينازعوا في مكانته من
القيادة والزعامة والإصلاح ، بين القادة والعلماء والمصلحين من الناس .

والذى يرمى إليه هؤلاء الخصوم الذين يشككون في نبوة محمد أو يكذبونها
إنما هو - كما قلنا - تجريد الشريعة الإسلامية من عناصر الخلود المستمدة من
السماء ، ووضعها في دائرة الأنظمة الوضعية التى تخضع للتحويل والتغيير - الجزئى

أو الكلى - بأيدي الناس ! وبهذا تتعزى الشريعة الإسلامية من هذا السياج
القدس الذى حفظها من عبث العابثين ، وحماها من أن تمتد إليها يد مجو
أو تبديل !

ولقد حاول خصوم الاسلام محاولات مجعدة مضنية أن يدخلوا على الاسلام
من هذا الطريق ، وأن يشككوا فى بعض آيات القرآن بإضافة أو حذف
فما استطاعوا أن يدخلوا عليه حرفاً ، أو يخرجوا منه حرفاً على مدى يزيد على
ثلاثة عشر قرناً !

والآيات التى أرادوا أن يشككوا فيها آيات معدودة . . وليست من الآيات
التي تمس أصلاً من أصول الشريعة . . ولكن الشك فى أى آية يسحب الشك
إلى القرآن كله .. وهذا ما قصد إليه الذين جاءوا إلى الإسلام مهاجمين
من هذا الطريق . .

إن قداسة القرآن وحده متكاملة ، فإذا تطرق الشك إلى أنة جزئية فيه كان
ذلك داعية إلى الشك فى كل أجزائه ، وبهذا يتداعى ذلك البناء الشاخ
المقدس ، وينهار !

محمد . . بعد القرآن :

وحين أعياهم أن يزيفوا شيئاً من تلك الوثيقة المقدسة الخالدة عمدوا إلى
مصدرها الذى صدرت عنه ، فأثاروا حول نبوة النبى دخافاً متكافئاً من الشكوك
والريب . . وغايتهم من هذا أن يقطعوا الصلة بين القرآن وبين السماء ، وأن
يشيخوه إلى محمد ، كما أضيفت مملقات الشعراء إلى أصحابها ، وكما نسبت أسجاع
السكان إلى أربابها !

يقول « بارثولوميو ، الرهاوى : موجهاً هذا الحديث الخطابى إلى مسلم :
« قل لى بربك .. ماذا تعنى بالنبوة والرسالة ؟ »

« والله يعلم أنكم ما كنتم تستطيعون أن تعرفوا ، . لو لم يعلمكم المسيحى !

« إنك تقول : إن نبيكم ظل اثنتين وثلاثين عاماً^(١) لا يتكلم كلام الأنبياء ، ولا هو كان أثناءها رسولا ، ولا معلماً ، ولا عرف شيئاً عن الله ، وأنه عرفه بعد تلك الفترة ...

ثم يمضى في هذه السفسطة ... فيقول :

« إذا كنت تنكر بتمام الجدة أن شيئاً قد حصل بوساطة محمد ، إبان تلك السنوات الاثنتين والثلاثين الأولى من حياته .. فكيف لا ينبغي لي أنا المسيحي أن أنكر أحداث تلك السنوات الخمس عشرة التالية^(٢) ؟

ثم يخلص من هذا الهزل إلى هزل ... يقول فيه :

« ولكن أخبرني أولاً — ناشدتك الله — كيف استطاع — محمد — أن يعرف الله ؟ وبأية وسيلة عرفه ؟

« وإذا كنتم تسمونه نبياً فأروني ... ماذا تنبأ به ؟ وبأى لفظ تنبأ ؟ وما هي وصاياه ؟ وما هي الآيات والعجائب التي صنع ؟ »^(٣) .

هذا لون من ألوان التشويش على الإسلام ، وعلى نبي الإسلام ... لم يكن صاحبه يحمل شيئاً من العلم بالموضوع الذي يجادل فيه . . . ويكنى أنه يجمل من حياة محمد ، تلك الخطوط العريضة — كما يقولون — من سيرته . . . تلك السيرة التي لم يختلف على حدودها الزمنية عدو أو ولي . . . فمحمد ، إنما جاءته النبوة بعد أن بلغ الأربعين من عمره ، لا اثنتين وثلاثين سنة كما يقول هذا السيد المتعالم !! كما أن نبوة محمد قد ظلت ثلاثة وعشرين عاماً ، لا خمسة عشر عاماً بحسب دعواه .

(١) الحق أنه ظل أربعين عاماً ، لا اثنتين وثلاثين . . . فقد جاء وحى السماء بعد أن بلغ الأربعين من عمره .

(٢) أنها ليست خمس عشرة سنة ، ولكنها ثلاث وعشرون . . . هي سنوات النبوة من بعثة النبي صلى الله عليه وآله إلى أن لحق بالرفيق الأعلى في الثالثة والستين .

(٣) حضارة الإسلام لجوستاف جبرونيياوم ص ٦٨

ويكفي في سقوط كل مدعيات هذا المدعى أن كان من الجهل بموضوع هذه القضية إلى الحد الفاضح .

نعم .. إن الرجل وإن لم يكن يحمل من العلم شيئاً في موضوعه هذا ، إلا أنه كان يحمل طاقة كبيرة من الحقد على الإسلام ، والكرهية له .. ولكن الحقد والكرهية وحدهما لا يفيان شيئاً في التشويش على الحق ، ولا في زحزحته عن موضعه .

ولو أن مع هذا الحقد ، وتلك الكراهية شيئاً من العلم لما كان هذا الخلط ، وذاك الهراء ، ولا استطاع الرجل بما عنده من علم أن يقتصد في هذا النباح ، أو أن يخرج في صورة أقرب إلى صوت العقلاء من الناس .

ومن البديهي ألا تقف من هذا الكلام موقف الجد ، ولا أن ترد على تلك الأسئلة التي سألتها - متبجحاً - في صورة تهجم واستهزاء ... لأن ذلك كان يمكن لو أننا نجد لهذا الكلام شيئاً من الاحترام في عقولنا ، أو قدرأ من الاعتبار في تقديرنا .. فلندعه يمضي كما يمضي صوت النائحة في جوف الصحراء . ولننظر في صرخة أخرى من تلك الصرخات المجنونة ... فما أكثر تلك الأصوات التي تنطلق من صدور محنقة ، حاقدة ، على الإسلام ، وعلى نبي الإسلام .

يقول د ثيوفانيز ، المتوفى سنة ٨١٧ م في صدد انتشار الإسلام : وهكذا انتشر الخبر - خبر محمد - من النساء - يقصد خديجة - إلى الرجال ، فبلغ أولاً أبا بكر الذي جعله فيما بعد خليفة بعده !

وانتهى الأمر بأن استطاعت شيعته أو قل فرقة المارقة أن تحصل بالقوة أو قل بالحرب على السيادة على منطقة يثرب ، وذلك بعد أن قضى في البداية عشر سنوات ينشر دعوته سراً ، ثم قضى عشر سنوات أخرى ينشرها حرباً ، وانتهى الأمر إلى إعلانها صريحة ، وحكم البلاد تسع سنوات ١١

وكان يعلم أنصاره بأن من قتل عدوه أو قتله عدوه فهو داخل الجنة ١١ وكان يصف الجنة بأنها موطن سرور جسدي ، وشرب ونهر ، وعناق للنساء وأن بها أنهاراً من نهر ، ومن عسل ولبن ، وأن هناك نساء غير اللواتي

لهم اليوم عناقبن مديد دائم ، وله سرور مقيم ، (١) .
وأغرب ما في هذا القول - وكله غريب - أن تقوم فرقة مارقة بإقامة دولة
مترامية الأطراف ؛ وأن تقيم حضارة عريقة راسخة تنفذ شعاعاتها القوية في ذلك
الظلام المطبق الذي كان يخيم على أوروبا ، فيفتح لها معالم الطريق إلى الخروج من
ظلمات العصور الوسطى إلى عصر المدنية الحديثة ... فإن القوة العاشمة لا يمكن
أن تقيم بناء قويا متاسكا يبق على الزمن بعد أن تزايله تلك القوة ؛ وتمتلى عنه ...
وقد بقي الإسلام أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، يزداد على الأيام أنصاره ؛ وتنفسح
في العالم رقعته ، وسيبقى هذا الدين أبد الدهر مصدر هدى ، وإشعاع علم ومعرفة ،
لكل عاقل رشيد .

ولانقف عند تلك المقررات الباطلة التي يدعيها هذا المدعى عن الدوافع التي
كانت تدفع المسلمين إلى الاستشهاد في سبيل الله . وإعزاز دين الله ، ونصرة نبيه ، .
فإن هذا الرجل - شأنه شأن صاحبه من قبل - يستمل قلبه من صدر محموم ؛
وقلب مريض ؛ فلندعه إلى محموم آخر في هذا الصف الطويل ، ممن يهذون هذيان
الحى من صدور تغلى حقدًا على الإسلام وعلى نبي الإسلام !
يقول وإليم الطرابلسي المتوفى سنة ١٢٧٣ م في رسالة له عن حالة العرب
والنبي محمد ، وشريعته ، وعقيدتهم :

« إن العرب يمتقدون أن جبريل نقل الإرادة الإلهية إلى النبي ؛ ثم صاغ
المؤمنون ما كان ينطبق به كتاباً ، .

ثم يعلق على هذا الذي يمتقده العرب حسب رأيه فيقول : « إن الكاثوليك
على ذلك رأياً آخر فهم يرون أنه بعد أن مات محمد أراد أنصاره أن يعالجوا
العقيدة الشريعة معالجة شاملة قائمة على تعاليمه ... فلما تبينوا أن الرجل الذي نيط
به العمل (٢) لم يرزق الكفاية اللازمة لأداء ذلك على الوجه الأكمل - طلبوا إلى
اليهود والمسيحيين الذين أسلموا أن يساعدهم !

(١) حضارة الإسلام ص ٩٨

(٢) لعله يقصد بهذا الرجل زيد بن ثابت الذي جعله أبو بكر على رأس تلك الجماعة التي
وكل إليها جمع القرآن ، وقد كان مجموعاً عند كتاب الوحي وغيرهم ، كما كان محفوظاً في الصدور .

وهنا تبدو للرجل أن الفرصة سانحة بعد أن اختلق لها هذه الفرية بإدخال جماعة من أسلموا من اليهود والنصارى في عملية جمع القرآن — فيقول :

« وعند ذلك رأى هؤلاء — أى الذين أسلموا من اليهود والنصارى — من الأفضل أن ينتقوا فقرات مناسبة من العهد القديم والجديد ، وأن يمزجوها بالكتاب كما اتفق (١١) . وبذلك أصبح الكتاب على قدر عظيم من الروق والجمال المنقول من الكتب المنزلة ، مابين مسيحية ويهودية أما الجانب الإسلامى الاصيل فليس إلا تشويها وتحريراً ٩١ ، (١)

وشخصية القرآن التاريخية — إن ساغ هذا التعبير — شخصية لامراء فيها ، ولا اختلاف عليها بين المسلمين ، وخصوص المسلمين ؛ فهي أكبر من أن يحجبها هذا اللغو ، وهى على الصحة والسلامة بحيث تقتل كل ميكروب خبيث يدخل عليها .

وجميع الذين تعرضوا لدراسة تاريخ القرآن من علماء الغرب والذين يعتمد عليهم ، ويؤخذ برأيهم — لا ينكرون هذه الحقيقة ؛ وهى أن القرآن قد جاء به « محمد » ، وأن الجمع الذى قام به أبو بكر ؛ ثم عثمان من بعده ، لم يكن إلا نقلاً له من تلك الوثائق الكثيرة ، التى كانت بأيدي كتاب الوصى ، وعند كثير من الصعابة وغيرهم ؛ وهى مع كثرتها كانت جميعها على الصحة والسلامة الكاملة ، يشهد بعضها لبعض ، ويزكى بعضها بعضاً . وذلك بالإضافة إلى شهادة الحفظ للقرآن كله ، عند كثير من القراء ، من صحابة رسول الله . .

من أجل هذا لم يجرؤ عالم من علماء الغرب أن يقف لهذه الحقيقة موقف المناقض لها ، أو المشوش عليها . وإنما الذى كان من مقولاتهم هنا : أن هذا القرآن من كلام « محمد » ، وليس وحى السماء ، وربما قالوا إنه استمد مصادر هذا القرآن من ورقة بن نوفل أو غيره من الأحبار والرهبان .. ولكنه على أى حال يضاف إلى « محمد » وينسب إليه !

ولم يقل أحد قبل هذا الرجل أو بعده أن جماعة ممن أسلموا من اليهود

والنصارى شاركوا فى وضع القرآن أو جمعه . . ولم يقل أحد كذلك بأن
فصلا ، أو فصولا من التوراة - فى عهدها القديم والجديد - قد أضيف
إلى القرآن عند الجمع .

لم يقل أحد بهذا القول الرخيص ، لأنه قول يفضح صاحبه ، ويعرّيه من
كل سمة من سمات العلم . فإن الذين شاركوا فى عملية جمع القرآن فى عهد أبى بكر
وفى عهد عثمان . معروفون معرفة وثيقة فى التاريخ ، لا اختلاف عليها . ! وأغرب
ما فى هذا أن أصحاب هذه الدعوى من الغربيين يستندون إلى أقوال كفار قريش
فى أول الدعوة الإسلامية ، حين أعجزهم أمر القرآن ، فلم يقبلوا أن يكون وحياً
من السماء نزل على محمد . . ثم راحوا يلفقون أقوالاً فى المصدر الذى يرجع إليه
هذا الكلام العجيب الذين يسوهمهم محمد ، إياه . . فقالوا تلك المقولات التى
حكاها القرآن عنهم فى معرض السخرية بهم والتسخيف لآرائهم فيما نزل من الحق !
يقول الله تعالى : « وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون . . لو ما تأتينا
بالملائكة إن كنت من الصادقين ، (١) . . ويقول سبحانه : « وقال الذين كفروا
إن هذا إلا إفك افتراه ، وأحاطه عليه قوم آخرون . . فقد جاءوا ظلماً وزوراً ،
وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فى تملى عليه بكرة وأصيلا . . قل أنزله الذى يعلم
السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيماً ، (٢) . . فهذه أقوال أخذها
القرآن من أفواه أصحابها وردّها عليهم فى حينها . . فسكيف تصبّح اليوم حجة
على القرآن نفسه ؟ ثم هذا هو القرآن ، وتلك هى التوراة !

فما الفصول التى أضيفت إلى القرآن ؟ وما مكانها منه ؟

وهل يخفى ما بين أسلوب القرآن ، وترجمات التوراة من تفاوت واختلاف ؟

وهل يستطيع بشر أن يدخل على القرآن بآية واحدة ثم يجد لهذه الآية مكاناً
مطمئناً فيه ؟

(١) سورة الحجر آية ٦ ، ٧ .

(٢) سورة الفرقان آية ٦ .

إن القرآن نسيج وحده في الفصاحة والبلاغة ، وإن أى كلمة غريبة تدخل عليه
تتقوى وتموت ، ولا تجد لها بقاء فيه !

ولو كان في مقدور أحد أن يدخل على القرآن بشيء ليس منه ، وأن يفسد
معامله عند المسلمين لكان ذلك إلى قریش، وإلى غيرها من فصحاء العرب وبلغائهم
الذين حاربوا الإسلام حرباً مريرة طويلة ، أرخصوا فيها نفوسهم ، واستباحوا
من أجلها كل شيء .. ومع هذا فقد عرفوا أن هذا الباب موصد بينهم وبين
القرآن ، وأن كلامهم مهما يكن من بلاغة وبيان ، فهو بمنزلة الحصى من كريم
الجواهر ويقيمها .

فكيف يصح لهؤلاء الدخلاء على العرب والعربية ، الداخلين في الإسلام من
اليهود والنصارى أن يترجموا فصولاً من التوراة ، ثم يدخلوها على القرآن ، ثم
تجد مكانها آمناً مطمئناً فيه ؟

وهذه هي التوراة ، وهذا هو القرآن مرة أخرى !

اقرأ فصلاً أو فصولاً من التوراة ، ثم اقرأ سورة ، أو سوراً من القرآن
فإنك تجد طعماً غير الطعم ، ومذاقاً غير المذاق ، فإذا حاولت أن تجمع هذا بذلك
أو ذاك بهذا ، وإن تزوج بينهما وجدت أمراً غير مستقيم لك ولا مطاوع
لصنيعك ... كمن يؤولف بين أنعام تخرج على غير اتفاق أو ترتيب ... أنعام مختلفة
المقامات ، والاتجاهات فانه على فرض أن التوراة — بعديها القديم والجديد —
هي التوراة التي نزلت على موسى ، وهذا ما تنقضه شواهد التاريخ ، ويشهد به
حال التوراة ذاتها — على فرض صحة التوراة وأنها والقرآن يخرجان من مشكاة
واحدة ، فإن أسلوب الأداء مختلف أشد الاختلاف كاختلاف اللغة العامية الدارجة ،
ولغة الشعر في أعلى طبقاته أو هو أشد .

فالذي يقول : إن فصولاً من التوراة قد أضيفت إلى القرآن فرادته رونقاً
وجالاً ليس أكثر تجنياً على الحقيقة ، ولا أشد نكراً في القول من يقول : إن
فصولاً من قصة أبي زيد الهلالي أو سيف بن ذي يزن قد أدخلها شوقي كما هي

بجالها في روايته : « عترة ، أو ، مجنون ليلي ، ١١ وشتان بين الحالين .. هناك وهناك » .

وشبيه بهذا القول — من حيث الإسفاف والسقوط في مجال البحث العلمي — مايقوله المؤرخ البيزنطي « ثيوفانيز » الذي نقلنا بعض آرائه آنفاً ...

فقد ألف هذا المؤرخ كتاباً سماه « حياة النبي » .. وكان مرجعاً هاماً — كما يقول .. « جرونيباوم » لمن تلاه من الكتاب الغربيين !

يقول هذا المؤرخ : « ولما كان محمد ، المذكور فقيراً ، وقيماً ، فانه قرر أن يربط نفسه بامرأة ثرية من ذوى قرباه ، هي خديجة ، بأن جعل نفسه وكيلا لها ، لقاء أجر يتناوله ، يتولى شئون إبلها ، ويقوم بأشغالها في مصر^(١) وفلسطين ١١ ، ولم يمض طويل زمن حتى فاز برضا السيدة — وكانت أيماً — بفضل طرائقه الصريحة . فاتخذها زوجاً له ، وبذلك حصل على إبلها ، وسائر ممتلكاتها ، ١١ وندع هذا التلفيق من القول فيما ينسب إلى النبي من تطلعه إلى المال ، ومن استيلائه على إبل السيدة خديجة . وسائر ممتلكاتها ، ويكفي أن يخصص خصوم الإسلام الذين ينظرون هذه النظرة إلى « محمد » — يكفي أن يخصصوا تركته هذا النبي ، وما خلفه وراءه لذريته وأهله ١ لقد توفي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى في حاجة أهله ١ . أفهذا شأن من في نفسه إثارة لحب المال والشراء ؟ أفهذه تركته من تعان قلبه بحب المال وجمعه ؛ وقد فتح الله عليه البلاد ، وأفاء إليه الخير الوفير من فيها ؟ ١

قلنا : ندع هذا .

فلندعه إلى قول آخر لهذا المؤرخ ، بعد هذا القول .

يقول :

« وقد اختلط — أى محمد — فى فلسطين باليهود والمسيحيين . وبواسطتهم

حصل على بعض الكتب المنزلة ١١

(١) لم يكن لرسول الكريم رحلة إلى خارج الجزيرة العربية غير رحلته إلى الشام .. مرة وهو غلام مع عمه أبى طالب ؛ ومرة في قافلة قريش في تجارة للسيدة خديجة ، ولم يكن لهذا هذا الشرف برحلة النبي إليها في تجارة أو غير تجارة .

ثم ماذا ؟

« وأصيب كذلك بمرض عصبي ! !

« فلما علمت زوجته بأمره حز في نفسها - وهي العريقة الأصل - أن
قد أصبحت اليوم مرتبطة بإنسان لا يقتصر أمره على أنه فقير . . بل هو
أيضاً مريض ! !

« فراح يهدئها بقوله : إنى تلمنى رؤية ملك من الملائكة اسمه « جبريل » ،
ولما كنت لا أقوى على تحمل مرأه ، فإنى تخور قواى ، وأقع على الأرض !

« وكان يقيم بتلك النواحي راهب قد نفى لكفره . واتخذته صديقاً (١) ،
فأخبرته خديجة بكل شيء ، كما أبلغته اسم الملاك .

« وأراد الراهب أن يقنعها تماماً ، فقال لها : لقد قال الصدق ، فما ذلك
الملاك إلا الناموس الذى يرسل إلى النبيين كافة (٢) .

تتمتان هنا أراد هذا المؤرخ - الذى لم يحترم حرمة التاريخ - أن يرمى
بهما نبي الإسلام ؛ وذلك لينفذ إلى غرض آخر خبيث ؛ وهو أن القرآن إنما
هو هذيان تفيض به نفس محمد ؛ ويتحرك به لسانه فى نوبات الصرع ؛ وأن هذا
الهذيان إنما هو من أخلاط ما وقع عليه فى الكتب المنزلة التى استجلبها معه
من فلسطين .

ولم يحىء هذا المؤرخ بجديد ؛ بل أخذ هذا القول عن كفار قریش ؛
واتهامهم لرسول الله بأنه ساحر أو مجنون ، وبقولهم « إنما يعلمه بشر ! » .

وقد سجل القرآن الكريم هذه المزاعم الباطلة ، وكبت قائلها .. ثم لم يمض
إلا زمن قليل حتى زالت المشاوة عن قلوب كثير منهم ، فاهتموا إلى الحق ،
ودخلوا فى دين الله !

(١) يشير إلى ورقة بن نوفل ، وهو قرشى ، يمت إلى السيدة خديجة بقرابة قرنية .

(٢) حضارة الإسلام ص ٦٧

وإذ يذكر القرآن الكريم تلك المزايم الباطلة ، فإنما ليسجل على أصحابها هذا الادعاء ، ثم لينفضه ، ويفضهم معه ، على مدى الأزمان المتطاولة !

فإذا حكى القرآن قولهم . « إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ^(١) » وقولهم : يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ^(٢) » رد عليهم بقوله : « ن ، وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرُ مَمْنُونٍ ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ^(٣) » . وليس بعد هذا مقام يرتقى إليه بشر ! وإذا ذكر القرآن قولهم : وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا . ^(٤) ، رد عليهم بعدها بقوله تعالى : وقل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض .. إنه كان غفورا رحيما ^(٥) ، وإذا قالوا : إنما يعلمه بشر ^(٦) ، رد القرآن بقوله : لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ^(٧) . .

ومع هذا فكيف يحتمل التاريخ - إن احتملت الحياة - رجلا مجنونا ، يخلط القول ، ويهذى به ؟ ثم كيف تقبل الأجيال المتتابعة هذيان مجنون ، وشريعة مخبول ؟ أهذا يقع فى الحياة ، وفى الناس من يعقل ، ويعى ؟ اللهم إن ذلك لا يكون حتى تتقلب الأوضاع فى الحياة ، ويصبح المجانين على رأس القافلة ! فهل أنقلب أوضاع الحياة حقاً ؟

نعم !!

ويقولها صريحة أحد مسيحي القرن العاشر الميلادى .. إذ يقول :

« عندما شاهد ذلك الراهب الفاسق ^(٨) سذاجة القوم رأى أن بمنحهم عقيدة وشريعة على غرار مذهب « آريوس » وغيره من ألوان الكفر والزندقة التى تحرم من أجلها !

(١) سورة الإسراء آية ٤٧ (٢) سورة الحجر آية ٦ (٣) سورة القلم آية ٤١
(٤) سورة الفرقان آية ٥ (٥) سورة الفرقان آية ٦ (٦) النحل ١٠٣
(٧) سورة النحل آية ١٠٣

(٨) هناك راهبان التقي بهما النسي ، بغيرا « الراهب » فى رحلته إلى الشام وقد ألم به ساعة أو بعض ساعة ، وورقة بن نوفل وهو ابن عم السيدة خديجة ، وكان يقيم بمكة ، ولعله المصقود هنا

« فراح يسطر كتابا هو الذى يسمونه القرآن ، وهو شريعة الله ، ناثرا فيه كل ما أودع من مروق . . فعلم فيه أن الله لا كلمة ، ولا روح ، وأن المسيح لم يكن رباً ، وإنما هو نبى كبير وحسب . .

« وجمع فيه - أى القرآن - شتات قدر ضخم من أمثال هذه الترهات ؛

« وعند ذلك أعطى كتابه لتلميذه « محمد » ، وأبلغ أولئك البلاء أن ذلك الكتاب أنزل على « محمد » من السماء ، حيث كان فى حفظ « جبريل » الملك ، فصدقوه بما قال ، وبذلك مكن الراهب لذلك القانون الجديد (١) .

من الخير ألا نقف عند هذا القول ، ولا نلتفت إليه . . فقد وقفنا أكثر مما ينبغى عند هذه المقولات الهزيلة المريضة . . التى ربما ينضح على النفس بعض صورها المنكسرة ، كما يقع ذلك لمن يكثر مخالطة المجانين ، ويستمتع إليهم . . فلقد كادت تفسد إلى خواطر مضللة من هذا الخلط العجيب من القول . . وكدت أسأل نفسى . . وماذا لو وقع هذا ؟ ألا يجوز أن يؤثر الأستاذ تلميذه ويقدمه على نفسه ، فيعطيه ثمرة عقله ، وعصارة قلبه ؟ وهل اختفى الإيثار من هذه الدنيا ؟ لا ، إن الدنيا بخير !

وما أن صحوت من هذا الكابوس المجنون حتى انتزعت نفسى اقتزاعاً من هذه الهوة المظلمة ، وأسالتها إلى الواقع المحسوس !

إن « ورقة بن نوفل » قد مات بعد قليل من بعثة النبى : . لم يشهد أحداث الدعوة ، ولم يدرك وقائعها ، فكيف يضمن القرآن الذى وضعه بين يدي « محمد » — كيف يضمنه أحداثا لم تقع إلا بعد أن مات وصار ترابا فى التراب ؟ كيف يذكر هذه الأحداث التى كان ينزل بها الوحي فى حينها محددة الزمان والمكان . .

فهذه غزوات النبى مثلاً . بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وحنين . . إنها مشاهد هامة وقعت بين النبى والمسلمين من جهة ، وبين أعداء النبى والاسلام من جهة ، وقد سجل التاريخ أحداثها من أوثق المصادر ، بعد أن ذكرها القرآن فى سبيلها ،

وشرع للمسلمين منها أحكاماً ، وكشف لهم عن كثير من خفايا هذه المواقع وما أصاب المحاربين من نصر أو هزيمة .

فهل كان قس بن ساعدة شاهد هذه المعارك في بدر ، وأحد ، والأحزاب وحنين ؟ لقد طواه الموت — كما قلنا — قبل ذلك بزمن غير قليل . فكيف إذن يذكرها في القرآن الذي وضعه لمحمد ؟

ثم هذه الأحداث التي وقعت من اليهود في المدينة ، والمكائد التي كادوا بها للنبي والمسلمين . . لقد ذكر القرآن بشيء غير قليل من التفاصيل ما كان من اليهود ، وما نزل بهم من عقاب . . فهل شهد « ورقة » هذه الأحداث ؟ وهل شهد « ورقة » حديث الإفك ؟ وهل شهد واقعة ابن أم مكتوم وإعراض النبي عنه ؟ إن القرآن قد نزل متجماً في ثلاث وعشرين سنة ، فجعل تشريعاته وأحكامه في مواجهة الأحداث التي وقعت خلال هذه المدة ليرى الناس الشواهد العملية لأحكام الشريعة ، فيكون ذلك شرحاً للنص ، وتطبيقاً له ، وشاهداً به . . وفي هذا ما فيه من تمكين لأحكام الشريعة في قلوب الناس وعقولهم . . !

وأكثر من هذا ، فإن الكفار والمشركين كانوا يأخذون على النبي أنه لم يجهم بالقرآن جملة واحدة ، كما كانت الكتب السماوية تنزل من قبل ، فذكر القرآن قولهم هذا في قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لولا تنزل عليه القرآن جملة واحدة ١١ ، (١) ثم رد عليهم بقوله تعالى . « كذلك . . لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلاً ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » (٢) ١١ فكيف يتفق هذا الذي كانت تطلبه الكفار من النبي وهو أن يجهمهم بالقرآن جملة واحدة ، وهو يجهمهم به آية آية ، أو سورة سورة — كيف يتفق هذا مع القول بأنه تناول القرآن مرة واحدة من « ورقة بن نوفل » ؟

وصدق رسول الله إذ يقول : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » ! فلو كان هناك بعض الحياء في تلك الوجوه التي لا يتخذه حياءها شيء لما بلغت الجرأة إلى حد التجدي الصريح للحقائق السافرة ، التي يشهد بها الناس ، ويرونها رأي العين !

مع الجاهدين والمنصفين :

على أن من العزاء للنفس ، من هذا السخف الذى يصادفه المرء وهو يقلب آراء الدارسين لشخصية الرسول من علماء الغرب - أن يجد فى بعض هذه الدراسات عمقا ، وجدا ، ومقصدا إلى الحق ، وإن كانت تظهر فى أحوال كثيرة بعض النفثات المسمومة التى تعبر عن أحقاد قديمة متوارثة للإسلام ولنبي الإسلام - كذلك نجد دراسات كثيرة من بين هذه الدراسات قد تحرر أصحابها تماما من العصبية والهووى ، فوضعوا النبي بمكانه اللائق به ، وأحلوا الإسلام بالمنزلة الجدير بها .

فإذا خرجنا من هذا الجو الخائف ، جو الكراهية ، والحقد ، والمكذب ، والبهتان ، إلى هذا الجو النقي ، انطلقنا فيه لحظات قصيرة نبلغ بها ما نشاء ، حيث لا نقف عند تلك الحفر والأخاديد ، التى كانت تلتقنا فى جوارتنا مع تلك الجماعة الضالة المضللة !

لهذا فإننا سنكتفى بالنقاط بعض الثمرات الطيبة من آراء أولئك العلماء المحمدين المنصفين ، دون أن نعرض لها بالتعليق أو الشرح . فهى فى ذاتها فى غنى عن التعليق والشرح !

لا مارتين :

يقول « لا مارتين » شاعر أوروبا العظيم ، فى كلمات قليلة بليغة ، مشحونة بعاطفة مشهوبة من الإجلال والإكبار لنبي الإسلام ، ولما أقام فى الأرض من معالم الحق والخير . .

يقول :

« فإنه - أى محمد - نبي أصفر من ليله ، وأكبر من لإنسان ، !

وهذا على ما فيه من حق ، فإن فيه من المغالاة ما لا يقول به مسلم فى حق النبي . فإنه مهما يكن شأن النبي من السموم والكآل ، فإنه لا يقاس إلى جانب كآل الله وعظمته ، ولصكن الرجل شاعر به خيال الشعراء ! !

ويقول الفيلسوف الألماني العظيم « هيجته » ، وهو يستعرض الدين الإسلامى بوصفه قوة مهيبة ، ومؤدبة . ،

يقول مخاطباً « أكرمان » : أنت ترى أن هذا التعليم لا يخفق أبداً . .
ونحن — بكل مالنا من نظم — لا نستطيع ، بل أقول بوجه عام — إن أحداً من البشر لا يستطيع أن يذهب أبعد من هذا : (١) .

فهذا قول فيلسوف غزا العالم بفلسفته ، ولحق العقل الحديث بأرائه !

ول ديورانت :

وهو صاحب الموسوعة التاريخية « قصة الحضارة فى العالم » ، وقد كان موقفه فى هذا الأفق العالى الذى يطل منه على البشرية كلها — كان ذلك الموقف باعثاله على أن يقتل فى نفسه كثيراً من دواعى العصبية والهوى ، فجاءت نظراته وأحكامه قريبة من مواقع الحق والعدل . . وحسب السيرة النبوية أن تجد من يقف منها موقفاً محايداً : فإنه عندئذ سيعود بمغرم عظيم من المثاليات التى يرفعها للناس ، منارات للهدى ، ورايات للحق والعدل .

يقول « ول ديورانت » :

« وإذا حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر فى الناس — قلنا إن محمداً كان من أعظم عظماء التاريخ . فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحى ، والأخلاقى ، لشعب ألقى به فى دياجير الهمجية وحرارة الجوى ، وجذب الصحراء . . وقد نجح فى تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أى مصلح آخر فى التاريخ كله .

« وقل أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به (٢) .

« وقد وصل إلى ما كان يبغيه عن طريق الدين . . ولم يكن ذلك لأنه

(١) تجديد التفكير الدينى الإسلامى ص ١٦ .

(٢) لم يكن النبى من أصحاب الأحلام ، وإنما كان مبعوث ، يحمل رسالة سماوية ، ومطلوب منه أن يؤديها على أكل وجه .

هو نفسه شديد التمسك بالدين وكفى ، بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه ! فلقد لجأ إلى خيالهم ، وإلى مخاوفهم ، وآمالهم ، وخاطبهم على قدر عقولهم ؟

« وكانت بلاد العرب لما بدأ الدعوة صحراء جدداء ، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان ، قليل عديدها ، متفرقة كلتها . . . وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة . . . وقد كبح جماح التعصب والخرافات . . . وأقام فوق اليهودية والمسيحية ، ودين بلاده القديم : ديناً سهلاً واضحاً ، وصرحاً خلقياً فوامه البسالة والمنة القومية !

« واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة ، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة . وأن يبق إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم (١) . »

هكذا يقول في الاسلام ، وفي نبي الاسلام ، كل منصف : مسلماً كان أو غير مسلم ، لأن ذلك هو الحق الذي لا يتغير وجهه أبداً ، إذا استقبلته قلوب سليمة ، وعقول واعية مستبصرة !

ويقول : ول ديورانت ، أيضاً عن حياة حياة النبي ﷺ :

« وكانت حياة ﷺ ، فيما عدا النساء والسلطان (٢) غاية في البساطة . . . فقد كانت المساكن التي أقام بها واحداً بعد واحد كلها من اللبن . . . لا يزيد اتساعها على اثنتي عشرة أو أربع عشرة قدماً ؛ ولا يزيد ارتفاعها عن ثمانية أقدام : وسقفها من جريد النخل ؛ وأبوابها من شعر المعز : أو وبر الجمل . أما الفراش فلم يكن أكثر من حشية : تفرش على الأرض ؛ ووسادة من ليف .

(١) قصة الحضارة المجلد الثاني — الجزء الرابع ص ٤٧

(٢) حياة النبي ﷺ كلها تسق واحد من البساطة والاعتدال ، ونظرة الفريين عمومياً إلى النبي وإلى الشريعة الإسلامية في شأن تعدد الزوجات نظرة خاطئة ، وقد عرضنا لها في فصل خاص من هذا الكتاب . . . أما السلطان الذي يستثنيه المؤرخ من البساطة التي كانت عليها حياة النبي ﷺ فإنه سلطان روحى ، لا مهتل للقوة المادية ، ولا المظاهر الدنيوية فيه .

و كثيرًا ما كان يشاهده وهو يخضع زمليه : ويرقع ثوبه . وينفخ في النار ؛
أو يكذب أرض الدار ؛ أو يحلب عنزة البيت في فنائه ؛ ويتنازع طعامه من
السوق ؛ وكان يأكل طعامه بيده ؛ ويلامق أصابعه ١١
و كان طعامه الأساسي التمر وخبز الشعير : وكان اللبن وعسل النحل كل
ما يستمتع به من الترف في بعض الأحيان . . . (١) .

ثم يقول أيضا :

و لم يتعاط الخمر التي حرمها هو (٢) على غيره ؟ . . . وكان لطيفاً مع العظام ؛
بشوشاً في وجه الضعفاء . . . عظيماً مهيباً أمام المتعاطمين المتكبرين . . . متسامحاً
مع أعوانه — ومع الناس جميعاً — . . . يشترك في تشييع كل جنازة تمر به . . .
ولم يتظاهر قط بأبهة السلطان . . . وكان يرفض أن يوجه إليه شيء من التعظيم
الخاص . . . يقبل دعوة العبد الرقيق إلى الطعام ؛ ولا يطلب إلى عبد أن يقوم له
بعمل يحسد لديه من الوقت والقوة ما يمكنه من القيام به بنفسه .

و لم يكن ينفق على أسرته إلا القليل من المال ؛ رغم ما كان يرد
إليه من الفداء وغيره من الموارد . . . أما ما كان ينفقه على نفسه فقد كان أقل
من القليل ؟

و كان صوته موسيقياً حاولاً يأسر القلوب ، وكان مرهف الحس إلى
أقصى حد . . . لا يطبق الروائح الكريهة ، ولا صلصلة الأجراس ، ولا الأصوات
العالية . . .

و ولكن لعله كان يشعر بأنه بهذه التضحية القليلة جعل كل تشريعائه تصطبغ
بالصبغة الدينية الرهيبة (٣) .

(١) أهذه حياة أصحاب السلطان ؟ وكيف يقوم سلطان في صورة حياة متواضعة كهذه
الحياة ؟ إن يكن سلطان فهو سلطان روي كما قلنا ، لا يفرضه صاحبه على الناس مظاهر الترف ،
ولا قوة الجند ، وإنما يفرضه أخلاقه ، وما يشع منها .

(٢) إن الذي حرم الخمر هو الله في كتابه الكريم ، وإن كان النبي قد حرمها على نفسه
بفطرته قبل البعثة .

(٣) قصة الحضارة جزء ٢ / المجلد الرابع ص ٤٢ .

ستائل لين بول :

يقول هذا العالم الفيلسوف عن القرآن :

« إن أسلوب القرآن في كل سورة من سورته أسلوب أبي ، يفيض عاطفة وحياة . »

« إن الألفاظ ألفاظ رجل أخلص للدعوة ، وإنما لا تزال حتى الآن تحمل طابع الحماسة والقوة ، وفي ثناياها تلك الجذوة التي ألقيت بها لأنها ألفاظ قدت من قلب إنسان يستحيل أن يكون منافقا ، وهذا القلب قلب رجل كان له أخطر الشأن في تاريخ الإنسانية ، (١) . »

فوستيل دو كو لا نتر :

يقول هذا المؤرخ الفرنسي ، في الفصل الثاني من كتابه « التمدن القديم ، :

« لم يتداخل المسيح بأي وجه من الوجوه في أمور القضاء ، والتملك والإرث ، وما يخص المدنية من الأحكام ، ليعلم العالم بأن ابتداء المدنية الجديدة والحياة الجديدة ، والتربية الصحيحة ، سيكون من مدينة علم الإسلام ، الذي سيجعل العالم أهلا للعلم والمدنية . »

دار اللهى سكت هيلر :

يقول في كتابه ترجمة القرآن : وهو يتحدث عن حال قومه الأوربيين :

« لقد أصلحت مفسد أمرائنا وأشرافنا في القرون الوسطى ، بمباشرة المسلمين ، وتقليدهم ، واقتبس في أسلافنا من المسلمين الآداب الحسنة ، والأخلاق والصفات الجميلة ، والسجايا المحمودة ، (٢) . »

جوسمان لوبون :

يقول هذا المؤرخ الكبير :

« لقد أثر التمدن الإسلامى على العالم تأثيراً محيراً للعقول ، ونفوذ الأخلاق

(١) محمد رسول الله - تأليف إيبين دينيه ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود .

(٢) ونقول : لقد أصبحنا نأخذ عن الغرب ، كل خلق مرذول ، وكل صفة ذميمة .

فهل لنا من عودة الى منابع ديننا الحنيف ؟

الإسلامية وتربيتها قد أدخلت الأمم الأوروبية الوحشية التي كانت تغلق راحة
السلطة الروحية ، في طريق التمدن . ولقد فتحت أفكار المسلمين الجبارة ، أبواب
العلوم والفنون والفلسفة ، التي كان الأوروبيون في جمل عنها ، وكان المسلمون
أساتذتنا طوال ستمائة سنة .

كارليل :

ويقول الشاعر والأديب العظيم كارليل :

« إن القرآن هو التشريع الأساسي ، لكل زمان ومكان ، ومعدن القضاء ،
وقوانينه المتبعة في شئون الحياة ، لتهدى وتنير الطريق لاتباعه ، فيجب على كل
عاقِل أن يفكر في آياته الحكيمية ، ليخلص بنوره من ظلمات الحياة . »

وليم هيوود :

يقول هذا العالم الكبير في كتابه المسمى « حياة محمد » .

« إن القرآن ممتلئ بأدلة من الكائنات المحسوسة ، والدلائل المتعلقة على
وجود الله ، وأنه هو الملك القدوس ، وأنه سيجزى المزمع بعمله . إن خيراً خير ،
وإن شراً أفسس ، وإن اتباع الفضائل واجتناب الرذائل فرض على العالمين ،
وإن الواجب على كل مكلف أن يعبد الله تعالى ، وهي — أى العبادة —
علة سعادته . »

صبروت اصهوت :

ويقول هذا العالم في كتابه « حياة محمد » أيضاً :

« إن محمداً لمؤسس أمة وعلمه ومداية . وهذا أمر لم يوجد له سبق من
قبل ، وإن يوجد . وهو أمي ، لا يعرف القراءة والكتابة ، وقد جاء بكتاب
مشمول على دستور الشرائع والعبادات وأخبار الأمم ، وهو نقي العبارة من
الالفاظ المستمجة ، بامر الحكمة والحقائق ، وهو معجزة له ، والحق يقال :
لأنه لمعجزة . »

وهذا بعض ما تنطق به أفواه قوم قد رضعوا من صغره كراهية الإسلام،
وامتلات رؤسهم بالمفتريات الكثيرة عليه . . ومع هذا فقد نفذوا ببسائرهم
إلى شيء من حقائق الإسلام، فبددت ما كان قد انمها من ظلام، فشهدت شهادة
الحق في رسول الله، وفي كتاب الله .

ثم ما قولنا نحن في رسول الله، وفي كتاب الله؟ ثم ما مدى ما تطوله أيدينا
من هذا الخير العظيم المدود لنا؟

• • •

ونقف عندا القدر من الآراء المنصفة للسيرة النبوية، وللرسالة التي حملها
النبي إلى الناس . . .

وقد تركنا كثيراً من المفهومات الخاطئة لطبيعة النبوة، وللرسالة التي
وقع فيها كثير من هؤلاء العلماء، على الرغم ما كان عندهم من استعداد طيب -
حسب رأينا فيهم - للبحث عن الحقيقة في غير هوى أو عصبية . . ذلك أننا
لأنحاسهم هنا على عقيدتهم الدينية، فهم - أى أكثرهم - لا يهتمون في الأديان
جميعاً ولا يؤمنون بما وراء المادة . .

ونظرتهم إلى الأنبياء نظرة قائمة على أنهم أصحاب دعوات إصلاحية تابعة
من أنفسهم وليس بينهم وبين العالم العلوى صلة . . وكذلك كانت نظرهم
إلى محمد، يرونه ممسحاً اجتماعياً عظيماً؛ وإنساناً على مستوى عال من
الخلق والعقل .

وإذا كنا لا نسلم لهم بهذا، كما لا يسلم لهم الواقع التاريخي؛ ولا يسمح به
منطق الحياة التي دخل عليها الأنبياء برسالاتهم - فإننا نحمد لهم أنهم دفعوا كثيراً
من هذه التهم الباطلة التي ولدها الحقد والكراهية في تلك القلوب المريضة التي
تعمل للإسلام ولأهله بعضة موروثة - فقد أكد هؤلاء الكتاب الأحرار الحقائق
المقررة عن نبي الإسلام؛ وعن رسالته، وفتقوا عن حجب نبوته تلك الأكاذيب
الزائفة التي كانت تزحف عليها من متعصبة الصليبيين من الكهنة والحكام، والعلماء . .

فقالوا عن محمد ، ما قال التاريخ فيه ؛ وهو أنه أعظم لإنسان عرفته الحياة ؛ وأن شريعته أكل شريعة ظهرت بين الناس .

ويكفي أن نعيد هنا قولة « لامارتين » الشاعر الأوربي الكبير عن النبي الكريم ... يقول : « إنه نبي أصغر من إله ؛ وأكبر من إنسان ! »

دعوات الحق ؛ ونزوات الباطل :

وإذ كان لكفار قریش أن يلقوا النبي بالكذيب ، ويرمون به بالتهمة ، ويقولون عنه فيما يقولون : إنه شاعر ؛ وإنه لمجنون ؛ أو إنه مدح كذاب - إذا كان لهم أن يقولوا هذا في النبي ؛ وأن يضلوا عن وجه الحق فيه أول ما يلقاهم بأمره ؛ وأنه تأخذهم الدهشة لهذا الأمر فيكذبون إنسانا عرف بينهم بالصدق ؛ ويتهمون رجلا لقبوه بالأمين ، ولم يحاولوا أن يربطوا بين حاضره وماضيه ، وأن يوازنوا بين الحق الذي يدعوه إليه والباطل الذي هم فيه - نقول إذا كان لقریش أن تقف هذا الموقف من النبي أول الأمر ؛ وقبل أن تثبت الأيام سلامة موقفه ، وصدق دعواه - فإنه لا ينبغي لأحد له مسكة من عقل ؛ أو إثارة من وعي أن يمارى في رسالة محمد ، الآن وأن يشك في صدقه ، وفي نبوته ... !

فلقد انفسح الزمن لهذه الرسالة ، وعاشت في الحياة قرونا متتابعة ، ونزلت من قلوب الملايين من الناس وعقولهم منزلة الإيمان ، فعاشوا فيها ، وخضعوا لها وجرت حياتهم عليها ... ثم هي مع هذا تزداد على الأيام ألقاء ، وإشراقا ، وتظهر في الأحداث والنكبات أنها الملاذ الذي يلاذ به ، والملاجئ الذي يلجأ إليه ... ويختبر الناس أفراداً وجماعات وأما وجودها فيهم ، وحالها معهم « فيجدون أمراً واقعاً لا يتخلف أبداً ، على اختلاف الأزمان والأوطان - يجدون أنهم إذا كانوا قائمين على هدى هذه الشريعة ، متصلين بها ، آخذين بأمرها ونهيها - استقام أمرهم ، وعلا في الحياة شأنهم ، وكانوا في الناس هامة وشامة ! .

وأنهم إذا بعدوا عن هذه الشريعة ؛ وفارقوا حماها عصفت بهم الأحداث ؛ وركبهم الذلة ، وتخطفهم الناس ! .

فهم - عرف أصحاب الشريعة هذا ، وآمنوا عن تجربة وخبرة ، وعن شهادة التاريخ القريب والبعيد أنهم بقدر قربهم أو بعدهم من الشريعة الإسلامية يكون حظهم من الحياة ، وتكون مكانتهم بين الأحياء ! .

ذلك أمر لا يحتاج في الاستبدال عليه إلى علم العلماء ، ولا إلى فلسفة الفلاسفة بقدر ما يحتاج إلى نظرة هاذئة ، وقلب سلم من الحقد ، ليكشف عن مدلوله ، وليشهد شهادة لا ترد بأن الشريعة التي جاء بها محمد هي شريعة سماوية عامة ، جاءت لتكون الحكومة التي يحكم إليها الناس على اختلاف أزمانهم وأوطانهم ! .

إن كفار قريش كانوا أكثر فقهاً وأحد بصرًا ، وأصدق تقديرًا من أولئك العلماء أو أدعياء العلم الذين يشككون في نبوة محمد وفي رسالته التي جاء بها .

لقد دخل المعاندون ، والمكابرون ، والمكذبون من كفار قريش وغيرهم من العرب - دخلوا في دين الله أفواجاً بعد أن لبثوا بضع سنوات يرقبون سير الدعوة ، وسيرة صاحبها ... فلما استبان لهم أنهم في وجه نبوة ، وأنهم مع رسالة سماوية ، ألقوا عن أعينهم غواشي الكبر ، والحية ، فأنحلت عقدة ألسنتهم وشهدوا أن الرسول حق ، وأن ما جاءهم هو الهدى المنزل من رب العالمين .

فمن عجب أن يلبث هذا الضلال الذي كان محوماً في عقول من كذبوا النبي أول أمره - من عجب أن يلبث هذا الضلال متوارثاً ، يثقله الأخلاف عن الأسلاف ..

إن عصر العلم الذي نعيش فيه إنما قام على كشف حقائق الوجود ، وتجلية غوامضها ، كما قام على وضع هذه الحقائق بمكانها اللائق في هناهج الحياة . والشريعة الإسلامية ، ونبي هذه الشريعة أبرز وأوضح ما عرفت الحياة من حقائق .

وشريعة الإسلام ونبي الإسلام يقفان من العلم موقفًا صريحًا واضحًا ؛ كما تقف ظواهر الطبيعة في أجلى صورها ، لا يحجبها كهنوت ؛ ولا يقوم عليهما سدنة ؛ فلذلك ذي بصر ؛ ولكل ذي بصيرة أن تملأ عينيه بهما ؛ وأن يروى بصيرته فيهما ، وليس يضيئ المعدن الكريم أن تتناوله أيدي الخبراء ؛ وأن تبلوه بالمديها

من وسائل الاختبار ؛ فإن ذلك التناول ؛ وهذا الابتلاء هو الذى يبين عن حقيقته ؛
ويجلى عن كرم معدنه ۱۱

أما المعادن الرخيصة ؛ أو الزائفة فإنها تنكشف . وينفضح عوارها عند الحك
والاختبار ؟

فمن التجنى المفضوح أن يقول قائل فى نبي الإسلام إنه أقام دولته على الخداع
والحتل ، أو نشر دعوته بالقوة والسيف .. فإن هذه كلها وسائل زائفة ، لا تنمى
جذورها ، ولا تنضج أعوادها ، ولا ينزع لها زهر ، ولا ينبع منها ثمر ..

والإسلام قد عمقت فى الحياة جذوره ؛ وامتدت وعمقت فروعه ، ونضرت
أعواده ، وتفتحت أكماله ، وطابت ممارسه وثماره .

وهذا فيصل ما بين الحق والباطل فى كل أمر ، وفى كل شأن من شئون
الحياة المادية والروحية على السواء ۱ .

الكريم والأصيل من كل شيء يحيا ، ويمتد فى الحياة ۱ .

والخسيس الدخيل من كل شيء ... دخيل على الحياة ... أشبه بالسراب
، بحسبه الظمان ماء حتى إذا جاء لم يجده شيئاً .

ولله وشوقى ، إذ يقول :

الجميل لا يلد الحياة مواته إلا كما تلد الرمام الدودا
لم يخل من صور الحياة ، وإنما أخطاه عنصرها فمات وليدا

وصدق الله العظيم إذ يقول سبحانه : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع
الناس فيمكث فى الأرض (١) » .

النبى والمتمنى :

يقول ، كارليل ، فى كتابه من الأبطال ، :
أليس يستطيع رجل مخادع أن يؤسس دولة ؟

ويجب :

« كلا ، وربى !

« إن رجلاً مخادعاً لا يستطيع أن يقيم بيتاً من آجر ... لأنه إن لم يكن علياً
بخواص الطوب ، والمونة ، وسائر مواد البناء الأخرى لما استطاع أن يقيم بيتاً ...
وإن يقيم - إذا أقام - إلا أكواما منقضة ، لا يمكن أن تقوم اثنتى عشر قرناً (١) .
تضم بين جدرانها ما يربو على مئة وثمانين مليوناً (٢) من الناس .. إن بناء المخادع
يشهد لاشك لساعته (٣) . »

إن هذا القول الوجيز البليغ هو تليخص أمين دقيق لقضية الباطل في تلبسه
بالحق ، وتزييه بزيه . إن البناء الذى يقوم بيد الحق بناء راسخ مكين ، يزداد على
مر الأيام رسوخاً وتمكيناً ، وليس كذلك ما يبني الباطل ، وما يقيم من معالم ...
لأنه بناء متداع ، تسرى فى أوصاله حمى الفناء منذ اليوم الأول الذى يقوم فيه .

يقول « جان جاك روسو » فى كتابه « العقد الاجتماعى » :

« كل إنسان يستطيع أن ينقش كلمات على حجر ، أو يرشو كاهناً وثلياً ،
أو يدعى اتصالاً سرياً بأحد الآلهة ، أو أن يندرب طيراً ليهمس فى أذنه ، أو يجد
وسيلة دنيئة للتصويه على الناس - إن من لا يستطيع غير ذلك يكون فى وسعه
أن يجمع حوله - صدقة - جماعة من الخقى ، ولكنه إن ينشئ إمبراطورية
أبداً .. وسرعان ما يخفى عمله الجاهل معه !

« إن المظاهر الجوفاء لا تنتج سوى صلات عابرة ، وليس هناك ما يكفل لها

الدوام سوى الحكمة !

إن الشريعة اليهودية ما زالت حية !

١١ . بل قامت نحو أربعة عشر قرناً ، وستقوم ما بقيت الحياة ؛ وما بقى فيها من قرون .

(٢) إن من تضمهم جدران الشريعة الإسلامية اليوم أكثر من أربعائة مليون من

المسلمين .

(٣) محمد رسول الله ص ١٢٣ .

والشريعة الإسلامية التي حكمت نصف العالم مدى عيشة قرون (١) ،
ما برحت حتى اليوم تعلن عن عظمة أولئك الذين وضعوها (٢) ، وقد لا يرى
فيهم أولئك الذين أعمتهم الكبرياء الناجمة عن الفلسفة ، أو روح التحيز العمياء .
سوى دجالين حسنى الخط ؟

ولكن السياسة الحسنة تعجب في أنظمتهم بتلك العبقرية العظيمة القادة التي
تصدر المنشآت الخالدة (٣) .

لأنه لكي تنجح دعوة من دعوات الإصلاح لابد من أن تقوم على دعامين:
الدعامة الأولى : هي سلامة الدعوة ، وملاءمتها للطبيعة الإنسانية ، وتجاوبها
مع المشاعر السامية في الناس ، وتقديرها للضعف البشري ، الذي يعجز معظم
الناس عن مجاهدته ودفعه في أكثر الأحيان .

والدعامة الثانية : قوة الشخصية التي تتولى القيام على هذه الدعوة ، وشرح
حقيقتها ، وتطبيق مبادئها .

فبقدر ما يكون في الدعوة من عناصر الحق والخير ، وعلى حسب ما يكون
عند الداعي من طاقات روحية ، ونفسية ؛ يكون الأثر الذي يجنى من هذه الدعوة ،
ويكون الخير الذي يصيب الناس منها .

ومن هنا كان ذلك النجاح العظيم الذي أحرزته الدعوة الإسلامية ، وكان
هذا المحصول الوفير من الأثر الطيب الذي عرفته الحياة ، وسعدت به الأمم .

ومصدر الدعوة الإسلامية ليس هو محمد ، وإن كان هو حاملها ،
والقائم عليها ، والشارح لحقيقتها . فالدعوة الإسلامية ليست من صنع محمد ،

(١) ذلك في الوقت الذي كان يعيش فيه جان جاك روسو ، أما اليوم فقد مضى على
الشريعة الإسلامية ما يقرب من أربعة عشر قرناً .

(٢) واضع الشريعة هو الله وحده ، وليست من وضع أحد ، كما يصر على ذلك معظم
كتاب الغرب .

(٣) النقد الاجتماعي لجان جاك روسو ص ١٢٥ .

وليس من تفكيره وتدبيره . . لأنها من صنع السماء ، ومن تدبير رب العالمين .
أرسلها إلى الناس هدى ورحمة ، كما يرسل الغيث إلى البلد الجديب .

أما دور « محمد » في تلك الدعوة فهو دور الزارع المجد الخبير بمواسم
الزرع ، العليم بطبيعة النباتات . . . تلقى هذا الغيث الغدق فأقام له السدود ،
وأجرى الجداول ، وشق الأرض ، وألقى البذر ، وظل قائماً على مازرع ،
يحرسه من الآفات ، ويحميه من العاديات ، وينقيه من الحشائش الفريية ، حتى
يخرج شطأه ، ويستغلق ويستوى على سوقه ، ثم يزهر ، ويثمر أطيّب ما عرفت
الحياة من ثمر .

هذا ما يقوله عالم متمكن ، ومؤرخ نصب نفسه لتاريخ الإنسانية كلها -
يقوله في « محمد » نبي الإسلام ، وفي الحياة التي كان يحياها ، والأثر الذي
تركه فيها .

أما ما يقوله عن القرآن فهو أيضاً قول رجل منصف متمكن من موضوعه
الذي بين يديه .

يقول « ول ديورانت » .

« والقرآن يبعث في النفوس الساذجة — أى ذات الفطرة السليمة —
أسهل العقائد ، وأقلها غموضاً ، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس ، وأكثرها
تحرراً من الوثنية والسكنوتية .

« وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاق والثقافي ،
وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي ، والوحدة الاجتماعية ، وحضهم
على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ،
ومن الظلم ، والقسوة ، وحسن أحوال الأرقاء . . وبعث في نفوس الأذلاء
الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين درجة من الاعتدال والعدل عن الشهوات ،
لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض .

« ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها ،

بلا شكوى ولا ملل ، وبغتهم في الوقت نفسة إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهد التاريخ كله .

« وقد عرف الدين ، وحدده تحديداً لا يحد المسيحي ، ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله ! ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء ، والضراء وحين البأس (١) » .

ثم يقول :

« ولم يعرف عن محمد أنه كتب شيئاً بنفسه ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين المجيء بأشهر وأبلغ كتاب في اللغة العربية ، أو بين قدرته على تعرف شئون الناس تعرفاً قلما يصل إليه أرقى الناس تعليماً (٢) » .

ومن نظرات ، ول ديورانت ، إلى القرآن قوله :

« لم يكن النبي مشرعاً علياً ، فلم يضع لأمته كتاباً في القانون ، أو موجزاً فيه ، ولم يكن تشريعه على نظام مقرر (٣) ، بل كان يصدر الأوامر حسبما تمليه عليه الظروف ، فإذا أدى هذا إلى شيء من التناقض (٤) أزاله بوحى جديد ، ينسخ القديم ، ويجعله كأن لم يكن » .

• • •

(١) سورة البقرة : آية ١٧٧ .

(٢) قصة الحضارة جزء ٢ ، مجلد ٤ ص ٢٢

(٣) يلاحظ غالباً أن الفلاسفة الغربيين يضيفون إلى النبي القرآن الكريم ، ويعملونه من وضعه هو ، لا وحياً أوحى إليه !

والحق إن « محمداً » لم يكن هو الذى رسم خطة التشريع السامى للشرعية الإسلامية ، وإنما هى من صنع الله . نزلت أحكامها بتدبير سماوى ، في مناسبات ربطتها بالحياة .

(٤) لم يقع تناقض في التشريع بحال أبداً ، وحاشا لله أن تتناقض أحكامه ، ولكن التدرج في التشريع - وذلك ضرب عال من التربية الحكيمة - اقتضى أن تجيء الأحكام في خطوات متدرجة . . واحدة بعد أخرى .

هذا ، وقد تجتمع الدعوة والداعى فى كيان واحد ، فىكون القائم على الدعوة هو المنشئ لها ، والمفكر فيها والمصور لحقيقتها .. وهذا شأن الدعوات التى لا يقوم عليها أنبياء الله ورسوله ١ .

فالمصلحون الذين ظهروا فى الناس بأرائهم ، وأعمالهم فى مجال الحياة السياسية أو الاقتصادية ، أو الاجتماعية ، أو الفكرية ، أو الروحية ، إنما اعتمدوا على شخصياتهم ، وما فى كيانهم من قوى عقلية أو نفسية تدفعهم إلى ذلك رغبة فى الإصلاح ، أو منافع شخصية يحنون من ورأها جأها أو سلطانا ١

وهذه الدعوات الإصلاحية المعتمدة على الجهد الإنسانى وحده دون أن تكون مستندة إلى السماء ، مهتدية بهديها . موجهة بوحياها . هذه الدعوات تنقسم بسنتين : (الأولى) أنها محدودة الزمان والمكان .. فإن صوتها مهما علا لا يجاوز مدى المجتمع الإنسانى الذى يعيش فيه صاحب الدعوة ، ولا يكاد ينفذ إلى ما وراء الحدود المكانية لهذا المجتمع ، إلا إذا كان فيه نعمة إنسانية يستشعرها الناس استشعارا فيه ، وأنه إذا قدر لدعوة من الدعوات أن تتجاوز حدودها المكانية لمجتمعها فإنها لن تتخطى عصرها الذى ظهرت فيه ، وأنها إذا تخطت هذا العصر إلى الأعصار الذى تليه فإن ظلها سينكشف حالا بعد حال ، حتى تدبخر مع الزمن وتصبح تاريخا من التاريخ .

(والثانية) من هاتين السنتين اللتين تنقسم بها الدعوات الشخصية أنها لا تسكاد وتجرد من الأهواء الذاتية ، ولا تسكاد تنفصل عن الدوافع الشخصية ، بل كثيرا ما ينتهى أمرها إلى أن تكون هوى خالصا ، فتوجه بكلياتها وجزئياتها إلى خدمة الداعى ، وتحقيق مآربه ١

ومن الحق أن نقرر أن هذا أمر طبيعى ، فالناس هم الناس ، وحب الذات طبيعة غالبة فى كل إنسان ، مهما غالب فى نفسه هذه الطبيعة ، ومهما حاول أن يعلو عليها بالمثل العليا ، التى يترسمها فى الإيثار والتضحية وغيرها ، لأنه سيبقى له مع كل هذا ذاته التى لا يمكن أن ينفصل عنها أبدا ، ولهذه الذات مطالب ونزعات لاتموت إلا بموته ١

ومن هنا كان ذلك التمهيد والتخطيط الذي يصحب الدعوات الإصلاحية القائمة على الإنسان وحده ، المنقطعة عن أمداد السماء .. إنها أشبه بمجرى النهر؛ قد ينبع من عين صافية رقيقة ، ثم بعد أن يخرج من منبعه يحتك بالجنادل والصخور ، ويتخلل الأعشاب والزروع ، فتعلوه الكدرة ، ويزايد صفاءه الذي كان له !

أنبي أم عظيم ؟ :

ونعود مرة أخرى فنسأل : أحمد نبي أم عظيم ؟ أى أكانت دعوته صادرة عنه ؛ كما تصدر الدعوات عن المصلحين والظلماء ، أم كانت دعوته تلك التي قام بها من فروع آخر غير تلك الدعوات التي تعتمد على الجهد البشري وحده ؟

من اليسير الواضح أن نجيب على ذلك السؤال من غير تردد ؛ بأن دعوة محمد ، كانت شيئاً آخر غير دعوات المصلحين من القادة والزعماء ، وأرباب الإصلاح من غير رسل الله وأنبيائه .. !

فقد اتسمت دعوة محمد ، بسمتين خلت منهما أية دعوة من دعوات الإصلاح البشري .. فامتدت في الزمان والمكان إلى أبعد حد فيهما ، ولا تزال الأيام بعد مضي نحو أربعة عشر قرناً - تزيد في امتدادها .. ونحن نعرف أن الدعوات البشرية تطرد اطراداً عكسياً في امتدادها مع الزمن .. فكلما امتد بها الزمن انكسحت ، وتبخرت شيئاً فشيئاً .. !

ثم من جهة أخرى قد خلت دعوة محمد ، من الدوافع الذاتية والاهواء الشخصية .. فلم يكن لمحمد في هذه الدعوة شيء لحسابه الشخصي ، وإنما خلصت جميعها لحساب الحق والخير الذي ينفع الناس جميعاً .. من كل أمة ، وفي كل جيل !

هذه حقائق ثابتة الدعوة الإسلامية ، لا تحتاج إلى إقامة البراهين عليها ، ولا مظاهر الحجج لها .. !

فما وقف سير هذه الدعوة منذ قامت .. ولا حال بينها وبين غاياتها حائل من حدود الزمان والمكان !

وما وفقت الدعوة الإسلامية من صاحبها - محمد - عليه الصلاة والسلام -
موفقاً مميزاً له ؛ أو مترضياً لمصلحة ذاتية عنده !

فهذه هي الدعوة تزداد مع الأيام رقعتها على الأرض ، ويزداد أنصارها ،
وتتكشف للعالم كله أضواؤها ؛ فيحترف لها أعداؤها - راغبين - بأنها الشريعة
الصالحة للحياة الإنسانية ، على امتداد زمانها ومكانها !

وهذا هو نبي الإسلام والقائم على الدعوة . . يحمل أثقالها ، ويلقى من
أجلها ما يلقي من ألوان الأذى ، ثم إذا آتت أكلها . وكثر خيرها ، لم يأخذ من
ذلك شيئاً ، وعاش حياته على خبز الشعير ؛ لا يشبع منه وليس له من إدام إلا
الخل والزيت لا يجمع بينهما !

ثم هذا هو دستور الشريعة الإسلامية يضع « محمد » حيث يضع الناس
جميعاً . يعاتبه ، ويحذره ، وينصح له . . فما محمد بمعزل عما يوجب العتاب والتحذير
والنصح من رب العالمين . . يقول تعالى معاتباً نبيه : « عبس وتولى أن جاءه
الاعشى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتستغفه الذكرى ! أما من استغنى فأنت
له تصدى (١) » ، ويقول سبحانه في شأن أسرى بدر : « ما كان لنبي أن يكون له
أسرى حتى يشتم في الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله
عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (٢) » ، . .
ويقول سبحانه وتعالى لنبيه في شأن استغفاره لذوي قرباه . . ما كان للنبي والذين
آمَنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم
أصحاب الجحيم (٣) ، ويقول سبحانه وتعالى في هذا الشأن أيضاً : « استغفر
لهم ، أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله
لهم (٤) » .

(١) سورة عبس آية ١-٦ .

(٢) سورة الأفال آية ٦٧-٦٨ .

(٣) سورة التوبة آية : ٢١٢ .

(٤) سورة التوبة آية ٨٠ .

أفلا كان ، محمد ، هو صاحب هذا التشريع أكان يضع نفسه هذا الموضوع ؟
أو كان يأخذها بهذا الزجر والردع على سماع الدنيا وبصرها ؟

إن عزل المشرع عن التدخل في وضع التشريع الذى يدعو الناس إليه ،
ويأخذهم به هو في الواقع أعدل سياسة وأحكمها في إنجاح هذا التشريع ، وفي
حمايته من الهزات والانحرافات .

يقول « جان جاك روسو » :

« ورغم أن عمله — أى المشرع — هو تأسيس الدولة ، فهو ليس جزءاً
منها ، بل يقوم بوظيفة خاصة وسامية ، لا شيء مشترك بينها وبين حكم الناس . .
إذ أنه إذا كان من يحكم الناس يجب ألا يحكم القوانين . . فكذلك من يحكم
القوانين يجب ألا يحكم الناس ، وإلا كانت قوانينه خادمة لأهوائه ، ولا تؤدي
في كثير من الأحيان إلا إلى دوام مظالمه . . فهو لن يستطيع تجنب أن تؤدي
وجهات نظره الخاصة إلى انحرافه في عمله المقدس !

ثم يستشهد جان جاك روسو لهذا بوقائع تاريخيه ، فيقول :

« وقد بدأ « ليكوريوس » بالتخلي عن العرش عندما وضع القوانين
لوطنه » . ويقول :

« وكان العرف السائد بين معظم المدن الإغريقية أن تعهد إلى أجنبى بوضع
قوانينها ! !

ثم يأخذ « روسو » في الكشف عن خطورة التشريع الذى يصادف مكاناً
من قلوب الناس وعقولهم ، وأن هذا لا يكون إلا إذا استند التشريع إلى قوة
سماوية ، وإلا إذا قام على أساس من الدين . .

يقول « روسو » :

وهكذا يبدو أنه يوجد في عملية التشريع شيئان غير متفقين : مهمة فوق
طاقه البشر . . تقوم بتنفيذها سلطة ليست شيئاً مذكوراً ! .

• إن الحكماء الذين يتحدثون إلى العامة بلغتهم — أى لغة الحكماء — إن يفهمهم العامة — فهناك الآلاف الكثيرة من الأفكار التى لا يمكن ترجمتها إلى لغة الشعب ، كما أن التطرف فى التعميم ووجهات النظر البعيدة تسمو أيضاً على إدراك الناس . إذ لا يتذوق كل فرد غير نظام الحكم الذى يتفق مع مصالحه الخاصة ، ولا يقدر — إلا بصعوبة — المزايا التى تعود عليه من الحرمان المستمر الذى تفرضه القوانين الطبيعية . . ومن هنا كان المشرع لا يستطيع أن يستعمل القوة ولا الإقناع . وعليه بالضرورة أن يلجأ إلى سلطة من نوع آخر ، سلطة تقود بلا عنف ، وتقمع بلا حجة ! .

• وهذا هو السبب فى أن آباء الشعوب اضطروا فى جميع الأزمنة إلى الالتجاء إلى السماء ، وأن ينسبوا إلى الآلهة حكمة هى فى الحقيقة حكمتهم هم ، حتى يقبل الناس الخضوع لقوانين الدولة ، كما يخضعون لقوانين الطبيعة ، ويرون فى خلق المدفعية السياسية نفس القوى العاملة فى خلق الإنسان . فيطيعون بحرية ، ويتحملون فى وداعة ، وطاعة السعادة العامة ! .

وهذا العقل السامى الذى يسمو على فهم العامة هو ما يضع المشرع أحكامه فى أفواه الخالدين ، ليقودوا بوساطة السلطة الإلهية أولئك الذين لا يستطيعون التخلص من عجز الهالكين .

• ولكن لا يستطيع كل إنسان أن يجعل الآلهة تتكلم ، ولا أن يجعل الناس تصدقه عندما يدعى أنه يتحدث باسمها . . فروح المشرع العظيمة هى التى يجب أن تكون دليل رسالته (١) .

لو أن محمداً ، كان هو واضع الشريعة الإسلامية ، ولم يكن الله هو الذى نزل عليه كتابها — لكان كما وصفه لامارتين ، فى قوله : نبي أصغر من إله ،

وأكبر من إنسان ، ، ولما كان لمحمد أو لاتباع محمد أن يقولوا فيه ما قال النصارى
فى المسيح ابن مريم من أنه ابن الله أو ثالث ثلاثة .

ولكن د محمدآء يعرف حق المعرفة أنه بشر ، وأن الشريعة التى جاء بها ليست
من صنفه ، وإنما هو رسولها ، ومبلغها إلى الناس .. و قل سبحانه ربى هل كنت
إلا بشراً رسولا (١) .

الباب الخامس

خاتم النبيين

« الله أعلم حيث يجعل رسالته »
« قرآن كريم »

- ١ -

داع من السماء ، يحمل بين يديه النور والهدى إلى الناس !
ورسول من الله ، يقوم بالسفارة بين الله ، وبين عباد الله !
ما ظنك أن يكون هذا السفير ؟ وماذا يرتسم له في خيالك من صور ؟
إن كثيراً من الناس قد ارتفعوا بمقام هذا السفير إلى أن يكون هو الله ذاته
« تجسد » في صورة بشر ، أو أنه « ابن الله » ، جاء إلى الناس في صورة إنسان !!
وإن كثيراً من الناس أنكر أن يكون هذا السفير بشراً ، حين ظنوا أن هذه
السفارة أكبر من أن تكون لبشر .. فكذبوا برسل الله ، وأبوا أن يعتمدوا
الوثائق التي بين أيديهم إلا أن يشهد عليها شاهد من السماء !! ، وقال الذين
لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا !! لقد استكبروا
في أنفسهم وعصوا كبرياء (١) .

وما رأيك إن كان هذا الرسول بشراً .. يا كل الطعام ويمشي في الأسواق ؟
أتراه واحداً من عامة الناس بمن لا امتياز لهم في عقل أو خلق ؟ أم تراه
واحداً من هؤلاء الذين بسطوا سلطانهم على الناس بالسيف والقهر والتغلب ؟ .
كلا . فإنه لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ! إن حكمة الله تقضى بأن يتخير

(١) سور الفرقان آية ٢٠ .

هذه ، السفارة ، خلاصة الإنسانية . وهامتها . فلا تصحفي لها في أى عصر
إلا الرجل الأول في السكال الإنسانى ، فيسكون هو الإنسان الذى تشمل فيه
كالات الجنس البشرى لعصره ، وهو بهذه الصفة يكون بالمقام الذى يسامت فيه
الملائكة ، ويصافح الملائ الأعلى . وهو بهذا المقام جدير بأن يكون وصلة ما بين
السماء والأرض ، وسفيراً بين الله والناس .

— ٢ —

وذلك هو الشأن فى نبوة محمد ، !
لقد رشحته السماء لأعظم رسالة حملها نبي ، ولأكل دعوة قام بها رسول !
لأنه يحمل آخر كلمة من الله إلى الناس !
هى الكلمة الأخيرة . . الكلمة الحاسمة فيما بين السماء والأرض ! فليس
بعدها كلام . . إنها الخاتمة ! .

وهو خاتم النبيين . . ليس بعده نبي . . وليس وراءه بشير ولا نذير !
وإذ كان ذلك كذلك . . فإن لنا أن نقول إن محمد ، هو منتخب الإنسانية
كلها . وهو مجتمع كالاتها فى أكل حالاتها . وأتم صورها . .
ذلك لأنه جاء إلى الإنسانية حين بلغت رشدها ، وحين أراد لها الله أن
تستقل بوجودها وأن تستقيم على الطريق الذى يملئها تفكيرها . دون أن
يقوم عليها من السماء رسول يدعوها إلى الله ، ويرسم لها مناهج الإيمان ،
وقواعد السلوك ! .

إن الإنسانية — لعهد محمد — كانت قد جاوزت طور العبا ، وبلغت
أشدها ورشدها ... ، وهى بهذا جديرة أن تستقل بنفسها ، وأن تستهدى
بما أودع الله فيها من عقل ، وبما حملت إليها السماء من وصايا .

قد كانت رسالات الرسل . . قبل محمد — رسالات محلية ، أشبه
بالوصاية على الأفراد . يظهر الرسول فى جماعة من الجماعات ، أو قوم من الأقوام ،
يقيم لهم وجودهم المعوج ، ويضئ لهم طريقهم المظلم ، ثم لا يلبث أن يخلفه فيهم
رسول . يخلفه رسول . . وهكذا .

حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، وأراد الله للناس أن يستقبلوا بوجودهم ، وأن يفكروا لأنفسهم ، بعد أن بلغوا الرشد وصاروا في عداد الرجال — كانت رسالة الإسلام ، وكان رسولها الأمين . محمد بن عبد الله . رسول الله وخاتم النبيين ! ومن هنا ندرك السر في أن الرسالة الإسلامية كانت رسالة « عقلية » ، « منطقية » ، تخاطب العقل ، وتجيء لإقناعه عن طريق الحجة القائمة على البراهين الاستدلالية ، التي يستقيم عليها تفكير الناس جميعاً ... عامتهم وخاصتهم على السواء !

إن الرسالة الإسلامية ، لم تستند إلى معجزة قاهرة تطفئ على عقول الناس وتغفل تفكيرهم ، وتشل إرادتهم حين لا يملكون لها رداً ، ولا يستطيعون لها نقضاً . وإنما استندت إلى الكلمة وما فيها من عقل ومنطق ... فلم تطلب إلى الناس أكثر من أن يفكروا . وأن يستخدموا عقولهم المعطلة ، وأن يتقبلوا — في غير عناد أو تخرج — ما يتأدى إليهم من عقولهم ... فإنهم إن فعلوا ذلك فلن تبعد بينهم وبين الرسالة الإسلامية شقة الخلاف ، بل إنهم والرسالة سيلتقيان على طريق واحد ، إذا فكروا وأخلصوا التفكير !

« قل إنما أعظكم بواحدة ... أن تقوموا لله مثنى وفردى ... ثم تفكروا » (١) . . . هذا هو عنوان الرسالة الإسلامية ، وهذا هو مفتاحها : استخدام العقل ، واحترام معطياته ..

ليستعمل الإنسان عقله وليفكر فيما تحمل الرسالة الإسلامية من مقررات . . ليفكر وحده ، بينه وبين نفسه ، متأملاً ، متعمقاً ، أو ليفكر مع غيره ، يعرض الأمر ويقلبه . . مؤيداً . . أو معارضاً !

إنه في كلا الحالتين سيصل إلى مقررات إن لم تكن حقاً خالصاً ، فهي أقرب شيء إلى الحق . . لأن العقل بطبيعته — إذا خلا من آفات العناد والاستكبار — يفتش الحق ، ويهتدى إليه ؛ لأنه شرارة من الحق وقبس من أقباسه ! فالعقل في مواجهة الرسالة الإسلامية محمول على أن يفكر ؛ وأن يتحرك

في كل مجالاته ، غير مقيد بشيء أو مشدود إلى شيء .. بل إن الرسالة الإسلامية لتغري العقل إغراء على التفكير ، بما تنادى به من دعوات عالية إلى إيقاظ العقل وتنبيهه ، وبما تقدم إليه من صور ، وما تفتح له من مجالات ؛ تدعو أكثر الناس ببلادة وغباء إلى استخدام عقولهم ، واستدعاء تفكيرهم ! وقل انظروا ماذا في السموات والأرض (١) .

ذلك على حين كان العقل قبل الرسالة الإسلامية بمزول عن دعوات الرسل ، وبمنقطع عن معجزاتهم القاهرة ، التي لا تستقيم على منطق العقل ، ولا تدخل في معطيات التفكير !

لأنها أمور خارقة للعادة ، لا تقع إلا على يد رسول . فيقع بها الإعجاز القاهر ، ويقوم التسليم !! الإعجاز الغالب القاهر ، المفهم للعقل . والتسليم القائم على الدهش ؛ والخيرة . والعجز !

وذلك هو شأن الأسلوب الحكيم في التربية ... فالصغير الذي لا يحتمل عقله أحكام المنطق . ولا يخضع تفكيره الصغير لمعطيات ما بين الأسباب والسيئات من روابط — من الخطأ البين . بل ومن القسوة عليه أن يؤخذ بمنطق العقل ، ويحمل على العقل .. وإنما الذي يصلحه ويصلح له هو أن يخاطب بلغة الحس ، وبمنطق السادة .. فإذا نما عقله شيئاً ؛ كان من التدبير الحكيم أن يخاطب بأسلوب المنطق العقلي . والمنطق الحسي معاً ، وأن يزاوج له بينهما بنسب تسكثر فيها العناصر العقلية كلما نما عقله ، واتسعت مداركه ، حتى إذا بلغ مبلغ النضج والرشد أمكن أن يكون عقله هو موضع الاعتبار في مخاطبته ومحاسبته .

والإنسانية — في تقديرنا — بدأت وجودها كما يبدأ كل كائن حي وجوده ، نبتة صغيرة ، ثم شجيرة لا زهر فيها ، ثم شجيرة مزهرة ، ثم شجرة مزهرة مشمرة !!

الرسالة الإسلامية إذن هي الرسالة التي أدركت الإنسانية حين بلغت رشدها ،

وحين رفعت عنها وصايا السماء ، التي أقامتها على الناس عن طريق أنبياء الله
ورسله المكرام .

وشواهد التاريخ تؤيد هذا وتشهد له . .

فالإنسانية لعهد « محمد » كانت في آخر مرحلة من مراحل سيرها نحو النضج
العقلي . . كانت بمثابة طفل قد درج في مدارج الحياة حتى بلغ مبلغ الرجال . .
وكان عليه بعد هذا أن يستوفي حظه من الحياة . وأن يأخذ مكانه فيها ، غداً
مستند إلى أحد .

ودع عنك ما يقال من أن الإنسانية قد ارتكست وردت على أعقابها
زمن البعثة النبوية . وأن الشر كان قد استشرى في الناس وأن الظلام قد أطبق
عليهم ، ولفهم في قطع كشيعة من الجهل والضلال ، وأن معالم الحضارات التي
أقامتها الإنسانية في وادي النيل على يد الفراعنة ، وفي بابل وآشور على يد
الكلدانيين والآشوريين قد ذهبت معالمها ، وضلت في ظلمات الجهل شواهداها ،
وحيت آياتها . . وأن لمعات العقل اليوناني التي أضاءت العالم القديم قد ذهب
الجهل بنورها ، وعقمت الحياة عن أن تلد سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو
مرة أخرى . . !

دع عنك هذا . . فالدنيا بخير . . والحياة ولود ، لا يصيبها العقم أبداً . .
وهي سائرة إلى الأمام ، لا ترجع إلى الوراء بحال ! .

ربما قد تقع بعض النكسات في الحياة الإنسانية فتمضطرب حياة الناس ،
وتسوء أمورهم . . ولكنها نكسات عارضة ، لا تلبث أن تزول ، وتعود إلى
الحياة طبيعتها ، وإلى الناس سلامتهم ! والرجل حتى في حال انتكاسه خير من الطفل
في حال صحته وسلامته !

ولا نريد أن نضرب الأمثال لهذا ، ولا أن نذكر مخلفات القرون من
العباقة والعظاء ، ونعتقد المقارنات بين أجيال الناس في الحياة لنعرف أن الحياة
تخطو نحو النضج العقلي ، والكمال الإنساني . لا نريد أن نضرب الأمثال لهذا ،
وحسبنا أن نشهد واقع الحياة في عصرنا هذا ، وما بلغ العقل الإنساني فيه من

قوة ، استطاع بها أن يخضع تلك القوة الهائلة من قوى الطبيعة ، وأن يتحكم فيها ، ويسخرها على نحو لم تدركه الحياة ، ولم يشهده الناس من قبل .

إن القرون الطويلة التي عاشها الناس على هذه الأرض لم تتمكن لهم من أن يستعملوا قوة البخار ، أو قوة الكهرباء ، ولم تفتح لهم الطريق إلى تحطيم الذرة ، وإلى بناء المراكب الكوكبية التي تدور الآن في فلك الشمس كما تدور الأقمار حولها .

إن هذه الفتوحات العظيمة التي حققها العقل الإنساني في هذا العصر لم يكن الشهادة التي لا ترد على أن الحياة الإنسانية تتجه دائماً نحو الأمام ، وأنها تضيف كل يوم معارف جديدة إلى معارفها السابقة ، وأن رصيدها من المعرفة يزداد مع الأيام يوماً بعد يوم ! فبقدر ما تزيد الأيام في عمر الإنسانية يزداد رصيدها من العلم والمعرفة .

فإذا قلنا إن عصر النبوة كان هو العصر الذي بلغت الإنسانية فيه رشدها ، وتخطت فيه مرحلة الطفولة والصبا ؛ كان لقولنا هذا مستند من واقع عصرنا هذا الذي يعد امتداداً لعصر النبوة ! فإن أربعة عشر قرناً في عمر الحياة الإنسانية لا تعد شيئاً إلى جانب عمرها الطويل . . وأن هذه الألف والأربعمئة سنة منذ عصر النبوة إلى اليوم ليست إلا مرحلة أو بعض مرحلة من حياة الإنسانية ، وطوراً من أطوار وجودها !

فما بلغت الإنسانية في هذا العصر من تقدم في مجالات العلوم والفنون ، وما أقامته من صروح الحضارة والمدنية هو في الواقع من صنع هذا الطور الإنساني الذي كان عهد النبوة إيداناً ببذئته ، والذي قلنا إنه كان الطور الذي بلغت به الإنسانية أول مراحل الرجولة .

يتحدث الجاحظ في كتابه « حجاج النبوة » عن طبيعة الرسالة الإسلامية ، وأنها تتجه إلى مجتمع يأخذ الأمور بمعيـار العقل ، وينظر في أفعالها وما تؤول إليه . .

يقول : « كذلك وعيد ، محمد ، بنار الأبد كوعيد موسى بنى إسرائيل باللقاء

الهلأس على زرعهم ، وألهم على أفمدهمسم ، وتسليط الموتان على ماشيتهم ،
ويأخرأجهم من ديارهم ، وأن يظفر بهم عدوهم . .

« فكان تعجيل العذاب الأدنى - أى القريب - فى استدعائهم ، واستمالتهم
وردعهم على مايرديهم (١) ، وتعديل طباعهم كتأخير العذاب الشديد على غيرهم .
« لأن الشديد المؤخر - من العذاب - لايزجر إلا أصحاب النظر فى العواقب
وأصحاب العقول التى تذهب فى المذاهب (٢) » .

يريد الجأحظ أن يقول إن دعوة محمد كانت إلى مجتمع عاقل مدرك ، ينظر فى
عواقب الأمور ، ولا كذلك كانت دعوة موسى التى تعامل بمجتمع أذى دور طفولى ،
لا يأخذ الأمور من جانبها الواقعى المعجل .

تذمى من هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى . وهى أن « النبى ، الذى يحنء إلى
الناس فى هذا الطور من حياتهم ينبغى أن يكون أكل الأنبياء ، لأنه فى قمة
الإنسانية فى طورها الذى بلغت فيه رشدها ! إذ كان النبى فى كل عصر ، وفى
كل أمة هو ممثل الإنسانية فى هذا العصر ، وفى تلك الأمة ، وهو خلاصة كل
طيب وجميل فيها ! وفى هذا يقول النبى الكريم : « بعثت من خير قرون بنى آدم ،
قرناً أقرنا ، حتى كنت من القرن الذى كنت فيه . . » .

على أننا لسنا فى حاجة إلى هذه المقاييس النظرية ، وتلك الاستدلالات
اللفظية لئلا نلند إليها فى الوصول إلى القول بأن نبى الإسلام هو «صفوة» الإنسانية ،
وهو منها بمكان الرأس من الجسد ، أو العقل من الإنسان ، !

لسنا فى حاجة إلى هذا ، فإن نبى الإسلام فى حياته ، وفى سيرته ، وفيما ترك
فى الحياة من آثار هو آية الآيات على السكال ، الذى حوى السكال البشرى كله !
وذلك ما شهد له به أعداؤه قبل أصدقائه ، فى كل عصر ، وفى كل أمة !

والحقائق التاريخية التى تتحدث عن سيرة الرسول حقائق ثابتة موثقة ،

(١) فى الأصل : يريد بهم : وهو لا يستقيم مع سياق الكلام

(٢) من رسائل الجأحظ ٢٤١

لا تقبل النك أو الجدل .. إذ كان نبي الإسلام في المجتمع الذي ظهر فيه بالمسكان الذي تحصى عليه فيه حر كاته ، وتعد عليه فيه أنفاسه ، على صورة لم يعرف التاريخ لها مثيلا في حياة إنسان من الناس ، أو حدث من الأحداث !

ولله في هذا حكمة وتدبير !

فقد أراد الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم أن يكون في هذه البيئة التي ينكشف للناس فيها كل شيء ، ويتعبرى للحياة فيها كل شيء .. بيئة عارية من كل مايستر أو يكن ، فلا قصور ، ولا قلاع ، ولا حصون يستطيع من يعيش فيها أن يقيم له دنيا كما يشاء ويرضى ، دون أن يتطاع الناس من أمره على دقيق أو جليل !

ولما حياة البادية حياة عارية من كل هذا ، والناس فيها عراة أو شبه عراة . والخيام التي هي سكن الناس في هذه المواطن لا تكتم سرا ، ولا ترد سمعا ولا بصرا .. إنها أشبه بالثياب التي يرتديها الناس .. قد تنفع في انتقاء الحر أو البارد ، ولسكنها لا تنفع شيئا في الاحتجاب عن الناس ، والستر دونهم ! وكذلك تلك المدن الصغيرة التي قامت في هذه البادية .. إنها لا تخرج عن كونها مجموعة من الخيام ، وإن كانت جدرانها من الأحجار ، وسقفها من سعف النخيل !

هذه واحدة .. وأخرى .. هي أن أهل البادية في فراغ عمل ثقيل ، وخاصة سكان القرى الذين لا يشتغلون بشيء ، حتى برعى الإبل والغنم ! أما أهل مكة - البلد الحرام - فقد فرغ أهله من كل عمل .. الرعى يقوم به عبيدهم ، وغلمانهم والتجارة قافلة في الشتاء إلى اليمن ، وقافلة في الصيف إلى الشام ، يندب لها جماعة منهم .. والحرب التي كانت شغل سكان البادية لم يكن لأهل هذا البلد شأن بها ، لأنهم أهل بيت الله ، لا يعتدون ، ولا يعتدى عليهم !

فهذا الفراغ الذي يعيش فيه سكان البادية ، وسكان القرى بخاصة ، وأهل مكة بوجه أخص - هذا الفراغ الطويل الثقيل قد جعل الناس يشغلون بالتافه من الأمور ، ليقطعوا به الوقت ، ويجعلوه مادة حية للحياة .. تمسك وجودهم فيها ، وتخيل إليهم أنهم جادون عاملون !

فإذا وقع في القوم حدث جديد التفتوا إليه جميعاً ، وقاموا له وقعدوا ، وإن يكن مثل هذا الحادث لا ياتفت إليه غيرهم من أهل الحياة الجادة العاملة ..

وشواهد هذه الحال قائمة في حياة الريف ، وسكان القرى . . فالتناس هناك يجتمعون وينفضون لأقل نبأ أو حدث يقع بينهم . . فإنك ترى الناس جميعاً مشركين في مداورة الأحاديث وتقليبها عن كل حدث يعنيه أو لا يعنيه .

فإذا ظهر في صحراء العرب ، نبي ، فما ظنك بما يقع في حياة الناس من هذا الحدث ؟ تصور الجبال تتبادل مواضعها ، أو الشمس تغير مشرقها ومغربها . . أو تصور ماشئت من المذهلات والأعاجيب في الأحداث ووقعها على الناس ، فإنك لن تداني الصورة التي وقعت لقريش ومن حولها حين طلع عليهم ، محمد ، بقوله : إنه رسول . . رسول رب العالمين !

لقد وقع انقلاب شامل في حياة الناس ، فأخاوا أنفسهم من هذا الفراغ الذي كافوا فيه ، وفرغوا بكل جوارحهم ، وعقولهم ، وقلوبهم لهذا الحدث العظيم :

والذي يعني أن يسجله هنا من هذه الظاهرة هو أن ، محمد ، كان منذ اليوم الذي أعلن فيه عن نبوته ، وكشف للقوم عن كلمة السماء إليه ، وهو يمثل حياة الناس في مكة ومن حولها . فرداً فرداً ، رجالاً ونساء ، كباراً وصغاراً ، لم يستطع لإنسان أن يخرج بنفسه من هذه السوق التي لا تنقض أبداً . والتي لا يبيع فيها ولا شراء إلا تبادل الأحاديث في ، محمد ، ، وتداول الآراء فيه . .

ولك أن تحصي عيون أهل مكة وما حولها عيناً عيناً ، وأذانهم أذناً أذناً ، وألسنتهم لساناً لساناً ، وأرجلهم رجلاً رجلاً ، وأيديهم يداً يداً . ثم إن لك بعد ، هذا أن تضيفها كلها إلى حساب ، محمد ، مدة الثلاثة عشر عاماً التي عاشها في مكة قبل الهجرة والسنوات العشر التي عاشها في المدينة بعد الهجرة . إن هذه الجوارح جميعها لم تكن تعمل خلال تلك المدة إلا لحساب ، محمد ، ، ومن أجل ، محمد ، . له أو عليه . مولية أو معادية .

فهل تظن بمدى هذا شيئاً يخفى على القوم من حياة « محمد » أو يفلت من بين أيديهم ؟

وهل تستطيع أن تقع على حدث في الحياة ، أو على شخصية من الشخصيات وقعت تحت ملاحظة الناس ، وتحت أسماعهم وأبصارهم ، وفي قلوبهم وعقولهم مثل ما كان « لمحمد من أهل مكة والمدينة وما حولها .. لا أظن أحداً يحصى من التاريخ القريب أو البعيد بشاهد واحد يقوم إزاء هذا الحدث أو يناديه !

فإذا أضفت إلى هذا ما كان من صحابة « محمد » ، وامتزاجهم به هذا الامتزاج الروحي والمادى ، في الحل والترحال ، في الحرب وفي السلم ، في المسجد وخارج المسجد ، في يقظته ونومه ، في طعامه وشرابه ، في حديثه وصمته . . في قيامه وقعوده ، في مشيه وركوبه - كان من كل أولئك أعداد لا تحصى لها من الوثائق والسجلات المتشابهة المتطابقة ، التي تسجل حياة « محمد » لحظة لحظة ، ونفساً نفساً وحالاً وحالاً !

ومرة أخرى .. هل تستطيع الحياة أن تأتي بمثل هذا التسجيل الكاشف لحياة إنسان من الناس ، أو واقعة من الوقائع ؟ هيئات هيئات . . فإن ذلك لم يقع ، وإن يقع الإمرة واحدة من الناس . . هو رجل الانسانية وواحد !

وما وجه الحكمة في هذا ؟

نستطيع أن نجد لهذا التدبير السماوي في شأن « محمد » ، على هذا الذي كان من كشف شخصيته للناس ، ووقوفهم على جميع أحواله - نستطيع أن نجد لذلك أكثر من وجه ، وأكثر من دلالة وحكمة . .

فأولاً : هذا الكمال الإنساني الذي اشتمل عليه « محمد » ، ينبغي أن يشهده الناس ، وأن يملأوا وجودهم به . . إذ أنه ليس في الحياة مثل هذا الكمال البشري المتاح للناس أن يشهده ، وأن يأخذوا بحظوظهم كاملة معه ، فإذا أفلت منهم فإن يقهوا له مثال بعد هذا . وفي ذلك ما فيه تضييع لهذا الخير الكثير ، الذي يناله الناس من الاتصال به والاخذ منه !

أرأيت إلى الشمس كيف تسفر للناس ، بوجهها المشرق الرضىء من مطلع الصباح إلى مهبط الليل ؟ ثم أرأيتها بعد ذلك تغذى القمر بأضوائها فتجعله خليفة لها بعد أن يحجبها الظلام ، ليبدو ظلمته ، ويزيل وحشة الحياة ؟

لأنها ووليدها القمر آيتان من آيات الله للناس ، ورحمتان من رحمته بهم ..
لأنهما أكبر من أن يكونا لامة من الأمم ، أو لجيل من الأجيال .. لأنهما للأمم جميعاً ، وللأجيال جميعاً .. لأنهما يسعان الحياة كلها في أعماها ، وأزمانها ، وفي كل ما من شأنه أن يحيا عليهما ، ويعيش بهما !

و محمد ، في ذاته هو للإنسانية آية كبرى من آيات الله ، ورحمة شاملة من رحمته ، ومن حق الناس في هذه الآية الكبرى ، ومن حقهم في هذه الرحمة الشاملة أن تنكشف لهم هذا الانكشاف التام ، وأن تسفر لهم هذا السفور المبين ، ليأخذوا بحظوظهم كاملة منها ، فيطلع فيهم طلوع الشمس ، يحيي الموات ويبدد الظلمات .. فإذا لحق بالرفيق الأعلى كانت سنته فيهم ، وسيرته معهم قرأ يؤنس وحشيتهم ، ويكشف معالم الطريق لهم !!

وثانياً : من وجوه الحكمة في كشف شخصية « محمد » وتجليتها للناس أن رسالة « محمد » كما قلنا من قبل رسالة عقلية ، تعتمد على الحجة الواضحة ، والمنطق القويم ، وأن « محمد » وقف من هذه الرسالة وقفة المدافع عنها ، في وجه خصومة عنيدة عنيفة ، قد اتخذ أصحابها من الكلام بضاعة وصناعة ، فكان لابد أن يكون « محمد » قائماً من وراء رسالته ، يدفع كيد خصومها ، ويدحض باطلهم ، ويكشف عن سقيهم وضلالهم !

ومن أجل هذا كانت الرسالة الإسلامية من بين الرسالات السماوية كلها رسالة « منجمة » .. لم تنزل مرة واحدة ، وإنما ظلت نحو ثلاثة وعشرين عاماً . تنزل آية آية ، أو سورة سورة ، حسب دواعي الموقف ، وحاجات الناس .

ولو نزل القرآن الكريم جملة واحدة لكانت مهمة الرسول سهلة ميسرة .. إذ تكون في هذه الحالة على صورة متعارف عليها ، بين أوليائها وخصومها ، وتكون الخصومة فيها خصومة على واقع معروف ، وكان يكفي في هذا أن يدفع

النبي بها كاملة إلى الناس ، ويدعهم وشأنهم بها ، أو يعيد تكرارها عليهم مرة ومرة ، دون أن يحيطهم بجديد يفتح باباً جديداً للجدل والخمالم .

وكان نزول القرآن على هذه الصورة المجزأة ، وفي هذا الزمن المتطاوول ، مقتضياً أن يقف النبي دائماً في نقطة وانتباه ، يتلقى اعتراضات الخصوم ، ويستمع إلى ادعاءاتهم فيديرها في صدره ، ويرددها في خاطره ، ويتربق في لطفة وإشفاق كلمة السماء ، وما تلقى إليه من آيات ، يلقي بها القوم على الوجه الذي أراد الله سبحانه أن يلقاهم به . وهكذا ظل الرسول طوال ثلاثة وعشرين عاماً في هذا الموقف ، بين السماء والأرض ، وبين الله والناس ، لم يفرغ لنفسه ساعة من ليل أو نهار !

مهمة شاقة عنيفة ، وموقف صعب عسير ، لا يقوم على الوفاء به إلا من ربه العناية الربانية ، وأعدته الإعداد الكامل لهذا الأمر العظيم !

وطبيعة هذه المهمة تقتضى أن يكشف حال محمد ، كله للناس ، وأن يكون كل وجوده فيهم ، فلا يلقاهم من وراء حجاب ، ولا يجعل بينهم وبينهم آذناً يفتح الباب ويفلقه . وإنما هو للناس جميعاً ، يلقونه في أى وقت ، وعلى أى حال يكون . . حتى لقد بلغ الأمر بالنبي وأهله أن أودوا في حياتهم الخاصة بما كان يطرقهم من الناس ، فلم يجدوا لحظة لطعام أو منام ، واستحيا النبي أن يرد الناس عن هذا الذي كان يؤذيه ، فتولى الله سبحانه وتعالى تلبية الناس إلى هذا . فقال سبحانه :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ لِمَآءٍ ، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْذِنِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ » (١)

وثالثاً : من وجوه الحكمة في كشف شخصية محمد ، وتجليتها بين الناس أن الرسالة المحمدية ليس فيها معجزة من المعجزات المادية ، وإنما معجزته التي

بين يديه هي القرآن الكريم ، والمعجزة فيه شائعة بين آياته وسوره ، يعجز كثير من الناس عن إدراكها على وجه محقق ، فإن ذلك يحتاج إلى نظر دقيق ، وبصر نافذ .

فكان لابد لكي تتضح هذه المعجزة القرآنية من أن يكون الذي يقوم عليها هو في ذاته معجزة ، في كالاته ، وفي مقررات دعوته التي يدعو إليها ، فإذا دعا إلى معروف ، أو نهى عن منكر ، رأى الناس في حياته تطبيقاً كاملاً واضحاً لما يأمر به أو ينهى عنه ، وبهذا يرى الناس الدعوة في صورتها الكلامية ، وفي تطبيقها العملي .

هكذا كانت رسالة محمد . . . تخير لها الله سبحانه من صور الكلام أصدقه وأروع وأبلغه ، وهو القرآن ، وتخير لها من صور الأداء أتم صورة ، وأكملها . وأعدلها وهو محمد بن عبد الله .

وكثير من الناس آمنوا بمحمد قبل أن يتلو عليهم آيات الكتاب ، وقبل أن يسمعون كلام الله . آمنوا بما آمن به ، وتابعوه دون أن يسألوه شيئاً عما عنده من دلائل النبوة ومعجزاتها . لأنه هو عندهم آية الآيات ، ومعجزة المعجزات في أمره كله . ظاهره وباطنه . وإن الإنسان العاقل الذي يعرف مواطن الخير ويشهد حفظه منه لنفسه ليرى في محمد الرائد الموفق لكل ما يدعو إليه ، فإنه لا يدعو إلا إلى الخير ، ولا يهتدي إلا إلى الرشاد .

وقد كان إيمان السيدة عائشة بمحمد ، هو إيمان متابعة له وتطبيقاً لما عرفت منه وخبرت من أحواله : وعايذت من سمعته . في أمانته وصدقه واستقامته ، وعزوفه عن دنيات الأمور وسفاسفها . وهي - لصلتها بمحمد وبمخالطتها له - أكثر الناس وأقدرهم على تعرف هذه الصفات واختبارها عن قرب ومدانة .

لما نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء لأول مرة بالوحي اضطرب النبي لهذا الأمر وكرب له ، وذهب إلى خديجة وهو في هذا الحال ؛ فسأله ما به ، فلما أخبرها الخبر ، وقال لها : « لقد خشيت على عقلي » . . . قالت له : أبشر يا بن عم ، فوالله لا يخزيك الله أبداً . . . إنك لتصل الرحم وتحمل

الكل وتسكب المعدم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، (١) .
فاستدلت بكل عقلها وسلامة فطرتها ، أن الأعمال الصالحة ، والأخلاق
الفاضلة ، والشيم الكريمة تناسب أشكالها ، من كرامة الله وتأيدته ، وإحسانه ،
ولا تناسب الخزي والخذلان ، (٢) .

وكذلك كان إيمان أبي بكر . . وكثير غيره من العقلاء الراشدين :
ففي حديث الإسراء كثر لفظ قریش ، وعلت صيحات سفهاها تتردد في
أرجاء مكة . ترمى (محمداً) بالزور والبهتان . . ولمكن ألقى الناس به ، وأعرفهم
بحاله ، لم يزدحم ما أرجف به المشركون ، وما تخرص به المتخرون إلا لإيماناً
على إيمانهم ، من غير أن يسألوا النبي شيئاً ، أوحى من قبل أن يلتفتوا هذا الخبر منه .
روى عن عائشة رضى الله عنها . قالت : . لما أسرى بالنبي صلى الله عليه
وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح الناس يتحدثون بذلك . فارتد ناس ممن آمنوا به
وصدقوه . . وسعوا إلى أبي بكر فقالوا : هل لك في صاحبك ؟ يزعم أنه
أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ، وجاء قبل الصبح ! قال : نعم . إني لأصدقته
فيما هو أبعد من ذلك : أصدقته بخبر السماء في غدوه أو روجه .

وقد يقول بوض الناس في إيمان السيدة خديجة : إنه إيمان حب وطاعة ،
أدته المرأة المحبة المطيعة لزوجها !

ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا شيئاً مثل هذا في إيمان أبي بكر ، الذي كان
له من أصالة الرأي ، وعلو المسكن في قومه وأئمة العروبة التي تملأ صدره ،
ما ينأى به عن أن يكون لمة يتبع كل ناعق ، ويحبب كل داع . . إن أبا بكر حين
تابع « محمداً » عرف كثير من رجالات قرين وأولى الرأي فيهم أن أبا بكر
لا يتابع محمداً إلا عن حق بان له ، وربما لم يستن لغيره . وعن شواهد حال في
« محمد » جعلته يسلم له من أجلها بمقام النبوة ، من غير أن يطلب إليه شاهداً .

(١) الشفا ص ٧٠

(٢) زاد المقاد في هدى خير العباد لابن القيم جزء ٢ ص ١١٤

أو دليلاً .. لأن أبا بكر - عند قومه - بالمكان الذي يجعله أهلاً لأن يقتضى فلايرد قضائه ، ويحكم فلا تدفع حكومته ، ولا يخرج أحد عن حكمه ، ولو كان ذلك فى أعظم الأمور شأنًا ، وأجلها خطراً .. وما أن آمن أبو بكر وتابع محمدًا ، حتى تابعه فى هذا الإيمان نفر من عرفوا فى قريش بالحكمة ، وسداد الرأى .

فمن آمن بدعوة أبى بكر من قبل أن يتعرف إلى دلائل النبوة ويثبت منها : عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف .

وهؤلاء جميعهم من أهل الشورى الذين جعل « عمر » الخلافة من بعده فى واحد منهم ، وكانوا سبعة منهم على بن أبى طالب ، وعبد الله بن عمر ، على أن يكون شريكاً فى الرأى لا فى الخلافة .

فإذا عرف أن هؤلاء السبعة الذين رشحهم عمر للخلافة من بعده هم الخلاصة الخاصة فى مجتمع الصحابة ، وكان خمسة منهم أسلموا على يد أبى بكر وبمتابعته عرف فضل أبى بكر وقدره بين الرجال .

نعم إن سيرة محمد كانت مروفة لهؤلاء النفر ، فهم أهله وعشيرته ، ولم يكن الذى عرف أبو بكر من أخلاق محمد بالذى اختص به دون قريش . فإن قريشا كانت تعرف من « محمد » مثل ما يعرف أبو بكر وغیره ، وكان يلقب فيهم بالصادق الأمين . ولكن أبا بكر كان أسبق إلى التصديق بنبوة محمد ، وأفند بصيرة فى ربط ماضى « محمد » بحاضره ، وفى استدناء النبوة من السكال البشرى الذى كان لمحمد .

ولهذا الذى كان يعرفه أهل مكة من صفات السكال فى « محمد » وجد أبو بكر لدعوته آذاناً تسمع بما يدعو إليه من أمر « محمد » ، إذ كان ذلك مسبقاً بما وقر عند الناس بما عرفوا من مكارم الأخلاق فى الصادق الأمين .

والقول بأن إيمان السيدة خديجة ، بمحمد كان إيمان حب للزوج المحب المطاع قوله ينقضه إيمان أبى بكر بمحمد إيماناً مستمداً من أخلاق « محمد » ، ومن سيرته

فى قومه خلال أربعين عاما مضت من حياته ، لم تجرب عليه كذبة ، ولم يؤخذ عليه فيها عيب ، أو تلحق به شائبة ...

ثم إن السيدة خديجة ، قد عرفت فى قومها بالعقل ، والحكمة ، والاعتزاز بشخصيتها ، واحترام نفسها ، وما كان لها أن تنابح « محمداً » عن هوى . وهى التى زهدت فى الزواج زمناً ، حين لم تجد الرجل الذى تراه كتمناً لها ، على كثرة من تقدم لخطبتها من سادات قريش وسراتها . ثم ما أن التفت « بمحمد » حتى رضيت به زوجها ، لصفات الطيبة الكريمة التى تحدث بها الناس عنه . وخبرتها هى فيه ، حين اتجر لها فى مالها ، فى رحلة من رحلات قريش إلى الشام .

ولم يكن هذا شأن من خالطوا « محمداً » وعاشروه من أهل وعديق ... بل إن ذلك كان شأن أهل النظر والبصيرة ممن يطالعون وجه « محمد » ، أو يلتقون أخبار محمد على السماع ، ويعرفون منها بعض الجوانب المشرفة من حياته ، وكل جوانب حياته مشرق وضوء !

حدث أبو سفيان بن حرب - على ما كان بينه وبين النبى من عداوة قبل أن يدخل فى الاسلام ، وما بقى فى قلبه من بقايا هذه العداوة بعد أن أسلم - حدث أبو سفيان هذا فقال :

« إن هرقل - ملك الروم - أرسل لى فى ركب قريش ، وكانوا تجاراً بالشام ، فى المدة التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماداً (١) فيها أبو سفيان وكهنا قريش ، فأتوه وهم بإيليا (٢) ، فدعاهم فى مجلسه ، وحوله وجوه الروم ، ثم دعاهم ، ودعاه لترجمانه ، فقال : أياكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى قال أبو سفيان : فقلت أنا أفريهم نسباً . فقال : أدنوه منى ، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم إني سائل عن هذا الرجل - أى النبى - فإن كذبتى ، أى أبو سفيان - فكذبوه - .

(١) أى فى المدة التى كان قد جعلها صاح الحديبية فترة سلام بين المسلمين وكفار قريش

ومى عشر سنين .

(٢) بلد بأطراف الشام من جهة الجزيرة العربية .

قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأتروا على كذبا لكذبت عنه (١) ، ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب . قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا .

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟

قلت : لا .

قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أين يدون أم ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون ،

قال : فهل يرتد أحد منهم من سخطه لدينه ؟ قلت : لا .

قال : فهل كنتم تهيمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا .

قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن معه في مدة (٢) لا ندري ما هو فاعل فيها ؟

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم .

قال : فكيف كان قتاله إياكم ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه .

قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آبائكم ، ويأمرونا بالصلاة والصدق ، والعفاف ، والصلة . فقال لترجمانه : قل له ، سألتك عن نسبه فذكرت أنه ذو نسب فيكم ، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها . . وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يتأسى

(١) هكذا في البخاري ، والفعل « كذب » يتعدى بعلى .

(٢) يقصد مدة الصلح

بقول قيل قبله .. وسألتك هل كان من آباءه من ملك ، فذكرت أن لا ، قلت :
فلو كان من آباءه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه ، . وسألتك : هل كنتم
تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن
ليذر الكذب على الناس . ويكذب على الله . وسألتك : أأشراف الناس اتبعوه
أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل . . وسألتك :
أيزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم .
وسألتك أيرتد أحد منهم سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ،
وكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته القلوب . وسألتك : هل يغدر ، فذكرت
أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك : بهم يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم
أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبها كم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة
والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ..
وقد كنت أعلم أنه خارج (١) ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم كيف أخلص
إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه (٢) .

فهذا ما شهد به أبو سفيان - قبل أن يدخل في الإسلام - من أحوال
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن صفاته وشمائله ، التي كان عليها قبل أن
يوحى إليه ، وهى أحوال وشمائل قد استدل منها هرقل ، - على السماع -
على أنها أحوال وشمائل لا تكون إلا لنبى !

وعن الترمذى أن عبد الله بن سلام قال : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه
وسلم المدينة جئته لأنظر إليه ، فلما تبينت وجهه عرفت أن وجهه ليس
بوجه كذاب » .

وعن أبي رزمة التيمى قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعى ابن لى ،
فأريته ، فلما رأته ، قلت هذا نبى الله ! .

وروى مسلم : أن «ضاداً» لما وفد على النبى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم (٣)

(١) أى سيعت نبى فى هذا الوقت

(٢) من صحيح البخارى

(٣) كان من سنة الوفود التى وفد على النبى لإعلان الاسلام أن يقوم خطباًؤها وشعراؤها بين
يديه ، يقولون ما أعدوا لهذه المناسبة . فيندب النبى من أصحابه من يرد عليهم ، وكان
أحياناً يتولى هو ذلك - صلى الله عليه وسلم .

وإن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، من يهدي الله فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ... ، قال ضناد : « أعد على كتابك هؤلاء ، فلقد بلغن قاموس البحر » (١) ... هات يدك أبايعك .

وعن الجلودى — ملك عمان — لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام ، قال والله لقد دافى على هذا النبي الأسمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذه به ، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له ، وأنه يذنب فلا يبطر ، ويغلب فلا يضجر ، ويفى بالعهد ، وينجز الوعد ، وأشهد أنه نبي ، لو لم تكن فيه آيات مبينة كان منظره يذيبك بالخبر

محمد ... والوحي :

كان أكبرهم أولئك الذين صوبوا سهامهم إلى سيرة النبي أن يقطعوا صلته بالسماء ، وأن ينفوا عن القرآن أنه كلام الله . وأنه كتاب سماوى لشريعة الإسلام !

ثم لا حرج عندهم بعد هذا في أن يسلموا ، ولحمد ، بكل شيء ... ليكون مشرعاً عظيماً ... ويكون فاتحاً كبيراً .. ويكون مصلحاً ناجحاً ... ويكون كما يشاء ويشاء له أتباعه ، إلا أن يكون نبياً ، ورسولاً ، وإلا أن يكون كتابه منزلاً من السماء متلقى من رب العالمين .

وقد قلنا من قبل إن غاية هذا المسكر الحديث أن ينفي عن شريعة الإسلام صفة القداسة ، وأن ينزلها منزلة الشرائع والمذاهب الوضعية ، ليكون ذلك داعية إلى الجرأة على العبث بها . وجعلها في معرض التجريح والتعديل ...

هذا ويتخذ الغربيون من الحالات التي كانت تعترى النبي عند نزول الوحي

(١) قاموس الشيء عمقه ،

ذريعة للطعن في حقيقة الوحي ، والتشكيك في الصلة التي يمكن أن تكون بين محمد ، وبينه .

ومن عجب أن يعول الغربيون في دراستهم لأحوال النبي مع الوحي على الأحاديث والأخبار التي رواها الثقات من المسلمين عن الرسول أو شاهدها منه عند الوحي — من عجب أن يكون هذا هو مصدر علمهم بالحالات التي كانت تعرض للنبي ، ثم يجعلون هذه الأحوال دليلاً على نفي الوحي الذي كانت هذه الحالات أعراضاً له . وسواهد عليه .

وقد يكون من المستساغ أن يخلى هؤلاء الغربيون أيديهم من الأحاديث والأخبار التي تحدث عن الوحي ، وعن الأحوال التي كانت تعرض للنبي منه ، ثم لينسجوا من مقولاتهم ما يشاءون للطعن في حقيقة الوحي ، وفي صحة ما يوحى به ... فذلك على ما فيه من تلقيق ، وتزييف أقرب إلى المنطق من معالجة الحقائق الثابتة ، وتحويلها إلى مخلوقات من الباطل الصريح ...

إن خلق الشيء ابتداءً أيسر من إقامته على أنقاض شيء آخر ... هو بناء من أول الأمر ، ولو كان ذلك البناء على شفا جرف هار .. أما الخلق الآخر فهو هدم وبناء معاً .. يهدم ثم يبني ؟ الأول عمل واحد ، والآخر عملان ؟

والغربيون كما عرفنا في مواقف كثيرة يختارون دائماً في محاربتهم للإسلام هذا الأسلوب في خلق الأباطيل ، ورمى الإسلام بها .

فهم يعتمدون إلى الحقائق الثابتة من أوثق المصادر الإسلامية ، ثم يتناولونها كما يتناول الحيوان فريسته بمخالبه وأنيابه ، حتى إذا سال دمه ، وخمدت أنفاسها وتناثرت أشلائها ، حاولوا أن يجمعوا من أشلاء هذه الحقائق كائناً آخر هو هذا الباطل ، الذي يريدون أن يقيموه مقام الحق !!

وهم هنا في حقيقة الوحي يعتمدون إلى الأحاديث المروية عن الرسول ، والأخبار المشاهدة من أحواله مع الوحي ، ثم يصوبون إلى هذه الأحاديث وتلك الأخبار سهاماً مسمومة ، يجرفون بها السكك عن مواضعه ، لينسجوا بالباطلهم مكاناً يشوه الحقائق ويشوش عليها .

فمن الأحاديث والأخبار المروية عن الوحي الذي كان ينزل على النبي ،
والصور التي كان يأتي عليها ، والأحوال التي كانت تعرض للنبي منها . . من هذه
الأحاديث :

ما يروى عن السيدة عائشة أن الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه وسلم :
« كيف يأتيك الوحي ؟ » فقال : أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس ،
وهو أشده علي ، ثم ينفصم عني وقد وعيته ، وأحياناً ملك^(١) في صورة الرجل ،
فأعني ما يقول^(٢) . .

ويروى عن السيدة عائشة أيضاً أنها كانت تقول : « إن كان لينزل أي
يوحى — على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغداة الباردة ، ثم تقيض جهته
عرقاً^(٣) .

وعن عبادة بن الصامت قال : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه
الوحي كرب لذلك وتردد وجهه . .

فالحالة التي كان يتلقى فيها النبي الوحي حالة تستدعي مجاهدة روحية ، ونفسية
وجسدية ، كي تتيح له هذه المجاهدة حالاً مناسبة للعالم الروحي الذي يتصل به . .
لأنه لقاء بين طبيعتين مختلفتين .. طبيعة بشرية ، وطبيعة ملكية . ولا بد أن يحدث
هذا اللقاء احتكاكاً ، وتفاعلاً ، وفوراناً .. في الطبيعتين على السواء . .

يقول ابن خلدون فيما يعرض للأنبياء عامة عند تلقى الوحي . . « علامة
هذا الصنف — أي الأنبياء — من البشر أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن
الحاضرين معهم ، مع غطيظ ، كأنها غشي أو إغماء في رأى العين ، وليست
منهما في شيء ، وإنما هي في الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني ، بإدراكهم
المناسب لهم ، الخارج عن مدارك البشر بالكلية ، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية :
إما بجماع دوى من الكلام فينفهمه ، أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء

(١) في البخاري : وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً ، فيكلمني وأعني ما يقول .

(٢) صحيح مسلم — الجزء السابع ص ٨٢

(٣) صحيح مسلم — الجزء السابع ص ٨٢

به من عند الله ، ثم تنجلي عنه تلك الحال . وقد وعى ما ألقى إليه . . ويدركه أثناء ذلك من الشدة والبطء مالا يعبر عنه . . ففي الحديث : « كان مما يبالغ من التنزيل شدة » . وقالت عائشة : « كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفضم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا . . » وقال تعالى : « لانا سنلقي عليك قولا ثقيلا » .

ولأجل هذه الحالة في تنزل الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ، ويقولون : له ربي ، أو تابع من الجن ، وإنما لبس عليهم بما شاهدوه من ظاهر تلك الأحوال (١) .

ثم يقول ابن خلدون : « وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، قد جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللحظة : فطرة فطرهم الله عليها ، وجبلة صورهم فيها ، وفزهم عن موانع البدن وعوائقه ماداموا ملايسين لها بالبشرية ، بما ركب في غرائزهم من التمسك والاستقامة التي يحazon بها تلك الوجهة — أى الوجهة المسكية — وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تمكثف بتلك الوجهة ، وتسييح (٢) نحوها . . فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا — بتلك الفطرة التي فطروا عليها ، لا باكتساب ، ولا صناعة . . فلهذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم ، وتلقوا في ذلك الملا الأعلى ما يتلقونه ، وعاجوا به على المدارك البشرية منزلا في قواها ، لحكمة التبليغ للعباد . . فتارة يسمع دويّا كأنه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى الذي ألقى إليه ، فلا ينقضى الدوى إلا وقد وعاه ، وفهمه . . وتارة يتمثل له الملك الذى يلقى إليه رجلا فيكلمه ويعى ما يقوله . . »

« والتلقى من الملك . والرجوع إلى المدارك البشرية . وفهمه ما ألقى عليه — كله في لحظة واحدة ، بل أقرب من لمح البصر ، لأنه ليس في زمان ، بل كلها تقع جميعاً ، فتظهر كأنها سريعة ، ولذلك سميت وحياً ، لأن « الرحي » في اللغة الإسراع .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٨

(٢) في الأصل تكشف ، وتسيغ ، وهو تحريف .

« واعلم أن الأولى وهي حالة النبوة هي رتبة الأنبياء غير المرسلين - على ما حققوه - أي العلماء - والثانية - وهي حالة تمثل الملك رجلاً يخاطب - هي رتبة الأنبياء المرسلين ، ولذلك كانت أكمل من الأولى ، وهذا معنى الحديث الذي فسر فيه النبي صلى الله عليه وسلم الوحي لما سأله الحارث بن هشام ، وقال : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : « أحياناً يأتيني مثل ضلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني ، فأعي ما يقول ... » .

ولأنما كانت الأولى أشد لأنها مبدأ الخروج في ذلك الاتصال من القوة إلى الفعل ، فيعسر بعض العسر . . . ولذلك كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة والغطيط ما هو معروف . . . وسبب ذلك أن الوحي - كما قررناه - مفارقة البشرية إلى المدارك الملكية ، وتلقى كلام الملك ، فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها ، وانسلاخها عنها من أفقها إلى الأفق الآخر ، وهذا معنى الغبط الذي عبر عنه في مبدأ الوحي في قوله : « فغطيت حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني . فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ . وكذا ثانية وثالثة ، كما في الحديث .. »

وقد يفرض الاعتياد بالتدريج فيه شيئاً فشيئاً إلى بعض الموهلة بالقياس إلى ما قبله ، ولذلك كانت تنزل نجوم القرآن ، وسوره ، وآيه - حين كان بمكة - أقصر منها وهو بالمدينة .

« وانظر إلى ما نقل - أي روى - في نزول سورة « برائة » في غزوة تبوك ، وأنها نزلت كلها أو أكثرها عليه ، وهو يسير على ناقه ، بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار المفصل في وقت ، وينزل الباقي في حين آخر . . . وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين وهي ما هي في الطول بعد أن كانت الآية تنزل بمكة مثل آيات الرحمن ، والذاريات ، والمدثر ، والمنحى ، والفاق ، وأمثالها . . . (١) » .

وواضح من هذا كله أن الأحوال التي كانت تظهر على النبي في وقت تلقى الوحي هي من مستلزمات هذا الاتصال الذي يقع بين إنسان ومملك .. بين طبيعتين مختلفتين ؛ يراد منهما أن يتلاقيا ، وأن يتجاوبا ..

والجدير بالنظر هنا ما لاحظته ابن خلدون من التفرقة بين حالات الوحي التي أشار إليها النبي حين سئل : كيف يأتيه الوحي ، فقال : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي ، فيفصم عني . وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول . ، والحالة الأولى وهي حالة الإدري هي رتبة الأنبياء غير المرسلين — كما يقول ابن خلدون — والثانية ، هي حالة تمثيل الملك رجلا يخاطب هي رتبة الأنبياء المرسلين ، ولذلك كانت أكمال من الأولى . .

هذه بعض الأحاديث والأخبار التي روتها كتب السيرة في شأن الوحي واتصال النبي به ، والتي اتخذ منها الغربيون مادة لخلق المفتريات والأكاذيب ، للطن في رسالة الرسول ، والتشكيك في صدق ما جاء به ، إذ كان عندهم أن ذلك الذي نطق به النبي وسماه فرآنا ، ليس إلا هذيان محرم ، وإلا تقيأت مصروع ، أو مجنون .

وشاهدكم على هذا ؛ تلك الأحوال التي كانت تعرض للنبي حين ينزل عليه الوحي ، ويلقى بما أمر الله به أن يلقيه إليه ١ .

وأعجب ما في هذا الموقف من أولئك القائلين بهذا القول أنهم يلتقطون من الآيات والأحاديث والأخبار كلمات يقطعونها من الكيان الكلي للحقيقة . ويمزونها عن السياق الذي تجرى فيه . ثم يبنون عليها ما يبنون من أوهام وأكاذيب ١

والذي كان يقتضيه الأسلوب العلمي في البحث عن الحقيقة هنا هو التثبت أولا من هذه الآثار ، والوصول إلى حكم قاطع فيها وفي مصادرها .. أهى صداقة أم كاذبة .. ؟ ثم يأتي بعد ذلك دور التطبيق لها ، والتعامل بها . . فإما أن تقبل

جميعها ، أو ترد جميعاً . . أما أن يؤخذ من الخبر بعضه ، ويترك بعضه ، فذلك هو التافيق الذى لا تقوم به حقيقة أبداً ،

فهذه الأحاديث والأخبار التى يأخذ هؤلاء الكتاب شاهداً منها : . ما رأيتهم فيها ؟ وما مقدار اطمئنانهم إليها ؟ أهى من الوثائق التاريخية المحررة فى نظرهم ؟ أم هى أحاديث موضوعية مكذوبة ؟ فإن كانت الأولى كان المنطق يقضى بأن يأخذوا بها ، وبكل ما جاء فيها ، وإن كانت الثانية طرحوها ، وبحشوا عن وثائق أخرى ، يحدون فيها الصدق الذى يطمئنون إليه . . أما أن يحملوا هذه الأخبار بهذا المكان الذى تتلاعب به عواصف الأهواء ، فيؤمنون ببعضها ويكفرون ببعضها ، ويأخذون بعضاً ويدعون بعضاً ، حسب ما تدعو دواعى الهوى من أنفسهم فذلك أسوأ موقف يتفقه عالم أو باحث . . وقد أنكر الله سبحانه هذا الموقف الخبيث من اليهود ، وتوعدهم الخزي فى الدنيا : والعذاب الشديد فى الآخرة .

فقال تعالى : « أفؤمنون ببعض الكتاب ، وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » (١) .

والخزي الذى توعد الله به اليهود فى الدنيا بسبب فعلتهم هذه ، هو خزي يمسبب كل من يقف هذا الموقف فى مواجهة الحق ، حين يتم استدلالات الباطل على ما يختلس من معالم الحق .

الحق والباطل :

ولو أننا تركنا هذه المفتريات جانباً ، وضربنا صفحاً عنها ، دون أن نلفت إليها أو نلفت الأنظار إلى زيفها وزورها لما وقع عندنا أن أحداً يعقل - مجرد العقل - ويفهم - أدنى الفهم - يأخذ بهذه المقولات ، ويضيف شيئاً منها إلى سيرة النبي الكريم .

فإن أدنى درجات النظر لإيها تفضحها ، وتكشف عوارها ..

وذلك ، أنها إنما استمدت حياتها ووجودها من مصادر إسلامية ، تؤمن بالنبي ، وتؤمن بالرسالة التي جاء بها من عند الله ..

وليس يصح في عقل عاقل أن تجيء المصادر الإسلامية بما يتهم الرسول بالصرع والجنون ! ثم لأنه من جهة أخرى ما كان للتاريخ أن يحتفظ في صدره بهذا السجل الضخم من الأخبار والأعمال المصروع أو مجنون ؟ وما كان لجماعة من الجماعات الإنسانية أن تتعلق بمجنون أو مصروع هذا التعلق ، وتفتديه بالمهيج وبالمسال والولد !

يكفى هذا وحده في فضح هذا الزور . وإلباس أهله لباس الخزي والذي ألبسه الله اليهود الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضه !

« وما صاحبكم بمجنون » .

لقد استخزي بعض من كتاب الغرب أن يقف هذا الموقف اللاحق ، وأن يبدو للناس عارياً لا يستره شيء في ضوء الشمس وفي رابعة النهار .. فإن الذي يجعل القرآن أو الحديث دليلاً ومستنداً ثم يعود إلى هذا الدليل والمستند فيمزقه ، ويلقى به في عرض الطريق أشبه بمن يلبس حلة زاهية معجبة يخرج بها على الناس ثم ينزعها عن جسده ، ويرمى بها في التراب ، ولو أنه خرج إلى الناس عارياً من أول الأمر لكانت فعلته تلك أقل شناعة ، وأهون خطباً .. ولوجد .. على أقل تقدير - من يعتذر له أي عذر .. كأن يقول قائل : مسكين ! ليس عنده ما يستره ! أو خائف مذعور أعجله الخوف والذعر عن أن يرتدى ما يستره ! أما أن يكون وملا بيه تأخذ مكانها من جسده ، ثم ينزعها ، وينخلع عنها ، لاشيء إلا لأنه لا يريد - فذلك هو الضلال البعيد ، والخزي المبين !

وإذا كان كثير من كتاب الغرب قد استبدت به حمى الكراهية للإسلام ، فلم يبال أن يضحي بحياته ، ولم يستكف أو يتجرد من ملا بيه على أعين الناس ؛ فإن بعضاً من الكتاب الغربيين لم يجدوا في قلوبهم الجرأة على أن يقفوا هذا الموقف ،

وأن يدعوا على رسول الإسلام أنه مصاب بالصرع والجنون . قائمين شهودهم على هذا الادعاء من كتاب الله وسنة رسول الله ! .

فهذا الكاتب الفرنسي : « إميل درمنجيم » يقول في كتاب « حياة محمد » في معرض الحديث عن الصرع أو الجنون الذي يرميه به إخوانه من كتاب الغرب - يقول :

« غفل المشتغلون بأمور النفس الحضريون الذي افترضوه - أى القرآن - من الصرع ، والاستيحاء ، والخيال المتقدم - غفلوا عن حياة الخيام في الصحراء ، وعما يجب أن يديه الرجل فيها من الخنق والدهاء ليبقى زعيماً بسيطاً لعصبية من الأعراب .

« لحياة محمد منتظمة ، موزونة . قبل بعثته بما يشمل النظر - أى في جميع أموره كلها التى تقع تحت الملاحظة والنظر - وما انفكت تكون كذلك بعدها إلا في حالات الوحي » .

ثم يحىء الكاتب بشاهد من التوراة ، لحال نبي من الأنبياء في حال الوحي وما كان يعتريه في تلك الحالات من تغيرات جسدية ونفسية .. يقول :

« قال أرميا : « انسحق قلبي في وسطى ، ارتخت كل عظامى ، صرت كإنسان سكران ، ومثل رجل غلبته الخمر ، ومن أجل الرب ، ومن أجل كلام قدسه » . ومثل هذا ما قاله « عاموس » المدثر ببردته كمحمد » .

ثم يقول :

« ولم تنشأ رؤى محمد ووحىه عن مرض فيه ، بل كانت تبدو عليه علامة المرض بسبب الرؤى والوحي » .

ويقول :

« وهناك عوارض مشتركة بين مريض الأعصاب أو المهوس ، وبين الموحى إليه الصادق : الأول منفعل غير فاعل . والآخر مبدع فاعل ..

ويقول :

« والحق أن محمدآ ، كان مبرأ من مثل هذه الأمراض على الدوام ، فقد كان تام الصحة إلى أن بلغ سن السكال ، ولم تبدأ العوارض عليه بعد هذه السن إلا عند تقبل الوحي .

« وكان لمحمد بالوحي آلام كبيرة ، وكان لمحمد بالوحي حالات مؤثرة ، كره أن يطاع الناس عليها ... ولاحظ أبو بكر ذات يوم - والحزن ملء قلبه - باده الشيب في لحية النبي ، فقال له النبي : « شيبتي هود وأخواتها : الواقعة ، الخافقة ، والقارعة » .

« وكان النبي يشعر بعد الوحي بثقل في رأسه ، فيطبه بالمراهم . وكان يتدثر حين الوحي فيسمع له غطيط وأنين (١) .

هذا ما يقوله إميل درمنجم في كتابه « حياة محمد » ... !

ولا تحسبن أنه يكتب عن محمد بماطمة من عواطف الحب والولاء لهذا النبي العظيم ، بل إنه لا يقل عن غيره من كتاب الغرب تعصباً على الإسلام ونبي الإسلام ، فإن كتابه هذا مليء بالغمزات المسمومة ، والوخزات المخدرة . ولكنه هنا أمام هذه الحقيقة السافرة لم يستطع أن يخفى تحت أضوائها شيئاً .

ولا نريد أن نعيد القول مرة أخرى في دفع هذه المفتريات التي اقترأها الغربيون على رسول الله . وصوروا بها الحال التي كانت تعرض له عند الوحي . فإن هذه المفتريات كما قلنا ، لا تنماسك عند تقليبها والبحث فيها ، بل لأنها لتنهار كما ينهار بناء من الرمل على الرمل .

أبجنون مصروع يبني دولة ، ويزشء نظاما ، ويقم ديناً يعيش في أجيال الناس ، منذ قام إلى اليوم ! ، دون أن يضاب بنكسة أو خلل ؟ أبجنون مصروع يثبت لهذه العواصف العاتية المزججة وحيداً في وجه أمة صخراوية النفوس ، صخرية الطباع ، ثم لا يكون منه في حال من الأحوال تخاذل أو ضعف حتى يحول هذه العواصف إلى أنسام عليلة ، وريح رخاء ؟

أجنون مصروع ذلك الذى يحمل تلك الشعلة السواوية المقدسة بين يديه ،
ثم ياتى بها الأعاصير الهوج .. هكذا أكثر من عشرين عاما حتى تهدأ العاصفة ،
وتسكن ، ويجتمع الناس على أضواء تلك الشعلة ، ويتقبسون منها ؟

ثم !

ثم أجنون مصروع مختلط هذا الذى يأسر قلوب معاشره ، ويملك أنفسهم ،
فإذا القلوب خافقة بحبه ؛ وإذا النفوس لا تعرف غذاءها إلا من يبايع الحب
والولاء ، والتفانى ... ؟

إن التاريخ لا يذكر فى سجله يوما أن إنساناً كان له فى الناس رصيد من
الحب والولاء ما كان لمحمد من ولاء وحب !

فى بيعة الرضوان ، ومعسكر الرسول بالحديبية ، يريد دخول مكة ؛ زائراً
للبيت الحرام - بعث قريش عروة بن مسعود الثقفى ، ليجد مع النبی سبيلاً
إلى الخروج من هذا الموقف .. قالنبي والمسلمون معه يريدون دخول مكة ،
وقريش تأبى عليهم ذلك .. وقد التقى عروة بالنبي ، وتحدث إليه ، ورأى عن
قرب ما للرسول الكريم عند أصحابه ، وما فى نفوسهم من حب وولاء . لا يتوضأ
النبي إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يصق بصاقاً إلا تسابقوا إليه ، ولا يسقط من
شعره شيء إلا تهافتوا عليه ، رأى عروة هذا رأى العين .. فلما عاد إلى قريش ،
قال : يامعشر قريش : إني قد جئت كسرى فى ملكه ! وقبصر فى ملكه ؛
والنجاشى فى ملكه ، وإني والله مارأيت ملكاً فى قوم قط مثل محمد ، فى أصحابه
ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبداً .. فروا رأيكم ، (١) .

وخذ هذا الحادث شاهداً مع الآلاف المؤلفة من أمثاله :

وقع خباب بن عدي فى يد قوم من أعداء المسلمين قبل الفتح ، وأراد
هؤلاء القوم (٢) أن يتقربوا إلى قريش بهذا الأسير ، وبصاحب (٣) له ، ليكون

(١) السيرة لابن هشام جزء ٣ ص ٥٦

(٢) هؤلاء القوم هم حى وعضل والقارة ، من قبيلة قزارة ، ويضرب المثل بذرهم .

(٣) صاحبه هو زيد بن الدثنة .

في ذلك بعض الشفاء لما في قلوبهم من موقعة بدر ، وصرعهم فيها . . . وحين
قدم خياب للقتل ، قال له أبو سفيان : « أيسرك أن « محمداً » هنا ، تضرب
عنقه ، وأنت في أهلك ؟

فقال خياب :

لا ، والله ما يسرنى أني في أهلي ، وأن « محمداً » في مكانه الذي هو فيه ،
تصيبه شوكة تؤذيه (١) .

فانظر إلى هذا الحب الذي لم تعرفه الحياة من قبل !

رجل بين النطع والسيف ، يهيج فيه أبو سفيان غريزة الحب للأهل والولد
في تلك الساعة ، والموت منه بمصرده ؛ على أن يكون « محمد » مكانه في ساحة
الموت ، فيندفع خياب يهدير في غيظ وحنق : لا ، والله . . لا أرضى أن يكون
محمد في مكانه وتصيبه شوكة تؤذيه .

أهذا هو ميزان المجانين والصرعى في حساب الإيثار والتضحية ؟ إن يكن
ذلك هو الواقع فرحى بالجنون وبالصرع .

ثم هناك شاهداً آخر ، ربما كان أكبر في دلالاته على معنى الإيثار والحب
مما فعل « خياب » وإن كان المبذول هناك النفس ، والمبذول هنا حركة من حركات
النفس المنطوية على أسمى معاني الإيثار ، والحب ، والولاء .

فهذه « أم حبيبة » زوج النبي ، وبنت أبي سفيان ، يلتقاها أبوها في منزل
الرسول بالمدينة ، قبل أن يدخل الإسلام ، وقد جاء موفداً من قريش ليؤثق
الهدنة التي كانت بين قريش وبين المسلمين ، ولتزيد في أمدها .

وليس هذا هو المهم في الأمر ... وإنما المهم هو الآتي :

عندما دخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة ، زوج النبي ، أراد أن يجلس ،
ولم يكن غير فراش الرسول شيء يمكن أن يصلح للجلوس — فهم أن يجلس

على هذا الفراش ، ولكن ابنته ردت به عنه وطوته دونه ، فقال : يا بنية .. ما أدرى ... أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت رجل مشرك .. نجس ! ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم .. قال : والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر (١) ؟ » .

أفهدا إخلاص وحب تبدله امرأة لزوج مختلط أو مجنون ! فلا تمكن أحداً أن يجلس على فراشه ؟ ومن هذا الأحدا ؟ إنه أبوها ، ومن هذا الأب ؟ إنه أبو سفيان ، سيد سادات قريش ، وصاحب عيرها ، ونعيمها .. ثم بعد هذه النية الطويلة التي لم ترف فيها الابنة أباه ، السيد المطاع ! إن حرارة اللقاء بين الابنة والأب لم تذهلها عن هذا الذي يقوم في نفسها من فارق كبير بين ليمانها بالرسول الزوج ، وجبها لأبيها الزعيم !

وخذ مثلاً ثالثاً ، وما أكثر الأمثال هنا .. ولكن هذا المثل فريد في بابه ، ولا نظن أنه يقع على تلك الصورة إلا في هذه الحالة التي وقع فيها .

فالمرأة هي المرأة دائماً في موقفها من ضرتها ، لا ترجع في خصوصيتها لضرتها أو ضرتها إلى عقل ، ولا تحتكم إلا منطق ، ولا تنفي إلى حق .. وإنما هي عداوة دائمة بسبب وبلا سبب ، وخصام متقد بحق ، وبغير حق .. إن المرأة هنا تدافع عن وجودها بكل سلاح .. فمن غير المعقول أن تستجلب المرأة ضرة لها تشاركها حفظها من زوجها .. ولكن هذا هو الذي حدث .. وقد حدث على نحو غريب فريد .. أشبه بالخوارق من الأمور .

وأم حبيبة ، زوج النبي وبنيت أبي سفيان هي صاحبة هذه الواقعة !

جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تعرض عليه أن تزوجه من أختها (رمة) بنت أبي سفيان ! .. فقالت : يا رسول الله .. هل لك في أختي .. بنت أبي سفيان ؟ فيقول الرسول الكريم : « أفعل ماذا ؟ » فتقول : « تزوجها » !

فيقول صلوات الله وسلامه عليه : « أو تحبين ؟ » فتقول : « ليست بمخلية ، (١) وأحب من يشاركني في الخير أختي ؟ فيجيبها : « فإنها لا تحل لي ، (٢) » .

إنه خير كثير يلقاه بغير حساب من يعيش في حجة الرسول ، ويسكن إلى جواره ... وقد سعدت أم حبيبة بهذا الخير الوفور ، وفاض بين يديها ، وملائم عليها وجودها ، وهي واحدة من نساء تسع كن يشاركنها هذا الخير ، إلى جانب هذا المجتمع الكبير من صحابة رسول الله ، الذين كانوا يردون موارده العذبة الصافية ويرتوون منها . . ومع هذا فقد كان في هذا الخير القدق متسع ل هؤلاء جميعاً ولنغيرهم . فأرادت أم حبيبة أن يكون لأختها نصيب من هذا الخير ، وحظ من تلك السعادة .

وليس الخير الذي تريد أم حبيبة أن تنال أختها منه هو من حظوظ الحياة المادية ومتعها . . فقد كانت الحياة المادية في بيت الرسول حياة قاسية فيها جوع ، وحرمان كثير . . وكان ما في بيت أبي سفيان من مطالب الحياة شيء كثير ، وليس في بيت النبي شيء منه . و « أم حبيبة ، عرفت الحالين . . حالها في بيت أبيها ، وما ذاقته فيه من ألوان الحياة الرخية الناعمة . . فهل كانت تطلب لأختها التي تود لها حياة أطيب وأكرم من حياة أبيها — هل كانت تطلب لها إلا هذا الغذاء الروحي الذي ذاقته هي عن قرب ، وعرفت ما يجد الإنسان فيه من سعادة غامرة ، ونعيم سابغ ؟

وهل يجد أحد في جوار مجنون أو مختلط شيئاً يستريح له ويمناً به ؟ أيعرف الناس شيئاً من هذا قد وقع في الحياة على تلك الصورة من مجنون أو مصروع (٣) ؟

نعم . . إن علماء الذرب قد أفتاهم علمهم بهذا في موقفهم من نبي الإسلام ، ودراستهم لأحواله في أصنى ساعات حياته — وكل حياته صفاء — وهي ساعة اتصاله بالوحي ، وتلقيه كلمات رب العالمين . . ١

(١) أي أنها لا تخل مكانها ، بل تظل حيث هي في مكان الزوج للرسول .

(٢) زاد المعاد جزء ١ — ص ٥٦ .

ثمار الصرع والجنون :

وإذا غفرنا لعلماء القرون الماضية أخطاءهم المتعمدة أو غير المتعمدة — في تخريبهم للعوارض الجسدية التي تعرض للجائين والصرعى ، وفي خلطهم بين حالات الصرع والجنون ، والحالات التي تشرق فيها النفس حين تلمسها لمسة من لمسات العبقريّة والذكاء — إذا غفرنا لأبناء القرون الوسطى هذا الخلط . فإننا لا نجد سبيلاً يتجه به الغفران لأبناء هذا العصر ، حين يجرون على ما جرى عليه أسلافهم في هذا الشأن . . إذ قامت الدراسات النفسية في العصر الحديث بكشف أعماق النفس ، ورصد أحوالها حالاً بعد حال ، وقد أعان التقدم العلمى الحديث — وخاصة علم التشريح ووظائف الأعضاء — أعان هذا اللقاء أضواء كثيرة على النفس الإنسانية ، والتعرف على كثير من أسرارها .

على أن الأمر هنا لا يحتاج إلى تعمق في الدراسات النفسية ، ولا إلى استدعاء لكل المقررات الحديثة في علم النفس ، ليعرف الفرق بين عوارض الصرع والجنون . وبين حالات الإشراق النفسى ، والصحو الوجدانى . .

وللسيخ — عليه السلام — كلمته المأثورة : « من ثمارهم تعرفونهم ، . . ويكنى هنا أن يلقى الرء نظرة على الحصاد الذى تحصده الحياة من عالم الصرعى والجائين ! إنه حصاد نكد ، ليس فيه شيء ينتفع به . . إنه أشبه بالنار ترعى في هشيم كل ما يتولد منها دخان . لا حرارة فيه ، ولا نور معه . . !

ماذا يجرى على أفواه الجائين والصرعى ، وماذا يخرج من بين أيديهم ؟ عبث وهرام . لا يقف عنده أحد ، ولا تلتقطه أذن !

وحسب من يطلب شاهداً حياً لهذا أن يفتش مصحفاً للأمراض العممية ، ويبدش مع أهله ساعة من نهار ! إنه سيهود موقراً بما ثقل حمله ، ورخص ثمنه ، من ترهات قد لصقت به ، وارتسمت في رأسه . من هذا الضجيج والصخب ، ومن هذا الهذيان والعبث ! هذا ، في حين أننا نجد أعمالاً رائعة خالدة لأناس كانت تلبسهم حالات من العوارض الجسدية التي تخيل إلى من يراهم أنهم على حال غير الحال المألوفة في حياة الناس !

إن كثيرا من أصحاب العبقریات وأرباب الفنون تمرض لهم أحوال يضطرب لها كياناتهم الجسدى ، ويعترهم فيها نوبات أشبه بنوبات الصرع . ولكنهم مع هذا تجدهم فى أصنى أحوالهم الذهنية ، وفى ألمع حالاتهم العقلية . . . إنهم فى تلك الحال يعانون حالا من أحوال « الإنتاج » الفكرى الرفيع ، الذى لا يلبث أن يتمخض عن مولد رائدة من روائع الفن ، أو عروسا بحلوة من عرائس الفكر !

وإن الفرق واضح أشد الوضوح بين تخطيطات المجانين والصرعى ، وبين تهويم الفنانين والعباقرة وترنحاتهم !

يذكر تاريخ الأدب العربى عن « البحترى » أنه كان إذا أُنشد شعره فى مجلس يستمع إليه الناس فيه ، استبد به الطرب ، وغلبته النشوة ، وجعل يقدو ويروح « ويتأيل يمينا وشمالا ، ويهدركا يهدر البعير ، وهو يقول لسامعيه : ما لكم لا تعجبون ؟ ما لكم لا تطربون ؟

منظر عجيب .. لا يشك من لم يكن يعرف « البحترى » من قبل ، أنه فى حضرة رجل مجنون أو معتوه !

ولسكنما حال من الوجد أشبه بحال من لعبت برأسه الحجر ، واستبد به السكر !

إنها حال — كما قلنا — تتألى فيها ملكات الإنسان ، فتصفقو نفسه ، ويسبحو وجدانه ! ولا تقاس هذه الحال — مهما تبلغ من السكال والاعتدال — إلى ما يكون عليه النبى فى حال الاتصال بالوحى والتلقى عنه ..

إن النبى فى حال الوحى فى نشوة روحية غامرة .. لأنه يعب عباً من أنوار السماء .. إنه يشرب من خمر لا لغو فيها ولا تأثيم !

إن التفرقة بين تخطيطات المجانين والصرعى ، وبين هزات الانتشاء الروحى والإشراق النفسى — ليست بالأمر العسير الذى يحتاج إلى علم غزير ، وإلى دراسات عميقة .. إذ أن شقة الخلاف بين الحالين بعيدة ، ومدى التفاوت بينهما طويل ممتد ، وبأدنى نظر يستطيع المرء أن يعرف الحق والباطل ، ويميز بين السليم والسقيم !

ابن صياد واختبار النبي له :

وقد كانت للنبي الكريم تجربة كاشفة لحال من الهوس الذي يركب بعض الناس ، ويلقى على ألسنتهم أخلاطاً من القول ، يختلط فيها العقل بالجنون ، والحكمة بالهوى ، والحق بالاضلال . فيحجب بعض الناس أن ذلك عن تلقينات غيبته ، ويلتمسون لذلك تفسيرات وتخريجات ، يقيمون عليها ما اعوج من القول ، وما اضطرب من الرأي !

و ابن صياد هذا يهودى ، كان من أصحاب الشطحات والتخرصات في زمن النبي ، وقد ائتمت حاله أنظار كثير من الناس ، وأرتمهم فيه رأيا .. وتحدث كثير من المسلمين أنه المسيح الدجال ، . وكثر القول فيه ، والاختلاف عليه بين معتقد فيه ، ومتهم له ، أو متوقف في أمره !

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يختبر حاله ، ويبلو ما عنده ... ليكشف حقيقة أمره للمسلمين ..

وفي صحيح مسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بمسيبان فيهم ابن صياد ، ففر المسيبان : وجلس ابن صياد ! . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كره ذلك ، فقال له صلى الله عليه وسلم : تربت يدك ... ألتشهد أنى رسول الله ؟ فقال : لا ، بل تشهد أنى رسول الله ! فقال عمر بن الخطاب : ذرنى يا رسول الله حتى أقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن يكن الذى ترى (١) ، فلن تستطيع قتله .

وفي رواية أخرى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بابن صياد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد خبأت لك خبيئاً فقال : « دح » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخسأ ، فلن تمدو قدرك ، فقال عمر يا رسول الله : دعنى فأضرب عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . دعه

(١) الذى ترى : أى الذى تظن ، وكان عمر يحسب أنه الدجال .

فإن يكن الذى تخاف أن تستطيع قتله.. وعن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب انطلق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى رهط قبل ابن صياد ، حتى وجده يلعب مع الصبيان عند أطعم بنى مغالة^(١) وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم ، فلم يشعر حتى ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهره بيده ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن صياد : أتشهد أنى رسول الله ، فقال : أشهد أنك رسول الله الأمين ، ثم قال ابن صياد : أتشهد أنى رسول الله ؟ فرفضه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال : آمنت بالله وبرسوله ، ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماذا ترى ؟ قال ابن صياد : يأتينى صادق . وكاذب : فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلط عليك الأمر ، ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لى قد خبأت لك خبيثاً ، فقال ابن صياد هو الدخ ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اخسأ فلن تمدو قدرك ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله : أضرب عنقه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن يكنه^(٢) فلن تسلط عليه ، وإن لم يكنه فلا خير لك فى قتله .

« وعن سالم بن عبد الله ، قال سمعت عبد الله بن عمر يقول : انطلق بعد ذلك — أى بعد الحال التى رآها الرسول من ابن صياد — رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى بن كعب الانصارى لى النخل التى فيها ابن صياد ، حتى إذا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم النخل ، طفق — أى الرسول — يتقى بجذوع النخل ، وهو يختل^(٣) أن يسمع من ابن صياد شيئاً قبل أن يراه ابن صياد ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو منضطجع على فراش فى قعيمة ، له فيها زمرة^(٤) ، فرأت أم ابن صياد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يتقى بجذوع النخل فقالت لابن صياد « يا صاف » وهو اسم ابن صياد : هذا محمد ،

(١) الأطعم بناء مرتفع ، وبنى مغالة بطن من الأنصار .

(٢) أى إن يكن هو الدجال .

(٣) أى يخفى أمره عليه ، ويخفيه من حيث لا يشعر به .

(٤) الزمرة : الصوت الخفى ، لا يكاد يسمع .

فشار (١) ابن صياد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو تركته بين ... » .

قال سالم ، قال عبد الله بن عمر ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : لا تذكروه ، ما من نبي إلا وقد أنذره قومه ، لقد أنذره ، نوح قومه ، ولكن أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي : تعلموا — أى اعلوا — أنه أعور ، وأن الله تبارك وتعالى ليس بأعور (٢) .

وابن صياد هذا دعى كاذب ، قدر ركبته جنة ، فجعل يخبط ، ويخرف ، فتند منه بعض كلمات ، تبرز فيها بوارق يحسبها كثير من الناس من متنولات الغيب ، وما هي في حقيقتها إلا من لمعات الخبل والجنون ؛ وكل للخبل والجنون من لمعات ولكن لمعات أشبه بلمعان السراب ، يحسبه الظآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

وقد فتن الناس على عهد الرسول بابن صياد هذا ، لما كان يأتي من ضروب الخلط التي تبرق منها بروق كواذب ، وحسبوا أنه هو الدجال الذي أنذره الرسول به وحذرهم إياه .

وسرعان ما انكشف أمر هذا الدعى ، واعتزله الناس خوف الفتنة ، وانقاع البشر ، الذي قد يلقاهم منه .

وأحسن ابن صياد بهذا ، وضائق به السبل ، حتى لقد حدثته نفسه بأن يطلب الموت لها ، فليستريح وتسترىح .. وسعى إلى الناس ينفي أنه الدجال الذي كشف الرسول للمسلمين عن صفاته !

عن أبي سعيد الخدري قال : صحبت ابن صائد إلى مكة ، فقال لي : أما قد لقيت من الناس ؟ يزعمون أني الدجال ؟ أأستسمعت رسول الله صلى الله عليه

(١) أى هب مذعوراً .

(٢) ذلك أن ما يدعيه الدجال أنه إله ، والعور نقص ، والله تعالى منزّه عن النقص ، وله الكمال كله .

وسلم يقول : إنه لا يولد له ؟ قال : قلت : بلى . قال : فقد ولد لي ! أو ليس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يدخل المدينة ولا مكة ؟ قلت : بلى ! قال : فقد ولدت بالمدينة ، وهذا أنا أريد مكة . ١ .

« وعن أبي سعيد الخدري أيضاً قال : قال لي ابن صائد : مالي ولكم يا أصحاب محمد ؟ ألم يقل نبي الله صلى الله عليه وسلم : إنه — أي الدجال — يهودي ، وقد أسلمت ! وقال — أي النبي — ولا يولد له ، وقد ولد لي وقال : إن الله قد حرم عليه مكة وقد حُرِّجَتْ (١) ؟ »

وهكذا مصير كل باطل ، يبرق بارقة ثم يخبو ويصير رماداً . وكذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس ، فيمكث في الأرض . (٢) .

الفرانقة العل :

قدر الطاعنون في نبوة « محمد » ، وفي اتصاله بالسماء ، وتلقيه القرآن عن طريق الوحي من رب العالمين — قـروا أن مفترياتهم التي حاولوا أن يطمسوا بها معالم هذه الحقيقة لن تلقى من العقلاء أذناً صاغية ، ولا تجد في مجال النظر الصحيح ركناً تأوى إليه .. إذ أن هذه الحقيقة الضخمة الراسخة أشبه بجبل تحاول جماعة من النحل أن تخفي معالمه عن الأنظار .. قدر الطاعنون في نبوة « محمد » هذا الموقف ، ودخل في حسابهم هذه النهاية المخزية التي ينتهي إليها تدبيرهم في هذا المجال .. ففتحوا جبهة أخرى يحاربون فيها القرآن ، على فرض أنه وحى سماوي ؛ وأنه من عند الله ، وأن « محمداً » نقل لإرادة السماء — كما يقول — على لسانه ! وسلاحهم في هذا الميدان الجديد يعتمد على إدخال اللبس والتشكيك في صحة القرآن ، من حيث أن النبي — كما يقولون — كانت تعثره أحوال نفسية وجديدة في حال الوحي ، فيختلط عليه الأمر ، ويخاط بين ما يلقى إليه الملك ، وبين ما يجري في نفسه من خواطر وتصورات ، وبهذا يكون القرآن الذي

(١) انظر صحيح مسلم / الجزء الثامن / ٩٨١ وما بعدها .

(٢) - سورة الرعد آية ١٧ .

يقال إنه كتاب سماوى — يكون فى تلك الحال كتاباً مختلطاً ، جمع ما نزل من السماء ، وما قُبِعَ من خواطر النبى وتصوراته ١١

ومن عادة الناقدين الغربيين دائماً اعتمادهم على مصادر إسلامية ، يتخذون منها شواهد لمقولاتهم ، ومستندات لمدعياتهم ، حين يعمدون إلى الأخبار السقيمة ، والروايات الهزيلة التى دخلت على المصادر الإسلامية فى غفلة من جامعي الأخبار ، وفقلة الأحاديث ، الذين يأخذون من كل فم ، دون تمحيص ، أو تحقيق ، غير مقدرين أن هناك من يقف بالمرصاد لتلقف هذه الأخبار ، واعتمادها ، وجملها حجة على الإسلام ، وأدلة قاطعة فى مقام الاتهام .

والذى يرجع إلى كتب السنة — مثلاً — يجد كثيراً من الأحاديث المروية عن رسول الله ، محملة بكثير من غبار الكذب والدمس على رسول الله . . فإن الذين نصبوا أنفسهم لهذه المهمة الجليلة لجمع أحاديث الرسول كانوا إزاء هذه الأحاديث التى تشتم منها رائحة الدس والكذب — كانوا بين أمرين : إما أن يحكموا عليها بما يمليه عليهم ، فيردوها على أصحابها ، ويدعوها هملاً يضيع فى متاهات الحياة ، ويطوى فى أدراج الزمن ، وإما أن يسجلوها كما سمعوها ، ويدعو لكل ذى نظر أن ينظر إليها ، ويقول رأيه فيها !

وقد كان رأى الأول هو الذى أخذ به بعض جامعي السنة ، فلم يتحرجوا هذا التخرج الذى كان من بعضهم — فى البحث والتقيب ، ومقابلة الأخبار ، وغرابة المشكوك فيها ، وفى من تؤخذ عنهم . . وإنما كان يكفيهم فى هذا أن يسمعوها من رجل مسلم خبراً يقول إنه يروى عن رسول الله ، وأنه سمعه من فلان عن فلان ، إلى آخر السلسلة من الرواة ، التى تنتهى إلى رسول الله — وكان عذرهم عند أنفسهم فى هذا : أنهم لو تركوا مثل هذه الأحاديث المشكوك فيها كان ذلك حكماً قاطعاً منهم بإعدامها ، وقد يكون فيها نظر لناظر ، وربما كان فيها تأويل لمناول ! ممن يأتى بعدهم من العلماء . .

وعن هذا الإحساس قبل كثير من رواة الأحاديث أحاديث ليست موثقة عندهم ، ولا فى موضع الاطمئنان منهم ، وجملوا أمر الفصل فيها والحكم عليها

لجماعة المسلمين جميعاً . وليس لجامع الأحاديث وحده ، الذى — مهما يكن حظه من العلم والفقه — أن يحيط بكل شيء عليها !

• • •

اتخذ الغرييون من هذه الأخبار الضعيفة حجة يقيمونها على ادعاءاتهم الكاذبة على الإسلام ، يفتشون منها سمومهم ، ويكيدون بها كيدهم !
فمن ذلك ما روى من أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ مرة سورة « النجم » وحين بلغ قوله تعالى : « أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » أتبع ذلك بقوله : « تلك الغرائيق (١) الملا ، وإن شفاعتها لترتجى » ، وفى رواية : « إن شفاعتها لترتجى ، وإنما لمع الغرائيق العلا » وفى رواية ثالثة أنه قال : « والذرائقة العلا ، تلك الشفاعة ترتجى » .

فهذه ثلاث روايات فى هذه الواقعة :

الرواية الأولى هكذا : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرائيق العلى ، وإن شفاعتها لترتجى » .

والرواية الثانية تجىء هكذا : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، إن شفاعتها لترتجى ، وإنما لمع الغرائيق العلى »

والرواية الثالثة : « أفرايتم اللات ، والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » ، والغرائقة العلا ، تلك الشفاعة ترتجى » .

والقرآن الكريم يقول : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر ، وله الأنثى » ، تلك إذن قسمة ضيزى (٢) . . إن هى إلا أسماء « سميتوها أوتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » (٣) .

(١) الغرائيق : جمع غرائيق ، أو غرنوق ، أو غرائق وهو طائر مائى يشبه السكرى ، ويطلق على الشاب الأبيض الجليل .

(٢) أى قسمة جائرة إذا جعلوا لهم الذكور ، ولله الإناث ، والذكور فى عرفهم غير الإناث حتى أنهم لقد كانوا يثدون البنات .

(٣) سورة النجم آية ١٩ - ٢٢

ومدلول الروایتین الأولى والثانية يذیء عن أن رسول الله قد ذکر فی تلاوته
لسورة النجم آلهة قريش بخیر ، وجعل لها عند الله مكاناً علیاً ، حتى إنها لتشفع
عنده ، لمن یلتمس الشفاعة ، ویستأهلها منها . .

وتقول الرواية . . إن النبی حین بلغ آخر السورة سجد ، وسجد معه المسلمون
والكفار لما سمعوه أثنى علی آلهتهم « ١١ »

وقد تداخلت مع هذه الروایات روايات أخرى ، وكأنها تريد أن تفسر
هذه الواقعة ، وتجد لها متجراً تتجه إليه .

فتقول بعض الروایات : إن الشیطان ألقى علی لسان النبی هذا القول الذى
قاله فی حق تلك الآلهة — اللات ، والعزى ، ومناة — وأنه صلى الله علیه وسلم
كان قد ألم به ضيق وحزن شديد لما بينه وبين قومه من هذا الخلاف المستحکم ،
وتلك العداوة الصارخة ، فتمنى فی تلك الحال أن لو نزل علیه شیء یقارب بينه
وبين قومه ، أو ألا ينزل علیه شیء ینفرهم عنه ، ویباعد شقة الخلاف بينه
وبينهم . . ولهذا فإن النبی حین تلا سورة النجم ، وبلغ فیها الموضع الذى تذكر
فيه تلك الآلهة ألقى الشیطان إلیه بهذه الکلمات ، التى ترفع من شأنها ، وتجعل
لها مكان الشفاعة عند الله . . ثم تستطرد الرواية فتقول : إن جبریل علیه السلام
جاء النبی ، فعرض علیه السورة ، فلبس بلغ الکلمتين اللتين أدخلهما الشیطان
علیه ، قال له : ما جئتک بهما « ١١ » فحزن لذلك النبی صلى الله علیه وسلم ،
فنزل قوله تعالى تسلیة له : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبی ،
إلا إذا تمنى ألقى الشیطان فی أمنیته ؛ فیتسخر الله ما یلقى الشیطان ، ثم یمحکم الله
آياته والله علیم حکیم (١) » ، وقوله : « وإن کادوا لیفتنونک عن الذی أوحینا
إلیک لتفترى علینا غیره ، وإذن لا تأخذوک خلیلاً ، ولولا أن نبهتک لقد
کدت ترفک إلیهم شیئاً قليلاً ؛ إذن لأذقنک ضعف الحیاة وضعف المات
ثم لا تجد لك علینا نصيراً » (٢) إلی قوله : « إلا رحمة من ربک ، إن فضلنا

(١) سورة آية ٥٢ .

(٢) سورة الإسراء آية ٧٦ - ٨٨ .

كان عليك كبيراً ، قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (١) .

وقد كانت هذه الروايات مثار بحث وجدل ، بين علماء المسلمين أنفسهم ، ثم بينهم وبين غيرهم ، ممن يتربصون بالإسلام ، ويتمنون له العثرات ! وقبل أن نقول رأينا في هذه القصة ، وما تفرع لها من ذيول .. نعرض رأياً للقاضي « عياض » في كتابه « الشفا » .

فقد كان للقاضي « عياض » نظر عميق دقيق في هذه المسألة .. فيه عقل ، وفيه فقه ، وفيه لون واضح مشرق ، من ألوان النقد ، والفحص . يقول القاضي « عياض » :

« إن لنا في الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين :

أحدهما : توهين أصله (في سنده ، وفي معناه) .

والثاني : على تسليمه — أي على فرض التسليم بصحته .

المأخذ الأول

(١) توهين اصل الحديث :

« أما المأخذ الأول ، وهو توهين أصل الحديث — فيكفيك أنه حديث لم يخرج به أحد من أهل الصحة ، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل .. وإنما أولع به ، ومثله ، المفسرون والمؤرخون ، المولعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال : لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء ، والتفسير ، وتعلق بذلك الملاحدون ، مع ضعف ثقته (٢) ، واضطراب رواياته . واقطاع إسناده ، واختلاف كلماته ..

• (١) سورة الإسراء آية ٨٨ .

• (٢) أي ثقة حديث الفرائق .

فقائل يقول إنه في الصلاة^(١) ، وآخر يقول : قالها في نادى قومه ، حين أنزلت عليه السورة ، وآخر يقول . قالها ، وقد أصابته سنة ، وآخر يقول : بل حدث نفسه فسمها ، وآخر يقول : إن الشيطان قالها على لسانه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأتكم ، وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها ، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك قال : والله ما هكذا نزلت.. إلى غير ذلك من اختلاف الرواة ، ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين ، والتابعين ، لم يسندها أحد منهم ، ولا رفعها إلى صاحب^(٢) .. وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية .

(ب) توهين معنى الحديث :

ثم يقول القاضى عياض : « هذا توهينه — أى الحديث — من جهة النقل ، فأما من جهة المعنى فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته صلى الله عليه وسلم ، ونزاهته عن فعل هذه الرذيلة ، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله ، وهو كفر ، أو أن يتصور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبي أن من القرآن ما ليس منه حتى ينهبه جبريل عليه السلام ، وذلك كله ممتنع في حقه صلى الله عليه وسلم .. أو أن يقول ذلك في نفسه من قبل نفسه عمداً ، وذلك كفر .. أو سهواً ، وهو معصوم من هذا كله .. وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته صلى الله عليه وسلم من جريان الكفر على قلبه أو لسانه ، لا عمداً ، ولا سهواً ، أو أن يشبهه عليه ما يلقيه الملك بما يلقى الشيطان ، أو يكون لشيطان عليه سبيل ، أو أن يتقول على الله ، لا عمداً ولا سهواً ، ما لم ينزل عليه .. وقد قال تعالى : ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين »^(٣) .

(١) يشير الى بعض الروايات التي تقول إن النبي قرأ سورة النجم وذكر ما ذكر عن الغرائب في أثناء الصلاة .

(٢) أى صاحب لرسول الله « صحابي » .

(٣) سورة الحاقة آية ٤٥ ، ٤٦ .

ووجه ثان .. وهو استحالة هذه القصة ، نظراً ، وعرفاً .. وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى ، لكان بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ، متزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم ، ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا من بحضرته من المسلمين ، وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك ، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل ، فكيف بمن رجح حله ، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام عليه ؟؟

ووجه ثالث : أنه قد علم من عادة المنافقين ، ومهاندئ المشركين ، وضعفة القلوب والجهالة من المسلمين نفورهم لأول وهلة ، وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لأقل فتنة ، وتعييرهم المسلمين والشتمات بهم الفينة بعد الفينة ، وارتداد من في قلبه مرض عن أظهر الإسلام — لأدنى شبهة ..

ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل ، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة ، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة ، كما فعلوا — مكابرة — في قصة الإسراء ، حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردة ، وكذلك ما روى في هذه القصة ، ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت (١) ، ولا تشغيب للمعادى حينئذ أشد من هذه الحادثة لو أمكنت ١١ فما روى عن معاند فيها كلمة ، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة ، فدل — ذلك — على بطلانها ، واجتثاث أصلها ، ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس والجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين ، ليلبس به على ضعفاء المسلمين .

ووجه رابع .. ذكر الرواة لهذه القصة أن فيها نزلت — الآية — « وإن كادوا ليقتلونك عن الذي أوحينا إليك ، لتفتري علينا غيره ، وإذن لا تجدوك خيلاً ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » (٢) .. وهاتان

(١) أي أنه لو وقعت حادثة « الغرائق » على الوجه الذي رويته لكانت أعظم فتنة تنجب فيها قريش وتضع . ويقول فيها اليهود ويقولون .
(٢) سورة الإسراء آية ٧٣ ، ٧٤ .

الآيتين تردان الخبر الذي روه ، لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفتري ، وأنه لولا أن ثبتته — الله — لكاد يركن إليهم .

« فتمنمون هذا ومنهم من أن الله تعالى عصمه من أن يفتري ، وثبته ، حتى لم يركن إليهم قليلا ، فكيف كثيراً ؟ »

وهم — أى الرواة — يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء . بمدح آلتهم ، وأنه قال صلى الله عليه وسلم : افتريت على الله . وقلت ما لم يقل . . وهذا ضد مفهوم الآية ، وهى تضعف الحديث لو صح . فكيف ولا صحة له ؟ وهذا مثل قوله تعالى فى الآية الأخرى : « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضاوك وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونك من شيء » (١) ، وقد روى عن ابن عباس — أنه قال — « كل ما فى القرآن «كاد» فهو لا يكون » (٢) قال الله تعالى : « يكاد سنا برقه يذهب بالابصار » ولم يذهب . و « أكاد أخفيها » (٣) ولم يفعل !

قال القشيري القاضى : « ولقد طالبت به — أى النبى — قريش وثقيف لاذر بألتهم أن يقبل بوجهه إليها ، ووعدوه الإيمان به إن فعل ، فما فعل ، وما كان ليفعل . »

المآخذ الثانى

التسليم بصحة الحديث :

يقول القاضى عياض : « وأما المآخذ الثانى فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح ، وقد أعادنا الله من صحته . . ولسكن على كل حال ، فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة ، منها الفث والسمن . . فنها :

(١) سورة النساء آية ١١٢ « كاد » .

(٢) أى ما جاء من القرآن بلفظ « كاد » لعناؤه لا يقع . ولا يكون .

(٣) أى « الساعة » فى قوله تعالى : « إن الساعة آتية أكاد أخفيها » .

١ - ما روى عن قتادة ومماثل .. « أن النبي صلى الله عليه وسلم أصابته سنة عند قراءته هذه الحزرة ، فجرى هذا الكلام على لسانه بحكم النوم » !
وهذا لا يصح ، إذ لا يجوز على النبي مثله ، في حالة من أحواله ، ولا يخلق الله على لسانه ، ولا يستولى الشيطان عليه في نوم ، ولا يقظة ، لعصمته في هذا الباب من جميع العمد والسهو .

٢ - وفي قول « السكبي » إن النبي صلى الله عليه وسلم حدث نفسه ، فقال ذلك الشيطان على لسانه .. وفي رواية « ابن شهاب » عن أبي بكر بن عبد الرحمن ، قال : وسها - أى النبي - فلما أخبر بذلك قال : إنما ذلك من الشيطان .

ويرد القاضى عياض هذه الروايات بقوله :

وكل هذا لا يصح أن يقوله النبي صلى الله عليه وسلم ، لا سهواً ولا قصداً ، ولا يتقوله الشيطان على لسانه .

٣ - وقيل : لعل النبي صلى الله عليه وسلم قاله - أى هذا القول - أثناء تلاوته ، على تقدير التقرير والتوييح للكفار ، كقول ، إبراهيم عليه السلام : « هذا ربى » (١) على أحد التأويلات (٢) . . . (وأن النبي حين قال ذلك قاله) يعد السكت ، وبيان الاتصال بين الكلامين ، ثم رجع إلى تلاوته .

يقول القاضى عياض : وهكذا يمكن مع بيان الفصل وقريته تدل على المراد ، وأنه ليس من المتلو - أى ليس من القرآن - ..

ولا يعترض على هذا بما روى أنه كان - أى هذا القول - في الصلاة ، فقد كان الكلام قبل فيه - أى غير ممنوع (٢) . . . والذي يظهر ويترجح في

(١) يشير إلى ما حكاه القرآن عن إبراهيم في قوله تعالى : « فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى » فلما أفن قال : لأحب الأفلين .

(٢) من التأويلات التى يذهب إليها المفسرون في قول إبراهيم عن القمر « هذا ربى » ، وعن الشمس : « أهذاربى » أنه قال ذلك على طريق الاستفهام المراد به السخرية والاستهزاء أى « أهذاربى » ؟ استصغاراً لشأنه !

(٣) أى كان الكلام أول ما فرضت الصلاة مباحاً فيها ، ثم حرم بعد ذلك .

هذا التأويل عند المحققين على تسليمه — أى التسليم بصحة الحديث — أن النبي صلى الله عليه وسلم كان كما أمره ربه يرتل القرآن ترتيلاً ، ويفصل الآي تفصيلاً في قراءته ، كما رواه الثقات عنه ، فيمكن ترصد الشيطان لتلك السكتات ودسه فيها ما اختلقه من تلك الكلمات ، محاكياً نغمة النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يسمعه من دنا إليه — لم النبي — من الكفار ، فظنوها من قول النبي صلى الله عليه وسلم . وأشاعوها ، ولم يقدح ذلك عند المسلمين لحفظ السورة قبل ذلك على ما أنزلها الله ، وتحققهم من حال النبي صلى الله عليه وسلم في ذم الأوثان وعيها كما عرف منه .

وقد حكى موسى بن عقبة في « مغازيه » نحو هذا ، وقال : إن المسلمين لم يسمعوها ، وإنما ألقى الشيطان ذلك في أسماع المشركين ، وقلوبهم . . ويمكن ما روى من حزن النبي صلى الله عليه وسلم لما لهذه الإشاعة والشبهة وسبب هذه الفتنة . . وقد قال الله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » (١) فعنى « تمنى » تلا ، قال الله تعالى : « لا يعلمون الكتاب إلا أماني » أى تلاوة . وقوله سبحانه : « فينسخ الله ما يلقي الشيطان ، أى يذمه ، ويزيل اللبس به ، ويحكم آياته .

٤ — مما يظهر في تأويله — أى هذا الحديث — أن مجاهداً روى هذه القصة . « والفرانقة العلاء » . .

يقول القاضي عياض : فإن سلمنا القصة ، قلنا لا يبعد أن هذا كان قرآناً (٢) والمراد « بالفرانقة العلاء ، وأن شفاعتهن لترجي » الملائكة (٣) على هذه الرواية ، وبهذا فسر الكلبي ، الفرانقة أنها الملائكة ، وذلك أن الكفار كانوا يعتقدون

(١) - سورة الحج آية ٥٢ .

(٢) أى يقرأ على هذا الوجه : « أفرأيت اللاب والعزى . ومناة الثالثة الأخرى » ، والفرانقة العلاء ، تلك الشفاعات لترجي .

(٣) يقول الله سبحانه وتعالى : « وكم من ملك في السموات ، لا تنفى شفاعتهم شيئاً ، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى » .

الأوثان ، والملائكة بنات الله ، كما حكى الله عنهم (١) ، ورد عليهم في هذه السورة بقوله « ألكم الذكر وله الأنثى » ، فأنكر الله كل هذا من قولهم . . . ورجاء الشفاعة من الملائكة صحيح . . فلما تأوله المشركون على أن المراد بهذا الذكر آلهتهم ، ولبس عليهم الشيطان ذلك ، وزينه في قلوبهم ، وألقاه لآلهم نسخ الله ما ألقى الشيطان ؛ وأحكم آياته ورفع تلاوة تلك اللفظتين اللتين وجد الشيطان بهما سهيلا للإلباس ، كنسخ كثير من القرآن ، ورفعت تلاوته ، وكان في إنزال الله تعالى لذلك حكمة . وفي نسخه حكمة ، ليضل به من يشاء ، ويهدي من يشاء ، وما يضل به إلا الفاسقين ، و « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ، والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ، وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربهم فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وإن الله هادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » (٢) .

هـ - وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة ، وبلغ ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى « خاف الكفار أن يأتي بشيء من ذمها ، فسبقوا إلى مدحها بدينك الكلمتين . لينخلطوا في تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم ويشنعوا عليه ، على عادتهم . وقولهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن ، واغفوا فيه لعلمكم تغلبون ، ونسب هذا العمل إلى الشيطان ، فحمله لهم عليه .. وأشاعوا ذلك ، وأذاعوه ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قاله ، فحزن لذلك من كذبهم ، وافترائهم عليه ؛ فسلاه الله تعالى بقوله : « وما أوسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ؛ ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم » (٣) .. وبين للناس الحق من الباطل ، وحفظ القرآن ، وأحكم آياته ، ودفع ما لبس به العدو ، كما ضمنه تعالى في قوله : « إنا نحن نزلنا الذكر . وإنا له لحافظون » (٤) .

(١) في قوله تعالى : « وانهم ليسمون الملائكة تسمية الأنثى » .

(٢) سورة الحج آية ٥٣ ، ٥٤ .

(٣) سورة الحج آية ٥٢ .

(٤) من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، للقاضي عياض ص ١١٩ .

تلك هي القصة التي جاءت في بعض كتب السيرة ، ونقلها بعض المفسرين ، وهي كما ترى أشبه برواية مهلبة النسيج ، متهدمة البناء ، أراد مخرجوها أن يخفوا عوارها ، وبستروا هزلها فآلقوا إليها كثيراً من الرقع ، حتى لسكاد يخفى الأصل ، ولا يرى إلا تلك المرقعات التي أضيفت إليها .

فالمادة التي قامت عليها القصة مادة فاسدة ، لا يتخلق منها شيء يصلح أن يعين في الحياة ، وأن يكتب له بقاء مع الأحياء .

إن في فصل الرأي في هذه المسألة هو في كلمة واحدة : نبي ، أو غير نبي .

فإن كان « محمد » غير نبي .. فهذا موقف له حساب و تقديره ، وللكلام الذي يقال هنا حساب و تقدير .. فإذا كان « محمد » عند بعض الناس ليس نبياً ، فليس لنا مع من يرى هذا كلام .. فيما ينسب إلى « محمد » من أخطاء ، وما يليق إليه من تهم .. لأنه والحال كذلك يتحدث عن إنسان ، مجرد إنسان يجوز عليه ما يجوز على الناس من أخطاء .

أما إن كان « محمد » نبياً ، فإن الذي يمتد هذا ، ثم يلحق به ما يجري في حياة الناس من أخطاء وعثرات ، وتخبطات ، فهذا عما لا يستقيم بحال أبداً مع صفة النبوة . فإن النبي مبلغ عن الله ، وهو هذه الصفة معصوم من الخطأ والنسيان فيما يتصل برسائله ، وما هو من أصول شريعته أو فروعه ، إذ أن أي انحراف في هذا معناه سوق الناس إلى سبيل موهجة مليئة بالعثرات والخفر ، على حين أن دعوة السماء إنما تدعوهم إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض .

ذلك هو ما يجب أن يتأكد ، ويتقرر أولاً عند من يؤمن بالأنبياء .. لأنهم إن يكونوا على غير تلك الحال التي توجب لهم العصمة ، وتحمل الرسالة التي يحملونها من أية شائبة تعلق بها .

ولأن فن النبوة ، والجليل ، وسوء الفهم للنبوة — أن يقول قائل إن ، النبي « ويقولها هكذا » النبي — معين قرأ سورة النجم ، لم يأت ، أو أخذته سنة أو غلبه هاطر قوى في نفسه ، أو ألقى إليه الشيطان ، فذكر الأصنام التي كانت تعبد

قريش ، وأثنى عليها ، ورفع منزلتها ، وجعل لها شفاعة عند الله !! أهذا كلام يلتقى أوله مع آخره ؟

نبي يقرأ قرآناً منزلاً من السماء . . ثم تعدو عليه عرادی الشر فتغير من آيات الله ، وتبدل من شريعته ؟ !

أهذا قول يقول به عاقل ؟ وماذا يترك للجانيين بعد هذا ؟

قد يكون سائفاً أن تنفي عن محمد صفة النبوة ، على سبيل المكابرة ، أو من باب الكفر والإلحاد ، ثم يقال إنه قال في معبودات قريش ما قال !! إن ذلك يكون من شأنه هو ، ولحسابه هو ، وليس للسماء فيه شأن أو حساب !

أما وأن محمداً نبي فإنه في عصمة .. فوق الخطأ ، وفوق النسيان !

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : قلت يا رسول الله . . أأكتب عنك كل ما أسمع منك ؟ قال : « نعم » .. قلت : في الرضا والغضب : قال : نعم ، فإني لأقول في ذلك كله لإحقاق (١) .

ولتسأل بعد هذا عما فتح ذلك الباطل من حديث « الغرائب » ، وأمثاله — على المستشرقين ومن إليهم ؛ من مجالات فسيحة يصولون فيها ويجولون وينمزون ويلبزون .. إذ اتخذوا من هذا الحديث المخلوق الملقح حجة لإدانة الإسلام ، وسلاحاً لتجريح القرآن ، ووصفه بالصفة التي تجعله أحاديث متصيدة من هنا وهناك . بعضها من السماء ، وبعضها من الشيطان !

فأنى كتاب هذا الذي تنازعه تلك القوى ، وتنازعه تلك الجهات ؟ وأنى شريعة تقوم على هذا البناء الذي تعمل فيه يدان متغايرتان . . يد تبني والأخرى تهدم ؟ وأى نبي هذا الذي يدعو إلى عبادة الله ، وإلى عبادة معبودات من دون الله ؟

هكذا يريد المستشرقون أن تكون شريعة الإسلام ، وعلى تلك الصورة يودون أن يكون مفهوم القرآن .. دستور الشريعة . وترجمان أحكامها . : ١ .
« يريدون ليطلقوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٢) » ،

الباب السادس

الداعى وموطن الدعوة

مفارقات ، ومقابلات :

داعية أمى .. ماقراً كتاباً ، ولا خط يمينه سطرًا ..
وقوم أميون .. أغراب بادية ورعاة لابل وشاه ..
وموطن مقفر جدد .. لا يمسك ماء ، ولا يخرج حباً ..
ماذا يقع فى حسابك من دعوة الداعى فى هذا الموطن القفر ، ومع هؤلاء
الرعاة الأجلاف ؟
ولا ننظر فى حسابك هذا لك أن الداعى هو محمد ، ولا أن الموطن هو
الجزيرة العربية ، ولا أن القوم هم أمة العرب !
وإنما ننظر لك هذه لآية داعية أمى ، فى أى بلد قفر ، وفى أى مجتمع يعيش
عيش البادية ، ويحيا حياة الصحراء !!
وانظر حينئذ ماذا يقع فى تقديرك لدعوة هذا الداعى .. فى بيئته تلك ،
وفى أقوامه هؤلاء ؟
أخرج بك التقدير لهذه الدعوة — فى أحسن أحوالها — عن أن تكون
لسمعة عالية بداية هبت فى أعقاب يوم طويل من أيام السموم ، فاستروحت بها
النفوس ساعة ، ثم ذهبت وذهب ريحها ؟!
أو أن تكون نغماً شجياً مؤثراً فى وحشة الليل ، وفى هجمة سواده
الحالك .. ثم لا يلبث هذا النغم أن يذوب ، ويفرق فى هذا السكون
المطبق العميق ؟!

أو أن يكون دوسحة ظلية ينزل بها السفر المتميمون ساعة من نهار . يتقنون
لفح الهاجرة . ووهج الهجير . ثم يتركونها ليستقبلوا هواجس الشمس المحرقة .
ولفح السموم المستعر !

لأنه إن يكون لهذا الداعي في هذه الأخوال وفي تلك المواطن إلا هذا الأثر
المحدود الموقوت ، الذي يلعب البرق في سواد ليل حالك ، ثم ينطفئ في شمة
هذا الليل ، وينوص في ظلامه الدامس !

أرأيت الشعراء ، والمفنين ، والحدادة ، وأرباب الآداب والفنون . . ماذا
بقي في هذه المواطن من آثارهم ؟ وماذا خلد في الحياة من أعمالهم ؟ ذكريات
عابرة ، ووقعت قصيرة . يقفها المعجبون بتلك الآثار كما يقفون على الدمن
والأطلال !

حساب غير هذا الحساب :

ولكن الأمر يختلف أشد الاختلاف ، ومحصل النظر يجيء بما لم يقع في
التقدير والحسبان حين يستقبل الإنسان بنظره مطلع ، النبوة ، في الأمة العربية ..
في الصحراء البرية !

هنالك نجد الداعي على غير ما عرف الناس من الدعاة .

وهنالك نجد الصحراء ، وساكني الصحراء على غير ما عرفت الحياة من الصحارى
وساكني الصحارى !

ومن ثم كان هذا ، الحصول ، الوفور من معطيات الخير ، وثمراته ، فيما
غرس الداعي من غراس . وفيما أخرجت الأرض من طيبات ، وفيما حصل الناس
من خير ، وفيما بلغوا من كمال .. كل ذلك قد جاء على أتم وأكمل ما قدر للبشرية
في هذه الحياة من تمام وكان .

وندع كل أمي غير محمد .

وندع كل صحراء ، وكل من يسكن الصحراء . . غير صحراء العرب ،
وسكان صحراء العرب .. ندع هذا كله ، ولا نطيل الوقوف عنده . ولا تردده
النظر إليه .. فإننا لن نحصل هناك على شيء ذي دل مهم طال وقورفنا ويرداه

نظرنا . إذ لا جديد بعد النظر الأولى في هذا القفر .. الذى يضم كيانه كل شيء ،
ويحوى الداعى ومن دعا .. !

وليكن وقوفنا كله عند هذا الداعية العربى الأسمى ، وعند هؤلاء العرب
الأميين .. فى هذا الموطن القفر الذى استوطنوه .

ماذا هناك ؟

هناك آيات بينات ، ومعجزات قاهرات ، وأحداث خطيرة مشيرة ، وانقلاب
شامل . فى ماديات الحياة ومعنوياتها جميعا .

فى أمى .. وقوم أميون .. وأرض مجدبة .. وحياة غليظة جافية .

ومع هذا فإنه من كل هذه « الأميات » مجتمعات ، تلد الحياة أكرم
مواليدها ، وتخرج فى الناس أطيب ثمراتها .. فتتفجر ينابيع الحكمة من فم
هذا النبي الأسمى ، وتقع فى عقول الناس وفى قلوبهم موقع الماء الغدق فى
الأرض القفر ، فإذا الناس غير الناس ، وإذا الحياة غير الحياة ... وإذا أعراب
البادية ، ورعاة الإبل شامة فى الناس ، وأساتذة فى العلم ، وساسة للأمم ،
وإذا هذا البلد القفر مطلع النور ، ومشرق الهدى ، ومهوى الأفئدة ، وقبلة
أنظار العالم ، وموضع اهتمامه ... من عدو وصديق .

ما معنى هذا التوافق ؟

ولأنه لمن غير الطبيعى أن تجتمع هذه « الأميات » كلها فى موطن واحد ،
وتلتقى كلها على غاية واحدة ، ثم يكون منها هذا الفتح المبين ، فى ميادين الخير
والفلاح كلها ... فى العلم ، وفى الخلق ، وفى السياسة ، وفى الاجتماع ، وفى كل
ما يسمو بالإنسان ويرفع قدره ، ويحفظ عليه وجوده الكريم فى الدنيا ،
ويفتح له الطريق إلى رضوان الله فى الآخرة .

من غير الطبيعى أن يكون لهذه « الأميات » من الخير ، والكمال والسمو
فى اجتماعها ما لم يكن لأضدادها مجتمعة أو متفرقة ..

فما كان لداعية غير أمي ، بلغ ما بلغ في العلم والحكمة .. في أمة متحضرة
تؤخر بالمدارس والجامعات ، وتفرض بالخيرات والثرات - أن يحىء بمثل ما جاء
به النبي الأمي من علم وحكمة ، ولا أن تشر دعوته هذا الثمر الطيب المبارك ،
الذي أخرجته الجزيرة العربية من بين صخورها ورمالها ، وأنضجته على سموها
وزميرها !

هذا هو واقع الحياة التي يحياها الناس : فلا يستوى الخصب والجذب ، ولا يتعادل
الحضر والبدو ، ولا يتوازن القاريء والمكاتب والامي الذي لا يقرأ ولا يكتب ! .
ذلك إذا جرت الحياة في طريقها المرسوم .. ولكن حين يصطفى الله من يصطفى
من خلقه ، تنتصب لذلك أسباب خفية لا نعلمها ، فتحيىء لهذا المصطفى سبيل الخير ،
وتمهده طريق الفلاح ، من حيث لا يتوقع الناس ، ولا ينتظرون !
ولقد اصطفى الله « محمداً » لأعظم رسالة ، واختصه بأفضل دعوة ، فجعله
مبعوثه إلى الناس كافة ، بل إلى الثقيلين من الإنس والجن ؛ وجعل رسالته خاتمة
الرسالات ، والحكمة الأخيرة بين السماء والأرض !

ولم تكن تلك النفحة السماوية التي اختص الله بها نبيه الكريم محجوبة عن
موطن هذا النبي وقومه ، فكان لهم من هذه النفحة ميراث القريب من قريبه ،
وحق الجار على جاره !

وعلى هذا ، فأننا إذ نجد في « النبي » الأمي ما نجد من جلال النبوة وعظمة
النبي .. نجد كذلك عروفاً طيبة كريمة ممتدة من هذا الجلال وتلك العظمة إلى
هذه المواطن وأهلها ، فإن رحمة الله واسعة ، وفضله عظيم (والله يختص برحمته
من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) .

وسنرى كيف التقى النبي الأمي بقومه الأميين ، في تلك الصحراء القاحلة ،
فكان هذا اللقاء مقدوراً بقدر ، موقوتاً بميقات ، ليجمع بين أمية الرسل ،
وأمية المرسل إليهم ، وجذب الموطن وفقره ، وكان من هذا اللقاء الخير كله ،
والنور كله ، والهدى كله .. وذلك لا شك شاهد عدل من شواهد صدق الرسالة ،
وآية ناطقة من بينات آياتها .. !

هذا النبي الأُمي :

إنسان موطنه الصحراء ، ومرباه في اليتيم والفقر ، ونشأته على الأمية والبداوة ،
ومسرحه ومراحه بين الجبال وعلى الرمال !

هذا هو « محمد » بن عبد الله فيما كان يراه الناس ، وفيما كان يرى هو من نفسه
قبل أن يختاره الله لدينه ، ويصطفيه لرسالته !

فما كان « محمد » في مولده ، وفي نشأته ، وفي صباه ، وفي شبابه واكتماله إلا
واحداً من آحاد قومه ، وإلا ذبته من نبت الصحراء في هذا البلد القفر ، وفي هذا
الموطن الصحراوي الجديب .

ولكن ما يكاد هذا الإنسان يبلغ الأربعين من عمره حتى يصبح حديثاً عالياً
في فهم الوجود كله ، ثم لا ينقطع هذا الحديث أبداً . . إلى اليوم وإلى ما بعد
اليوم . . فسيظل « محمد » حديثاً متصلاً في أوليائه وأعدائه جميعاً ، ما دامت
الحياة ، وما عاش الناس في الحياة ،

نعم . . قد كانت في حياة « محمد » قبل الأربعين شواهد ومخايل ترفع مقامه
في قومه ، وتعلي منزلته فيهم ، وتفرض احترامه عليهم . . ولكن لم يكن ذلك
بالقدر الذي يعزله عنهم ، ويقطع الصلة بينه وبينهم . .

فإن « محمداً » — على ما كان فيه من صفات كريمة بارزة ، وأخلاق رضية
عالية قبل بعثته — لم تأخذ هذه الأخلاق وتلك الصفات لونا صارخاً في حياته ،
ولم يتخذ هو منها موقفاً حاداً في قومه . . فعاشت فيه هذه الصفات وتلك
الأخلاق كما يعيش اللؤلؤ السكريم في أعماق البحر ، إلى أن يلقاه القدر بمن
يكشف عنه ، ويجليه . . بهجة للناظرين ، وعجباً معجباً للتوسمين !

ونعم . . كان « محمد » — قبل البعثة — حديثاً طيباً فواحاً بالحمد ، نفاحاً بالشاء ،
من كل من خالطه ، وانسل به من قرب أو بعد . . فلقد كان في خالقه السمع
الرضى ، وفي لسانه العف الطهور ، وفي سيرته الحمودة المستقيمة . . كان في كل
هذا المثل الذي يتمثله أصحاب المثل الفاضلة ولا يحققونه ، وكان القدوة التي
ينزع إليها أصحاب المهام العالية ولا يستطيعونها . . ومع ذلك فقد كان هذا

الحديث الطيب عن محمد ، يجرى على ألسنة الناس ، في هيئة ورفق ، ويدور في خواطرهم على ترفق ومهل ، فلم يجتمع له الناس يوماً اجتماع المتفرجين على أمر عجب ، أو - حدث غريب . . وإنما ظل محمد ، ياقى الناس ويلقونه ، دون أن يروا فيه إلا ما يرون من نسمة عطرة ، تشرح الصدور وتنعش النفوس ! وإلا ما يتوسم المتوسم من روض أنيق معجب ، في صحراء قاحلة !

النبأ العظيم :

ولكن ما إن تلقى محمد ، رسالة السماء وأذن في الناس أنه رسول رب العالمين حتى وقع هذا الانقلاب الشامل ، الذى لم تشهد الحياة له مثيلاً ، ولم يعرف له الناس شبيهاً ، فيما حدث من أحداث !

وحين تلقى أهل مكة هذا النبأ أول ما تلقوه وجعوا له ، وجمدوا . . شأنهم في هذا شأن من يظلم عليه أمر مذهل لم يكن فى حسبانهم ، فتقبل معه مشاعره ، وتحمده له أنفاسه ، ثم لا يلبث أن يضطرب كيانه ، وتعلوه رعدات ورعشات ، وكذلك كان أهل مكة . . فما أن زایلهم صدمة المفاجأة حتى اضطربوا وماجوا ، وركبتهم رعدة حتى خبيثت راعشة ، كان منها تلك الأصوات المجلجلة لتكسر العظام ، وتصادم الأسنان ! حتى لقد تجاوز صداها حدود مكة إلى من حولها من العشائر والقبائل !

وشيئاً شيئاً تجمع من أبخرة هذه الحى ما جعل مراحل الحقد والحسد تغلى فى الصدور ، وتز بين الاضلاع ، ثم لم تلبث أن تصدعت تلك الصدور ، وأخذت تنفجر !

وبدأت أصوات الانفجار تسمع متقطعة . . هنا وهناك . . من السباقين إلى الشر ، والمسارعين إلى داعى السفاهة والغنى . . ثم تتابعت تلك الانفجارات وتمازجت ، حتى لكانها بركان عظيم فتح فوهته ، وجعل يرمى باللهب والحلم !

هدوء العاصفة :

وكشكل شيء . . له غاية ونهاية . . فقد انتهى هذا الفيلان إلى غايته ، وبلغ مداه ، فهدأت العاصفة ، وسكن البركان !

فإنه حرس الله الدعوة السماوية أن تحترق بلهب هذا البركان وتحول إلى رماد ، كما عصم نبيه أن ينتقم لنفسه من قومه ، فيدفع هذه النار الممتدة إليه من ألسنتهم وأيديهم ، فتأخذهم ، وتدمدم عليهم . . بل صبر وصابر ، واحتمل من الشدة ما احتمل ، حتى سكنت ثورة البركان وبرد حممه !

وقد صنع الله للدعوة الإسلامية من هذه المحنة ما صنع من خير . . فلو أن هذه الشرور البادية الصارخة التي ألفت بها قريش في وجه هذا النبي الكريم جرت على طبيعتها وامتدت إلى غايتها لكان حرياً بها أن تفسد ما بين النبي وقومه ، كما أفسدت مثل هذه الشرور بين كثير من الأنبياء وأقوامهم ، ولما كان نصيب هذه الرسالة الكريمة الضياع وكانت خاتمة هؤلاء القوم الهلاك ، كما ضاعت كثير من رسالات الأنبياء ، وكما هلك كثير من أقوامهم ؛ لما كان منهم عن عناد وإعنت . وإنه لمعجزة أخرى من معجزات الدعوة الإسلامية ، وآية من آياتها أن تثمر هذا اثر الطيب الكريم على فوهة هذا البركان ، وأن تمتد جذورها ، وتسمق فروعها في هذه الأرض المتحجرة الصلدة ، التي كان من شأنها ألا تمسك ماء ، ولا تخرج نباتاً . . والله سبحانه وتعالى يقول وهو أعبد القائلين : ألم تر أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم ، وأنفسهم أفلا يبصرون ، ١٤١ (١) .

مولد النبي :

تحدث كثير من كتاب السيرة النبوية ورواتها عن عجائب كثيرة ، ومشاهد مثيرة ، صحبت مولد النبي ، ليجعل منها هؤلاء الكتاب وأولئك الرواة شواهد على تأكيد نبوة النبي ، وليقيموا منها دلائل على أنه مؤيد بالمعجزات من قبل أن يأتيه الوحي !

ولقد وقع في تفكير هؤلاء الذين تصدوا لكتابة سيرة الرسول ، أو تحملوا روايتها — وقع في تفكيرهم أن من كمال النبوة وشرفها ألا يكون النبي محكوماً بضرورات الحياة الإنسانية ، وألا يجرى عليه ما يجرى على الناس في شأن هذه

الضرورات ، ومخالطته لها . . وإلا فما الفرق - حسب تقديرهم - بين النبي وغير النبي ؟

ولو استطاع تفكير هؤلاء أن يجد مخرجا يخرج به النبي عن أن يولد لأبوين كما يولد الناس ، وأن يجوع كما يجوع الناس ، ويظمأ كما يظمأ الناس ، ويألم كما يألمون ، ويفرح ويحزن كما يفرحون ويحزنون - لو استطاع تفكيرهم أن يجد مخرجا يخرج به النبي من هذه الضرورات وما إليها ، لما وقف عند شيء منها ، ولما جعل للنبي حالا من أحوالها .

وإذ لم يكن من المستطاع إنكار هذا الواقع الذي قامت الحياة شاهدة عليه ، مسجلة أن النبي قد حملت به أمه جنينا . وولدت طفلا ، ثم كان له رضاعة وغطاء ، وكان له صبي ، وشباب ، واكتمال ، وكان له في كل هذه الأدوار نوم ويقظة ، وطعام وشراب ، وغدو ورواح . . إلى أن بلغ الكتاب أجله ، وجاءه رسول السماء يذبحه أنه نبي الله ورسوله - نقول إنه إذ لم يكن من المستطاع إنكار هذا الواقع الذي عاش فيه النبي وشهدت به الحياة ، فقد كان من المستطاع أن يدخل الداخلون على هذا الواقع بما يسعهم به الرأي من إضافة وحذف ، ومن تعديل وتبديل بما يرضى نفوسهم ، ويسعد مشاعرهم . .

وقد كان للخيال هنا دوره في تلوين هذه المشاهد بلمسات فيها الخدق والمهارة أحيانا ، كما يظهر عليها الغباء والبلادة في كثير من الأحيان .

ولا بأس أن نقف هنا وقفة مع هذه الروايات والأخبار التي تتحدث عن العجائب والمفارقات التي تناقلها الرواة والمؤرخون عن مولد النبي ، وما قام بين يدي المولد أو سبقه منها . . ثم نعرض هذه الأخبار على الوثائق التاريخية المحققة ، من جهة ، وعلى طبيعة النبوة ومناحي جلالها وإكلاها من جهة أخرى . . فما استقام من تلك الروايات وهذه الأخبار على هذا العرض رطينا به وقبلناه ، وما لم يستقم على هذا العرض أعرضنا عنه ورفضناه .

على أننا نستطيع أن نسبق هذا العرض كله ، وأن نمدر حكما قاطعا في هذه الروايات المحملة بالفرايب والعجائب من سيرة النبي قبل البعثة ، فنقول :

إن هذه المرويات . ماصح منها وما لم يصح ، وما وقع وما لم يقع —
ليس لها كبير شأن في مقام النبوة . ، في أى جانب منها .

وسواء أضيفت هذه المقولات جميعها إلى النبى ، أو ذهب جميعها من
سيرته ، فإن « مؤثر » ميزانه في مقام العظمة والسمو والجلال لا يتحرك يمنة
أو يسرة . بل ربما لو رفعت هذه المعجبات من حياة النبى لكان ذلك أرفع
لمنزلته ، وأكرم لذاته . . . عند من يبحثون عن مواقع العظمة في العطاء . .
أما مقام الرسول الكريم في ذاته فقد جل عن أن يتأثر بشيء من هذا ، فقد
رفعه ربه ، وأعلى مقامه بما لا يخطر على قلب بشر . . فما منزلة فوق هذه المنزلة
التي يخاطبه الحق جل وعلا بها ، فيقول له سبحانه : (ولسوف يعطيك ربك
فترضى) . . . فهذا العطاء الموعود من رب العالمين يعطى النبى فوق كل مقام ،
ويرتفع فوق كل منزلة .

وها نحن أولاء نقف وقتنا تلك التى أشرنا إليها من قبل ، مع ما يروى
من معجزات النبى الكريم ، ويضاف إليه .

الباب السابع

الرسول .. ومعجزات الرسالة

١ - أصحاب الفيل

قبل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاد أبرهة ، (١) إلى مكة بجيشاً جراراً يريد أن يهدم الكعبة ، إذ كان قد بنى له « بيعة » في « نجران » ، وأراد أن يحول إليها الشجرة العظيمة التي كانت للكعبة ، وأن يحمل الناس على الحج إلى بيعته ، فلما لم ير لبيعته شيئاً ولا شأناً ، إلى جانب ما كان للبيت الحرام ، لم يجد طريقاً إلى بلوغ غايته إلا هدم الكعبة ، وإزالة معالمها من الوجود ، فإنه إذا خلا مكانها من الأرض لا يلبث الزمن أن يعمل عمله في إخلاء مكانها من القلوب . وإذا فرغت قلوب الناس من متعلق ديني يتعلقون به التمسوا غيره ، وصار من الميسور الدخول إلى قلوبهم الفارغة بأي شيء يملأ هذا الفراغ ، ولو كان حجراً !!

ولما بلغ جيش أبرهة ، مشارف مكة ، فزع أهلها فرعاً شديداً لما بلغهم من أنباء أبرهة ، وهو في طريقه إليهم ، وما فعل بمن وقفوا في طريقه ، وما حل بهم وبديارهم . ثم لما شاهدوه عياناً من أبهة أبرهة ، وكثرة عدد جيشه وعدده ، واتخاذهم الفيل ، مركباً ، الأمر الذي لم تعرفه العرب من قبل هذا !

وكان جيش أبرهة قد ساق ما صادفه في طريقه من ماشية قریش ، دون أن يقف أحد في وجهه ... وكان فيما حوى الجيش مثناً بعير لعبد المطلب بن هاشم الجد النبی ... ثم إن أبرهة بعث رسله يقدمون عليه بسيد مكة ، وصاحب

(١) كان أبرهة حاكماً على اليمن من قبل النجاشي ، وكان على دين النصرانية الذي كان يدين به النجاشي .

كلتها . فجاءوه بعبد المطلب . . وكان نغماً ، رائع الطاعة ، مهيباً . . فلما رآه وأبرهه ،
أكبره ، ولكن أبي عليه كبرياؤه أن يجلسه على كرسيه . كما أبت عليه عظمة
عبد المطلب أن يجلسه دونه ، فنزل عن عرشه ، وجلس على البساط ، وأجلس
عبد المطلب إلى جانبه ! وكان فيما قال لعبد المطلب : إنه لا شأن لي بكم إذا أنتم
خلعتم بيني وبين الكعبة حتى أهدمها ، فإن لم تفعلوا ، فيها أنت ذا وما ترى ! . .
فأجابته عبد المطلب : « دونك البيت . . ولكن رد علينا ما أخذت من
ماشيتنا » ! . .

وعجب وأبرهه ، لعبد المطلب . . يسأله في شأن الماشية ، ويدع البيت الذي
يقوم عليه دينه . ! . وخيل إليه أن عبد المطلب إنما يفتدى الماشية بالبيت ،
فاهتزت منزلته عنده ، وصغر في نظره ، ثم قال لعبد المطلب : قد كنت أعجبتني
حين رأيته ، ثم زهدت فيك حين كلمتني ! أتكلمني في مثني بعير أصبتها لك ،
وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه . . لا تكلمني فيه ؟ ! فقال له
عبد المطلب : أقارب الإبل ، وأن للبيت رباً سيمنعه ! فقال أبرهه : ما كان
ليمتنع مني ! قال عبد المطلب : أنت وذاك ! !

ثم إن عبد المطلب عاد إلى مكة فأخبر قريشاً بما كان بينه وبين أبرهه ،
وأشار على الناس أن يخرجوا من مكة ، وأن يتحرزوا في شعف الجبال
والشعاب ، تخوفاً عليهم من معرة الحبش . . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب
الكعبة ، وقام منه نفر من قريش ، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهه وبجده ،
وقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهم إن العبد	منع رحله فامنع حلالك (١)
لا يمنعن صليهم	ومحالمهم غدواً محالك (٢)
جروا جموع جمعهم	والفيل كي يسبوا عيالك
همدوا حماك بكيدهم	جهلاً ، وما رقبوا جلالك

(١) لا هم : أي يا الله ، والحلال : القوم المجتمعون ، والمراد بهم هنا أهل البيت الحرام .

(٢) الحال : من الحول والقوة ، وغدواً : يريد به غداً ، أي ما بعد اليوم .

ثم أرسل عبد المطلب حلقة الباب ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال ، فمحرزوا فيها . ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها .

فلما أصبح أبرهة تهباً لدخول مكة ، وهياً فيه ، وعباً جديته ، وأمر بالتمحرك إلى مكة ، لخرن الفيل ، وأرسل الله عليهم طيراً ترميهم بحجارة من سجيل ، لا تمس أحداً إلا هلك .. وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم ، يسقط أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه (١) .

هذه قصة الفيل ، كما يرويها أصحاب السير على اختلاف في التفاصيل فيما بينهم ، وقد كانت أحداث هذه القصة مادة خصبة ، ومرعى ممرعاً للعواطف والخيالات .. وكان الفيل ، والطير ، والحجارة ، ركازة قوية لمن أراد أن يسبح بخياله ، أو يروى ظمأ عاطفته .

فالفيل يحزن لأنه قد أسر إليه بعض العرب (٢) بكلمة حذره فيها من أن يشارك في هذا العمل الآثم ، ويزحف مع الزاحفين إلى هدم البيت ، فيعقل الفيل هذا القول الذي أسره به ، وتعجز كل المحارلات والحيل عن أن يخطو به خطوة تجاه البيت الحرام !

والطير تتخذ في قصص القصص صوراً شتى .. فتارة تكون طيراً بحرية مثل الخطاطيف والبلسان ، وتارة تكون طيراً برية مثل النسور والعقبان ، وتارات أخرى هي ذباب أو بعوض ..

وكذلك الحجارة ، تختلف أحجامها ، وصفاتها ، وأفعالها .. فمن المدس أو الحص ، أو هي خمار أو بنة وجرائم أمراض .. ومن يدري ؟ فقد يحسن بعض مفسري القرآن في هذا العصر فيجعلها من بنات « الذرة » ومركباتها ! !

(١) انظر سيرة ابن هشام : الجزء الأول ص ٤٨ وما بعدها .

(٢) يقال إن الفيل بن حبيب هو الذي أسر إلى الفيل بالأقرب البيت الحرام .
وفيل هذا هو الذي جعله أبرهة دليلاً في الطريق إلى مكة على كره منه .

أما أصل القصة فنابت ثبوتنا لاشك فيه بشهادة القرآن الكريم ، حيث أوردها القرآن في سورة خاصة هي سورة الفيل ، فقال تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعل كيدهم في تضليل ؟ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف ما كول » (١) .

وأنت ترى أن القرآن قد أجمل القصة إجمالاً ، يبدو منه في وضوح المعنى الذي ضمت عليه القصة ، وهو أن الله قد امتن على أهل مكة ، وأكرمهم بكرامة البيت الحرام ، وحفظه من أن تمتد إليه يد معتدا

ولم يلتفت القرآن إلى الفيل ، ولا إلى صاحبه ، ولا إلى الطير وما تحمل من مهلكات . . وإنما الذي أبرزه القرآن هو تلك القوة القوية المضاربة التي جاءت إلى البيت الحرام في صورة مفزعة تريد أن تأتي عليه ، فردها الله بقوة قهرتها ، ودمدمت عليها . . !

ولعلك تتقف من هذا المشهد الحربي موقف المعجب والمدمّن حين ترى فيلة ضخماً لا تفقد السيوف في جلودها ، ولا تعمل الحراب في أجسامها . . هذه الفيلة تلقاها طيور صغيرة أشبه بالعصافير فتصرعها ، وتصرع من عليها من أبطال ! .

كل هذا قد جمعته خمس آيات من القرآن الكريم . . هن آيات السورة الكريمة «سورة الفيل» .

ولعلك تسأل : ما شأن قصة الفيل في المعجزات التي تضاف إلى الرسول ؟ والجواب على هذا أن الله سبحانه وتعالى قد دفع عن البيت الحرام هذا السوء الذي كان يراد به ، ليظل هذا البيت قائماً يستقبل نبي الإسلام ، وليكون قبلة صلاة المسلمين ، ومنسكاً يؤدي عنده ركن من أركان الإسلام الخمسة ، وهو «الحج» ! .

فالمعركة إذن لم تكن لحساب قريش . ولا كان هذا الطير المحمل بالصواعق

نجدة من السماء لها ، وإنما كان ذلك لحساب الدين الجديد الذى تنفس صبحه بمولد النبي هذا الامام ، « عام الفيل » ، وما كان هذا الطير إلا طلائع لقوى السماء التى ستمد — فيما بعد — وصحبه فى هذا الصراع الذى سيقع وتمتد أيامه ، وتوسع ميادينه ، بين المسلمين وأعداء الإسلام .

إن هذا المدد السماوى من الطير الأبايل هو نجدة سماوية بلا شك ، وفيها دلالة واضحة على أنها تقاثل فى جانب الحق ، وتنتصر له . .

وطبيعى أن جانب الحق كان مع البيت الحرام الذى تهباً لاستقبال الإسلام ، وهو دين الله ، الذى أراد أن يظهره على الدين كله . .

فهذه المعركة هى انتصار للإسلام ، وإعداد له ، وليست انتصاراً لقريش ، ولا إمداداً من السماء لها . . إذ لو كان الأمر بين قريش وأبرهة . وكانت هناك أمداد من السماء لأحد الفريقين لكان ذلك لأبرهة ، لأنه يدين بدين سماوى هو « النصرانية » على حين كانت قريش على دين أو أديان فاسدة (١) .

ونخلص من هذا إلى أن « حادثة الفيل » وقد وقعت فى السنة التى ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم — قد كانت من غير شك آية من الآيات القائمة بين يدي النبوة ، وبشيراً من السماء يضع أول راية من رايات النصر للإسلام فى مركز الدعوة الإسلامية وفى مطلع الافى الذى بزغ منه نبي الإسلام .

ولهذا كان الخطاب فى سورة الفيل موجهاً إلى النبي فى مقام التذكير بنعمة الله عليه ، ورعايته للإسلام ، قبل أن يحمل الرسول عبء الدعوة ، ويتولى الدفاع عنها . . « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ » . . .

ففى هذا الخطاب امتتان على الرسول بهذا الفضل الذى أسبغه الله على نبيه من قبل أن يكون له مع السماء شأن ، ومن قبل أن يحمل رسالة الله إلى الناس ، وفيه أيضاً مدد عظيم من الطمأنينة التى يجدها الرسول من ريح هذا الفضل السماوى الذى لا بد أن يتمد ويتصل ، ويصحب الرسول فى كل أدوار حياته ،

(١) انظر تفسير ابن كثير الجزء الرابع « سورة الفيل » .

وهذا مما يشد عزم الرسول ، ويثبت أقدامه في مراقب الضيق والعنت الذي كان يلقاه من قريش حين يلتفت إلى الراء فيرى كيف كانت عناية الله وحمايته لبيته . . فكيف تكون إذن عنايته ورعايته لصاحب رسالته ؟

أما قريش فقد كان من فضل الله عليها ببركة النبي ، وبجرمة البيت الحرام هذا الإيلاف الذي ألفوه في رحلتى الشتاء والصيف . . إلى الشام ، صيفا ، وإلى اليمن شتاء ، يتجرون ، ويتبادلون المنافع بينهم وبين هذين الإقليمين ، آمنين مطمئنين في خفارة البيت الحرام ، لأنهم سدقته والقائمون على شئونه ؛ وفي هذا يقول الله تعالى : « لإيلاف قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . .

ونخلص من هذا كله أيضا إلى القول بأن حادثة الفيل كانت إرهاصاً لبعثه النبي ، ولإذنا بأول عدام بين دعوة الإسلام والمترجمين بها ، والضالين عنها . . يقول ابن قيم الجوزية : « وكان أمر الفيل مقدمة قدمها الله لنبيه وبيته ، وإلا فأصحاب الفيل كانوا فساداً لأهل كتاب ، وكان ذينهم خيراً من دين أهل مكة إذ ذاك . لأنهم كانوا عباد أوثان (١) » .

٣ - فداء الذبيح

تحدث كتب التاريخ عن واقعة لعبد المطلب جد النبي غير واقعة الفيل التي أشرنا إليها منذ قليل . . تلك هي خلاص ابنه « عبد الله » والد النبي من الذبح ، ليقدم قرباناً في نذر نذره أبوه « عبد المطلب » .

وللقصة حديث طويل يبدأ بحفر زمزم على يد « عبد المطلب » ، أمثالاً لها تفهف به في منامه ثلاث ليال متواليه

وقد وثقت قريش من عبد المطلب موقفاً مشعشعاً عندهما هم يحفر البئر ويهدم معبره . . وفي هذا الموقف شهر عبد المطلب بحاجته إلى الرجال من الأولاد

(١) زاد المعاد جزء أول ص ٣٢ ،

والأحفاد ، فنذر لئن أكل الله له عشرة ذكور حتى يراهم ليذبحن أحدهم .
 فلما تكاملوا عشرة جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله به .
 فامتلأوا أمره ، وتركوا إليه أن يختار من يشاء منهم ، فضرب القداح بينهم فوقع
 الأمر على « عبد الله » وكان - فيما يروى - أحب أولاد عبد المطلب إليه !
 ولم يجد عبد المطلب بداً من أن يقود ابنه الحبيب إلى المذبح . فلما هم
 يذبحه قامت إليه قريش من أنديتها ، وقالوا : والله لا نذبحه أبداً حتى تعذر
 فيه . . لئن فعلت هذا ، لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس
 على هذا ؟

وتتحرك أحداث القصة في اتجاهات كثيرة ، وعبد المطلب يدور معها في كل
 اتجاه ، وينتهي المطاف بأن يفدى عبد المطلب ابنه بمئة من الإبل . . تبدأ بعشرة ،
 ثم عشرين ، ثم ثلاثين إلى مئة . . لأنه كان في كل مرة تضرب القداح بين « عبد الله »
 وبين الإبل يخرج سهمه ، فيزداد عدد الإبل عشرة ، وهكذا . حتى كانت المئة ،
 فخرج السهم على الإبل . . وعد هذا العدد مائة ولا عند الله ، وفيه رضى له عن
 « عبد الله » !

هذا هو ملخص القصة . . وقد رواها كثير من المؤرخين الثقة ! وعلى رأسهم
 شيخهم « ابن إسحق » الذي قرن روايته لها بقوله : « فيما يزعمون ، والله أعلم » ،
 فلم ينقها ، ولم يحققها ، بل جعلها مما يزعم أصحاب الأخبار ونقلتها .
 وعن « ابن إسحق » ، أخذ « ابن هشام » في تاريخه « السيرة » ، (١) ؛ وكذلك
 أثبتها « ابن سعد » في تاريخه : « الطبقات الكبرى » (٢) . .

ولم يرد في القرآن الكريم ما يشير إلى حسنة الواقعة فيما امتن الله به على
 نبيه . ولم يكن قد ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « أنا
 ابن الذبيحين » . .

(١) انظر الجزء الأول ص ١٤١ وما بعدها من كتاب السيرة لابن هشام .

(٢) انظر الجزء الأول القسم الأول ص ٣٠ من الطبقات لابن سعد .

والحديث ضعيف ، لم يوثقه رواية الحديث .

ويستند رواية الأخبار على هذا الحديث في واقعة عبد المطلب هذه مع ابنه عبد الله ، كما يستندون إليها من جهة أخرى على أن « إسماعيل — الجد الأعلى للنبي — هو الذبيح لا أخوه « إسحق » !

وقد نازع كثير من العلماء في أن يكون « إسماعيل ، هو الذبيح الذي أراد أبوه « إبراهيم » أن يذبحه . أمثالاً لأمر الله فيما أوحى إليه في منامه .

وقد ذكر القرآن هذه الرؤيا في قوله تعالى : « فلما بلغ معه السعي قال يا بني انى أرى فى المنام أنى أذبحك ، فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت أفعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما ؛ وتله للجبين ، ونادىناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ؛ وفديناه بذبح عظيم (١) » .

نقول إن كثيراً من العلماء وخاصة المتعصبين على الإسلام من علماء أوروبا نازعوا في أن يكون إسماعيل هو الذبيح المفدى من السماء ، وإنما المفدى هو « إسحق » .

ومن عجب أن نجد رجلاً كالجاحظ ، يذهب إلى هذا رأى ويقول به (٢) وهذا ما يدل على شدة تأثر الجاحظ بالثقافات الأجنبية من يونانية وفارسية ، كما يدل على كثرة مخالطته للعلماء غير الإسلاميين من نصارى ويهود .

والحق أن إسماعيل عليه السلام هو الذبيح ، وليس أخاه إسحق كما يظن خطأ بعض متفلسفة المسلمين ، وكما يقول زورا وبهتانا المنحرفون من غير المسلمين . ولا تجد حجة أبليغ ولا أقوى من تلك الحجج القاطعة التى قدمها الإمام ابن تيمية ، فى تحقيق القول بأن إسماعيل . هو الذبيح المفدى من السماء بذبح عظيم !

(١) سورة البقرة آية ١٢٧

(٢) انظر البيان والتبيين للجاحظ : جزء أول ص ٢٤٨ (طبعة المندوبى)

ولا يستمد ابن تيمية حججه من فصوص الكتاب الكريم وحده، إذ الذين لا يدينون بالإسلام لا يأخذون أنفسهم بنصوص كتابه . . . ولهذا يعتمد ابن تيمية إلى الواقع التاريخي لإبراهيم عليه السلام وذريته ، وللظروف التي عاش فيها هو مع زوجته — سارة وماجر — . ويلمح على ذلك شواهد من التوراة نفسها . . . يقول ابن تيمية رحمه الله ،

« هذا القول — أى القول بأن إسحق هو الذبيح — متلقى من أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم ، فإن فيه : « إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ، بكره ، . . . ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل ، هو بكر أولاده ! »

« والذى غر أصحاب هذا القول — أى القول بإسحق — : أن في التوراة التي بأيديهم : « ادع ابنك إسحق » . . . وهذه زيادة من تحريفهم وكذبهم ، لأنها تناقض قوله : « ادع بكرك ووحيدك » .

« ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ، ويختاروه لأنفسهم دون العرب ، وأبى الله إلا أن يجعل هذا لأهله .

وكيف يسوغ أن يقال : إن الذبيح إسحق ، والله تعالى قم بشر أم إسحق به ، وبأنه يعقوب ؟ فقال تعالى عن الملائكة : « لمنهم قالوا لإبراهيم لما أتوه بالبشرى : لا تخف ، إنما أرسلنا إلى قوم لوط ، وأمرأتهم قائمة فعصحتك ، فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحق يعقوب ، (١) فحال أن يبشرها بأنه يكون لها ولد ثم يأمر بذبحه ! »

ولا ريب أن يعقوب عليه السلام داخل في البشارة ، فتناول البشارة إسحق ويعقوب في لفظ واحد ، وهذا ظاهر الكلام وسياقه . . .

ويقال أيضاً : إن الله سبحانه لما ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح في سورة الصافات قال : « فلما أتتها ثلثة لاجئين ، وفاديتهم أن يألوا إبراهيم فله عذقت

الرؤيا ، إنما كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه في الآخرين ، سلام على إبراهيم ، إنما كذلك نجزي المحسنين ، لأنه من عبادنا المؤمنين (١) . ثم قال تعالى : « وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين (٢) » . فهذه بشارة من الله تعالى له ، شكراً على صبره على ما أمر به ، وهذا ظاهر جداً في أن المبشر به غير الأول . بل هو كالنص فيه .

« فإن قيل : فالبشارة الثانية وقعت على نبوته ، لما صبر الأب على ما أمر به وأسلم الولد لأمر الله ، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة !

قيل : البشارة وقعت على المجموع : على ذاته ، ووجوده ، وأن يكون نبيا ، ولهذا نصب « نبيا » على الجمال المقدر ، أى مقدراً نبوته ، فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل ، ثم تخص بالحال الجارية مجرى الفضيلة . هذا محال من الكلام ، بل إذا وقعت البشارة على نبوته فوقوعها على وجوده أولى وأحرى .

« وأيضاً : فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جعلت القرايين يوم النحر بها ، كما جعل السعي بين الصفا والمروة ورمى الجمار تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامة لذكر الله . . . ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة ، دون إسحق وأمه ، ولهذا اتصل مكان الذبيح وزمانه بالبيت الحرام الذى اشترك فى بنيانه إبراهيم وإسماعيل ، وكان النحر بمكة من تمام حج البيت الذى كان على يد إبراهيم وابنه إسماعيل زماناً ومكاناً ، ولو كان الذبيح بالشام كما يزعم أهل الكتاب ومن تلقى عنهم لسكانت القرايين والنحر بالشام ، لا بمكة .

أيضاً : فإن الله سبحانه وتعالى سمي الذبيح « حليماً » لأنه لا أحلم من أسلم نفسه للذبيح طاعة لربه ، ولما ذكر إسحق سباه « علياً » فقال تعالى :

(١) سورة الصافات : ١٠٣ - ١١١

(٢) سورة الصافات : ١١٢

« وبشروه بغلام عليم » (١) ، وهذا إسحق بلا ريب ، لأنه من امرأة إبراهيم ، وهي
المبشرة به ، وأما إسماعيل فمن السرية !

« وأيضاً : فإنهما — إبراهيم وامرأته — بشرا به — بإسحق — على الكبر
والياس من الولد ، وهذا بخلاف إسماعيل ، فإنه ولد قبل ذلك .

« وأيضاً : فإن الله سبحانه أجرى العادة البشرية أن يكون بكر الأولاد أحب
إلى الوالدين من بعده ، وإبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد ، ووهبه له تعلق
شعبة من قلبه بمحبته ، والله تعالى قد اتخذ خليلاً ، والخلوة منصب يقتضى توحيد
المحبوب بالمحبة . وألا يشارك بينه وبين غيره فيها . . فلما أخذ الولد شعبة من
قلب الوالد جاءت غير الخلوة تنزعها من قلب الخليل ، فأمره بذبح المحبوب ،
فلما أقدم على ذبحه — وكانت محبة الله أعظم عنده من محبة الولد — خلاصت الخلوة
حينئذ من شوائب المشاركة ، فلم يبق في الذبح مصلحة ، إذ كانت المصلحة إثمًا
هى فى العزم وتوطين النفس عليه .

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما يكون قد حصل عند أول مولود
ولم يكن ليحصل فى المولود الآخر دون الأول ، بل لم يحصل عند المولود الآخر
من مزاحمة الخلوة ما يقتضى الأمر بذبحه . . وهذا فى غاية الظهور

« وأيضاً . فإن « سارة » امرأة الخليل صلى الله عليه وسلم غارت من « هاجر »
وابنها أشد الغيرة ، فإنها — أى هاجر — كانت جارية عندما ولدت لإسماعيل ،
وأحبه أبوه . واشتدت غيرة سارة ، فأمره الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر
وابنها ، ويسكنها فى أرض مكة لتبرد عن « سارة » ، حرارة الغيرة ، وهذا
من رحمته تعالى ورأفته — فكيف يأمره سبحانه بعد هذا أن يذبح ابنها ويدع
ابن الجارية بحاله هذا مع رحمة الله لها ، وإبعاد الضر عنها ، وجبره لها !
فكيف يأمر بعد هذا بذبح ابنها دون ابن الجارية ، بل حكمته البالغة اقتضت
أن يأمر بذبح ولد السرية ، حينئذ يرق قلب السيدة عليها وعلى ولدها !

وتقبل قسوة الغيرة رحمة ! ويظهر لها بركة الجارية وولدها ، وأن الله لا يضيع
بيتا هذه وابنها منهم ، ويرى عباده جبره بعد الكسر ، ولطفه بعد الشدة . وأن
عاقبة صبر هاجر وابنها على البعد ، والوحدة ، والفربة ، والتسليم إلى ذبح الولد -
آلت إلى ما آلت إليه من جعل آثارها ومواطن أقدامها مناسك لعبادة
المؤمنين ، ومتعبدات لهم إلى يوم القيامة (١) .

وليس وراء هذا البيان شيء يقال في الكشف عن حقيقة الذبيح من ولدى
إبراهيم ، وأن إسماعيل هو الذبيح المفدى من السماء لإسحق !
فالآب الأعلى للنبي صلى الله عليه وسلم ذبيح من غير شك !
فهل والده الأدنى عبد الله ، ذبيح أيضا ؟

لا نستطيع أن نجيب على هذه الواقعة بشاهد من الواقع الحى كهذا الشاهد
الذى يشهد لواقعة إسماعيل . . فقد شهد لهذه الواقعة الكتب السماوية ، وإن
اختلف المؤمنون بهذه الكتب في تفسير محامل الالفاظ ومفاهيمها ، فاختلف تبعا
لذلك القول بأن الذبيح هو إسماعيل أو إسحق . . ولكن القرآن يكاد يقول
صرامة بأنه ، إسماعيل ، كما أن الأضاحى التى يقدمها المسلمون فى عيد الأضحية
هى شاهد متمثل على متابعة المسلمين أبائهم إبراهيم فى هذا الفداء الذى جعله الإسلام
مذسكا من مناسكه ، وقربة من قرباته .

هذا عن ، إسماعيل ، الآب الأعلى للنبي !

أما عن ، عبد الله ، آخر آبائه ؛ فإن الأمر فى حقيقة ، الذبح ، بالنسبة له
يختلف عنه فى ، إسماعيل . . وذلك من وجوه :

منها أن أخبار ، عبد الله ، وعرضه على الذبح ليست إلا روايات نقلها
المؤرخون للسيرة نقلا لا يستند رواة ثقة ، وإنما الذى نقله ابن إسحق عن هذه

(١) زاد المواد الجزء الأول ص ٢٧ وما بعدها . . . وقد نسبنا هذا لرأى إلى ابن تيمية
لأن تلميذه ابن القيم يقول هذا عن شيخه ، وواضح أن الشيخ والتلميذ قد اشتركا معاً فى تحقيق
هذا الموضوع . . . الشيخ بذكرته والتلميذ بقلمه وأسلوبه .

الواقعة كان أشبه بتسجيل لشائعة تدور في الناس ، فصدر روايته تلك بما يفيد الشك ، فقال عند تسجيل هذه الحادثة : « فيما يزعمون ، إلهيها مزعم من المزارع ، والزعم مطية الكذب ، كما يقولون ! »

فلا تقف هذه الواقعة لإزاء واقعة « إسماعيل » التي ذكرنا في الكتب المقدسة ، واتخذت صورة عملية في حياة المسلمين منذ قام الإسلام !

ومنها أيضاً : أن واقعة « إسماعيل » لها دلالتها على تكريم إسماعيل وافتدائه من السماء . . . وأن هذه الواقعة جرت في طريق الطاعة لله ، والامتثال لأمره ، من كل من الأب والابن — إبراهيم وإسماعيل — وأن الجزاء المعجل لهذه الطاعة وذلك الامتثال كان في هذا الفداء السماوي الذي كشف به الله الضر عن الولد والوالد معاً . . . أما واقعة « عبد الله » — إن صحت — فإنها لم تجر في طريق ينبي عن أنها كانت امتحاناً من الله ، وبلاء لعبد من عباده . . . فإن ما حدث لعبد المطلب — على حسب ما جاء في الرواية — لم يكن إلا ثمناً لما أخذ . . . فإنه قد تمنى على الله عشرة أولاد ، وأنه إذا صحت أمانيه ، وتحققت ، قدم أحد أبنائه العشرة قرباناً لله !

فإذا كان في اختيار أحد هؤلاء العشرة ليكون القربان المطلوب — إذا كان في هذا الاختيار دليل على فضل الولد المختار ، واعتباره الطيب المؤهل ليسكون قرباناً لله — فإن هذا الاختيار لم يكن بوحى سماوي ، ولا برؤيا صادقة وإنما جاء عن عملية أشبه بعملية القمار ، وعلى يد كاهن اقترح بقداحة بين الأبناء العشرة فوقع الاختيار على « عبد الله » ، وكذلك كان الشأن في عملية الفداء . . . لم يكن الفداء سماوياً ، ولا عن وحي من السماء ، ولا عن رؤيا صادقة ، وإنما كان عملية ضرب بالقداح ، ولعب بها كما يلعب بالقمار !

وعلى هذا فإننا نستطيع أن نقول إن قصة « عبد الله » الذبيح — إن تسكن صحيحة — فإنها لا تدل على شيء تدخل به في باب المعجزات التي وقعت تكريماً للنبي ، وإعلاناً بمطلع صبحه المشرق ! . . . وأنها — إن صحت — فلا تتجاوز أن تكون صدفة من الصدف التي تدفع عن الإنسان يد المنيعة وقد علمت به ، وكادت تلشب أظفارها فيه .

والذى أراه فى هذه القصة أنها من الإضافات الكثيرة التى وضعها القصاصون فى السيرة النبوية ، اعتقاداً منهم أن ذلك مما يرفع فى قدر النبي ونبوته ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وكما سنشير إلى ذلك فيما بعد . .

٣ — ماذا فى جبين عبد الله ؟

ويتحدث الرواة والمؤرخون أيضاً عن قلقة من النور كانت تتألق فى جبين
عبد الله ، والد النبي !

ولا يتحدث الرواة والمؤرخون عن القطعة النورانية المتلازمة فى جبين
عبد الله — لا يتحدثون عنها حديثاً يكشف عن مشاهدات الناس لها ، ولا عن
التفاتهم إليها ، واهتمامهم بها . كما لا يكشفون فى حديثهم هذا عن الزمن الذى
صحبت فيه هذه الشامة النورانية صاحبها عبد الله . . أهى معه منذ مولده ؟ أم
عند بلوغه مبلغ الرجال ؟ أم أنها ظهرت فى يوم ما ثم غربت كما تغرب الشمس
ليومها ؟

والذى يفهم من مساق الرواية أن هذا « النور » كان كامناً فى كيان عبد الله ،
ثم تحرك فظهر على جبينه ، والذى يفهم أيضاً أن هذا النور لم يكن ملحوظاً إلا
عند تلك المرأة « الحشمية » التى دعت عبد الله إلى نفسها فأبى عليها ذلك . .
ونورد هنا ما روى المؤرخون عن هذه الواقعة :

« فقد روى محمد بن سعد فى طبقاته . . قال : إن عبد الله بن عبد المطلب
تزوج آمنة وهو ابن ثلاثين سنة ، وقيل بل كان يومئذ ابن خمس وعشرين
سنة (١) .

« وعن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه عن أبي الفياض الحشمي قال : لما
تزوج عبد الله آمنة أقام عندها ثلاثة ، وكانت تلك السنة عندهم (٢) .

(١) الطبقات : جزء ١ ص ٥٨ .

(٢) نهاية الأرب جزء ١٦ ص ٥٧ .

وروى ابن هشام عن ابن إسحق قال : « ثم انصرف عبد المطلب آخذاً بيد ابنه عبد الله - بعد أن نجا من الذبح بما افتداه به من إبل - فمر - فيما يزعمون - على امرأة من بني أسد بن عبد العزى - وهى أخت ورقة بن نوفل - وهى عند الكعبة ، فقالت له حين نظرت إلى وجهه . أين تذهب يا عبد الله ؟ قال : مع أبى ؟ قالت : لك مثل الإبل التى نحررت عنك ؛ وقع على الآن !! قال : أنا مع أبى ، ولا أستطيع خلافه ، ولا فراقه !! »

« فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ابن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً ، فزوجه آمنة بنت وهب ، وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش ، نسباً ، وموضعاً .. فزعموا أنه دخل عليها - حين أملىكها (١) مكانه ، فوقع عليها ، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم . . . ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عرضت عليه ما عرضت فقال لها : مالك لا تعرضين على اليوم ما كنت عرضت على بالأمس ؟ قالت له : فارقت النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ! »

ويروى ابن إسحق لهذه الواقعة رواية أخرى ينقلها عنه ابن هشام أيضاً .. هكذا :

« قال ابن إسحق : وحدثني أبى - إسحق بن يسار - أنه حدث أن عبد الله إنما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب ، وقد عمل فى طين له ، وبه آثار من الطين ، فدعاها إلى نفسه فأبطأت عليه لما رأت ما به من أثر الطين ! ، فخرج من عندها ، فتوضأ (١١ ؟) وغسل ما كان به من ذلك الطين ، ثم خرج حامداً إلى آمنة فربها - أى بتلك المرأة - فدعته إلى نفسها فأبى عليها !! وعمد إلى آمنة فأصابها ، فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ثم مر بامرأته تلك ، فقال

(١) أملىكها - أى تزوجها - وملك أمرها .

لها هل لك؟ قالت: مررت بي وبين عيذك غرة بيضاء: فدعوتك فأبيت على ودخلت على آمنة فذهبت بها ١١

قال ابن إسحق: فزعموا أن امرأته تلك كانت تحدث أنه مر بها وبين عيذه غرة مثل غرة الفرس ١٠ (١) .

«وقتل ابن سعد في طبقاته عن الواقدي: أن هذه المرأة هي قتيلة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل . .

» قال الواقدي: كانت — أي هذه المرأة — تنظر وتهتاف (٢)، فر بها عبد الله، فدعته يستبضع منها — أي يقع عليها، ولزمت طرف ثوبه، فأبى عاها وقال: حتى آتيك، وخرج مسرعاً حتى دخل على آمنة، فوقع عليها فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) .

وقيل إن المرأة التي مر بها عبد الله هي امرأة من «خثعم»، يقال لها فاطمة بنت مر وكانت من أجمل النساء، وكانت متهودة من أهل تبالثة قد قرأت السكت (٤) . .

وواضح من كل هذه الروايات ذلك التناقض والتهاافت الذي يذهب بكل قيمة تاريخية لها . . فقد اختلف الرواة في المرأة التي دعت عبد الله إلى نفسها، فهي تارة أخت ورقة بن نوفل، وهي تارة أخرى امرأة من خثعم تدين باليهودية، وتنظر في كتب الأديان أو هي امرأة أخرى له إلى جانب امرأته، آمنة، أ

وينظر شيخ المؤرخين «ابن إسحق» إلى هذه الواقعة نظرة باردة فائرة فيليبها لباس «الزعم» ويلقى عليها ظلالاً من الشك في كل طرف من أطرافها . . بما يقدم بين يدي كل خبر من أخباره عنها بقوله «زعموا»، وقالوا، ويقال ١١ .

(١) السيرة لابن هشام: جزء أول ص ٤٧١ .

(٢) أي أنها كانت صاحبة نظر وفراصة، ولها خبرة في عيافة الطير وزجرها .

(٣) الطبقات لابن سعد جزء ١ ص ٥٩ «قسم أول» .

(٤) نهاية الأرب جزء ١٦ ص ٦٠ .

ثم إن التلغيق والصنعة يبدوان للعيان في أى رواية من هذه الروايات . .
وحسبنا أن نشير إلى ما جاء في بعض هذه الروايات من أن « عبد الله » ذهب
ليتوضأ ويزيل الطين الذى علق به ! فهل كان عبد الله مسلماً قبل أن يظهر نبي
الإسلام ؛ وقبل أن تظهر كلمة « الوضوء » في لسان العرب بهذا المعنى ؟ ثم من
أين تستدل المرأة أو المرأة أن من هذا النور الذى يقال إنه كان على جبين عبد الله
— على أنه نور النبوة ، وأن من اتصل بعبد الله ، وتحمل منه سيتصل بها هذا
النور ، وستلد النبي المنتظر ؟

الواقعة مزعومة بلا شك ، وهى من وضع القصاصين الذين كانوا يتخذون
من المساجد ندوات يجتمع إليهم فيها الناس ، ليسمعوا منهم ما عندهم من أحداث
الإسلام الأولى ما يغذى مشاعرهم ، من هذا الزاد الطيب الذى لم يكن لهم حظ
شهوده ، والمشاركة فيه . فاستجاب القصاص لهذا الظم الشديد ، فقدموا للظالمين
ما عندهم من ماء أو سراب !

ولم يكتف القصاص بالوقوف عند هذا الحد فى شأن هذه الحادثة ، فنقلوها
إلى ميدان الشعر ، وأداروها على ألسنة الشعراء .. فقالوا : إن عبد الله حين
عرضت عليه المرأة ما عرضت ، فأبى عليها ، وقال — فيما قال لها — شعراً جرى
على لسانه ، فإذا هو :

أما الحرام فالملات دونه والحل ، لا حل فأستبينه
فكيف بالامر الذى تنوينه ؟

وكان لابد أن تقول المرأة شعراً ، أو يقال فيها شعر حتى تتم حبكة القصة !
وقد كان ، فزعم الرواة أن شباب قريش حينما بلغتهم ما كان من أمر المرأة
وعرضها نفسها على عبد الله ، وتأبى عليه — شعروا عليها ، وأكثروا المقالة فيها
فقاتل تدفع عن نفسها ، وكان موقفها حسب تخيله الرواة أشبه بامرأة العزيز مع
السوسة اللاتى جررن ألسنتهن بالحديث فيما كان بينهما وبين فتاها « يوسف » عليه

السلام . . . فقالت هذه المرأة تسمع فتیان قرآن ، وتدفع عن نفسها اللاتمة فيما كانت تطالب من عبد الله . . .

لاني رأيت خيلة عرضت	فتلات بحنائم البئر (١)
فلما أتتها نوراً يضيء له	ما حوله كإضاءة الفجر (٢)
ورأيت به شرفاً أبوء به	ما كل قادح زنده يورى
لله ما زهرية سلبت	منك الذى سلبت وما تدرى (٣)

ثم لا تمسك عند هذا القدر من الشعر ، بل ترسل أشعاراً أخرى تمزج فيها بين الحكمة وضرب المثل (٤) .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن هذا الشعر مولد ، من صنع القصاص ، أو من وحي قاصصهم ، فذلك من الموضوع بحيث لا يحتاج إلى من يشير إليه .

٤ — حلم آمنة !

ويذكر الرواة عن دآمنة ، أنها حين حملت بالنبي صلى الله عليه وسلم رأت أحلاماً وروى عجيبة ، كانت تحدث بها من معها في تخافت وحذر !

فمن ذلك ما يرويه ابن سعد في طبقاته رواية عن محمد بن عمرو بن واقد الأسدي ، قال — أي ابن واقد — حدثني علي بن زيد بن عبد الله بن وهب ابن زمة عن أبيه عن عمته قالت : كنا نسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حملت به آمنة بنت وهب كانت تقول : « ما شعرت أني حملت به ، ولا وجدت له ثقله كما يجد النساء ، إلا أني أنسكت رفع حيضتي ، وربما كانت ترفعني وتعود ، وأنا ناتي آت وأنا بين النائمة واليقظي ، فقال : هل شعرت أنك حملت ؟

(١) الخيلة بضم الميم السجاية التي يخال أنها مطرة ، وعرضت لاحت وظهرت . والحنائم جمع حنم ، والحنم تمر مستديرة أشبه بالحنم يصعب به الشعر ، والقطر : المطر .

(٢) لما أتتها : أبصرتها .

(٣) زهرية : تفصده بها آمنة منك وهباً ثم النبي ، لأنها من نبي زهرة .

(٤) انظر نهاية الأرب جزء ١٩ ص ٩١

فكأنى أقول ما أدرى ، فقال : إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وذلك يوم الاثنين (١١) قالت : فكان ذلك مما يقن عندي الحمل . ثم أمهلنى — أى هذا الآتى — حتى إذا دنت ولادنى أتانى ذلك الآتى فقال : د قولى أعينه بالواحد الصمد ، من شر كل حاسد ، قالت فكنت أقول ذلك ، (١) .

ومنها ما روى ابن هشام صاحب السيرة عن أبى إسحق ، قال : ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام . قد تواترت الأخبار الصحيحة بذلك (٢) .

ونقل شهاب الدين الدينورى فى كتابه نهاية الأرب قال : وحكى الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي فى كتابه ، الأعلام ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : د كان من دلائل حمل آمنه برسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل دابة نطقت تلك الليلة ، وقالت : حمل بمحمد ورب السكبة ! وهو إمام الدنيا ، وسراج أهلها ، ولم تبق كاهنة فى قرىش ، ولا فى قبيلة من قبائل العرب إلا حجبت عن صاحبها ، وانتزع علم السكبة منهم ، ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً .

قال : وقال كعب الأحبار (٣) : أصبحت أصنام الدنيا كلها منكوسة مذمومة فيها شياطينها .

قال : وقال ابن عباس رضى الله عنهما : وأصبح كل ملك أخرس لا ينطق يومه ذلك ، وفرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات . وكذلك أهل البحار صار يذب بعضهم بعضاً ، وله — أى للنبي — فى كل شهر من شهوره — أى شهور حمله — نداء فى الأرض ، ونداء فى السماء : أن أبشروا ، فقد آن لأبى القاسم أن يخرج إلى الأرض ، ميمونا مباركا . . .

(١) الطبقات لأبن سعد جزء ١ ص ٦٠ (القسم الأول)

(٢) السيرة لأبن هشام جزء ١ ص ٦٢

(٣) كعب الأحبار هذا يهودى دخل فى الإسلام ليكفبه له ولأهله ، وليفسد على المسلمين دينهم كما فعل « بولس » وكان يهوديا فدخل فى النصرانية وأدخل فيها عقيدة الأب والابن وروح القدس ،

وفي السيرة الحلبية : قالت فاطمة بنت عبد الله أم عثمان بن العاصي ، وكانت شهدت ولادة النبي صلى الله عليه وسلم — قالت : دحين وضعت أمه ، وذلك ليلاً ، فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نور ، وإنى لا أنظر إلى النجوم تدنو ، حتى لأقول لتقمن على .

وفي السيرة الحلبية أيضاً : عن أمية قالت : لما ولدت محمداً — صلى الله عليه وسلم — ثم خرج من بطني نظرت إليه ، فإذا هو ساجد لله عز وجل ، رافع يديه إلى السماء كالمتضرع المبتهل ، ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت تنزل من السماء حتى غشيت ، فغيبته عن عيني برهة ، فسمعت قائلاً يقول : طوفوا بمحمد مشارق الأرض ومغاربها ، وأدخلوه البحار كلها ليعرف جميع الخلائق كلها باسمه ، وصفته ، ويعرفوا بركته ، إنه حبيب لي ، لا يقر شيء من الشرك إلا ذهب به . . . قالت : ثم انجلت عني في أسرع من طرفة عين ، فإذا أنا به مدرج في ثوب أبيض ، أشد بياضاً من اللبن ، وتحتة حريرة خضراء ، قد قبض على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الرطب الأبيض ، وإذا قائل يقول : قد قبض محمد صلى الله عليه وسلم مفاتيح النصر ، ومفاتيح الدنيا ، ومفاتيح النبوة (١) .

وهذه الأخبار — ما صح منها وما لم يصح — لا تستند إلى مصادر تاريخية موثوقة بها . وإنما هي نقول متهاففة ، ينسبها ناقلوها إلى شخصيات معروفة بالرواية والحفظ كابن عباس . ليكون هذا الاسم شقيقاً لهذه الأخبار أن تقبل بما فيها من أسقام وعلل !

وليس بمتكبر أن يكون شيء من هذه الأخبار قد وقع فعلاً . . . مثل الذي قيل عن أمية لأنها حين حملت بولدها أنها لم تشعر به . . . فذلك جدير به أن يقع لها . لأنها تضم في كيائها الرحمة كلها ، الرحمة المرسلة للعالمين جميعاً ، فلا عجب أن يكون نصيبها من هذه الرحمة هذا اليسر الذي وجدته في حملها . وفي ولادته .

الطبعة الأولى سنة ١٣٩٠ هـ

وليس بمنكور أيضاً ما يروى عن آمنة أنها ولدت « محمداً » حين ولدته ،
 ولدته طيباً نظيفاً كايولد السخل .. فإن النبوة كلها طهر ونظافة مادية ونفسية
 معاً .. ومحمد خاتم النبيين ، قد خصه الله سبحانه بالصفات كلها ، وأذهب عنه
 الرجس والخبث ، وبجىء ميلاده على تلك الصفة هو بعض ما ينبغى أن يكون له
 في مولده .

وكذلك من المتوقع كثيراً أن ترى آمنة رؤى وأحلاماً تملأ قلبها سعادة
 ورضى بما في بطنها ، وقد احتوى الخير كله ، واشتمل عليه .. بل إنه لمن المحقق
 أن تجد ريح النبوة يملأ عليها حياتها طمأنينة ورضى ، ويفيض عليها الروح
 والراحة في يقظتها ونومها !

ذلك وكثير على شاكلته بعض ما ينبغى أن يعقب من طيب النبوة وأن يفوح
 من غير الانبياء ، وهم أجنة في بطون أمهاتهم ، أو مواليد في مهد الطفولة ..
 فهم أكمل خلق الله ، وأفضلهم ، وأولاهم عند الله بكل فضل وكال ..

وإذا كان هذا في أنبياء الله ورسله أجمعين ، فإنه في محمد صلى الله عليه وسلم
 أتم وأكمل ، إذ كان خاتم النبيين ، وجامعة الحق الذي دعوا إليه ، والنور
 الذي أرسلوا به !

ليس لأحد إذن أن يدفع هذه النفحات الطيبة التي يجدها أولئك الذين اتصلوا
 بالأنبياء .. اتصال حياة كالآباء والأمهات ، أو اتصال مخالطة كالزوجات ،
 أو اتصال مصاحبة كالأنباع !

أما الذي يفسد هذه الصورة الكريمة التي يتصورها أناس — وخاصة
 المؤمنون — فهو هذه الأخبار التي يصطنعها الرواة ويخلفونها خلقاً ممسوخاً
 مشوهاً ، فسد يبلغ أحياناً من الشناعة وسوء الصنعة ما يقرر النفس ،
 ويشبه العقل !

هأى عقل لا يقف موقفهم لهذا الخبر الذي يروى عن آمنة ، أنها حين
 حملت بالنبي رأت نوراً خرج منها فرأت به قصور بصرى بأرض الشام ، ! !

ولا نأل عن هذا النور ، ولا عن مدى قوته وامتداده . . ولكن السؤال الذى يرد هو : لماذا كان اتجاه النور إلى « بصرى » هذه ؟ ولم لم تسكن الرؤيا فى دائرة متكاملة على جميع الجهات ؟ وإذا كان وجهة النور هى الشمال إلى « بصرى » فلم لا ينكشف لها بيت المقدس وهو ثانى قبلى « محمد » ؛ وفيه المسجد الأقصى ؟

كذلك يقف العقل موقف المتهم لذلك الخبر الذى يحدث عن وحوش الأرض وسباعها ، وأنه قد مشى بعضها إلى بعض بالبشرى ، بأن آمنة قد حملت « بمحمد » . . فمن كان يرصد حركات الوحوش وحالاتها تلك الليلة التى حملت فيها آمنة بمحمد ؟ وهل يقع ذلك فى حيز الإمكان ؟ وإذا كان ممكناً فما دلالة فى هذا الوقت الذى لم يكن للنبي دعوة بعد ، وهل انتفعت الدعوة بهذه الحادثة العجيبة ؟ وهل اتخذها النبي حين حمل الرسالة — هل اتخذها آية على صدقها ، وجعلها معجزة من معجزاتها ؟ ثم من ترجم لغة الحيوانات وعرف ما نطقت به ، إن كان لها فى هذه الليلة منطق ؟

إن هذه الأخبار المجافية للمنطق ، البعيدة عن التصور ، الفارغة من كل معنى طيب — هى فى الواقع شهادات زور ضد الإسلام ونبي الإسلام . . فانها حين تلقى بهذا الركام من الزيف السخيف المفضوح على سيرة الرسول ، تفتح أبواباً واسعة يدخل منها مرضى القلوب ، وسفهاء الأحلام ، للنيل من مقام النبوة فى صفاتها الرفيعة ، وسيرتها المطهرة . . إن هذه الأخبار الفثة الباردة حين يطالعها المنطالع لسيرة النبي ، يجد لها ريحاً ثقيلة ، تفند عليه الجو الطيب الروحى . الذى كان حرياً به أن يجده فى لقاءه مع الحق الثابت ، من سيرة النبي المبهوث هدى ورحمة للعالمين .

هـ - قصة الختان

ذكر كثير من مؤرخي السيرة روايات — إن اختلفت سنداً فقد اتفقت
ممتناً — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد مختوناً ، ، ومسروراً ، (١) !

وقد وقف ابن قيم الجوزية من واقعة الختان ، هذه موقف المتشكك في أمر
غير ذي خطر إذ لا يرى فيه دلالة ذات أثر في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛
إن صح أو لم يصح !

يقول ابن القيم :

اختلف فيه — أى في الختان — على ثلاثة أقوال :

أحدها أنه ولد — أى النبي — مختوناً مسروراً . . وروى في ذلك
حديث لا يصح . . ذكره أبو الفرج بن الجوزي في الموضوعات — أى في
الاحاديث الموضوعة .

وليس فيه — أى في الختان — حديث ثابت !

وليس هذا — أى الختان — من خواصه — أى من خواص النبي ! —
فإن كثيراً من الناس يولد مختوناً ! ..

، وحدثني صاحبنا أبو عبد الله محمد بن عثمان الخليلي . المحدث ببית المقدس :
أنه ولد كذلك ، وأن أهله لم يحتنوه !

، والناس يقولون إن ولد كذلك ، ستمته القمر ! وهذا من خرافاتهم

القول الثاني : أنه ختم صلى الله عليه وسلم يوم شق قلبه الملائكة ، عند

ظهوره حليمة !

القول الثالث : أن جده عهد المطلب ختمه يوم سابعه ، وصلى له مأدبة ،

وسماه محمدا ... ويروى في هذا حديث غريب . . عن عكرمة ، عن ابن عباس :
 « أن عبد المطلب ختن النبي صلى الله عليه وسلم يوم سابعه ، وجعل له مأدبة ،
 وسماه محمدا — قال يحيى بن أيوب : طلبت هذا الحديث فلم أجده عند أحد
 من أهل الحديث ممن لقيته إلا عند أبي السري — الذي نقل عنه عكرمة ، الذي
 يقال إنه رواه عن ابن عباس —

وقد وقعت هذه المسألة - مسألة الختان - بين رجلين فاضلين : ضنف
 أحدهما مصنفاً في أنه ولد - أي النبي - مختوناً - وأجلب فيه الأحاديث التي
 لا خطام لها ولا زمام ، وهو كمال الدين بن طلحة . . فنقضه عليه كمال الدين
 ابن العديم ، وبين فيه أنه صلى الله عليه وسلم ختن على عادة العرب ، وكان عموم
 هذه السنة عند العرب مغنياً عن نقل معين فيها . . والله أعلم (١) . .

وهكذا يقضي ابن القيم في مسألة الختان ، وأنها كانت عادة عامة للعرب ،
 وإذن فلا حاجة إلى نقل أحاديث تشهد لرسول الله بخصوصية فيها .

٦ - قصة شق الصدر !

وقصة شق صدر الرسول قصة مثيرة ، كانت مثار إعجاب لكثير من المسلمين ،
 كما أنها كانت مصدر تهكم وسخرية من كثير من غير المسلمين !

وقد وقعت هذه الحادثة للنبي - كما يقول الرواة - بعد السنة الثانية من
 عمره ، وهو لا يزال في حضانة حليلة السعدية . في بنى سعد بن بكر !

وقد روى عن حليلة السعدية خبر هذا الحادث . . قالت : لما لي بهم لنا
 خلف بيوتنا إذ أنا وأخوه - من الرضاعة ، وهو ابن حليلة - يشمد ، فقال
 لي ولأبيه : ذاك أخى القرش . قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض . فأخذهما
 ففما يطنه . فهما يسوطانه (٢) ، قالت : فخرجت أنا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائماً

(١) زاد المعاد جزء ١ ص ٣٥

(٢) -وطانه : أى يتلفانه بأيديهما فيما بينهما

منتقماً وجهه ، فالتزمته ، والتزمه أبوه ، فقلنا له : مالك بابني ؟ قال : جاءني رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعاني وشقاً بطني ، فالتزمتا شيئاً لا أدرى ما هو ! قالت : فرجعنا إلى خبائنا ، وقال لي أبوه : يا حليمه ، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب ، فألقيه بأهله ، قبل أن يظهر ذلك به — قالت : فاحتملناه فقدمنا به على أمه . . فقالت : ما أقدمك به يا ظئر ؟ وقد كنت خريصة عليه ، وعلى مكثه عندك ، قالت : فقلت نعم ! قد بلغ الله بابني ، وقضيت الذي علي ، وتخوفت الأحداث عليه ، فأذيتك عليك كما تحبين ! قالت : ما هذا شأنك ، فأصدقيني خبرك ! قالت : فلم تدعني حتى أخبرتها ! قالت : أتخوفت عليه الشيطان ؟ قلت : نعم ! قالت : كلا ، والله ما للشيطان عليه من سبيل . . وإن لابني لشأناً ! ! أفلا أخبرك خبره ؟ قلت بلى . . قالت : رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بصرى بمن أرض الشام . . ثم حملت به ، فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووضع حين ولدته ، ولأنه لواضع يديه بالأرض ، رافع رأسه إلى السماء . . دعيه عندك . وانطلق راشدة (١) . .

ويروى ابن هشام لهذه الحادثة طريقاً آخر من طرق الرواية . . يقول ابن هشام : قال ابن إسحاق : وحدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم (١١) ولا أحسبه إلا عن خالد بن معدان الكلاعي أن نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا له : أخبرنا يا رسول الله عن نفسك ، قال : نعم . . أنا دعوة إبراهيم (٢) ، وبشرى عيسى (٣) ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر . . فبينما أنا مع أخ لي خلف يديتنا نرعى بهما لنا إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض

(١) السيرة لابن هشام : جزء ١/ ص ١٥٥

(٢) هي الدعوة التي ذكرها القرآن على لسان إبراهيم : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يكلمهم آياتك ، ويهديهم الصراط المستقيم والحقمكة ويزكهم » ، لأنك أنت العزيز الحكيم » (البقرة ١٢٩)

(٣) وهي البشيرة التي ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان عيسى « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » (الصف ٦)

بطلت من ذهب ، ملوثة ثلجاً ، فأخذاني فتقاً صدرى ، واستخرجاً قلبي . فشقاها فاستخرجاً منه علقة سوداء فطرحاها ، ثم غسلوا قلبي وبطنى بذلك الثلج حتى أُنقياه . . ثم قال أحدهما لصاحبه : زنه بوشرة من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم — أى زدت عليهم — : ثم قال : زنه بمئة من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم ، ثم قال : بألف من أمته ، فوزننى بهم فوزنتهم . . فقال : دعه ، فوالله لو وزنته بألف من أمته ، فوزنتها ، (١) .

وموقفنا من هذه القصة هو موقفنا من جميع القصص التى رويت عن حياة النبى قبل البعثة ، أى أننا لا ننظر إليها بحسابها من دلالات النبوة ، ومعجزات النبى ، وإنما ننظر إليها جميعها على أنها — إن صحت — لم تكن لتزيد فى قدر النبوة ، ولا فى عظمة النبى ، وأنها إن لم تصح لم تكن لتقص شيئاً من قدر النبوة ، ولا من عظمة النبى !

وقصة شق الصدر — هذه لم يقم عليها دليل قطعى من الكتاب أو السنة ، والحديث المروى عن رسول الله لم يضبط سنده ، إذ أسنده ثور بن يزيد إلى بعض أهل العلم (١١) ويقول ابن إسحق فى بعض أهل العلم هؤلاء : لأحسبه لإخالة ابن معدان الكلاعى . . ثم إن خالد بن معدان هذا يسند روايته إلى نفر من أصحاب رسول الله ، ولا يحقق واحداً منهم .
فهذا الحديث مضطرب السند ، لا يؤخذ به .

ثم إن عملية شق الصدر إذا نظر إليها من جانبها العملى . . أعطى الأثر الذى أريد لها أن تحققه فى هذا الخبر ، وهو تنقية صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوسواس ، بانزعاج تلك النقطة السوداء التى قيل إنها انتزعت من قلبه حين شق ، وغسل ؟ وهل فعل ذلك بجميع الأنبياء حتى تخلى قلوبهم من وسواس الشياطين ؟ فإنه لا شك أن أنبياء الله جميعاً قد عسموا من هذه الوسواس . .

وإذا كان لرسول الله فضل على الأنبياء — وهو كائن فعلا — أفتحتاج قدرة الله حين يفيض عنايته على عبد من عباده إلى هذه العمليات الجراحية في وضوح النهار، وعلى ملاءمة الناس، وإذا احتاج الأمر إلى عملية جراحية — وهو مالا يكون — أفلا يكون ذلك في حال لا يشعر بها أحد حتى النبي نفسه .. كأن يكون ذلك في حال النوم مثلا ١٩ ..

ولعل واضح هذه القصة قد استلهم موحياتها من قوله تعالى مخاطباً نبيه :
« ألم نشرح لك صدرك .. » وسوغ له خياله أن يجعل هذا الشرح المعنوي للمصدر شرحاً بدنياً ، تتولاه الملائكة بعملية جراحية كاملة ، كما يفعل الطبيب بمريضه .

٧ - إرهابات بين يدي النبوة

في النفس البشرية قوى استطلاعية متخفية ، لا يدرى أحد من أمرها شيئاً ، فلا تخضع لاستدعاء الإنسان لها . ولا تعطى حين يطلب إليها أن تعطي بما عندها ، وإنما هي في الإنسان ذات سلطان لا سلطان عليه .. تظهر حيث تشاء ، وتعطي كيف تشاء ! ومتى تشاء !

هذه القوة يجد كل إنسان بعض آثارها في حياته ، على اختلاف في هذه الآثار .. كثرة ، وقوة ، ووضوح .

ولو رصد الإنسان — أي إنسان — معطيات هذه القوة الخفية فيه ، لوجد فيها أسراراً عجيبة . تحار لها العقول ، وتعجز عن الوقوع على تفسير صحيح لها !

فكم مرة يلتقي روع الإنسان أن أمراً ما ، قد وقع ، أو سيقع على صفة ما ، دون أن يكون هذا الأمر — في تلك الحالة — منظوراً له ، أو جارياً في تفكير .. ثم يقع على تلك الصورة التي استشعرها استشعاراً !

وكم من مرة ترسم لعبني الإنسان صورة شخص ما ، من غير أن يكون له مكان في خاطره ، أو مدار تفكيره .. ثم إذا بهذا الشخص يطلع عليه ، على غير انتظار ! !

وكم وك من مثل هذه الروى اليقظ ترتفع صورها . فيراها الإنسان رأى
العين ، أو يجد مسها في خفقات قلبه ، أو ما رب تفكيره !
ولهذه القوة الاستطلاعية فترات تستيقظ فيها ، كما أن لها فترات أخرى تخمد
فيها جذوتها ، ويفتر نشاطها .

وللأحداث التي تنتظر الإنسان في خاصة نفسه، أو تنتظره مع الناس في دائرة
أوسع وأشمل — لهذه الأحداث أثرها في تحريك هذه القوة ، وفي انبعاشها من
مكناها !

فإذا كانت تلك الأحداث ذات طابع ثورى تنقلب به الأوضاع القائمة في
الحياة ، ويتحول به سسير الأمور على غير الوجهة التي هي عليها — فإن ذلك
مما يهيج هذه القوة المتدسية في الناس ، ويحرضها تحريضا قويا على أن تشيم بروق
هذه الأحداث ، وتنسم أرواحها ، وتفتح خياشيمها على مهاجمها ، فتجدها ، قبل
أن تولد في الواقع الذي يعيش في الناس ، وتعرف إليها قبل أن تقع عليها عين،
أو تلمسها يد !

ولك أن تسمى هذه القوة حاسة — غير الخواس الخمس المعروفة — حاسة
خفية مهمتها أن تستقبل — أحيانا — مالا تستطيع الخواس المعروفة استقباله
من أنباء وأحداث !

ففي المارصد — مثلا — أجهزة تنبئ عن العاصفة قبل أن تجيء ، وعن
الهزات الأرضية قبل أن تقع . . وإنما في هذه الأحوال ، لا تخلق العاصفة ،
ولا تصنع الهزات ، وإنما كل ما في الأمر أنها أدق حسا ، وأسرع تأثيرا من
تلك الأجهزة الكائنة في الإنسان . وعملها هنا أشبه بما يسمى السبق الصحفي في
عمل الصحافة اليوم . . !

نقول إن الأحداث إذا كانت ذات طابع ثورى في الحياة هيئت هذه القوة
الاستطلاعية الكامنة في الإنسان ، ودعتها إليها ، فرأت مالا يرى الناس ، وعرفت
مالا يعرفون . ثم عادت فألقت إلى الناس بأنباء وأخبار ، يعجبون لها ، ويدهشون
بها ، ويقفون منها بين مصدق ومكذب ، حتى تلتقي بخواسهم وتقع تحت مبركاتهم .

والنبوة أمر عظيم . وحدث عجب ، قلنا تشهد الحياة مثلاله ، إلا حين يظهر نبي ، وتظهر في الحياة دلائل نبوته .

إن النبوة صلة مباشرة بين السماء والأرض ، فحين يظهر نبي يكون معناه أن السماء قد التقت بالأرض ، أو أن الأرض قد تلاقت مع السماء على يد إنسان من الناس . . إنسان يتناول من السماء بعض ما فيها من رحمة ونور ، ليأخذ الناس بحظهم من هذه الرحمة ، ومن هذا النور !

ونبوة محمد ، آية الآيات في النبوات . . ولها من الآثار في الحياة بقدر ما تفرق في النبوات كلها . . إنها ليست لشعب ، أو قبيلة . أو بلدة ، وإنما ليست لجيل أو جيلين أو ثلاثة من أجيال الناس . . بل هي للإنسانية كلها ، وللأجيال جميعها . . منذ ظهور هذه النبوة إلى أن ينتهي دور الإنسانية على هذه الأرض ! فإذا آن أو ان هذه النبوة ، وأطل زمانها ، وحن مولدها - كان لها في كيان تلك القوى الاستطلاعية الكامنة في الناس دوى عظيم ، يكاد يحيل هذه القوى إلى كائنات حية ، تحدث عن استطلاعاتها بلسان قوى مبين !

وقد حدث هذا أو ما يقاربه حين بدأت الحيوط الأولى من أشعة الفجر تظهر في آفاق الجزيرة العربية مؤذنة بأن مطلع شمس النبوة سيحيى بعد هذا الفجر الوليد !

فلقد استيقظت في الناس قوى روحية تتلصق بمواقع هذا النور ، وتهدي إليه ، وانتقدت في صدور كثير منهم شرارة الإيمان ، فأوقدت في صدورهم جذوة مضطربة قلقة ، لم يستطيعوا معها صبرا على معتقداتهم الفاسدة التي وجدوا ريمها العفن ، حين طلعت عليهم ريح النبوة ، واستطابوا شميمها الزكي العطر !

وتسجل صحف التاريخ لهذه الفترة التي قامت بين يدي النبوة أنباء وأحداثا كثيرة مستفيضة . قد بلغت حدا من الكثرة والغرابة دعا بعض الناس إلى إنكارها وتسكذيها جملة وتفصيلا ، كما دعا بعضا آخر إلى قبول بعضها ، والتوقف عند بعض ، وإنكار بعض !

والذي نراه في هذه الأخبار ، ونسكاد تقطع به هو أن الأصول التي قامت عليها هذه الأخبار أصول صحيحة سليمة . . فإن ظهور النبي ؛ بل خاتم الأنبياء ،

لا يمكن أن يقع دون أن يقوم بين يدي موكبه من يعلن في الناس نبأه ، ويفسح الطريق لهذا الموكب الجليل المهيّب .

أرأيت إلى الشمس ؟ أتراها تطلع في أفق من الآفاق دون أن تسبقها أضواء الصباح ، ودون أن تقوم بين يديها أنسام الفجر لتوقظ الأحياء لها ، وتهيبهم لاستقبالها ، وتملأ عيونهم نوراً هادياً مترقفاً قبل أن يغمروهم غرورها ، ويغشى أبصارهم شعاعها ؟ !

ثم أرأيت إلى صنيع الناس وتدبيرهم مع ملوكهم ورؤسائهم ؟ أتراهم يلتقون هؤلاء الملوك والرؤساء فجأة وعلى غير انتظار ؟ أم تراهم يتخذون لذلك من الوسائل ما يوقف الناس ويلفتهم إلى لقائهم قبل أن يطلعوا عليهم ، وتلتقي أعينهم بهم ؟

وما الشمس في جلالها وعظمتها ؟ وما الملوك والرؤساء في سلطانهم وهيبتهم ؟ إنهم أرض والنبوة سماء ! وإنهم رعية والنبوة راعية . ! وإنهم جند والنبى قائد ! وإنهم صغار والنبى قيم على هؤلاء الصغار !!

فهذه الأخبار التى تروى عن الذين شاهدوا أنوار النبوة قبل أن تبرغ ، وشاموا مخايل النبى قبل أن يظهر - هذه الأخبار تسند - كما قلنا - إلى أصول صحيحة ، وتقوم على واقع لا شك فيه ... والسكن الذى يؤخذ على هذه الأخبار هو ما دخل عليها من إضافات ، وما تلبس بها من عواطف ومشاعر ، وما زحف عليها من مفتريات وأكاذيب ! ..

فلقد زين لكثير من القصاص أن يجعلوا من هذه اللبحات الخاطفة ، ومن هذه الرؤى العابرة ، التى وجدها بعض ذوى النفوس الواحية ، والمشاعر المتوفرة من ربح النبوة - « خمائر » ، لخلق ملاحم ذات طول وعرض ، كان لها أثر كبير فى أن جرأت بعض الكذابين والمنافقين ، وأعداء الإسلام ، أن يزيّدوا ، وأن يحتلقوا من الباطل صوراً شائمة كادت تفسد بهاء تلك الصور الجميلة ، التى وجدها أولئك الرواد الذين سبقوا إلى مطالعة أنوار النبوة ، قبل أن تبرغ شمسها ، والتى سلم بعض ما نقل إلينا من أخبارها .

والاخبار التي بين أيدينا كثيرة — كما قلنا — ، وقد اجتمع فيها الصحيح إلى السقيم ، واختلط الحق بالباطل ! . غير أن التفرقة بين الصحيح والسقيم ، والفصل بين الحق والباطل أمر هين في هذه الاخبار ، فإن أدنى نظر يكشف الزائف منها ويفضحه ، إذ كان الكذب فيها يكاد — لشناعته وسوء تصويره — يذيع عن نفسه ، ويدل على من ألقى به في هذا الوجه الأسود المشوه في موكب النبوة ، الفياض بالنور ، والجلال ١١ .

عمور من الحق :

ونذكر هنا بعضاً من هذه الاخبار التي نظمنا إليها ، ونرى أنها كانت جديرة بأن تقع ، وإن لم تسكن قد رفعت فعلاً ، لأنها أقرب شيء إلى النبوة ، وأمس نسباً بها :

١ — دين الخمس

في العام الذي ولد فيه النبي أو قبيله أو بعده بقليل ظهرت في قريش مريجة من الأفكار الدينية ، ذات الطابع الخامس ، المتجه إلى فرض أعباء ثقيلة على النفس ، وحملها على الجانب الوعر العنيف من الحياة . .

فلقد تذبذبت في قريش شعور قوى بالدين ، فأوقد في نفوسهم ذلك الخامس القوي للحياة الدينية في كيانه . . وخيل إليهم — إن حقاً وإن باطلاً — أن من كمال العقيدة الدينية وتماها أن تسكر فيها التكاليف ، وتتضاعف القيود ، وأن الإنسان بقدر ما يحمل من تكاليف ، وما يحتمل من قيود يكون حظّه من الدين ومكانه بين المتدينين ! .

وحديث الخمس ، كما يرويه ابن هشام ، في سيرته عن ابن إسحق هو :
وقال ابن إسحق : « وقد كانت قريش — لا أدري قبل الفيل أو بعده — ابتدعت رأى الخمس . . رأياً رأوا رأوه ، فقالوا : « نحن بنو إبراهيم ، وأهل الحرمه ، وولاية البيت ، وقطان مكة ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ، ولا مثل منزلتنا ، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا . »

هذه هي حيثيات القضية التي اجتمعت قريش لبحثها . وإصدار حكم يرتضونه فيها . .

فهم يعرفون لأنفسهم هذه المكانة التي شرفوا بها ، واستحقوا من أجلها الإجلال والتعظيم من العرب قاطبة .

لأنهم أبناء إبراهيم ، وولد إسماعيل .

وهذا النسب ، وإن شاركهم العرب فيه ليس كل ما لهم من شرف . . . إذ هم إلى هذا النسب ولادة البيت ، وقطان مكة التي شرفت بالبيت الحرام ، ورفعت منزلتها فوق منازل القبائل العربية كلها ، فكانوا من أجل هذا موضع احترام العرب قاطبة ، يرحلون رحلتى الشتاء والصيف . إلى اليمن وإلى الشام في تجارتهم آمنين ، لا يعرض أحد لهم بسوء . . حتى جاء الإسلام . وهم على تلك الحال . . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى مذكراً قريشاً بهذه النعمة : « أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ، ويتخطف الناس من حولهم ! » ويقول سبحانه : « لإيلاف قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليجئدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف . .

نقول : إن هذا الذى وقع فى نفس قريش من إحساسها بالميزات التي لها ، والتي سلم العرب لهم بها — إن هذا كان داعية لهم أن يجتمعوا هذا الاجتماع الكبير ، وأن يديروا فيه وجوه النظر فيما ينبغى أن يكون عليهم إزاء هذا الفضل الذى كان لهم .

وقد انتهى هذا المؤتمر إلى مقررات . . كان على قريش أن تلتزم بها ، وأن تقوم على تنفيذها ، تنفيذاً صارماً لا هوادة فيه . .

وأهم هذه المقررات :

أولاً : ألا يعظموا شيئاً من الحل كما يعظمون الحرم . .

ثانيا : لا ينبغي لهم - وهم الخمس - أن يأخذوا الإقط (١)
أو يسألوا (٢) السمن وهم حرم .

ثالثا : ألا يدخلوا بيتا من شعر ، وألا يستظلوا إذا استظلوا إلا في بيوت
الآدم (٣) ما كانوا حرما .

رابعا : لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل
إلى الحرم ، إذا جاءوا حاججا ، أو عمارا .

خامسا : لا ينبغي لأهل الحل إذا جاءوا حاجين أو عمارا أن يطوفوا
بالبيت إذا قدموا إلا في ثياب الخمس ، فإن لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت
عراة فإن تخرج منهم - أى من أهل الحرم - رجل أو امرأة من الطواف
عريانا فطاف في ثيابه - ألقاها إذا فرغ من طوافه ، ثم لم ينتفع بها ، ولم يمسها
هو أو أحد غيره أبدا . . وكانت العرب تسمى هذه الثياب : اللقي (٤) .

ويقول ابن إسحق : في رواية ابن هشام عنه : إن هذه المقررات لم يصدرها
المؤتمرون دفعة واحدة ، ولكنها جاءت تباعا ، واحدة إثر واحدة . . كلها أنزموها
العرب أمرا منها جاءوا بغيره ، وهكذا !

وليس يعنيننا أن نقف عند هذه الملاحظة التي نبه إليها ابن إسحق . من أن
هذه المقررات لم تصدر مرة واحدة . . وإنما الذى يعنيننا هو تلك المقررات
نفسها . وما حملت من دلائل وأمارات .

وأهم ما يلقانا من هذه الدلائل أن قريشا قد عزلت نفسها عزلا روحيا
عن القبائل العربية كلها . . فحملوا البيت الحرام وحده هو مكان تقديمهم
واحترامهم . . أما ما عداه من الشمامير الأخرى التى كان يعظمها العرب جميعا
ومنهم قريش فقد أحلوا أنفسهم منها . . فتركوا الوقوف على عرفة ، والإفاضة
منها ، وهم يعرفون حق المعرفة أنها من المناسك ، والحج ، ودين إبراهيم ، ويرون

(١) يأخذوا : أى يأكلوا ، والإقط شيء يتخذ من خيش الغنم .

(٢) يسألوا السمن : يطبخونه . (٣) الآدم : الجلد المدبوغ

(٤) كتاب السيرة لابن هشام : الجزء الأول ص ١٨٩ وما بعدها .

لسائر الدرب أن يققوا عليها وأن يفيضوا منها ، إلا أنهم قالوا : ونحن أهل الحرم ، فليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرم ، ولا نعظم غيرها .. نحن الخمس ! (١)

وهذه العزلة الروحية لاشك أنها دليل يقظة ، وأمانة تنبه لهذا الأمر العظيم ، الذى ستتكشف عنه الأيام بعد قليل ، والذى ستكون وجهته — أول ماتكون — الجانب الروحى فى الناس ، وأن قريشاً هى أول من تلتقى بهذا الأمر العظيم .. رضى السماء ، على لسان رجل من قريش .. هو محمد بن عبد الله ! عليه صلوات الله وسلامه !

٢ — رجال فى الطليعة

وهذه الدفعة من الخماس الروحى التى حملت قريشاً على أن تتخذ هذا الموقف — الذى أشرنا إليه — والذى انتسب بها إلى أن تفرض على نفسها وعلى الناس ما فرضت من مقررات — نقول إن هذه الموجة من الخماس الروحى كان لها عند بعض ذوى العقول الناضجة ، والمشاعر الحية أصداء بعيدة لم تقف بها عند هذه المقررات ، بل دفعت بها إلى آفاق أبعد مدى ، وأرحب ساحة من هذا الأفق الذى وقفت قريش عنده !

ويحدث ابن إسحق ، فيما يروى ابن هشام عنه ، فيقول : « اجتمعت قريش يوماً عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظمونه ، وينجرون له ، ويعكفون عنده ، ويدبرون به ، وكان ذلك عيداً لهم ، فى كل سنة ، يوماً .. خلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا ، وليكنتم بعضكم على بعض اقلوا أبل .. وهم : ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو بن نفيل ..

« وقال بعضهم لبعض : « تملوا (٢) .. والله ما قومكم على شيء .. لقد

(١) السيرة : جزء أول ص ١٨٩ ؛

(٢) « تملوا » ،

أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ١٠٠ ما حجر نظيف به ٩٠ لا يسمع ولا يبصر ،
ولا يضر ولا ينفع ٩٠٠ يا قوم : التمسوا لأنفسكم . . فإنكم والله ما أنتم
على شيء ١١ . .

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الخيفية ، دين إبراهيم (١) .
ويقول ابن إسحق عن هؤلاء الأربعة : أما ورقة بن نوفل فاستحكم في
النصرانية واتبع الكتب من أهلها ، حتى علم علماً من أهل الكتاب .

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس ، حتى جاء الإسلام
فأسلم ، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان (٢)
مسلمة ، فلما قدم الحبشة تنصر ، وفارق الإسلام حتى هلك نصرانياً ١

وأما زيد بن عمر نفيل فوقف ، فلم يدخل في يهودية ، ولا نصرانية ، وفارق
دين قومه واعتزل الأوثان ، والميثة والدم ، والذبائح التي تذبح على الأوثان ،
ونهى عن قتل الموءودة ، وقال : اعبدوا رب إبراهيم . وبأدى (٣) قومه بعيب
ما هم عليه .

قال ابن إسحق : « وحدثني همام بن عروة عن أبيه عن أمه أسماء بنت أبي
بكر رضى الله عنهما ، قال : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مستنداً
ظهره إلى الكعبة ، وهو يقول : يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بن عمرو
بيده . ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري اثم يقول : اللهم ، لو أني أعلم
أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلم ، ثم يسجد على
راحته ، (٤) .

(١) السيرة جزء ١ ص ٥٤ .

(٢) مذهبية هذه أم المؤمنين زوج النبي ، وقد تزوجها بعد أن طلقت من زوجها عبيد الله
ابن جحش الذي تنصر في الحبشة ، وكان التجاشي ، هو الذي تولى أمر تزويجها للنبي ،
واصدقها عنه .

(٣) يادى قومه : أهلهم وصرح لهم ،

(٤) السيرة : جزء ١ ص ٢١٦ .

ثم لا يزال زيد بن نمير هذا يتقلب في البلاد باحثاً عن الدين الذي يستريح إليه حتى ينتهي به المطاف إلى الشام ، فالتقى براهب ينصح له أن يلتصق بالحنيفية ، دين إبراهيم عند أبي سبيع في بلاده . وأن زمانه قد أظلم ، فخرج من الشام سريعا يريد مكة حتى إذا توسط بلاد الحنم عدوا عليه فقتلوه ، (١)

وأما عثمان بن الحويرث ، فقد تضاربت أخباره ، ولم يعرف المصير الذي صار إليه .

ولا نظن أن هذا الأمر قد وقف عند أولئك الأربعة الذين حفظ التاريخ ذكرهم . إذ لا بد أن يكون هناك كثير غيرهم قد وقع في نفوسهم ما وقع في نفوس هؤلاء . وأنهم التمسوا ما التمس هؤلاء . ولمكن لم يقدر لهم أن يكون أمرهم في سجل التاريخ ، وأن يكون حديثاً يروى ، وخبراً يتحدث به .

وشاهدنا على هذا ؛ أولئك الذين سبقوا إلى الإسلام ، واستجابوا لأول دعوة من الرسول دون توقف أو تردد . كآبي بكر ، وعلى ، وعثمان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وزيد بن حارثة . . . ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبو مسلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم . . . وكثير غيرهم من السابقين الأولين (١) . فهؤلاء السابقون إنما سبقوا بما وقع في نفوسهم قبل النبوة من إلهامات ومشاعر بها .

٣ — الرهبان .. والكهان

وإذا كان في الناس من يسبق إلى موارد الروح ، ويتهدى إلى مواطنها ، فإن أكثر الناس استعداداً في هذا المجال ، وأقدرهم عليه هم الرهبان والكهان . . . إذ كان الرهبان قد وضعوا أقدامهم على أول الطريق منذ سلموا مسلك الرهبنة ، فكانت الروح هي مطلبهم ، وكان الانقطاع عن الدنيا ، واعتزال

(١) السيرة : الجزء الأول ص ٤١٤ .

(٢) انظر السيرة : الجزء ١ ص ٢٣٧ .

ما فيها هو زادهم الذى يتزودون به لقطع مراحل هذا الطريق الطويل .. ولا شك أن هذه الرياضة الروحية التى تقوم عليها حياة الرهبان ذات أثر كبير فى صفاء النفس ، وشفافية الروح ، وتهيئتها لاستقبال الرؤى عن الأحداث ، والإحساس بها قبل أن تقع فى مواطن الحس عند الناس .

وكذلك الشأن فى أصحاب السكينة ، فإنهم قد اتجهوا بأنفسهم إلى استكشاف ما وراء الحس ، ووجهوا قلوبهم وعقولهم إلى عالم الغيب ، لعلمهم ويميدون شيئاً منه .. وإنه لغير مستبعد أن يلتقط بعضهم بين الحين والحين إشارة من هذا العالم ، تنبئهم عن الأحداث قبل أن تصير فى واقع الناس ، بزمن .. قد يطول ، وقد يقصر ، بحسب ما عند المستطلع من استعداد للتلقى والاستقبال !

وعلى هذا فشكل ما يروى من أخبار الرهبان والكنهان من استطلاعات فى عالم الغيب ، وتنبؤات عن المستقبل هى من قبل السبق فى الرؤية بعين البصيرة للأمر قبل أن يقع فى متناول العين المبصرة ؟

وكذلك ما نقل الرواة والمؤرخون من أحاديث الرهبان والكنهان عن مبعث الرسول إنما يضاف إلى هذا الحساب ، ويقدر بهذا التقدير .

ويرى د ابن إسحق ، أن مصدر علم الرهبان والأخبار من اليهود والنصارى فى الإخبار بمبعث النبى — يرجع إلى ما عرفوا من كتبهم ، وما فيها من صفة النبى ، وأوصافه زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم لإيهم فيه .

ولا مناهة بين هذا الذى يقول به ابن إسحق ، وما نراه من تغلب الإحساس الروحى عندهم وتهيئهم للرؤى التى تسبق واقع الأمور والأحداث . ولا بأس من أن يكون هذا العلم الذى علمه الأخبار والرهبان من كتبهم عن مبعث النبى ، مجتمماً إلى تلك الرياضة الروحية . فيكون لهذا العلم أثره فى حمل النفس على التطلع والبحث فى ثقة ، وفى يقين من أنها تبحث عن شئ لا بد من أن تجده وتقع عليه ، وأنها إن أخطأته يوماً ، فذلك لأنها لا تملك القدرة على الوصول إليه ، لأنه غير موجود ، كما يكون لهذه الرياضة الروحية أثرها فى الإمساك بالنفس على النظر والتطلع ، دون أن ينالها اليأس أو يستنفد طاقة خبرها القلق ! !

قال « ابن إسحق » وكانت الأحبار من يهود ، والرهبان من النصارى والسكمان من العرب قد تحدّثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ، لما قرب من زمانه :

و أما الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى ، فما وجدوا في كتبهم من صفته ، وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه ، وأما السكمان من العرب فأتهم به الشياطين من الجن ، فيما تسترق من السمع ، إذ كانت وهى لا تتحجب عن ذلك بالقذف من النجوم . وكان السكمان والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره — أى النبى — ، لالتقى العرب لذلك فيه بالاحتى بعثته الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التى كانوا يذكرون فعرفوها ١ ، (١)

من أخبار الأحبار والرهبان :

كان أهل المدينة — وهم الأنصار من الأوس والخزرج — أسبق العرب إلى الإسلام .. فهم الذين بايعوا الرسول على الإيمان به ، وبما نزل عليه من الكتاب ، كما بايعوه على نصرته الدين الذى جاء به .. وكان ذلك فى بيعتى العقبة — الأولى والثانية — بمكة .. وهم الذين كانت إلهم هجرة الرسول ، ومن موطنهم — المدينة — ارتفع نواء الإسلام ، وبسيوفهم وسيوف من هاجر إليهم من المسلمين انتصر الإسلام وعز المسلمون ١

وهذا السبق إلى الإسلام الذى كان من أهل المدينة قد مهدت له أسباب ، ودعت إليه أحوال وملابس لما أراد الله لهذا الحى من العرب من خير ، وعز وكرامة ، فى الدنيا والآخرة ١ .

أما هذه الأسباب وتلك الملابس فهى ما كان عند اليهود بالمدينة من علم بمبعث نبى عربى ، بشرت به التوراة ، وكشفت لهم صفته وصفة زمانه ، وكان اليهود من أجل هذا العلم يتدرون الأوس والخزرج — وهم الأنصار فيما بعد — ينذرونهم بالنبى المبعوث الذى سيكونون له أتباعا وحواريين ، وأنهم فى جانبه

هذا النبي سينالون عزا وقوة، تأخذ لهم من الأوس والخزرج بحقيقتهم، وتبدل من ضعفهم قوة، ومن خذلانهم نصراً ..

قال ابن اسحق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه - الأوس والخزرج - قالوا: بما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لما كنا نسمع من رجال يهود .. كنا أهل شرك . أصحاب أوثنان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا .. وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور ..

وإذا فلما منهم بعض ما يكرهون، قالوا لنا: إنه قارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكننا كثيراً ما نسمع ذلك منهم، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به، فبادرناهم إليه، فأمننا به، وكفروا هم به، فقمينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات من البقرة: « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » فأمينة الله على الكافرين، (١)

ويروى ابن هشام عن ابن اسحق خبراً آخر من أخبار اليهود، وما كان عندهم من علم في شأن النبي العربي ..

يقول ابن اسحق: عن سلمة بن سلامة بن رقيش - وكان سلامة من أصحاب بدر - قال: كان لنا جار من يهود، فخرج علينا يوماً من بيته ... فذكر القيامة، والبعث، والحساب، والميزان، والجنة - والنار .. قال ذلك لقوم أهل شرك، أصحاب أوثنان، لا يرون أن بعثاً كائن بعد موت .. فقالوا له: ويحك يا فلان! أو ترى هذا كائناً .. أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، يخرجون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يحلف به، لو ددت أن حظي من تلك النار أعظم تنور في الدار يحمونه، ثم يدخلونني إياه، فيطنونه على وأن أنجو من تلك النار غداً!! فقالوا له: ويحك يا فلان! فما آية ذلك؟ قال نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار يده إلى مكة واليمن، قالوا ومتى نراه؟ قال - سلمة - فظفر إلى

وأننا من أحدثهم سنأ فقال : إن يستنفذ هذا الفلام عمره يدركه ! قال : سبلة ، فوائه مذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، وهو - أى اليهودى - حتى بين أظهرنا ، فآمننا به ، وكفرت به ، بغياً وحسداً .. قال فقلنا له : ويحك يافلان !

ألسنت الذى قلت لنا فيه ماقلت ؟ قال : بلى ! ولكن ليس به (١) .

وتحدث كتب السيرة عن كثير من أخبار الرهبان ، كانوا يرصدون مطلع النبوة فى الجزيرة العربية ، لما عندهم فى التوراة من أخباره ، وصفاته ، وصفاته زمانه ، والآفاق الذى يطلع منه .. قال تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التى كانت عليهم (٢) » .

وهذه الأخبار المروية عن اليهود فى بعثة النبي إنما تستند إلى هذا العلم ، يظهرها ما كان عند أخبار اليهود من استعداد نفسى وروحى لاستقبال أول أنساق النبوة . والتهدى إليها . . . ولكن ليس كل من يعرف الخير ينتفع به . . . فحين ظهر النبي ، ودعا الناس إلى ما أمره الله به أن يدعوهم إليه أضموأ أذانهم ، وأعرضوا عنه . . . بغياً وحسداً . . . ولم يدخل فى الإسلام منهم إلا جماعة قليلة ، أراد الله لها الخير ، وذلّل لها الطريق إليه .

ولنا هنا أن فلتفت إلى استيطان اليهود المدينة وتجمعهم حولها . . . فما كانت بلاد العرب بالموطن الذى يعيش فيه غير أهله العرب ، ولا كان اليهود خاصة يستطيون الحياة فى هذه البلاد القفر . وهم أبدأ طلاب صيد ، لا يمسكهم شىء إلا إذا وجدوا منه ربحاً عاجلاً . . . فإذا حمل اليهود على أن يحيو هذه الحياة القاسية فى هذه البلاد القفر ، غرباء مستضعفين ؟

(١) السيرة ج ١ ص ٢٠٢ ، نهاية الأرب ج ١٦ ص ١٤٣

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٧

والرأى الذى نستريح إليه فى تعليل هذه الواقعة هو أن اليهود بما عندهم من علم من التوراة فى شأن النبي العربى الذى بشرت به التوراة ، وذكرت أوصافه وأوصاف زمانه ومكانه — هذا العلم قد دعا كثيراً من اليهود إلى التطالع إلى البلاد العربية ، وترقب ظهور هذا النبي ، كما حمل هذا العلم كثيراً منهم إلى الهجرة إلى بلاد العرب ليكنوا فى استقبال النبي عند ظهوره . وكانت المدينة أول بلد يلقاه اليهودى فى وجهته إلى الجزيرة العربية من أرض الشام . وكان من الطبيعي أن تكون المدينة محط رحال هؤلاء اليهود الوافدين على الجزيرة ، انتظاراً لبعثة النبي . وكان أن ازداد عدد اليهود مع الزمن بالتوالد والتوافد حتى صار لهم فى المدينة مجتمع ، له آثاره ومكائنه فى حياة المدينة . . الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ! حتى جاء الإسلام فوقفوا منه هذا الموقف اللئيم العنيد ، فأذن الله لرسوله وللمؤمنين أن يجلوهم عن هذا البلد الطيب ، وأن يطهروا منهم مواطن الإسلام .

ج — من أخبار الكهان

والكهانة ضرب من الرجم بالغيب ، وادعاء بالكشف عن أحداث المستقبل وما يتوقع من أمور !

وقد عرف العرب الكهانة ، وحفظ التاريخ أسماء كثير من الكهان والكاينات .

وكان للكهان والكاينات مكانة مرموقة بين القبائل ، تجبى إليهم الناس من كل جهة ، يستفتونهم فى كثير من الشئون ، ويتنافرون إليهم ، للحكم بينهم فيما يختصمون فيه ، من نسب ، أو شرف ، أو غير ذلك من شئون الناس فى الحياة . وقد لعب الكهان دوراً كبيراً فى حياة الأمة العربية ، وفى تحديد اتجاهات أفكارها فى الحياة .

ويغلب على السكينة أن يكونوا من الزمنى وذوى العاهات ، الناجمة عن نقص فى الخلقة ، أو شذوذ فى الطبيعة . فان غرابة الخلق فى إنسان من الناس توقع

في نفس من يراه أن هذا الخروج على الطبيعة في تكوينه لا بد أن يكون وراءه أسرار وعجائب ، تظهر أكثر ما تظهر في الجانب الروحي منه ، وفي اقتداره على الاتصال بالملا الأعلى ، والتلقي منه . . كما يغرى هذا الخلق العجيب صاسبه بأن يكون شيئاً في الحياة ، وأن يحىء إلى الناس بما لم يحيطوا به ، إذ جاء هو إلى الحياة على غير الصورة البشرية التي جاءوا هم بها ، ونشهد نحن هذا في جماعات «المجاذيب» وفي اعتقاد كثير من الناس فيهم . . فإن الذي يغلب عليهم هو هذا الشذوذ في الخلقة . . من نقص ، وتشويه !

وقد كان للسكان دور كبير قبيل البعثة النبوية . . إذ كثر لفظهم ووسواسهم بهذا الأمر العظيم ، الذي سيتطالع على الناس من قريب !

وكان السكان يسندون عليهم هذا الذي يلقونه في آذان الناس إلى الجن الذين هم أقدر من الناس على التقاط أنباء السماء ، وما تصدر إلى الناس من أحداث ! فكان لكل كاهن أو كاهنة ، رثى ، أو رفيق من الجن ، تتوَقَّع بينه وبين صاحبه أواصر الصداقة على طول الصحبة ، وامتداد الأيام !

ويذكر القرآن ما كان للجن من استطلاعات للغيب ، ومحاولات في استراق السمع . . فقال تعالى عن الجن واستراقهم السمع ، «وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ، وأنا لآندري أشراً أريد يمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً» (١) .

يقول ابن هشام : فلما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحضر مبعثه حجبت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد لاستراق السمع فيها ، فرموا بالنجوم ، فعرفت الجن أن ذلك لأمر حدث من أمر الله في العباد (٢) .

وهذه المستمعات التي كان يسترها الجن إنما ليوسوسوا بها في صدور بعض

(١) سورة الجن آية ٩ ، ١٠ .

(٢) السير جزء أول ص ١٩٥ .

الناس ، وليجعلوا منهم متنبئين يفتنون الناس بهم ، ويلبسون عليهم أمورهم ،
بما يخلطون بين الحق والباطل من تلك الإنبياء التي يلقون لآلئهم بها .

عن ابن عباس عن نضر من الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال لهم : « ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرى به ؟ قالوا : يأنى الله ..
كنا نقول حين رأيناها يرى بها : مات ملك .. ملك .. ملك .. ولد مولود ..
مات مولود ! » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس ذلك كذلك ..
ولكن الله تبارك وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً سمعه حمة العرش ، فسبحوا ،
فسبح من تحتهم ، فسبح للتسبيحهم من تحت ذلك .. فلا يزال التسبيح يهبط
حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحوا ، ثم يقول بعضهم لبعض : مم سبحتم ؟
فيقولون سبح من فوقنا فسبحنا للتسبيحهم ! فيقولون : ألا تسألون من فوقكم
مم سبحوا ؟ فيقولون مثل ذلك ، حتى ينتهوا إلى حمة العرش ، فيقال لهم
مما سبحتم ؟ فيقولون : قضى الله في خلقه كذا وكذا .. للأمر الذي كان ..
فيهبط به الخبر من سماء إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا ، فيتحدثوا به ،
فيستره الشياطين بالسمع ، على توهم واختلاف . ثم يأتوا به الكهان من أهل
الأرض فيحدثوهم به . فيخطئون ويصيبون ، فيتحدث به الكهان فيصيبون بعضاً
ويخطئون بعضاً .. ثم إن الله عز وجل حجب الشياطين بهذه النجوم التي
يقذفون بها ، فانقطعت الكهانة اليوم .. فلا كهانة (١) .

ويقول ابن إسحق فيما يرويه عنه ابن هشام : « وأما الكهان من العرب
فأنتهم به — أى بما تحدثوا به من بعثة النبي — الشياطين من الجن فيما تسترق
من السمع ، إذ كانت وهي لا تحتجب عن ذلك بالقذف من النجوم .. وكان
الكهان والكهانة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أمورهم — أى أمور النبي —
لاتلقى العرب لذلك فيه بالا ، حتى بعثه الله تعالى ، ووقعت تلك الأمور التي
كانوا يذكرون فعرفوها (١) . »

ويرى ابن خلدون أن انقطاع الكهانة ، كان موقوتاً في زمن النبوة ،
إذ أن ضوء النبوة أشبه بضوء الشمس يخفت فيه كل ضوء ! ثم لما انتهى زمن
النبوة لم يكن هناك ما يحول بين الكهانة وبين أن تظهر ، إذ غربت الشمس التي
كانت تلزمها أبحارها ! وأنه وإن كان قد بطل الاستراق الذي كانت تسترقه الجن
وتلقى به في صدور الكهان ، فإنه قد بقي للكهان ما في نفوسهم من استطلاعات
خاصة ليست لغيرهم من الناس ، وهم بهذه الاستطلاعات يلقون الناس ، ويلقون
إليهم بما عندهم ، وبما ليس عندهم ، من مزاعم وأكاذيب .

يقول ابن خلدون : « وقد زعم بعض الناس أن الكهانة قد انقطعت منذ
زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة ، وأن
ذلك كان لمنهم من خبر السماء ، كما وقع في القرآن . . والكهان إنما يتعرفون
أخبار السماء من الشياطين ، فبطلت الكهانة من يومئذ !

« ولا يقوم من ذلك دليل . . لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين ،
تكون من نفوسهم أيضاً .

« فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء ،
وهو ما يتعلق بخبر البعثة ، ولم يمنعوا عما سوى ذلك .

« وأيضاً ، فإنما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ، ولعلها عادت
بعد ذلك إلى ما كانت عليه ، وهذا هو الظاهر . . لأن هذه المدارك كلها تخمد
في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرّج عند وجود الشمس ، لأن النبوة
هي النور الأعظم الذي يخفي معه كل نور .

« وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدي النبوة ثم تنقطع ، وهكذا
مع كل نبوة وقعت ! لأن وجود النبوة لا بد له من وضع فلسفي يقتضيه ، وفي
تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التي دل عليها . ونقص ذلك الوضع عن التمام
يقتضى وجود طبيعة — مع ذلك النوع الذي يقتضيه — ناقصة ، وهو معنى
الكاهن . . فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ، ويقتضى

وجود الكاهن ، إما واحداً أو متعدداً ، فإذا تم الوضع تم وجود النبي بكامله ، وانقضت الأوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة ، فلا يوجد منها شيء بعد (١) .

ونظرة الحسكاه هذه التي يرويها ابن خلدون عنهم في تعليل ظهور السكينة بين يدي النبوة وإضافة ذلك إلى أوضاع فلكية هي على حسب ما كان مقررأ في الفلسفة القديمة عن تحكم الأفلاك في مجرى الأمور ، وقيام كل فلك على حال من أحوال الوجود !

ويمكن أن نجعل هذه النظرة في وضع آخر غير مستند إلى هذا النظام الفلكي . . وهو — كما قلنا من قبل — : أن الأحداث العظيمة . لا بد أن تقوم بين يديها شواهد ودلالات ، هي أشبه بالضوء الذي يحمله الفجر بين يديه ، مؤذناً بطلوع الشمس . . فهذه الرؤى ، والاستطلاعات التي تقع للناس بين يدي الأحداث العظيمة هي من هذا القبيل . . !

وفي القرآن ما يكشف عن شيء من هذا . . فقد ذكر القرآن عن فرعون مصر تلك الرؤيا التي رآها في نومه ، وكانت تحمل في طياتها تصويراً كاملاً لهذا الحدث العظيم الذي ستلده الأيام بعد بضعة سنين ، والذي سيكون له أثره القوي في حياة الشعب الذي يقوم هذا الملك على تدبير أموره .

« وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف . . ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . . . يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ، قالوا أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » (٢) .

ولم تكن هذه الرؤيا أضغاث أحلام ، ولكنها كانت استطلاعاً صادقاً لما سيقع من أحداث . . ولم يكن عند فرعون ، ولا عند كهنته وسحرة من يحسن قراءة هذا الكشف الذي استقبلته نفس فرعون من العالم العلوي ! وكان لا بد

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٩٧ .

(٢) سورة يوسف : ٤٣ ، ٤٤ .

من نفس مشرقة تكشف عن هذه الرموز ، وتقيم منها حروفاً ، وتبنى منها كلمات
وجملاً واضحة مقروءة . . فكان يوسف عليه السلام هو الذى تولى هذا الأمر ،
وأحسن القيام عليه . . وكانت قراءته لهذه الرموز هى ما ذكره القرآن الكريم
عنه فى قوله تعالى : « قال تزرعون سبع سنين دأباً ، فما حصدتم فذروه فى
سنبله . . إلا قليلاً مما تكون . . ثم يأتى من ذلك سبع شداد يأكل ما قدمتم
لهن إلا قليلاً مما تحصنون ، ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه ينفاث الناس ، وفيه
يعمرون » (١) .

وأنت ترى أن حكمة يوسف وتدييره لم تقف به عند تفسير هذه الرؤيا على
وجهها الصحيح وحسب ، بل لأنه جاء بالتدبير الذى ينبغى أن يواجه به
هذا الحدث الذى تكشف عنه الرؤيا . . فلم يقل يوسف للهالك ومستشاريه من
حواله : إنكم ستمعيشون فى خصب ، وفى زرع وحصاد سبع سنين ، ثم يأتى بعد
ذلك سبع سنين من الجلب والقمح . . بل قال هذا الذى ذكره القرآن عنه ، وفيه
السياسة الحكيمة التى ينبغى أن يستقبل بها هذا الحدث العظيم . .

* * *

ونعود إلى الكهانة والكهان ، وما كان لها ولهم من حديث فى شأن البعثة !
لقد حفظ تاريخ السيرة كثيراً من أخبار الكهنة ، من رجال ونساء — عن النبى
المبعوث ، وما يكون له من شأن فى الناس ، وفى أوضاع الحياة !

شق وسطيح :

وكان « شق وسطيح » أشهر كاهنين فى الجزيرة العربية قبيل مبعث النبى ،
وليهما كان المفرع فى كل أمر ذى خطر !
وقد أبى مؤرخو السيرة أن يكون « شق وسطيح » بمنزل عن هذا الحدث
العظيم الذى استيقظ له الوجود كله ! لجمعوا لها مشاركة فى أحداث النبوة ،
وأقوالاً مأثورة فيها !

ولا نستبعد أن يكون إتي وسطيح استطلاعات في موكب النبوة . .
ولكن الذى نقف منه موقف الشك والحذر هو تلك القمص المشيرة التى
يروىها الرواة عنهما فى هذا الأمر، والتى يظهر فيها التلفيق والاصطناع ! وأقرب
شاهد على ذلك ما يروى عن ربيعة بن نصر ملك الين ، وما كان بينه وبين هذين
الكاهنين . . ! فقد حملت هذه القصة صوراً أشبه بالأساطير ، فى تناول الأحداث
وتدبير تحركاتها وانطلاقها على مسرح الحياة !

قال محمد بن إسحق : كان ربيعة بن نصر ملك الين بين ملوك التبابعة . . فرأى
رؤيا هالته ، وفزع بها ، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ، ولا عائناً ، ولا منجماً من
أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إني قد رأيت رؤيا هالتي ، وفزعتم بها . .
فأخبروني بها ، وتأويلها . . قالوا له : اقمصها علينا نخبرك بتأويلها ! قال : إني
إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ! فإنه لا يعرف تأويلها إلا من
عرفها قبل أن أخبر بها .

فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا ، فليبعث إلى وسطيح وشق . .
فإنه ليس أحد أعلم منهما ، فإنهما يخبران به بما سأل .

فبعث إليهما ، فقدم عليه سطيح قبل شق ؛ فقال له : إني رأيت رؤيا هالتي
وفزعتم بها ، فأخبرني بها . فإنك إن قصصتها أصبحت تأويلها : قال : أفعل . .
قال الملك :

« رأيت حممة (١) . . خرجت من ظلمة . . فوقعت بأرض تهمة (٢) . .
فأكلت منها كل ذات جمجمة (٣) » فقال الملك ما أخطأت منها شيئاً يا سطيح ؛ فـ
عندك فى تأويلها ؟ قال :

« أحلف ما بين الحرتين (٤) من حنث . . لتنهطن أرضكم الحبش . »

(١) قطعة نار .

(٢) أى أرض منخفضة .

(٣) يريد الرأس .

(٤) الحرة أرض فيها حجارة سود . . والبيت الحرام واقع بين حرتين . .

فليمسكن ما بين أرين إلى جرش (١) .

فقال الملك : وأبيك يا سطيج .. إن هذا لنا لفائظ موجه .. فتي هو كائن ؟
أفي زمانى أم بعده ؟ قال : لا بل بعده بحين .. أكثر من ستين أو سبعين ..
يمضين من السنين ! ، قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟ قال : لا بل
ينقطع لبضع وسبع من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هارين ، .
قال : ومن إلى ذلك من قطعهم وإخراجهم ؟
قال : يليه إرم ذم يزن . يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهم أحداً
بالين !

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع !

قال : بل ينقطع ؟

قال : من يقطعه ؟

قال : نبي زكى ، يأتيه الوحى من قبل العلى !

قال : ومن هذا النبي ؟

قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك فى قومه
إلى آخر الدهر .

قال : وهل للدهر من آخر ؟

قل : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ،
ويشقى فيه المسيئون

قال : أحق ما تخبرنى ؟

قال : نعم ، والشقى والغسق ، والفاق إذا اتسق ، إن ما أنباتك به لحق !

ثم قدم عليه شق ! فقال له كقوله لسطيج ، وكتمه ما قال سطيج ، لينظر
أيتفقان أم يختلفان ؟

قال شق : نعم .. رأيت حممة .. خرجت من ظلمه ، فوقعت بين روض
وأكمة ، أكلت منها كل ذات نسمة .

(١) أرين ، وجرش : الأولى بلد بالين ، والثانية بخلاف بها .

فلما قال ذلك عرف أنهما قد اتفقا ، وأن قولها واحد ، فقال له الملك :
ما أخطأت يا شق منها شيئا ... فما عندك في تأويلها ؟
فقال : أحلف بما بين الحرتين من إنسان لتنزلن أرضكم السودان ، فليغلبن
على كل طغمة (١) البنان ، وليملكن ما بين أبين إلى نجران !
فقال له الملك : وأبيك يا شق . إن هذا لنا لغاظ موجه ! فتى هو كائن ،
أفي زمانى أم بعده ؟
قال : لا بل بعده بزمان .. ثم يستنقذكم منهم عظيم ذو شأن ، ويذيقكم
أشد الهوان ! .

قال : ومن هذا العظيم الشأن ؟
قال : ليس بدنى لامدنة ... يخرج عليهم من بيت ذى وزن !
قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع !
قال : بل ينقطع برسول مرسل ، يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل
يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل !

قال : وما يوم الفصل ؟
قال : يوم نجزي فيه الولاية ... يدعى فيه من السماء بدعوات ... يسمع
فيها الأحياء والأموات .. ويجمع فيها الناس للبيقات .. يكون فيه لمن اتقى
الفوز الخيرات !

قال : أحق ما تقول ؟
قال : أى ورب السماء والأرض ، وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما أنبأتك
به لحق ما فيه أمض (٢) .

(١) الطغمة : الناعمة الرخصة من النساء .

(٢) الأمض : الشك والباطل .

قال ابن إسحاق : فوقع في نفس ربيعة بن نصر ماقالا ، فجهز بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم ، وكتب إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور ، فاسكنهم في الحيرة .. فمن بقيه ولد ربيعة بن نصر النعمان بن المنذر ، (١) .

هذا دور « شق وسطيح » في أخبار السيرة النبوية ! وهو دور كان لابد لهم أن يؤدوه إذا كان للكهان مكان في أحداث السيرة النبوية وأنبأها .

ويروى « النويرى » في كتابه « نهاية الأرب » ، دورا آخر لكاهنة ، شديها بما كان من « شق وسطيح » .. يقول :

« يروى أن سفيان بن مجاشع بن دارم احتمل ديات دماء كانت من قومه ، فخرج يستعين فيها ، فدفن إلى حى من تميم ، فإذا هم بجته مون إلى كاهنة تقول :

« العزيز من والاه ، والذليل من خالاه (٢) والموفور من مالاه (٣) والموتور من عاداه » .

قال سفيان : من تذكرين .. لله أبوك ؟

فقالت : صاحب حل وحرم ، وهدى وعلم .. وبطش وحلم ، وحرب وسلم ، رأس رموس ، ورائض يسوس ، وماحى بوس (٤) ، وماهد وعوس (٥) ..

قال سفيان : من هو ؟ .. لله أبوك ؟

قالت : نبي مؤيد ، قد آن حين يوجد ، ودنا أوان يولد ، يبعث إلى الأحمر والأسود بكتاب لا يفتند ، اسمه محمد »

قال سفيان : لله أبوك ! أعربى هو أم عجمى ؟

(١) السيرة : لابن هشام جزء أول ص ١٤ - نهاية الأرب ج ١٦ ص ١٥٤

(٢) أى تركه وتخلّى عنه .

(٣) أى مالاه ، واجتمع لآله .

(٤) أى بؤس .

(٥) أى مهد الصعاب .

قالت : أما والسماء ذات العنان ، والشجر ذات الاغنان . إنه لمن معد ابن
عدنان ، فقدك (١) ياسفيان .

فأمسك سفيان عن سؤالها . ثم إن سفيان ولد له غلام فسماه محمداً ، لما
رجاه من أن يكون النبي الموصوف (٢) .

ويروى صاحب السيرة الحلبية خبراً بمجلس رسول الله صلى الله
عليه وسلم . قال :

دروى عن لبيب بن مالك اللبي قال : حضرت عند رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فذكرت الكهانة ، فقلت : بأبي أنت وأمي يا رسول الله نحن
أول من عرف حراسة السماء وزجر الشياطين ، ومنعهم من استراق السمع عند
القفز بالنجوم . وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن لما يقال له : خطر بن مالك ،
وكان شيخنا كبيراً ، قد أتت عليه مئة سنة وثمانون سنة ، وكان أعلم كهاننا ، فقلنا
له : يا خطر .. هل عندك علم من هذه النجوم التي يرى بها إنا قد فزعنا لها ،
ونخفنا سوء عاقبتها ؟

فقال : اتنوفى بسحر (٣) ، أخبركم الخبر ، بخير أم ضرر ، وأمن أم حذر ؟
فأصرفنا عنه يومنا . فلما كان من غد في وجه السحر أتينا ، فإذا هو قائم
على قدميه ، شاخص إلى السماء يمينه . فنادينا : يا خطر .. فأوماً إلينا أن
أمسكوا ، فأمسكنا ... فانقض نجم من السماء عظيم !

فصرخ الكاهن : أصابه إصابه (٤) ، خامره عتابة ، عاجله عذابه ، أحرقه
شهابه ، زايله جوابه ... ياويله ما حاله ، بلبله بلباله ، عاوده خباله ، تقطعت
حباله ، وغيرت أحواله ..

ثم أمسك طويلاً ... ثم قال :

(١) قدك : أى كفاك .

(٢) نهاية الأرب : جزء ١٦ ص ١٦١ .

(٣) أى وقت السحر ، وهو قبيل الفجر .

(٤) أى أصابه دأؤه الذى فيه رداه .

« يا معشر بنى قحطان ، أخبركم بالحق والبيان ، أقسمت بالسكبة ذات الأركان والباد المؤتمن السدان (١) ، قد منع السمع عتاة الجان ، بشاقب بكف ذى المبطان ، من أجل مبعوث عظيم الشأن ، يبعث بالتنزيل والقرآن ، وبألهدى وقال الفرقان ، تبطل به عبادة الأوثان .. »

قال : قلنا يا خطر ، إنك لتذكر أمراً عجباً ، فإذا ترى لقومك ؟ فقال :
أرى لقوى ما أرى لنفسى أن يتبعوا خير بنى الإنس
يرهانه مثل شعاع الشمس يبعث من مكة دار الحمس
بمحكم التنزيل غير اللبس

قلنا : يا خطر ، ومم هو !

فقال : والحياة والعيش ، لأنه لمن قريش ، ما فى حكمه طيش ، ولا فى خلقه هيش ، يكون فى جيش ، وأى جيش ، من آل قحطان وآل ريش (٢) .

قلنا : بين لنا : من أى قريش هو ؟

قال : والبيت ذى الدعائم ، والركن والأحاثم (٣) ، ولأنه لمن نجل هاشم من معشر أكرام ، يبعث بالملاحم ، وقتل كل ظالم .

ثم قال : هذا هو البيان ، أخبرنى به رئيس الجان .

ثم قال : الله أكبر ، جاء الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الخبر .

ثم سكت فأغشى عليه ، فما أفاق إلا بعد ثلاث .. فقال : لا إله إلا الله ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد نطق عن مثل نبوة ، ولأنه ليعت يوم القيامة أمة وحده » . والله أعلم (٤)

(١) أى سدنة البيت الحرام ، جمع سادن .

(٢) آل ريش : قبيلة من الجن

(٣) الأحاثم : جمع الجمع لحوم ، وهى طيور مكة .

(٤) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٠٩ .

معجزات الرسول .. بعد البعثة

وإذا كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة قد صحبها هبل وسبقها ، هذا الدوى العظيم في قلوب الناس وفي عقولهم ، فخلق من هذا الدوى تلك الأنبياء التي جاءت تسبق مولده ، وتذيع في الناس البشائر بقرب مبعث النبي الأمي العربي !

وإذا كانت سيرة النبي قبل مبعثه جعلت لكثير من رواة الأخبار والقصاص سبيلا إلى اصطناع الأخبار وتوليدها . وإلى الاستكثار بغير حساب من كل عجيبة وعجيب ، كما كان ذلك مدخلا مهدأ لأصحاب الأهواء والضلالات يدخلون منه إلى سيرة الرسول بمناقرات الأخبار التي ينطبق ظاهرها بتمجيد الرسول ورفع منزلته ، بينما تطوى في باطنها تشويه سيرته وتعكير مواردها الصافية ، وإلقاء ظلال كثيفة عليها من الشكوك !

نقول — إذا كان هذا في سيرة النبي قبل بعثته فماذا يكون في هذه السيرة العظيمة بعد أن حمل بين يديه الكتاب الكريم ، وسجرت على لسانه كلمات السماء ؟ وماذا يكون في هذا النبي السيرة بعد أن يرى الناس رأي العين أنوار السماء تتصل بالأرض ، ويشهدون رسول السماء يغدو ويروح بآيات الكتاب يلقيها إلى النبي على مرأى ومسمع منهم ، ماذا يكون في هذه السيرة والأمر على هذا الوجه ؟ ونحن هنا من أخبار السيرة بعث البعثة في موقف غير موقفنا من تلك التي تروى عما قبل البعثة ، وعما قبيل المولد !

فإذا كان من الممكن أن يسلم - عقلا - بأن تخلو سيرة الرسول إلى مبعثه من غير إشارات ودلالات تشير إلى النبوة ، وتحدث عنها ، وأن يمسى الناس ويصبحون فإذا هم بين يدي نبوة ، وفي مواجهة نبي فجاءة على غير انتظار - إذا كان من الممكن أن يسلم بهذا ، وهو مالا يمكن أن يسلم به أو يقبل بحال أبداً - فإن إمكان عدم التسليم بهذا في الفترة السابقة من حياة النبي قبل مبعثه يرتفع إلى درجة المستحيل أن تخلو سيرة النبي خلال فترة النبوة من آيات ومعجزات .

تشهد له بأنه ذلك الإنسان الذى اختاره الله واصطفاه . ورفع منزلته على منازل الناس جميعاً . . فى الدنيا والآخرة !

إن النبوة التى يحملها النبي فى كيانه هى طاقة عظيمة من نفحات السماء وبركاتها وهى حيث تكون لا تمتحنى دون أن تترك أثراً من آثار نفحاتها وبركاتها فى كل من يتصل أو ما يتصل بها !

إن أى إنسان من الناس له امتياز فى علم أو فن لا تمتحنى حياته دون أن ترى الحياة أثراً من آثار علمه أو فنه . . وإلا فماذا يدل على أنه عالم أو فنان . ثم ما قيمة علمه ، وما جدوى فنه إن لم تتفتح أكامه ، وتطلع ثمراته ، وتصبح زاداً طيباً على مائدة العلوم والفنون !

فما بالك بالنبوة والنبي . وما ظنك بهذا الثمر الذى يطلع من شجرة النبوة . إنه لثمر طيب موفور ، لن تعرفه الحياة إلا فى عهود النبوات ، ولن تجد ثماره إلا فى حياة الأنبياء !

فإذا كان الحديث فى نبوة النبي محمد . فلك أن تجمع ما تفرق فى النبوات كلها من خير ، وما كان فى النبيين جميعاً من كمال ، ثم تصنيف كل هذا الخير ، وكل هذا الكمال إلى محمد ، وإلى نبوة محمد ، ثم لا يدخل عليك ظن أنك قد بلغت به ونبوته ما هو له من كمال ، وما فى نبوته من خير . . فإن كمال محمد فوق كل كمال ، وإن الخير الذى حملته نبوته أكثر وأعظم من كل خير .

• • •

لقد كان هناك إذن معطيات كثيرة مندققة تفيض بها يد محمد كل حين بإذن ربها . . فحيث كان النبي كانت البركة ، وكان الخير ، وكان لأصحابه ما استطاعوا أن يحملوا من هذا الخير ، وما شاءوا أن يصيبوا من هذه البركة .

ونحن ننظر إلى ما وقع من معجزات النبي فى فترة النبوة على أنها أمور لا تعدو أن تكون نفحة من نفحات النبوة ، وشذى طيباً من شذاها العطر ، وأنها ليست من باب المعجزات التى تحجى للتحدى وتعجز الناس عن الإتيان بمثلها ، وليهتروا للنبي بنبوته .

فأولاً : إن جميع هذه المعجزات التي ذكرها مؤرخو السيرة — ماصح منها وما لم يصح — لم يقل واحد من هؤلاء المؤرخين عن أية معجزة منها أنها كانت موضع التحدى ، وإعلان الناس بها ، ومطالبتهم بالإتيان بمثلها ، أو الإذعان لها ؛ وذلك هو شأن معجزات الأنبياء ، وهو الشأن في معجزة النبي الخالدة ، التي قامت منذ قيامها على تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثلها .. وتلك هي القرآن ، معجزة الرسل ، ولا معجزة أخرى غيره ، وفي هذه المعجزة يقول الله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً (١) » .. ويقول سبحانه : « أم يقولون افتراه .. قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين .. (٢) » بل ذهب في التحدى إلى أن يكون بسورة واحدة ، فقال تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين .. فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين (٣) » .

وثانياً : لم يقع بين النبي وبين الكفار من قريش أو غيرهم حديث حول هذه المعجزات ، فلم يكن من النبي إلتماس لهم لإيها ، ولم يكن من الكفار تكذيب لها أو امتراء فيها .. ولو أن هذه « المعجزات » كانت ذات طابع يراد به التحدى لذكرها القرآن ، أو ذكر بعضها ، أو أشار إلى موقف من مواقف الكافرين حيالها ، أو حيال واحدة منها !!

ولكن الذي ذكره القرآن في هذا المقام هو القرآن الكريم وحده . وما دار حوله من تكذيب وتلبيس !

فإنه حين وثقت قريش ومن معها من المكابرين المعاندين — حاجزة أمام هذا التحدى عن أن تأتى بسورة أو بعض سورة ، ذهب بها المناد ، ولج بها الكفر

(١) سورة الإسراء آية ٨٨ .

(٢) سورة هود آية ١٣ .

٣) سورة البقرة آية ٢٣ ، ٢٤ .

أن تقول في القرآن أقوالاً متخاذة منها فتة ، تستر بها ضعفها ، وتمسح بها العرق المتصيب من خزيمها . . . وكان من حصيلة هذه الأقوال المنكرة ما ذكره القرآن عنهم في قوله تعالى : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا فلك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون . . . فقد جاءوا ظلماً وزوراً . . . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً » (١) . . . وفي قوله تعالى « إنما يعلمه بشر » . . . لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » (٢) . . . ويقول سبحانه عن الوليد ابن المغيرة ، وقد استمع إلى رسول الله وهو يتلو عليه من آيات الكتاب ما ملأ قلبه عجباً ودهشاً ، وأبى عليه كبره وعناده أن يلقي إليه السلم وينقاد . . . يقول سبحانه وتعالى : « إنه فكر وقدر . . . فقتل . . . كيف قتل ! ثم قتل . . . كيف قتل ! ثم نظر ، ثم عيس ويسر ، ثم أدبر واستكبر . . . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . . . إن هذا إلا قول البشر » (٣) .

وقد رد القرآن مفترياتهم هذه في شأن القرآن ، وتخرصاتهم فيه . . . فقال تعالى : « إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين . . . » (٤) وقال سبحانه : « وما هو بقول شاعر . . . قليلاً ما يؤمنون ، ولا بقول كاهن . . . قليلاً ما تذكرون . . . تنزيل من رب العالمين » (٥) وقال جل شأنه : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » (٦) .

وهكذا تجيء آيات الكتاب تدافع عن معجزة الرسول ، وتدفع الكافرين المتقولين بالكذب والبهتان . . . ذلك على حين لم تكن في القرآن كله آية تكشف عن موقف من مواقف هؤلاء الكافرين لإزاء خارقة أخرى ، مما جرى على يد الرسول من خوارق !

وعلى هذا ، فإن الذي نذكره من الأخبار التي تحدث عن هذه الخوارق إنما نذكره لأعلى أنه من معجزات الرسول ، ولا أنه كان من مقصد الرسول أن يجعل منه معجزة ، يؤمن عليها الناس ، وإنما كل ما ذكر في هذا الباب مما نذكره هنا

(٣) سورة النحل آية ١٣ .

(٤) سورة الواقعة ٧٧ — ٨٠ .

(٦) سورة يونس آية ٣٧ .

(١) سورة الفرقان آية ٥ .

(٢) سورة المدثر آية ١٨ — ٢٠ .

(٥) سورة الحاقة آية ٤١ ، ٤٣ .

أولا نذكره هو من نفحات النبوة ، ومن شذاها العطر الذى لا يتفصل عنها بحال .. وكما أن المسك ينم عن طيبه حيث كان ، فكذلك طيب النبوة ، وهو فوق كل طيب !

وها نحن أولا نذكر بعض ما روى من هذه الخوارق :

١ - نبع الماء :

الماء عزيز نادر فى صحراء العرب ، وكثيراً ما يمرض اساكفى الصحراء حالات يطلبون فيها الماء فلا يجدونه ، وكثيراً ما يهلك بعضهم عطشاً ، وخاصة إذا نفذ الزاد فى السفر ! حيث يفرق المسافرون فى متاهات الصحراء !

فإذا التمس الناس الماء حين الحاجة الداعية إليه ، وحين اليأس المستحكم منه كان لشورهم عليه ، وإسعافهم به هزة رضى وحمد ، وكانت الجهة التى يجيء منها هذا الغائب العزيز بموضع الحب والإعزاز منهم !

والرسول الكريم حين يكون فى صحابته ، وحين تطرقهم حال من تلك الأحوال التى تشد فيها حاجتهم إلى الماء ، تتعلق آمالهم برسول الله ، وتفزع نفوسهم إليه ، كما يفزع الصغار إلى آبائهم عند الحاجة ، وحين الشدة والبأس ؟ وقد أكرم الله نبيه ، وأكرم الناس به .. فجعله نوراً يهتدى به الضالون ، وحمى يفزع إليه الخائفون ، وغيثاً يذث به الملهوفون !

عن ابن مسعود قال : « بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس معنا ماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اطلبوا من معه فضل ماء ، فأتى بماء فصبه فى إناء ، ثم وضع كفه فيه ، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم » (١) .

وعن سالم بن أبي الجعد عن جابر رضى الله عنه قال : « عطش الناس يوم الحديبية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة (٢) ، فتوضأ منها ، وأقبل الناس نحوه ، وقالوا ليس عندنا ماء إلا ما فى ركوتك ، فوضع النبي صلى الله

(١) الشفاء جزء ١ ص ٢٤١ .

(٢) الركوة : إناء من جلد ، يشرب فيه الماء أشبه بالقربة .

عليه وسلم يده في الركوة فجعل الماء يتفجر من بين أصابعه كأشال اليمون .. قيل
كم كنتم : قال : لو كنا مائة ألف لكنافا .. كنا خمس عشرة مائة (١)

ويقول القاضي عياض : « وما يشبه هذا من معجزاته ، تفجير الماء ببركته ،
وابتهائه بمسه ودعوته ، فيما روى مالك في الموطأ عن معاذ بن جبل ، في قصة
غزوة تبوك ، وأنهم وردوا العين وهي تبض بشيء من ماء مثل الشراك ،
فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء ، ثم غسل رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيه وجهه ويديه وأعادها فيها ، فجرت بماء كثير فاستقى الناس .. قال
في حديث ابن اسحق فانخرق من الماء ماله حس كحس الصراقة .. ثم قال : - أي
الرسول - يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جنانا ، (٢)

ولأنريد أن نذكر هنا كل ما نقل في هذا الباب ، فهو كثير . وحادثة واحدة
تكني في الدلالة على ما للرسول عند الله من كرامة وفضل وإحسان ..

ووقوع مثل هذه الآيات من الرسول أمر طبيعي — كما قلنا — لا ينكره
عقل ، ولا يأباه عاقل .. وشواهد الحال كلها تشهد بوقوع هذه الآيات إذ
كانت على ملا من الناس ، وفي مواجهة جموع غفيرة ، ليس فيها واحد في غفلة
عن الوقوف عليها ، والمشاركة فيها ، إذ كانت حاجته إل الماء ولهمته عليه هي
المسئولية على كيانه في تلك الحال ..

يقول القاضي عياض :

« ومثل هذا في هذه المواطن الخفلة ، والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة
إلى المحدث به ، لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه ، لما جبلت عليه النفوس
من ذلك ، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل .. فهو لاء قد روهوا هذا ، وأشاعوه
ولسبوا حمنوز الجماء الغفير له ، ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم
أنهم فعلوه وشاهدوه ، فصار كتحديق جميعهم له » .

(١) الشفا جزء ١ ص ٢٤٢ .

(٢) الشفا جزء ١ ص ٢٤٣ .

(٣) الشفا جزء ١ ص ٢٤٣ .

يريد أن يقول إن المحدث يمثل هذه الأخبار التي شهدها أعداد كثيرة من الناس لا يمكن أن يقبل خبره إلا إذا كان صادقاً ، وإلا وجد في هذا العدد الكثير من يكذبه ويرد عليه خبره ، إلا كان مشاركاً له في الكذب ومواطئته عليه بسكوته عن تكذيبه ، وهذا لا يمكن أن يكون من جمع كثير بحال أبداً ، وإن صح أن يكون من آحاد الناس ، فلن يصح أن يكون من المثبات والألوف منهم .

٣ — تكثير الطعام :

وشأن الطعام في البادية شأن الماء .. قليل دائماً ، ومفقود أحياناً .. وكان للرسول مع صحابته مواقف يتندر فيها الطعام أو يقل ، فتكون يد الرسول المباركة هي التي تمدهم بما يشبع ويفي !

عن سلبة بن الأكوع قال : « أصابت الناس مع النبي صلى الله عليه وسلم مخضعة في بعض منازلهم ، فدعا ببقية الأزواد (١) ، فجاء الرجل بالحشية (٢) ، من الطعام وفوق ذلك ، وأعلام الذي أتى بالصاع من التمر .. فجعله على قطع .. قال سلبة فخرته - أي قدرته - كربيضة العنز (٣) ، ثم دعا الناس بأوعيتهم ، فما بقي في الجيش وعاء إلا ملؤه ، وبقي منه » (٤) .

وعن علي رضي الله عنه قال : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبدالمطلب وكانوا أربعين .. منهم قوم يأكلون الجذعة (٥) ، ويشربون الفرق (٦) ، فصنع لهم مداً من طعام ، فأكلوا حتى شبعوا ، وبقي كما هو ، ثم دعا بعس (٧) فشرّبوا حتى رووا ، وبقي كأنه لم يشرب منه » .

(١) جمع زاد وهو ما يتزود به المسافر .

(٢) الحشية : الغرفة باليد .

(٣) أي في حميم العنز الرابضة .

(٤) الشفا جزء ١ ص ٢٤٨ .

(٥) الجذعة الشاة بنت سفين ، ومن البقر بنت ثلاث ومن الإبل بنت خمس .

(٦) القرق : مكياك يسع ستة عشر رطلاً . (٧) العس : القدح الكبير يشرب فيه .

ويروى عن جابر رضى الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم أطعم يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير ، وعناق^(١) ، وقال جابر : أقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا ..

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم ، حين ابتنى بزينب أمره أن يدعولة قوما سماهم ، وكل من لقيت .. حتى أتت البيت والحجرة ، وقدم نورا^(٢) فيه قدر مد من تمر جعل حيساً^(٣) ، فوضعه قدماه ، وغمس ثلاث أصابعه ، وجعل القوم يتغذون ويخرجون ، وبقي الثور نحواً ، ما كان ، وكان القوم أحداً أو اثنين وسبعين ..

والاخبار كثيرة هنا في هذا الباب ، وواحد منها له دلالة العدد الكثير .

نطق الحيوان ، والنبات ، والجماد :

وإذا كان لنبع الماء وتكثير الطعام عند الحاجة لإيهما ، وتعلق النفوس بهما في ساعة العسرة ، وعند الشدة - ما يبرر صنع معجزة لها يد النبي ، يتحقق بها أمل أصحابه فيه - ونظرتهم إليه ، فهل نجد لنطق بعض الحيوان أو النبات أو الجماد بين يدي الرسول حكمة ، كذلك التي نجدها في نبع الماء وتكثير الطعام بين يديه .

لاشك أن فرقاً كبيراً بين الحالين ، وأنتا إذا استمطعنا في الحالة الأولى أن نخرج هذه الخوارق من باب المعجزات ، وأن نضيفها إلى ما عند الرسول من نقحات وبركات ، حيث تسلم بها نفوس ، وتستمسك بها حياة كثير من الناس - فإننا لا نستطيع أن نجد للحالة الثانية ، من نطق الحيوان وما إليه ، وجهاً تتجه إليه إلا المعجزة ، التي تقوم شاهداً على صدق الرسول ، وصدق ما جاء به ، ودعا إليه .
ويمكن أن نعرض هنا بعض هذه الحالات ، ثم ننظر فيها من وجهها الإعجازي .
إن كان لها وجه تتجه به إلى الإعجاز ١٠ .

(١) العناق : الأنثى من أولاد البقر .

(٢) النور : إزاء يشرب فيه .

(٣) الحيس : التمر يخلط بالسمن .

٣ — شجرة تتكلم :

عن ابن عمر قال : « كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر . فذنا منه أعرابي ، فقال : يا أعرابي .. أين تريد ؟ قال إلى أملى ؟ قال هل لك إلى خير ، قال : وما هو ؟ قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله » . قال : من يشهد لك على ما تقول : قال : هذه الشجرة السمرة (١) — وهي بشاطئ الوادي — فأقبلت تخد الأرض حتى قامت بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فاستشهدها ثلاثاً ، فشهدت أنه كما قال .. ثم رجعت إلى مكانها »

وواضح أن هذه معجزة مستكملة كل ما للمعجزة من صفات . فهذا النبي الله يدعو إلى الإيمان بالله وبالرسول .. ويأبى المدعو أن يؤمن للرسول إلا إذا قدم بين يديه شاهداً يشهد له ، وهذا الشاهد كان ممكناً أن يكون في هذا الجمع الذي مع الرسول في سفره هذا ، من المؤمنين فكلهم يشهد أنه رسول الله .. ولكن الرجل يريد شاهداً لا يريد : ولا يحوم حوله مظنة الآلة أو متابعة عن غاية .. ولا يكون ذلك إلا ببرهان ساطع يعجز الناس عن الوقوف له ، وهو ما يجري على يد الرسل من معجزات .. فكان أن دعا الرسول تلك الشجرة القائمة على شاطئ الوادي لتشهد أنه رسول الله ، فأجابت مسرعة ، ونطقت بلسان مبين : أنه رسول الله !

ولم يجد الأعرابي إلا أنه أمام نبي ، سخر الله له ما لم يسخر لأحد من الناس فأمن ؛ إيماناً ملا قلبه طمأنينة ويقيناً !

إننا هنا أمام معجزة لا شك فيها ! معجزة وقفت أمام هذا التحدي ؛ عالية متشاحنة .. تنساقط أمامها كل حيلة وحول للناس جميعاً ، أفراداً وجماعات ! ولكن لنا أن نسأل .. أتقوم معجزة من أجل إنسان فرد ! وأي إنسان هذا ، أعرابي من عرض الطريق .. تأتاه في الصحراء .. المتمثلة النبي التقاطاً عابراً !

فما كان هذا الأعرابي ملكاً يؤمن بإيمانه أمة من الأمم ! ولم يسكن زعيم قبيلة تتابعه قبيلته على إيمانه .. وإنما كان — كما قلنا — إنساناً من الناس .. فهل تقوم لأجل إنسان فرد من عامة الناس معجزة ؟

(١) السمرة : بضم الميم .. شجرة الطلح ، وهو الموز ، أو الشجرة الضخمة .

والنظرة إلى هذا الأعرابي بهذا التقدير نظرة خاطئة من وجوه :

فأولاً : هو إنسان قبل كل شيء .. له وجوده . وله حياته التي تدعو
الرسالات السماوية إلى استنقاذها من الهلاك .. فهو من هذه الجهة يتساوى مع
أى ملك وأى زعيم .. !

ثانياً : لانتظر الرسالات السماوية إلى الناس نظرة عددية مادية .. تجعل لذوى
الغنى ، والجاه ، والسلطان . ما ليس للفقير ، الضعيف ، المهنى بل إن الناس في
شريعة السماء إنما يوزنون بميزان الروح ، وما فيه من استعداد لتلقى الخير
والاستفاح به .. ولقد عوتب النبي الكريم من ربه في شأن ابن أم مكتوم ، الأعمى ،
الفقير . وقد استكثر من الحديث مع الرسول في التفتحه في الدين ، والرسول في
مواجهة جماعة من زعماء العرب ، جاءوا يجادلونه ، وهو يطمع في أن يسلبوا
له ، ويستجيبيوا لدعوته ، فأعطى ابن أم مكتوم ظهره ، وشغل عنه بهؤلاء القوم ..
فكان هذا العتاب الرقيق الكريم : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى .. وما يدريك
لعله يزكى ، أو يذكر فتفتحه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى ! وما عليك
ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى . فأنت عنه تلهى ! كلا .. إنها
تذكرة .. » (١)

فهذا الأعرابي قد يوزن بالآلاف من الناس في صفاء من روحه ، وفي تقبله
للخير ، وانتفاعه به ، وإن لم يكن في مرأى العين ذا وجاهة وسلطان !

وثالثاً : هذه المعجزة ، وإن تكن قد جاءت من أجل هذا الأعرابي ، فإنها
لأشك قد كان لها أثرها القوي فيمن شهدها من صحابة رسول الله ، فزادتهم
إيماناً على إيمانهم . وقيناً فوق يقينهم .. شأنها في هذا شأن المعجزات
أو الخوارق التي جاءت لغير التحدى ، ولغير الدعوة إلى الإيمان .. في تكثير
الظهام ، ونزع الماء !

ورابعاً : اعلمك تلحظ في هذا الخبر المروى عن ابن عمر قوله : « فدنا منه
أعرابي ، فإن دنو الأعرابي من النبي يستشف منه أن هذا الأعرابي قد استجاب

لداع خفي في كيانه ، يدعو به الى مداناة النبي ليتشبع منه أرواح الخير ، كما يتنسم طير الصحراء مواقع الماء ، وقد كشف الرسول ببصيرته المشرقة ما في كيان هذا الأعرابي من المشاعر التي تتمدى إلى الخير ، فدعاه إليه ، وأضاء له الطريق بتلك العجزة الباهرة .

٤ — معجزة النبي للنبي :

والنبي إنسان قبل كل شيء . . . يعترض نفسه أحياناً ما يعترض النفوس البشرية ، من ضيق ، ومن ضعف !

وأعباء الرسالة أعباء ثقال ، لا يستقل بحملها غير الأنبياء ، ولا يجرى بها إلى غايتها إلا أولو العزم منهم .

وقد حمل الرسول الكريم أعباء الرسالة العظمى ، وواجه بها الناس جميعاً ، وكانت جولاته الأولى مع أقرب الناس إليه وآثرهم عنده ، فكانوا أشد الناس عداوة له . وخلافاً عليه . . . !

ولهذا كانت أمداد السماء لا تنقطع عنه ، لتشد من عزمه ، وتثبت من أقدامه ، وتمسك به قوياً راسخاً أمام هذه العواصف المزلزلة العاتية .

فإذا تجمعت في نفسه سحب الأسى واليأس . . . هبت عليه نسمة رقيقة رفيقة من السماء ، تزيج هذه السحب ، وتكشف عن نفسه الهم ، والحزن ، واليأس . . . قال تعالى « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » (١) . . . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات (٢) . . . « قد نعلم إنه ليحزنك الذي تقولون ، فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » (٣) . . . وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك (٤) . . . « ولولا أن ثبثناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » (٥) . . . « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك ، أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز ، أو جاء معه ملك » .

- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| (١) سورة الأحقاف آية ٣٥ | (٢) سورة فاطر آية ٨ |
| (٢) سورة الأنعام آية ٣٣ | (٤) سورة الفرقان آية ٢٢ |
| (٥) سورة الإسراء آية ٨٤ | (٦) سورة هود آية ١٢ |

وهكذا تنزل آيات الرحمن على رسول الله ، فتسكب في نفسه من مشاعر السكينة والاطمئنان ، ما يحلى عنه غواشي القلق والضيق !

وبين الطمأنينة والقلق ، والسكينة والضيق يجد الرسول نفسه في حاجة إلى الكشف على سلامة النبوة في كيانه ، وعلى مدى فاعليتها عنده ، وهل كان لهذه الحالات العارضة التي عرضت لها ما يؤثر على مكانته كنبى يحمل رسالة السماء ، ويتولى قيادة الإنسانية إلى الله ، وهدايتها إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم ، أم أنه لا يزال النبى المصطفى ، والرسول المجتنبى ، وأن ما بينه وبين السماء لن تقطعه هذه العوارض ، ولن تحجبه تلك القاطع الممزقة من السحب .

ويمد الرسول بصره ، ويتجه بقلبه إلى السماء يطلب لنفسه آية من ربه . يرى فيها دلائل نبوته ، وشواهد صلته بالسماء ، ويستوثق أنه على الحق المبين . وتجيء الآية ، واضحة بيّنة ، يراها الرسول رأى العين فتقر عينه ، ويطمئن قلبه ، وتشيع في كيانه مشاعر الفجأة والرضا .

عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى شجرة من وراء الوادى .. ثم قال : اللهم أرنى آية لا أبالي من كذبنى بعدها .. ثم دعا الشجرة فأنت حتى وقفت بين يديه .. ثم قال : ارجعى .. فرجعت ، !

وعن الحسن أنه صلى الله عليه وسلم شكّا إلى ربه من قومه ، وأنهم يخوفونه ، وسأله آية يعلم بها ألا مخافة عليه ، فأوحى إليه ربه : أن أت وادى - كذا ، فيه شجرة ، فادع غصناً منها يأتك ، فتفعل ، فجاء الغصن يخط الأرض خطاً ، حتى اتصب بين يديه ، فخبسه ماشاء الله ، ثم قال له : ارجع كما جئت ، فرجع ، فقال : يارب .. علمت ألا مخافة على ، (١) .

إنك على الحق المبين

وليس بمستغرب أن تجيش في نفس النبى مثل هذه الخواطر ، وأن يستمد العون من السماء في تجليتها وكشفها .. وقد ذكر القرآن الكريم عن زكريا عليه

السلام ، وقد جاءه نداء الحق باستجابة دعائه ، حين طلب من ربه أن يهب له غلاماً — ذكر القرآن عن زكريا أنه طلب من ربه آية يستوثق بها من أن الصوت الذى سمعه هو صوت الله ، وأنه ليس قذفة شيطان ، أو هجسة خاطر متلف إلى الولد .. ولم تضن عليه السماء بما طلب ، فجاءته الآية كاشفة مجلية .. استمع إلى قوله تعالى فى هذا :

« هنالك دعا زكريا ربه .. قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة ، وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبدئك بهيى ، مصدقا بكلمة من الله ، وسيداً ، وحضوراً ، ونبياً من الصالحين .. قال : رب أنى يكون لى غلام ، وقد بلغنى الكبر ، وامرأتى عاقرة .. قال : كذلك الله يفعل ما يشاء ! قال رب اجعل لى آية .. قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً ، وسيجى بالعشى والإيكار (١) .

فكانت آية زكريا أن احتبس لسانه ثلاثة أيام لم يستطع النطق فيها بكلمة ! فكان هذا الاحتباس آية ، كما كان صوماً وقرباناً لله ، ورزقاً ساقه الله إلى زكريا مع ماساق من فضل البشرى بالولد على الكبر !

فإذا طلب النبى الكريم آية لنفسه ، يستوثق بها لحال من أحواله — وخاصة إذا كان هذا الحال متصلاً بالدعوة وبالرسالة — فإن ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على ما عند النبى من حرص على هذا الفضل الذى آتاه الله إياه وأكرمه به ، من أن يلم به شيء يفصله أو يغير من طبيعته ، أو يذهب به !

* * *

ولأنريد أن نعيد القول هنا فيما يدور فى هذه المعجزات من جدل ، حول وقوعها أو عدم وقوعها على الوجه الذى رويت به ، وعلى تلك الكثرة الكثيرة التى تكاد تجعل حياة النبى ، وأعماله كلها خوارق ومعجزات . وحسبنا فى هذا أن نقرر — كما قررنا من قبل أيضاً — أن النبى مشتمل على طاقات روحية

لا حدود لها ، وأن اتصاله بهذا الوجود ، واتصال الوجود به على غير ما ألف الناس وعرفوا !

فإذا تسكلم الطير ، وسبح الحجر ، ومشى الشجر ، وشكا البعير ، وحن الجذع — بين يدي الرسول — فذلك مما لا ينكر أو يدفع . ونحن نرى كثيراً من الناس لهم قدرة روجيه على قراءة الأفكار ، وعلى الإيحاء والتأثير في أنفسهم ، أو في غيرهم ، من غير أن يكون لهم صلة خاصة بالسماء كصلة الرسل والأنبياء ..

• • •

ونعود فنقرر مرة أخرى أن كل هذه المعجزات والخوارق التي رويت عن نبي الإسلام لم تكن — إن كانت — إلا إشارات من جذوة النبوة ، وإلا شعاعات من شمسها المشرقة .. أما معجزة النبي الكبرى وآيته الخالدة فهي القرآن الكريم ، كما سنبين ذلك فيما بعد إن شاء الله .

بقيت لنا وقفة هنا مع معجزتين من تلك المعجزات ، ورد لهما ذكر في القرآن دون غيرهما ما روى في سيرة الرسول من معجزات .. وهما انشقاق القمر ، والإسراء !

انشقاق القمر :

في القرآن سورة سميت « القمر » ، وقد بدئ بهذه الآيات : اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم .. وكل أمر مستقر .. ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة ، فما تغنى بالذر ، (١) .

ويكاد المفسرون يجمعون على أن انشقاق القمر الذي ذكر في الآية الأولى من هذه السورة قد وقع فعلاً ، كجزء شاهدة على صدق النبي ، وهو في مكة ، قبل هجرته إلى المدينة .

يقول القاضى عياض في تفسير هذه الآية : وأخبر الله تعالى بوقوع انشقاق القمر

بلفظ الماغنى ، وإعراض الكفرة عن آياته - أى ما فى انشقاقه من آيات - وأجمع
المفسرون وأهل السنة على وقوعه ، (١) .

وروى البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : انشق القمر على عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشهدوا ، (٢) .

وروى عن أنس قال : سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسم
آية . فأرسم انشقاق القمر فرقتين ، حتى رأوا حراء بينهما ، (٣) .

وروى البخارى عن عبد الله بن مسعود - من رواية مسروق عنه - قال :
انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت قرىءة هذا سحر ابن
أبى كبشة - يقصدون النبي - فقالوا انظروا ما يأتكم به السفار ، فإن سجدا
لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . . قال فجاء السفار فقالوا ذلك .

وروى ابن جرير عن ابن عباس فى قوله تعالى : واقتربت الساعة وانشق
القمر ، وإن يروا آية يرضوا ويقولوا سحر مستمر ، (٤) قال : قد مضى ذلك ،
كان قبل الهجرة ، انشق القمر حتى رأوا شقيه . .

ويعلق القاضى عياض على هذه الأحاديث المروية فى انشقاق القمر فيقول :
وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة . . والآية مصرحة . . ولا يلتفت إلى
اعتراض مخذول بأن لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض ، إذ هو شئ ظاهر
لجميعهم !

ويدفع القاضى عياض هذا الاعتراض بقوله : لم ينقل إلينا عن أهل الأرض
أنهم رصدوه تلك الليلة فلم يروه انشق ، ولو نقل إلينا عن لا يجوز تماثلهم على
الكذب لكثرتهم لما كانت علينا به حجة ، إذ ليس القمر فى حد واحد لجميع أهل

(١) الشفا جزء ١٠ ص ٢٣٧ .

(٢) رواء البخارى ومسلم .

(٣) رواء مسلم .

(٤) سورة القمر آية ١ ، ٢ .

الأرض ، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين ، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابلهم من أقطار الأرض ، أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال ، ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض ، وفي بعضها جزئية وفي بعضها كلية ، وفي بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلها .. ذلك تقدير العزيز العليم ..

ويستطرد فيقول : وآية القمر كانت ليلاً ، والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون ، وإيجاف الأبواب ، وقطع النصرف ، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئاً إلا من رصد ذلك واهتبل به ، ولذلك ما يكون الكسوف القمري كثيراً في البلاد وأكثرهم لا يعلم به حتى يخبروا ، وكثيراً ما يحدث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار ونجوم طوالع عظام تظهر في الأحيان بالليل في السماء ، ولا علم عند أحد منها (١) .

هذا ملخص ما قيل في تفسير الآية : « اقتربت الساعة ، وانشق القمر » .. وقد رأينا أن القاضي عياض يؤكد لإجماع المفسرين وأهل السنة - أي رواية الحديث - على وقوع انشقاق القمر للنبي ، كعجزة دالة على نبوته ؟

ويتخذ القاضي عياض من الإخبار عن انشقاق القمر بلفظ الماضي الماضي « وانشق القمر » دليلاً على أن الانشقاق حدث فعلاً ، وأن الآية نزات مخبرة عنه ..

ونحن لا نرى في الإخبار عن انشقاق القمر بلفظ الماضي قرينة قاطعة على وقوعه ، فبما يدل الفعل الماضي على حدوث الفعل فعلاً ، ويخبر عن وقوعه ، في الماضي ، كذلك يعبر بالفعل الماضي عن الأمر الذي سيقع مستقبلاً ، وذلك لغرض بلاغي ، وهو أن هذا الفعل يحقق الوقوع لاحتماله ، وأن وقوعه في المستقبل أشبه بوقوعه في الماضي ، فإن لم يكن وقع ، فكأنه قد وقع ، لتحقيق وقوعه .. والقرآن الكريم يستخدم هذا الأسلوب كثيراً في الأمور ذات الخطر التي

يقف كثير من الناس إزاءها موقف الشك والارتباب . . فلا يلتقاهم القرآن اللقاء الذى ينتظرونه فى شأن هذا الأمر الخطير ، ويجعل لقاءهم معه معلقاً بالمستقبل بل يجذبهم إليه حذبا قويا ، فإذا هم فى مواجهة هذا الأمر وجها لوجه !

يقول سبحانه وتعالى فى شأن البعث : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات والأرض » . (١) ويقول سبحانه فى يوم القيامة : « وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء » ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووفيت كل نفس ما عملت . . (٢) . . وأكثر ما ورد فى القرآن من صور البعث والجزاء والحساب قد جاء فى صورة الماضى ، الذى وقع وعاش فى الناس ، وعاش الناس فيه !

ولمذن فليس فى التعبير عن انشقاق القمر بالفعل الماضى دليل على أنه وقع ، بل ربما كان هذا التعبير بالماضى داعية إلى تأكيد وقوعه فى المستقبل ، وقياسه على كثير من الأفعال التى جاءت على تلك الصورة . . فإن انشقاق القمر حدث عظيم ، والناس فى تصور انشقاقه بين مؤمن ومكذب وشاك . . فكان التعبير عنه بالفعل الماضى أنسب شئ لتلك الحال ، بوضعه فى صورة الواقع المحقق !

ثم من ناحية أخرى نجد القرآن الكريم يحدث عن أحداث القيامة فيذكر صوراً عما يترى الوجود من تغيرات فى هذا اليوم العظيم . . « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » (٣) . . فى هذا اليوم تتغير معالم الأشياء وتتحول أحوالها .

وتذكر القرآن الكريم فى هذا ، انشقاق السماء ، « إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت » . (٤) . . كما تحدث عن خسوف القمر ، واجتماع الشمس والقمر فى فلك واحد . . « فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ أين المفر » (٥) كذلك تحدث عن انتشار السكواكب ،

(٢) سورة الزمر آية ٨ .

(١) سورة الزمر آية ٦٨ .

(٤) سورة الانشقاق آية ١٠٤ .

(٣) سورة ابراهيم آية ٤٩ .

(٥) سورة القيامة آية ٨-١٠ .

وتشقق السماء ، وتفجر البحار . . . إذا السماء انقطرت وإذا النواكب انتثرت
وإذا البحار فجرت . . . (١)

كما يذكر ما يقع للشمس والنجوم ، والجبال ، . . . إذا الشمس كورت
وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت . . . (٢)

فالشقاق القمر ظاهرة من الظواهر التي تعترى الوجود يوم القيامة ، وكما
تتكور الشمس في هذا اليوم كذلك ينشق القمر ، وتتناثر النجوم ، وتسير الجبال
وتفجر البحار !

وقد جاء انشقاق القمر في الآية السكرية مصاحباً لاقترب الساعة : ، اقتربت
الساعة ، وانشق القمر ، . . . وهذه المصاحبة تقوى الرأي الذي نذهب إليه ، من
أن انشقاق القمر سيقع حين تقترب الساعة ، وأن اقترابها هذا سيؤذن بتغيرات
كثيرة في مظاهر الوجود السماوى والارضى ، كما جاء ذلك في كثير من آيات
الكتاب ، التي أشرنا إلى بعضها من قبل .

وقد تكون هذه الأحاديث المروية - إن صدقت - تفسيراً للآية السكرية ،
في ظل كسوف وقع للقمر في عهد النبي ، وربما كان كسوفاً كلياً ، رأى فيه الناس
يوماً ظاهرة عجيبة ، فأضافها المؤمنون إلى معجزات الرسول ، وصورها كل
إنسان حسب إحساسه بها !

وما يعضد هذا الاتجاه عندنا ما يروى عن ابن عباس ، في إحدى الروايات
عنه في هذا الأمر - أن القمر كسف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فقالوا : سحر القمر !

فلا بن عباس هنا - فيما روى عنه - قولان . . . قول بالانشقاق القمر ،
وقول بكسوفه .

والقول الأول يرويه ابن عتبة ، وابن أبي طلحة عن ابن عباس ، والقول
الثاني يرويه عنه عكرمة (٣) .

(١) سورة الانفطار آية ٣-١ . (٢) سورة التكويز آية ١-٣ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير - سورة القمر - الجزء الرابع .

وليس بمستبعد أن يكون القولان لابن عباس . وأن كسوف القمر
وإنشقاقه بمعنى واحد !

فإذا كان القمر قد كسف على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكسوف
القمر ظاهرة فلكية تحدث كثيراً ، وقل من الناس من لم يرها في عمره مرات
ذوات عدد - إذا كان ذلك قد حدث قبل هجرة الرسول ، وبعد نزول الآية ،
فإنه من الطبيعي أن يتخذ المؤمنون - إذ ذاك . من هذه الظاهرة آية
مؤيدة للرسول !

وأمر آخر . . كسف القمر على عهد الرسول بالمدينة . يوم مات إبراهيم ،
فقال الناس . . كسف القمر لموت إبراهيم ، فدعا الرسول الناس إليه ثم خطبهم
فقال : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله . لا يخسفان لموت أحد ، ولا لحياته ،
فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله ، وإلى الصلاة . »

ولترك الرسول هذا الأمر يمحى من غير أن ينبه له ، ويكشف عنه
لكان للناس فيه أقوال ومنقولات .

قصة الإسراء :

وفي القرآن الكريم سورة سميت « الإسراء » وفيها حديث هذه الرحلة
العجيبة ، التي دبرتها السماء لرسول الله ، بعد مبعثه ، وقبل هجرته إلى المدينة . .
وحدود الرحلة كما يذكر القرآن : من المسجد الحرام بمكة ، إلى المسجد
الأقصى ببيت المقدس .

وزمانها لحظة من لحظات الليل كما يقول القرآن الكريم في الآية الأولى
من سورة الإسراء .

قال تعالى : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً . . من المسجد الحرام إلى المسجد
الأقصى الذي باركنا حوله . . لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » (١) .

والآية صريحة في «الإسراء»، وفي أنه كان فعلاً للنبي الكريم... وأنه واقعة حقيقية، وليس رؤيا منامية؛ وإلا لما كان لها ذكر خاص في سورة خاصة!

والذي يقف بحديث الإسراء عند هذا الذي نطقت به هذه الآية، يجد أن تلك الإضافات الكثيرة، والذبول الطويلة التي علفت بحديث الإسراء لاستدعائها غاية الإسراء، ولا يحتاج إليها السكال الذي ينبغي أن تكون عليه.

«فالإسراء» على ما تشهد به الآية لم يكن للإعجاز، وإنما هو رحلة روحية إلى بيت المقدس، بجمع الأنبياء، وأول قبة للإسلام.

ولا عجب أن تكون للرسول رحلة روحية كهذه الرحلة، في تلك المرحلة الحرجة من مراحل الرسالة النبوية.

فقد كان الرسول إذ ذاك في وجه خصومة عينية ظالمة من قومه... يدعرون إلى الرشاد والخير فيلقونه بالكذب والبهت، ويرمونهم بالسوء والأذى... وهو رحيم بهم، حريص عليهم... فتمتلئ نفسه حسرة وألماً، إذ يراهم يتمزقون شعباً، وينقطعون أوصالاً...!

وليس حال أدعى من هذه الحال للخروج من هذا الجو الثقيل الخافق، إلى جو آخر فيه راحة للصدر، واسترواح للنفس!

ولم يكن المذهب لنبي قائم على دعوة السماء، موجه برسالتها، لأنه لا مفر للنبي - إن أراد أن يظل في سجل الأنبياء - من أن يثبت في موقفه، لا يتحول عنه أبداً... وإن هلك... وقد قالها النبي الكريم لعمره أبي طالب، «والله ياعم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن ترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه».

ولكن الأحداث تزداد حدة، والشر يشتد اشتعالا... وللنفس البشرية حدود للاحتمال، وإن كانت نفس نبي، وإن كان هذا النبي محمداً، خاتم النبيين، وصفوة المرسلين... لأنه - مهما يكن - بشر... وللبشرية حدود تنتهي إليها، وتقف عندها!!

لقد كان في النبيين من اشتد به الكرب في موقف الدعوة ، أو ضاقت نفسه
عن الاحتمال أكثر مما احتمل ، فزاييل موقفه ، وكادت تسقط رسالته من يمينه ،
لولا أن تداركه لطف اللطيف ، ورحمة الرحيم .

ويقص القرآن الكريم عن يونس عليه السلام موقفاً مثل هذا الموقف . .
فيقول سبحانه وتعالى ، وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون ،
فساهم فمكان من المدحضين ، فالنقمه الخوت ، وهو ملهم ، فلو لا أنه كان
من المسيحين للبت في بطنه إلى يوم يبعثون . . فنبذناه بالعراء وهو سقيم ،
وأنبثنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون . فآمنوا ، (١)
وانظر إلى تدبير ربك مع هذا النبي . . يونس عليه السلام .

لقد تعجل الفرار من الميدان الذي أقامه الله فيه .
وتلك فعلة ما كان للنبي أى يفعلها لأول بادرة سوء تصل إليه من قومه .
وكان لابد من درس يتلقاه النبي ، لكي يتقوى على احتمال هذا الموقف ويصبر
على شدائده !

وكان هذا الدرس أن يخرج من ضيق إلى ضيق أشد وأقسى . . خرج من
جوف مدينته التي ترمى بالشمر ، وتقذف بالسوء — إلى جوف الخوت الذي
سليتحول فيه بعد بضعة ساعات إلى طعام مهضوم !

إن يكن يونس وجد ضيقاً في قومه ، فهناك ألوان من الضيق أشد وأقسى ،
وفي جوف الخوت وجد المثل المائل ، والتجربة الواقعة !
ثم تجيء رحمة الله ، فتجعل ليونس طريقاً في بطن الخوت . . إلى جوف
البحر . ثم إلى اليابسة !

وهنا يجد يونس كل شيء أرحب من جوف الخوت وأرحم . . وأن مدينته
التي فر منها هي رحمة واسعة بالنسبة لما كان فيه . فيعود إلى مدينته تلك ، وكأنها
وما ينتظره فيها من شدائد ومحن — كأنها جنة تبسط له كتفا يديها بالطيب .

الموفور من الثرات ! وهناك تثبت أقدامه في موطن الدعوة ، فيمدح برسالته إلى غايتها . . ويستجيب له قومه . . مؤمنين بالله رب العالمين !

ونظرة أخرى في معطيات هذه القصة تطلعك على مدى ما عند الأنبياء من صبر واحتمال ، وما لديهم من قوة وعزم ، وما في كيانهم من طاقات نفسية وروحية وجسدية ، ليكون من هذا الرصيد الكبير ما يقوم بأعباء الرسالة ، وسد مطالبها !

فهذا النبي الكريم « يونس » قد احتمل من قومه ما لا طاقة للإنسان - غير نبي - باحتماله . . ولكن الأمر كان يقتضيه أن يحمل أكثر مما حمل ، ولو كان من أصحاب العزم من الرسل لصمد في موقفه ، فأريدت له هذه التجربة لتشد من عزمه ، وتخرج به أكثر قوة واحتمالا .

وما كان لنبي أن يدخل في هذه التجربة ثم يخرج سليماً معافى كما كان ، بله أكثر مما كان . . فإن أى لإنسان غير نبي لو وقع في هذه التجربة ، وقدر له أن يخرج من جوف الحوت ، وأن ينجو من البحر والموت فيه غرقاً ، ثم قدور له أن يضع قدميه على اليابسة ويعيش مع الناس - لو حدث هذا الإنسان من الناس لذهب ذلك بكثير من عقله ، وبكثير من ملكانه وطاقاته الروحية والنفسية ، ولعاش - إن عاش - في الناس ، إنساناً « مهزوز » الشخصية ، مضطرب السلوك ، مختلج الخطأ .

ولكن ها أنت ذا ترى تلك التجربة في نبي من أنبياء الله ، ثم تراه وقد عاد بعدها أقوى قوة ، وأثبت ثباتاً ، وأحكم سياسة وتديراً !
أفليس ذلك إلا لأن الأنبياء - وهم بشر - هم أيضاً في حال فوق أحوال البشر ؟ بلى ! فالأنبياء ناس غير الناس ، وبشر فوق البشر !

ونعود إلى تجربة « الإسراء » في تلك الفترة التي أشرنا إليها من حياة محمد ، صلوات الله وسلامه عليه .

ونحب هنا أن نبسط القول شيئاً ما في الحال التي كان عليها النبي قبيل

والإسراء ، فذلك مما يعين على إدراك بغض ما للإسراء من حكمة ، وماله من داعية في الوقت الذي وقع فيه .

فأولاً : كان عناد قريش ، ودفعها لدعوة الرسول ، قد بلغ غايته ، فاشتد البلاء على المسلمين الذين لم يستطيعوا الفرار من وجه هذا الطغيان وتسلب الأقيام على الضعفاء ، حتى لقد مات بعضهم تحت سياط العذاب ، من ضرب مبرح ، وكى بالنار ، وشق بالحجارة الملتببة في الهجير . والرسول الكريم يرى هذا البلاء ينصب صباً على الرجال والنساء من أصحابه ، ويرى الموت يدنو منهم رويداً رويداً ، فلا يملك أكثر من الألم والأسى ، ولا يجد لأولئك المعذبين إلا أن يدعوهم إلى الصبر ، وأن يرغبهم في الاستشهاد ، لينالوا ما أعد الله للشهداء في سبيله من الفوز بمجنات النعيم ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا مر بعمار بن ياسر وأبويه وهم يعذبون في وهج الشمس ، ولفج الهجير - يقول : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » !

وثانياً : بعد أن امتنع رسول الله بقومه . من آل هاشم ، وآل عبد المطلب من أن تناله قريش بما أرادت أن تناله به من أذى ، ورأت أنها إن فعلت هذا كان ذلك هلاكاً لقريش ، وإفناء بعضها بعضاً ، وبعد أن فرغ كيدها ، وبطل تدبيرها في أن تلحق بالنبي ما أرادت به من سوء - اتجهت إلى أسلوب آخر يسوق الأذى إلى النبي ، وإلى آل الله الذين اجتمعوا على نصرته . حمية وتعصباً ، وإن لم يجتمعوا على دعوته عقيدة وإيماناً . . وكان هذا الأسلوب هو تلك الدعوة الظالمة إلى مقاطعة آل عبد المطلب ، مقاطعة كاملة ، وحصارهم اقتصادياً ، واجتماعياً ، فلا يتعامل أحد من قريش معهم في شيء أبداً . . لا يزوجونهم ، ولا يأخذون منهم ، ولا يعطونهم .

وواجه بنو هاشم وبنو عبد المطلب هذه الحرب بشجاعة ، وصبر ، وأبوا أن يعطوا الدية في هذا الامتحان الذي تعرف فيه معادن الرجال . . فجمع أبو طالب - عميد آل هاشم - أهله ، واتحاز بهم إلى شعب أبي طالب (١) - ليرى قريشاً

(١) شعب أبي طالب : هو عملة انحاز إليها بنو هاشم مدة الحصار فسمى بهذا الاسم .

أنه قادر على أن يلتقي معها على الأمر الذي أرادت ، وأنها إن أرادت اعتزاله واعتزال آله ، فليس هو بالحريص على أن يصل الحبل الذي قطعت . ١

وقد استمر هذا الحصار لآل عبد المطلب ، وآل هاشم نحو ثلاث سنين ، بلغ بهم الجهد غايته ، حتى سمع أصوات صديانهم — يتضاغون جوعاً — من وراء الشعب (١) .

وطبيعى أن النبي كان خلال هذه المحنة يحمل في نفسه كل مآل آل عبد المطلب وآل هاشم من جهد ومشقة . فكل ما كان يقع في محيط أفرادهم ، فرداً فرداً ، وفي جماعاتهم ، أسرة أسرة ، كان يقع في مشاعر النبي ، ويهيج خواطر الألم ، والإزعاج في نفسه ، قبل أن يصل إليهم — أضعاف ما كانوا يجدون من ألم وإزعاج ! ذلك لأنه - وهو النبي - يألم لآلام الناس جميعاً ، ويود لو يحملها عنهم ، أو يرى بها في مكان سيحيق . فكيف بما يقع في نفسه من هذا ، للآلام التي في أهل وذوى قرابته ، والقائمين على نصرته ؟ ثم هو من جهة أخرى يرى أن منازل بقومه من آلام وشدائد ، إنما كان بسببه هو . . وأن ذلك الذي احتملوه من أجله كان بدافع القرابة والدم ، ولم يكن بسبب العقيدة والدين ، ولو كان من أجل العقيدة لكان الأمر بعض الشيء ، ولكان على أصحاب العقيدة أن يؤدوا ضريبة الدفاع عن عقيدتهم ، لقاء الثواب العظيم الذي ينتظرهم . أما والمحتملون إنما احتملوا من أجل القرابة والدم ، فماذا ينتظرون من جراء ؟ إنه لا شيء ! ، وإن يكن شيء فهو لإرضاء لنداء العصبية . ذلك النداء الذي لا يلبث أن تذهب أصداؤه . بعد أن تذهب الحال التي تلبس بها !

إن الآلام النفسية والروحية بل والجسدية التي احتملها النبي خلال هذه المحنة التي عاش فيها أهل ، كانت أقصى ما لقي النبي في طريق دعوته من آلام . إنه حمل آلام آل بني هاشم كلها ، وإن ذهب كل منهم بنصيبه منها . فمن أجله كانت هذه التجربة التماسية ، وفي سبيل حمايته ، والدفاع عنه ، واجه بنو هاشم هذه القطيعة المرة ، واحتملوا عبء هذا الحصار المحكم الظالم . ثلاث سنين !

وثالثاً : حين بلغ الأمر من الشدة والضيق مداه في نفس النبي ، وأصبح جو مكة ثقيلاً خانقاً — أراد أن يلتمس له متنفساً حول مكة ، لعله يجد أعواناً وأنصاراً يستمعون له ، ويستجيبون لدعوته ، فربما وجد فيما حول مكة نفوساً تمسك هذا الخير الذي بين يديه ، وتلتفع به ، وتخرج منه ثمراً طيباً مباركاً .

كان لابد للرسول من أن يلتمس لنفسه ولدعوته مجالا آخر ، خارج مكة ، بعد أن لقي هو وأهله الأدنون ما لقوا من هذا البلاء الشديد .. وبما ضاعف من وقع هذه الآلام في نفس الرسول أن سقط الجناحان اللذان كانا يرفان عليه رحمة وحاناً . فما أن كادت تنتهي محنة الحصار ويفسد تدبير قريش ، وتنقض حقيقتها التي أبرم فيها هذا العقد الذي عقده بينها لمقاطعة آل هاشم بعد أن سلط الله عليها الأرضة ، فأكلتها جميعاً ، إلا ما ورد فيها من ذكر الله عز وجل — ما كادت تنتهي هذه المحنة حتى مات أبو طالب بعد خروجه بقومه من الشعب بستة أشهر .. ثم لحقت به د خديجة ، بعد موته بثلاثة أيام . . .

فانظر كيف ابتلى النبي الكريم هذا الابتلاء .. في عمه ، وفي زوجته ؟ وكيف تفرغ يده من كل قوة مادية كانت تسانده في دعوته ، وتشد من أزره ؟ ومتى يكون ذلك ؟ إنه في أخرج مواقف الدعوة .. وبعد أن بلغ الأمر من الشدة مداه بين قريش وبين النبي !

لأنها عشر سنوات كاملة ، منذ أن تلقى الرسول الكريم أول إشارة من السماء ، إلى ذلك اليوم الذي فقد فيه الرسول زوجته ، وعمه ، كما فقد فيه الأمن والسلامة في مكة . مع قومه من قريش .. فقد روى عن جابر بن عبد الله قال : لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ، ومحنة وعكاظ (١) ، ويقول : من يؤمنني ، ومن يؤويني ، ومن ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي .. فله الجنة .. فلا يجد أحداً ينصره ويؤويه حتى إن الرجل ليرحل من

(١) بحجة وعكاظ : سوقان من أسواق العرب الموسمية .

مضر أو الين إلى ذى رحمه ، فيأتيه قومه فيقولون له : احذر غلام قريش ، لا يفتنك ، (١) .

إن ذلك كله من ألوان الشدائد والحنن التي مرت بالرسول خلال تلك السنوات العشر كانت تربية وإعداداً للجولة التالية من الدعوة ، واستعداداً لاستقبال الطور الجديد من أطوارها . . . حيث ستشهد الأيام التالية أحداثاً ضخماً في حياة هذا الدين الجديد . . . سيلتقي الرسول الكريم بوجوه كثيرة من قبائل مختلفة ، وسيسمع أحاديث متباينة . . . وسيلقى أجوبة مختلفة لما يلقي على الأسماع من آيات دعوته . . . وسينهرج النبي موطنه ويهاجر إلى موطن آخر ، وأقوام آخرين غير قومه ، وستدور معارك ، وتسيل دماء ، ويبتلى النبي في نفر كريم عزيز من أصحابه ، يسقطون في هذه المعارك . . . وسيقوم الرسول على توجيه مجتمع إسلامي ضخم ، بعد أن يحيمه نصر الله ، ويفتح مكة ، ويدخل الناس في دين الله أفواجا ۱۱ .

إن هذا البلاء العظيم الذي ابتلى به الرسول هو — كما قلنا — إعداد لما سيستقبل من تلك الأحداث الكبرى . . . وإن هذا البلاء أشبه بما تعمل الحمايرث والقموس في شق الأرض وتقلب تربتها قبل أن يبذر فيها البذر . . . فذلك هو الذي يتيح لها الجو الصالح لأن تعطى خير ما فيها من عناصر الإنبات لما يلقي فيها من حب ۱ .

نقول : في هذا الجو الثقيل الخانق الذي كان يضيق به صدر الرسول في مكة — خرج إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف . والمنعة بهم من قومه . . . وكان معه مولاة زيد بن حارثة . . .

ولما انتهى الرسول الكريم إلى الطائف ، عمد إلى سادة ثقيف وأشرافهم ، فدعاهم إلى الله ، وكلهم بما جاءهم له . . . من نصرته ، والقيام معه على من خالفه من قومه . فلم ير منهم إلا إعراضاً ، وتكديباً ، واستهزاءً . . . وكان فيما قال له قائلهم :

« والله لا أكليك أبدا ! ! لئن كنت رسولا من الله كما تقول لانت أعظم خطراً من أن أرد عليك السلام ! ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكليك ! ! » إنها سفسطة أحمق ، وضلالة ظلم جهول .

فقام رسول الله من عندهم ، وقد يئس من خيرهم . . وقال لهم : « إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني . . » وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ ذلك قومه عنه فيذئروهم (١) ، ذلك عليه . . فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، فوقفوا له سباطين (٢) ، وجعلوا يرهونه بالحجارة حتى دمت قدماه . . وزيد ابن حارثة يقيه بنفسه ، حتى أصابه شجاج في رأسه . . !

ترك الرسول الطائف على تلك الحال ، وقد امتلأت نفسه أسى فوق أسى ، وألماً فوق ألم ...

وإلى أين ؟ وهل هناك غير مكة ؟ إنه على أية حال لا يزال يمسك منها على شيء من الأمل والرجاء ، ولا يزال يطمح في خير من أهل أو صديق فيها .

وقبل أن يتخذ الرسول سبيله إلى مكة وجه وجهه إلى السماء يتأجى ربه ، ويطلب العون والممدد ! يخفق قلبه بهذا النداء الدافئ العميق ، وتحركت شفتاه بهذا الدعاء الندى ، المعقود بأنفاس الأمل والرجاء في مالك المملك ، ومن ييده ملكوت السموات والأرض . . يقول رسول الله مناجياً ربه :

« اللهم أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس ...

« يا أرحم الراحمين . . أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي .

« إلى من تكلني ؟ .. إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ (٣)

« إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي . !

« غير أن عافيتك هي أوسع لي . !

(١) يذئروهم عليه : أى يغريهم به ، ويحرضهم عليه .

(٢) أى فى صفيين .

(٣) يشير بالبعيد إلى ثقيف ، وبالعدو إلى قريش .

« أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليها أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك ، أو أن ينزل بي سخطك .

« لك العتبى حتى ترضى . . .

« ولا حول ولا قوة إلا بك ، (١)

بهذه الكلمات المشحونة بالإيمان الوثيق بالله ، والمخلقة من أنفاس النبوة الطاهرة ، اتجه الرسول إلى ربه ، متضرعاً ، متوجعاً ، طالباً رضا ربه ورحمته ، فى صبر وحمد . . على السراء والشراء .

مدد غير منتظر :

وفى طريق الرسول من الطائف إلى مكة نزل منزلاً يمكن يسمى « نخلة » ، ثم قام من جوف الليل يصلى ، فصرف إليه نفر من الجن ، فاستمعوا قراءته ، ولم يشعروا بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليه قوله تعالى : « وإذ صرنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه ، قالوا : أأنصتوا ، فلما قضى ، ولوا إلى قومهم منذرين . . قالوا : يا قومنا ، إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه ، يهدى إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم . . يا قومنا . أجيئوا داعى الله ، وآمنوا به ، يغفر لكم من ذنوبكم ، ويخرجكم من عذاب أليم ، ومن لا يجيب داعى الله ، فليس بمعجز فى الأرض ، وليس له من دونه أولياء ، أولئك فى ضلال مبين » (٢) .

ولهذا تذكر من هذه الحادثة ما يقع فى نفس الرسول الكريم منها من أفس ، وما يشيع فى كانه من رضى . . إنه ليس وحده . . إن صوت السماء متصل به ، وإن جنوداً من جنود الله ، — لا يراهم — يحفون به ، ويستمعون له ، ويصدقون بما نزل عليه .

ومن هذا الذى يستمع إلى كلام الله ، ويستجيب لرسوله ؟ إنهم جماعة من

(١) زاد المعاد جزء ٢ ص ١٢٣ .

(٢) سورة الحديد : آيات ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

الجن .. الجن الذي يضرب به المثل في الخروج على كل نظام ، والتأني على كل نداء ! ..

فكيف لا يكون لهذا القرآن في نفس الناس ما له في نفوس الجن ؟ وكيف يقبل الجن من إنسان ، ويؤمنون له ؟ على حين يأبى الناس الاستماع إليه ، والاستجابة لدعوته ؟ إن ذلك يكشف عن فساد في طبيعة تلك النفوس الإنسانية فساد خرج بها إلى أن تكون أكثر من الجن ضلالا وعناداً !

ثم لعلاك تلغفت إلى ما امتلأت به نفس هؤلاء النفر من الجن من إيمان ، حتى لقد تحولوا إلى دعاة ، يبشرون في قومهم بهذا الدين ، ويدعون له : « يا قومنا أجيئوا داعي الله ، وآمنوا به .. يفقر لكم من ذنوبكم ، ويحرّم من عذاب أليم » ففي هذا الصنيع من أولئك النفر من الجن تحريض قوى لأولئك النفر الذين استجابوا للرسول من الناس ، أن يبشروا بدعوة الإسلام في الناس ، ويدلوهم عليها ..

وفي هذا كله قدر كبير من التنفيس عن نفس الرسول ، والتطبيب لحاظه ، بعد هذه التجربة القاسية ، التي مرت به في الطائف !

وكان الرسول قد أقام بنخلة أياماً ، قبل أن يتخذ سبيله إلى مكة .

وربما كان هذا التوقف منه — صلوات الله وسلامه عليه — في هذا المكان مراجعة لنفسه ، وتقليباً لوجوه الرأي في اختيار الجهة التي يتجه إليها .. أهى مكة ؟ أم غيرها من بلاد العرب ومضارب خيامهم ؟ إننا لا نجد تفسيراً لتوقف الرسول الكريم في هذا المكان ، ومكثه فيه أياماً ؛ أقرب من هذا التفسير ، الذي يناسب ما كان في نفس الرسول من ضيق بمكة وبأهلها .. لقد خرج منها مكروباً مهموماً ، والعودة إليها ستكون أنسكى وأشد من قبل أن يخرج منها .. ولكن بعد أن نزل عليه وحى السماء ، بما كان من أمر أولئك النفر من الجن ، انزاح عن نفسه كثير من الضيق والهم ، ووجد من إيمان الجن به ما يطمعه في إيمان قريش .. فإنها مهما تكن ، ومهما يكن من التوائها وعنادها ليست أكثر

من الجن عناداً ، والتواء ! وأن هذا القرآن الذى لانت به قلوب الجن ، واستجابت له ، سيؤثر هذا الأثر ، وربما أكثر منه ، فى قلوب العتاة المكابرين من قريش ! قال تعالى :

« قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً ، يهدى إلى الرشده ، فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحداً ، وأنه تعالى جد ربنا ، ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ، وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً ، (١) » .

وهنا ، يخرج الرسول من « نخلة » ميمها وجهه شطر مكة ، وقد زايه كثير من الألم والهم . فأسرع الخطأ إليها ، ليرى ماذا أحدثت الأيام فى قريش ، وفى موقفها الظالم منه ؟ وهل كانت غيبته تلك الأيام المعدودة عن موطن الأحداث — هل كان ذلك داعية للقوم أن يردوا ما عذب من أحلامهم ، وأن يستمعوا إلى صوت العقل فيما يدعوه إليه رجل منهم ، لا يريد الملك ، ولا المال ولا الجاه ولا السلطان . . وإنما يريد كشف ما فى عقولهم من ضلال ، وشفاء ما فى قلوبهم من مرض . . لأنه يتعامل مع الجانب الروحى منهم .. يتعامل مع الروح والعقل والنفس . . أما جانبهم المادى فلا شأن له به ، إلا فيما تقتضيه سلامة العقل ، وترتضيه طهارة النفس ، ويدعو إليه صفاء الروح !

فهل ترى غيرت هذه الغيبة شيئاً من سير الأحداث التى تركها الرسول منذ أيام ، وهى تنجلي وتفور ؟ أما فى قريش من ناس يدخلون فى دين الله وينصرون نبيه ؟ . يا لظلام العقول ، ويا لقسوة القلوب !

على أن الرسول الكريم ما كاد يبلغ مشارف مكة ، حتى تلوح له تلك الوجوه المنكرة البشعة ، التى وقف أصحابها فى وجه الرسول ، وامتدت أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه ، وإلى أصحابه الذين اتبعوه .

وربما قلب الرسول تلك الوجوه وجهها ، لعله يلح فيها من يقوم إلى جانبه بعض مقام عنه أبى طالب ، الذى مات منذ قليل !

وكان المطعم بن عدى هو الذى اختاره الرسول ليقوم منه هذا المقام .
« فأرسل رجلاً من خزاعة إلى « مطعم بن عدى ، يقول له : أأدخل فى
جوارك ؟ »

وقال : نعم.. ودعا بنيه وقومه ، فقال: البسوا السلاح ، وكونوا عند أركان
البيت . فإني قد أجرت محمداً . فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، ومعه
زيد بن حارثة ، حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدى على راحلته ،
فنادى : يا محشر قریش . إني قد أجرت محمداً ، فلا يهجه أحد منكم (١) . . فانتهى
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن ، فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف
إلى بيته ، ومطعم بن عدى وولده محدقون به بالسلاح ، حتى دخل بيته (٢) .
وكانت قریش على عهدهما الذى تركها الرسول عليه . من عداوة غليظة ،
وشر صراح .

لقد ظل الرسول الكريم عشر سنوات ، ينادى قومه ويرأوهم بآيات
الكتاب وبالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فما ازدادوا على
الأيام إلا عداوة له ونقمة عليه ، وتربصاً به !

ولقد خرج الرسول من مكة بعد أن ضاق بها — خرج إلى الطائف لعل
هنا فيها من زروع وكروم قد ألقى فى نفوس أهلها نسمة رطبة ، تنعش الأرواح
وتشرح الصدور . فتعشش بجمال الحق وجلاله ، وتستجيب له . . ولكن أهل
الطائف كانوا أقسى قلوباً من قریش . وقد سجل التاريخ هذا اللقاء الذى لقوا
رسول الله به . . فكان أسوأ صفحة سجلها التاريخ لنخوة العربى ومروءته .
وفقد الرسول الكريم مع هذا زوجه الوفى ، النسيذة خديجة ، وعمه أبا طالب
دفعه الحصينة .

ثم بعد هذا كله يعود الرسول إلى قریش ، ويدخل عليها مكة ليبدأ دوراً
عنيفاً حاداً مع الصراع معها فى سبيل دعوته ، وتبليغ الرسالة التى بين يديه ؟؟

(١) يهجه : أى يشبه وينفضه .

(٢) زاد الماد جزء ٢ ص ٢٢٤ .

ولا يجد الرسول خلال هذه المحن من عزاء إلا فيما ينزل عليه من آيات الكتاب ، وفيما يقص عليه القرآن من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وفيما يدعوه الله إليه من الصبر والثبات على موقفه : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ، فتوكل على الله ، إنك على الحق المبين .

فكانت آيات الكتاب هي روح الرسول وريحانه خلال هذا الضيق الذي نزل به . . وكان استماع الجن إليه واستجابتهم له اختباراً ناجحاً للكتاب الذي بين يديه ، ولل قوة الروحية المشتمل عليها ، وذلك مما يبعث الأمل ، ويقوى الرجاء في استجابة القلوب القاسية له ، وتأثرها به .

ومع هذا كله ، فقد كان الرسول الكريم في حاجة إلى مزيد من المدد الروحي ، وإلى التزود ب زاد عتيد من الملأ الأعلى ، حتى يقوى على مواصلة الجهاد والصمود في وجه المعاندين ، والكافرين ، والمتربصين .

ولقد أبل الرسول بلاءه في الأرض ، واستنفد كل ما يعطى أو يأخذ منها . ومن أهلها . فكان لابد من عالم آخر يتعامل معه ، ويتزود منه ب زاد روحي ، يشبع في كيانه قوى مجددة ، لاتنفد على كثرة ما ينفق منها في هذا النضال المتصل بينه وبين قومه ، حتى يحكم الله بينه وبينهم بالحق ، وحتى يدخل الناس في دين الله أفواجا .

وفي الإسراء إلى العالم العلوى . . يجد الرسول من آيات الله ، ومن دلائل قدرته وعجائب ملكوته ما تذوب في عباب محيطاته كل شرور العالم الأرضي وآلامه .

فلم يكن الإسراء في صميمه إلا رحلة روحية لرسول الله في عالم النور ، ولإلا استدناء له من مواطن الرحمة والشفقة . ولأنه هو الجزء الحسن للرسول على جهاده الصادق في سبيل الله ، وقيامه على أداء الرسالة التي أرسل بها ، واحتماله ما احتمل من أجلها .

وماذا يكون للرسول من جزاء في هذه الدنيا على ما لقي في سبيل الدعوة من عناء وإرهاق ؟ إن كل ما في الأرض لا يقوم ببعض هذا الجزاء . . وإن

الرسول لواحد في كل ما في الأرض ، وما عليها من مال وحطام . فلم يكن إلا ما في السماء هو الذي يناسب حال الرسول ، ويليق به .

ثم إن الإسراء إلى العالم العلوي شهادة للرسول عند نفسه أنه في موضع الرضا والإحسان من ربه ، وأنه أدى واجبه على الوجه الأكمل في تبليغ رسالة ربه . . . وأن هذا النجاح الضئيل الذي صادفته مهمته خلال عشر السنوات التي مضت عن بعثته — لم يكن عن تقصير أو تهاون منه ، وإنما هو ابتلاء لرسول الله ، وتمحيص لما في صدور الناس . . ليميز الله الخبيث من الطيب .

وقد ذكر القرآن الكريم حادثة الإسراء في آيتين من أول سورة الإسراء : فقد قال تعالى : سيجانه الذي أسرى بعبده ليلاً . . من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير . . . والذي تذكره الآيتان من أمر الإسراء أنه وقع ليلاً ، وأن حدوده كانت من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وأن غايته كانت اطلاع الرسول على ما في ملكوت الله من آيات و لنريه من آياتنا . .

يقول ابن إسحاق : وكان في مسراه ، وما ذكر منه ، بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله في قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأول الألباب ، هدى ، ورحمة ، وثبات لمن آمن به وصدق ، وكان من أمر الله على يقين . . فأسرى به كيف شاء ، ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التي يصنع بها ما يريد ، (١) .

وطلع الرسول على قریش بهذا الخبر ، وأنه قد أسرى به في ليلته تلك من مكة إلى بيت المقدس ، فبهتوه وكذبوه ، وأطلقوا ألسنتهم بالقول السيئ فيه ، وقال أكثرهم : هذا والله الأمر البين (٢) . . والله إن العير لشطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة وشهراً مقبلة . . أفيزهد إلى ذلك محمد ، في ليلة واحدة ويعود

(١) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٢ .

(٢) الأمر — بالكسر — العظيم الشنيع . . « لقد جئت شيئاً أمراً » .

إلى مكة ١٩ ، . ولم يقف الأمر عند كفار قريش بل تجاوزته إلى ضعاف الإيمان من أسلموا .. فارتدوا عن الإسلام . . وذهب الكفار إلى أبي بكر ليطلبوا على هذا النبا المثير ، ولعلمهم يجدون عنده ما وجدوا عند ضعاف الإيمان ، فقالوا له : هل لك يا أبا بكر في صاحبك ؟ يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلى فيه . ورجع إلى مكة ؟ فقال لهم أبو بكر : أنتم تكذبون عليه ! فقالوا : بلى . . ما هو ذلك في المسجد يحدث به الناس . فقال أبو بكر لئن كان قاله لقد صدق . فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه . . فهذا أبعد مما تعجبون منه ! (١) .

قال ابن سحوق : وأنزل الله تعالى فيمن ارتد عن إسلامه لذلك الحادث : وما جعلنا الرقيا التي أريناك إلا فتنة للناس ، والكثرة المعونة في القرآن ، وتخوفهم ، فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ، (٢) .

والإسراء — كما قلنا — إنما كان شأننا خاصاً بالنبي ، ورحلة روحية تشرح صدره . وتبعش نفسه ، وتذهب بكثير مما ألم به من ضيق وحزن بموت زوجته وعمه ، وبثألب قريش عليه وعلى آله ، وبما لقي من أهل الطائف من لقاء بارد غث . ورد سمج قبيح .

وفى مضمون هذا المعنى ينبغي أن نحدد نظارتنا إلى الإسراء . . فهو بهذا المعنى ليس معجزة للتجدي ، تقف من الناس موقف التعجب لهم ، والتحدى بالإيمان بمآلها . . وإنما هي إخبار بأمر شهده الرسول وحده ، فإذا حدث به كان حديثه الصدق كله . . لا ينبغي لمن آمن بأنه نبي أن يكذبه في شيء مما يقول . . ولهذا كان جواب أبي بكر على من أراد أن يغيره بتكذيب النبي ذلك الجواب الحكيم : والله لئن كان قاله لقد صدق . . لأنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه . . فهذا أبعد مما تعجبون منه ، . . لأنه أمين السماء . . لا يكذب أبداً . هذا مبدأ . . يجب أن يسلم به كل من يدخل في هذا

(١) زاد المعاد جزء ٢ ، والسيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٤ .

(٢) سورة الإسراء آية ١٠ .

الدين ، ويؤمن بالله وبرسوله . . قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » (١) .

ولا على المسلم أن يرد أو يقبل كل ما روى عن الإسراء من أحاديث ، وما ذكر من قصص ، وحسبه أن يؤمن بأن الإسراء برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أمر لا شك فيه ، كما نص على ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله . . لنريه من آياتنا . . إنه هو السميع البصير » .

هذا ما يجب على المسلم الإيمان به من حديث الإسراء . . أما ما وراء ذلك مما اتصل بالإسراء ، وكان مشار جدل وخلاف ، كالخلاف حول الإسراء : أكان بالروح أو الجسد ؟ والخلاف فى مواطن الإسراء : وهل انتهى عند بيت المقدس أم أن الرسول قد صعد فى رفقة جبريل إلى السموات السبع ، ثم انتهى إلى سدرة المنتهى ؟ كل ذلك إن صح على وجهيه ، أو على وجه واحد منه ، فإنه لا يزيد من قدر الإسراء : ولا ينقص من قيمته . . فالإسراء كما قلنا رحلة روحية للرسول وقد تطول هذه الرحلة أو تقصر ، فليست العبرة فى طولها أو قصرها ، وإنما فى الآيات الكبرى التى رآها الرسول من آيات ربه . . وقد يطوى الوجود كله فى لحظة واحدة للرسول فيرى فيه ما شاء أن يرى ، وقد تطول الرحلة وتمتد ، دون أن يشهد ما شهد فى تلك اللحظة الواحدة .

ومع هذا ، فإن آيتى الإسراء تحددان مبدأ الإسراء ومنتهاه . . من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، . . ولا تذكران شيئاً عن « المعراج » ، إلى السموات العلا . .

والذى يقرأ التمهيد التى صورت فيها « رحلة المعراج » ، يشم منها ريح الصنعة والتلفيق ، وتبرز فى أثنائها انعكاسات عجيبة ، لما يدور فى بعض العقول ، من تصورات خاطئة لكمال النبوة وجلالها . .

فمثلاً زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش . منطلقته متبناه زيد بن حارثة - هذا الزواج كان لحكمة عالية - أرادتها السماء لإبطال التبني .

محافظة على الأنساب . فقد كان النبي شائعاً عند العرب .. يلحق الابن بغير أبيه، ممن يريد إلحاقه به ، فيأخذ في الحياة حكم الابن الحقيقي .. وقد كان زيد بن حارثة مسمى للنبي ، وكان يدعى زيد بن محمد ، فأراد الله إبطال هذه العادة بتسريع سماوى فقال تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائق تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، ادعوهم لأبائهم ، هو أوسط عند الله . فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم » (٢) .

وقد أراد الله سبحانه أن يرى المسلمين تجربة عملية لإبطال هذا النبي ، فأمر نبيه أن يتزوج مطلقة متبناه زيد .. « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً » (٣) . ولعلك تلح في قوله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها .. » أن التزويج كان عن أمر الله سبحانه وتعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم وهذا ما يدل عليه الفعل « زوجناكمها » .

هذه هي واقعة زواج الرسول من « زيب بنت جحش » . مطلقة متبناه زيد ابن حارثة .. وقد كان هذا الزواج مشار غير ولمز من المشركين ، والمنافقين ، ودعاية فتنه لمن كان في قلبه مرض ، ممن دخلوا في الإسلام .

وقد انتهز واضع قصة المعراج الحجاج النسيح للأحداث في هذا العالم الروحاني ، الذي لا حدود له لجعل لزيد بن حارثة ولزواجه مكاناً هناك ، ليقال إن السماء هي التي دبرت أمر هذا الزواج والطلاق .. وحسب أنه في هذا يدفع باطل المشركين والمنافقين الذي تسجوه من هذه الواقعة .

يقول واضع — أو وضعوا — قصة المعراج ، فيما يروى عن رسول الله : « ثم دخل بي — أي بالرسول — إلى الجنة فرأيت فيها جارية لعماء ، فسألتها لمن أنت ؟ وقد أعجبني حين رأيته . فقالت لزيد بن حارثة ، فبشر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة (٢) » ١ .

(١) سورة الأحزاب : ٤ ، ٥ . (٢) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(٣) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ١٥ .

أهذا قول يقبله العقل ويظمن إليه القلب في مسرى رسول الله إلى الملائكة الأعلى ؟ وهل لمثل هذا كانت رحلته صلى الله عليه وسلم إلى عالم النور والحق ؟ وهل خلت الجنة من مظاهر الجمال والجلال فيقف الرسول عند تلك الجارية اللعساء ويسألها هذا السؤال : لمن أنت ؟ كأنما يريد لها لنفسه ؟ وهل خلت الجنة من الحور العين .. أشكالاً ، وألواناً ، حتى يقف ويظلل الوقوف عند هذه الجارية اللعساء ؟ .

لقد كانت لحظات الرسول خلال الإسرائ مشحونة بالأحداث المثيرة المذهلة ، التي تبهز الأنفاس فلا تدع مجالاً لمثل هذه التوافه من الأمور .

ثم إن كان لقصة زيد وزواجه بزينب صدى في مستقبل الأيام ، فهل يفتنى ذلك أن يكون بحيث يبشر به ، وتنصب له الأعلام قبل أن يقع بهضج سنين ؟ . إن ذلك من إملاء الفهم الخاطيء للحكمة من زواج الرسول الكريم بزينب بنت جحش طيبة متبناه زيد بن حارثة — أولاً ، ثم للفهم الخاطيء ثانياً للحكمة من الإسرائ برسول الله ، تلك الحكمة التي صرح بها القرآن الكريم في قوله تعالى : « لنريه من آياتنا » .. وبعيد أن تكون رؤية الرسول لهذه الفتاة اللعساء في عرصات الجنة آية أبداً ..

هذا ، ويرى بعض أهل العلم أن الإسرائ كان بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى دون عروج إلى السماء كما قلنا ، وبعض أهل العلم أيضاً يرى أن الإسرائ كان بالروح لا بالجسد وأنه كان رؤيا منامية . ورؤيا الأنبياء حق تنزل منزلة الوحي ، وقد جعلها إبراهيم عليه السلام وحياً أوحى به الله سبحانه وتعالى إليه في ذبح ابنه إسماعيل : « قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر .. ستجدني إن شاء الله من الصابرين .. فلما أسلما وتلاه للجبين ، وناديه أن يا إبراهيم قد صدقت الرويا إنا كذلك نجزي المحسنين ، (١) . وهل كان الوحي يحمل إبراهيم على أكثر من هذا ؟ لقد قدم ابنه للذبح بيده ، واستجاب الابن لدعوة أبيه ، لأنه يعلم كما يعلم أبوه أن هذا أمر من الله . وأن الرؤيا تنزل منزلة الوحي عند الأنبياء .

وحدث ابن إسحق قال : حدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول : ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أسرى بروحه (١) .

وقال ابن إسحق : حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس أن معاوية ابن أبي سفيان كان إذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كانت رؤيا من الله تعالى ، صادقة .. ، فلم ينكر ذلك من قوله ، لقول الحسن إن هذه الآية أنزلت في ذلك ، وهي قول الله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » ، ولقول الله تعالى في الخبر عن إبراهيم إذا قال لابنه : « يا بني : إني أرى في المنام أني أذبحك » ، فمضى ذلك ، فعرفت أن الوحي من الله يأتي الأنبياء أيقاظاً ونياماً .. ثم يقول ابن إسحق : والله أعلم أي ذلك كان قد جاءه ، وعين فيه ما عين من أمر الله ، على أي حاله كان ، نائماً أو يقظان ، كل ذلك حق ، وصدق (٢) .

وقد فعل القاضي عياض في كتابه « الشفا » مذاهب القول في الإسراء ، والمعراج .. وهل كان مع الإسراء معراج . وهل كان الإسراء بالروح أو بالروح والجسد . قال : « اختلف السلف والعلماء : هل كان إسراؤه بروحه أو جسده على ثلاث مقالات . فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام . مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ، ووحي ، وإلى هذا ذهب معاوية ، وحكى عن الحسن ، والمثبور عنه خلافه ، وإليه أشار محمد بن إسحق ، وحجتهم قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » وما حكوه عن عائشة رضي الله عنها : « ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٣) .

(١) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٥ .

(٢) السيرة لابن هشام جزء ٢ ص ٦ .

(٣) الذي يروى عن عائشة أنها كانت تقول ما فقدت جسد رسول الله ، ولكن أسرى بروحه ، وهذا هو الذي يمكن أن يستقيم عليه القول ، لأن الإسراء كان قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات ، والرسول لم يدخل بعائشة إلا بعد الهجرة . فكيف تحدث بأنها ما فقدت جسد رسول الله ؟ وإنما يصح أن تروى خبراً من أخبار الإسراء ، سمعته ممن يحدث به ، أو سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم .

وقوله — أى قول النبي فيما يروى عنه فى حديث الإسراء — «بنا أنا نائم فى المسجد الحرام ..» وذكر القصة ، ثم قال فى آخرها : فاستيقظت وأنا فى المسجد الحرام . .

وذهب معظم السلف ، والمسلمين ، إلى أنه إسراء بالجسد ، وفى اليقظة ، وهذا هو الحق ، وهو قول ابن عباس ، وجابر ، وأنس ، وحذيفة ، وعمر ، وأبي هريرة ، ومالك بن صعصعة ، وأبي حية البدرى ، وابن مسعود ، والضحاك ، وسعيد بن جبهر ، وقتادة ، وابن المسيب ، وابن شهاب ، وابن زيد ، والحسن ، وإبراهيم ، ومسروق ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن جريج .. وهو دليل قول عائشة .. وهو قول الطبرى ، وابن حنبل ، وجماعة عظيمة من المسلمين ، وهو قول أكثر المتأخرين من الفقهاء والمحدثين ، والمتكلمين والمفسرين .

وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح ، واحتجوا بقوله تعالى : «سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، فجعل إلى المسجد الأقصى غاية الإسراء الذى وقع التعجب فيه بعظيم القدرة ، والتمدح بتشريف النبي محمد صلى الله عليه وسلم به ، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه .. قال هؤلاء : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره ، فيكون أبلغ فى المدح .

وبعد أن ينتهى القاضى عياض من عرض هذه الآراء ، يعرض رأيه هو ، فيرجح -أفب القول بأن الإسراء كان بالروح والجسد معاً .. يقول :

«والحق من هذا ، والصحيح إن شاء الله أنه إسراء بالجسد والروح فى القصة كلها — أى الإسراء . والمعراج — وعليه تدل الآية ، وصحيح الأخبار والاعتبار ، ولا يدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة ، وليس فى الإسراء بجسده ، وسال يقظته استحالة ، إذ لو كان مناماً لقال : بروح عبده ، ولم يقل بعبده ، وقوله تعالى : «ما زاغ البصر وما طغى» (١) ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولا استبعده الكفار ، ولا كذبوه فيه ، ولا ارتد به ضعفاء من

أسلم ، وأفقتنوا به ، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر .. بل لم يكن ذلك —
أى الإنكار — منهم — إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه ، وحال
يقظته ! (١) .

ونعود بعد هذا فنقول إن الخلاف فى الإسراء بالجسد أو الروح خلاف
لا يؤثر فى حقيقة الإسراء ، وما نال الرسول فيه من أمداد ، وما رأى من آيات ..
وأن قدرة الله لا تقيد بتلك القيود التى تقتضيها الضرورات البشرية .. وخير
من هذا الخلاف الذى يذهب بعضه الإسراء ، ويمزق حجب الجلال الذى يحف
به ، ويعبث بالستر الملقى عليه من عالم الروح — خير من هذا أن ندع الرسول
الكريم فى موكب جلالة وعظمته ، تحف به أُلطاف ربه ، وتحمده رعايته
إلى حيث يسبح فى أنوار الحق ، ويطعم بروحه من طيبات الملائ الأعلى .

أما أن نجسد العالم العلوى ، ونحمله إلى أشياء من عالم التراب الذى نعيش فيه
فذلك مما يهون من خطر الإسراء ويخس من قدره .. فإن الذى يطالع قصة
الإسراء على تلك الصورة المجسدة التى صورت بها ، لتتو فى نفسه كثير من تلك
المشاعر الروحية ، التى كان حقيقة أن تثيرها فيه حادثة الإسراء لو ذهب من طريقها
هذا الركام الكثير من العوائق والسدود ! . ولا تتخدع بتلك الأصباغ الساذجة
التي يلطخ بها الفصاص وجه الحقائق المادية ليجعلوا لها من تلك الأصباغ وجهاً
تدخل به إلى العالم العلوى .. فإن هذا ، المسكياج ، المقضوح يجعلها مسخة أكثر
منها حقيقة .. فالبراق الذى يهب للرسول ليمنطيه إلى العالم العلوى ليس إلا أنا
ركب عامه جناحان من ريش ! فصار لعبة من لعب الأطفال التى يؤلفونها من
حطام بعض لعبهم التى انتهى دورها معهم .. ثم هذا الحجر الذى يشد إليه الأنبياء
دوامهم عند بيت المقدس ، والحلقات المغروسة فى ذلك الحجر لتمسك المفاد
واللحم .. إنها جميعها لتمسك بالمعاني الكريمة الطيبة التى كان ينبغي أن يجدوها المرء
فى نفسه من حادثة الإسراء لو انزاح هذا الحجر من طريقها ، وانزاحت معه
الدواب ، والمقاود ، والسروج وغيرها ، مما يكون فى مرابط الحيوان ! !

وعلى أى فإن الإسراء على أية صورة وقع ، لم يكن فيه ما يخرج الرسول عن بشريته ، ويباعد ما بينه وبين الإنسان الذى يعيش فيه . . فقد عاد الرسول بعد الإسراء لم ينكر الناس من ظاهره شيئاً ، حتى أعداؤه أنفسهم لم يروا عليه أماراة من أمارات هذه الرحلة المباركة . . فإن خيرها كله كان مخبوءاً فى كيانه ومنطويها فى صدره ، وسارياً فى روحه . . إنه شأن من شأن الله مع نبيه ، وزاد روحى زوده به ، تكرماً له ، وترويحاً عن كيانه المجهد المسكدود ! .

ونف عند هذا القدر من عرضنا لمعجزات الرسول ، ومادخل عليها من إضافات ، ومرفعات . . بيد المتنطعين من المسلمين ، والمتعصبين من غير المسلمين .

ولكن قبل أن نرسلها من أيدينا نعود فنقرر مرة أخرى أن هذه المعجزات — ما صح منها وما لم يصح — ليست هى المعجزة التى أودعتها السماء يد النبى ، والتى بها كتب الله لرسالته الشمول والخلود .

وإن يكن فى حياة النبى من خوارق — ولا بد من أن يكون — فإن هذه الخوارق تكريم له ، وفضل من الله على نبيه ، ونفحة من نفحات النبوة ، وشذى من شذاها العطر . . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، . . وللنبى الكريم من هذا الفضل ما لم يكن لبشر غيره . . والله سبحانه وتعالى يقول له . « وكان فضل الله عليك عظيماً » .

أما المعجزة الكبرى التى وضعها الله بين يدى الرسول . فهى تلك المعجزة الباقية الخالدة ، أبد الدهر . . « هى القرآن الكريم » !

الباب الثامن

الرسول .. والمعجزة الكبرى

« لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ
لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ..
وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ..
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

القرآن هو معجزة النبي .. المعجزة التي قامت عليها دعوته ، واستقامت بها
حجته ، وانتمت لإلهها شريعته !

فالقرآن — من بين الكتب السماوية — ليس كتاب شريعة وحسب ،
ولمّا هو كتاب شريعة ، ودلائل نبوة ! وليس كذلك الكتب السماوية الأخرى
حيث جاءت الكتب والمصحف يحملها أنبياء الله ورسله في يد ، بينما يحملون
في اليد الأخرى معجزات مادية تدل على صدقهم ، وتشهد لنبيتهم !

فالديانة الموسوية .. كتابها السماوي هو التوراة ، وهو دستور شريعته .
ولمّا جانب هذا الكتاب قامت معجزات تشهد له كما تشهد للرسول الذي حمله ..
فكانت عصا موسى ، وأفعالها الخارقة ، وكانت يده التي يدخلها في جيبه فتخرج
بعضاء من غير سوء !

والديانة المسيحية .. كتابها السماوي الإنجيل .. وهو — مع التوراة —
دستور هذه الديانة ، ولمّا جانبه قامت معجزات السيد المسيح ، لتشهد له ،
وللكتاب الذي جاء به . فكانت معجزاته التي طمع بها على الناس ليصدقوا به ،
وبرسالته .. من إحياء الموتى ، وإبراء الكهنة والبرص ، وإفزال مائدة من
السماء وغير ذلك من المعجزات التي وضعها الله بين يدي السيد المسيح !

وقد جاءت الرسالة الإسلامية في أسلوب آخر غير هذا الأسلوب . . جاءت بكتاب يشرع شريعة كاملة ، تتناول كل ما يمس حياة الإنسان الروحية والعقلية ، والمادية ، في جانبيها ، الدنيوي والآخرون . دون أن يحيل إلى كتاب آخر ، أو يشد أتباعه إلى شريعة أخرى — ثم جعل في كيان هذا الكتاب الدلائل الناطقة بصدقه ، والشواهد القائمة على أنه من عند الله ، وأن الرسول الذي جاء به ، هو رسول الله !

وحجى القرآن على تلك الصورة الفريدة العجيبة ، قد جعل له سلطاناً على العقول والقلوب ، بما أودع فيه من صور الإعجاز التي يشهد بها المتأمل به — قارئاً أو مستمعاً — في كل آية من آياته ، من غير أن يكون في زمن نبوة ، أو في حضرة نبي !

وقد استمعت الجن إلى القرآن فسلكت آياته قلوبهم ، واستولت روائعه على عقولهم ، فوقفوا منه موقف العجب والدهش . ثم الإذعان لسلطانه ، والإيمان بدعوته ، التي يدعو إليها .

قال تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا : فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ، قالوا : يا قومنا : لانا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصدقاً لما بين يديه . يهدي إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم » (١) وقال جل شأنه : « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا لانا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدي إلى الرشd ، فآمنّا به ، ولن نشرك بربنا أحداً » (٢)

إن الجن لتعجب من هذا القرآن ، وتجد فيه ما لا تجد فيما تسمع من حكم الحكماء ، وأشعار الشعراء ، وفلسفة الفلاسفة ، وقصص القصاص ، وسجع السكّان ، وترانيم الأحبار والرهبان .

فهذه شهادة تحجى بإعجاز القرآن من أمة الجن التي من شأنها أن تستعلى على

(١) سورة الأحقاف آية ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) سورة الجن آية ١ — ٢

كل شيء في عالم الإنسان ، وتستصغر شأفه .. فإن الجن تملك من القوى ما لا يملك الناس ، وتأتى من الأعمال ما يعجز عنه البشر . ولهذا ينسب إليها كل عمل رائع ، ويوصف بها كل ذى حيلة وحول من الناس ، وقد سخر الله الجن لسليمان عليه السلام لتخرج له من الأعمال ما يعجز الناس عنه .. « يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتمثيل وجنات كالجواب . وقدور راسيات » (١)

ولما للقرآن من هذا الشأن وتلك المنزلة ، وهذا الامتياز على الكلام ؛ فقد أضفى عليه سبحانه وتعالى من الصفات ما يشعر بأنه ذات لها حياتها ، وكالاتها ، ولها فاعليتها في الحياة ، وتبرفها في الوجود .

« يس .. والقرآن الحكيم » .. « وإنه في أم الكتاب لدينا لعلى حكيم » (٢) فقد وصف القرآن بالحكمة .. وهي صفة « الذات » العاقلة المدبرة ، المتصرفة . كذلك وصف بالعزة في قوله تعالى : « وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » (٣)

والعزة صفة للعاقل الذى ترفعه صفاته إلى حيث لا يناهه هون ، ولا يلحقه ضعف ، ووصف كذلك بالمجادة في قوله تعالى : « ق .. والقرآن المجيد » .. والمجادة مقام من مقامات القوة والمنعة ، من بلغها فقد جافبه الحزى والضعف .

وإيس هذا بالكثير على كلام ، هو من كلام رب العالمين .. نزل به الروح الامين على رسوله الكريم .. « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » (٤) .

ومن أجل هذا كان للقرآن هذا السلطان الأسر على النفوس .. فما استمع إليه مستمع حتى وجد له من الرهبة والجلال ما لا يجد شيئاً منه لأروع آيات البيان ، من صور الكلام

جاء عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ، موفداً إليه من قريش ، يدعوه إلى ما أرادت قريش أن تدعوه إليه ، من ترك هذا الدين الذى فرق به بين قومه .

(١) سورة سبأ : آية ١٥ .
(٢) سورة الزخرف : آية ٤٣ .
(٣) سورة فصلت : ٤١ — ٤٢ .
(٤) سورة الحشر : آية ٢١ .

وأشار دواعى العداوة بين الصديق والصديق ، والقريب والقريب ، وعرض عليه ما عرض من صور الإغراء للتخلل عن دعوته . وكان فيما عرض له . أن تلتزم له قریش كل من حذق فى معالجة الصرع والجنون من الكهنة والعرافين ، إذا كان مابه مس من الجن ، أو عارض من الجنون . وأن يجمعوا له ما يشاء من المال إن كان ذلك غايته من هذه الدعوة التى يدعو إليها ، أو يجعلوه ملكاً عليهم إن كان يعنى الملك والسلطان .

فقال له الوليد فيما قال : يا بن أخى : إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر ما لا جمعنا لك من أموالنا حتى تسكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا تقطع أمراً دوفك ، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتىك رؤياً تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . !

فلما فرغ عتبة ورسول الله يسمع قال : أقدم فرغت أبا الوليد ؟ قال : نعم ، قال : فاستمع منى ؟ قال : أفعل ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم . . حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته : قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون (١) ، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها عليه ، فلما سمعها عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه . ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة فسجد . ثم قال : قد سمعت أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك ! »

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله ، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ! ! فلما جالس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورأى أنى سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر . ولا بالكهانة . . يا معشر قریش : أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم . فإن تصبه

العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فلكم ملككم وعزه عزكم ،
وكنتم أسعد الناس به ، فقالوا : سحرك يا أبا الوليد بلسانه ! ، فقال هذا رأي فيه
فاصنعه واما بدا لكم ، (١) .

والرسول الكريم يصف القرآن بصفات تكشف عن الخير الكثير المخبوء
فيه ، وتبين عن الزاد الطيب المشتمل عليه . .

يقول النبي صلوات الله وسلامه عليه : « لأنه ستكون قتن كقطع الليل .. قيل
فما النجاة منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى .. فيه نبال من قبلكم ،
وخبر ما بعدكم .. وحكم ما بينكم . وهو فصل ليس بالهزل .. من تركه تجبراً
قسمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله .. وهو حبل الله المتين .. ونوره
المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم . هو الذي لا تزيف به الأهواء
ولا تشعب معه الآراء . ولا يشبع منه العلباء ، ولا يملأه الانقياء ، من علم عليه
سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هدى إلى
صراط مستقيم » (٢) .

وقال صارات الله وسلامه عليه : « من أراد علم الأولين والآخرين فليثق
بالقرآن » .

من أجل هذا الذي ضم عليه القرآن من جلال ورواء ، مع ما فيه من العلم
والحكمة — فقد وقف القرآن شاخاً عالياً عن أن يطاوله قول ، أو يدانيه بيان ..
غرست الألسنة أن تلك مسالكه ، وأن تبلغ مراميه . . وعرف أصحاب اللسان
والفصاحة مكانهم من الاستخزاء والعجز إذا بدا لهم أن يحاكوه ، أو يجروا على
سننه ، فأمسكوا ما جرى على ألسنتهم من كلام أرادوا أن يجروه في ميدان القرآن ،
يقول ابن عطية في مقدمة تفسيره المسمى « الجامع المحرر » : « ويظهر لك قصور
البشر مطاولة القرآن — أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده

(١) السيرة لابن هشام جزء ١ ص ٢١٣ .

(٢) صحيح مسلم

ثم لا يزال ينقحها حولاً كاملاً ، ثم تعطين لأحد نظيره ، فيأخذها بقرينة خاصة ، فيبدل فيها وينقح ، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل .

وكتاب الله لو نزع منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد » (١)

سمع أعرابي قارئاً يقرأ : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله » ، ثم جعل فاصلة الآية . « والله غفور رحيم » فقال الأعرابي : ما هذا ؟ فقبل له قرآن ، فقال ما هذا بقرآن . فتنبه القارئ ، فصحح فاصلة الآية بقوله تعالى : « والله عزيز حكيم . » فقال الأعرابي : عز ، لحكم ، فقص » ١١

فأجاز القرآن في ذاته حقيقة مقررة لم ينازع فيها أحد من أولياء الدعوة الإسلامية أو خصومها ، فقد وقف متحدياً كل ذى لسان منذ نزل إلى اليوم أن يأتي بآية أو سورة من مثله ، فلم يكن في الناس من وقف في وجه هذا التحدي ولن يكون أبد الدهر .

يقول الجاحظ : إن محمدًا ، صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلامة لها في العقل موقع كوقع فلق البحر من العين ، وذلك قوله لقريش خاصة وللعرب عامة ، مع ما فيها من الشعراء ، والخطباء ، والبلغاء ، والدهاة ، والحلماء ، وأصحاب الرأي والأكيدة والتجارب والنظر في العاقبة — إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي وصدقت في تكذبي . ١

ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم ، واختلاف علمهم ، والكلام كلامهم ، وهو سيد عملهم ، فقد فاض بيمانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغالبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم حتى قالوا في الحيات والعقارب والذئاب ، والكلاب ، والحنافس ، والجعلان ، والحمير ، والحمائم ، وكل مادب ودرج ، ولاح العين وخطر على قلب ولهم بعد أصناف النظم وضروب التأليف كالقصيدة والرجز والمزدوج

(١) مقدمتان في علوم القرآن . . نشرها أرثر جفرى سنة ١٩٥٤ ص ٢٧٩ .

والجائفس ، والاسجاع ، والمنشور.. وبعد ، فقد هاجوه من كل جانب ، وهاجى أصحابه شعراءهم ونازعوا أخطاءهم وحاجوه في المواقف وخاصموه في المواسم وبادروه العداوة ، وناصبوه الحرب ، فقتل منهم وقتلوا منه ، وهم أثبت الناس حقداً ، وأبدهم مطلباً ، وأذكروهم لخير أو لشر ، وأهجموا بالعجز ، وأمدحهم بالقوة - ثم لا يعارضه معارض . ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر ؟

ومحال في التعارف ، ومستنكر في التصديق ، أن يكون الكلام أخصر عندهم ، وأيسر مثونة عليهم ، وهو أبلغ في تكذيبه ، وأقض لقوله ، وأجدر أن يعرف ذلك أصحابه فيجتمعوا على ترك استعماله ، والاستغناء به ، وهم يبدلون معجمهم وأموالهم ويخرجون من ديارهم ، في إطفاء أمره ، وفي توهين ما جاء به - ولا يقولون بل ولا يقول واحد من جماعتهم : لم تقتلون أنفسكم وتستسلمون أموالكم وتخرجون من دياركم ؟ والحيلة في أمره يسيرة والمأخذ في أمره قريب ؟ ليؤلف واحد من شعرائكم وخطباءكم كلاماً في نظم كلامه كأقصر سورة يخذلكم بها ، وكأصغر آية دعاكم إلى معارضتها . (١)

ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

« فالإسلام في هذه الدعوة ، والمطالبة بالله ووحدايته لا يعتمد على شيء سوى الدليل العقلي ، والفكر الإنساني الذي يجري على نظام نظري ، وهو ما نسميه النظام الطبيعي .

« فلا يدهشك بخارق العادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخذش لسانك بمقارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فكرك بسميحة إلهية (٢) .

ويقول أيضاً :

« ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده ، والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة ، تدل على أن موحيه هو الله وحده ،

(١) رسائل الجاحظ ص ١٤٣ .

(٢) الإسلام والنصرانية ص ٥٤ .

وليس من اختراع البشر. هو أنه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتابة ، ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة ، هاديا للضال ، مقوما للمعوج ، كافلا بنظام عام لحياة من يهتدى به من الأمم . . وهذا الخارق قد دعا الناس إلى النظر فيه بعقولهم ، وطولبوا بأن يأتوا في نظرهم على آخر ما تلتهمى إليه قوتهم ، فإن وجدوا طريقا لإبطال إعجازه أو كونه لا يصلح دليلا على الداعي فلهيهم أن يأتوا به . . قال تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله .

معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما بما يتناوله العقل بالفهم فهي معجزة عرضت على العقل . . وأطلقت له حق النظر في أنحائها ، ولشر ما انطوى في أثنائها . . فهي معجزة أعجزت كل طوق أن يأتي بمثلها ، ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منها . أما معجزة موت حي بلا سبب معروف للموت ، أو حياة ميت ، أو إخراج شيطان من جسم ، أو شفاء علة من بدن ، فهي مما ينقطع عنه العقل ، ويحمد لديه الفهم ، وإنما أتى بها الله على يد رسله لإسكات أقوام غابهم الوهم ، ولم يضيء عقولهم نور العلم . وهكذا يقيم الله بذرته الآيات للأمم على حسب الاستعدادات ، (١) .

• • •

لا يعرف التاريخ البشرى كتاباً لقي من العناية والاهتمام ما لقي القرآن الكريم من عناية أتباعه ، واهتمامهم به ، والثناء لهم إليه .

نقول ذلك . . وبين أيدينا الحجة القاطعة في هذا العدد العديدين المؤلفات التي خلعت لخدمة القرآن . وقامت لاستكشاف أسرارها ، واجتلاء ثمرات هديها .

ومن أجل هذا كانت تلك الألوف المؤلفة من كتب التفسير التي ضمت عليها المكتبة العربية ، والتي ذهب أضعافها في ثمانية الفتن والأحداث التي مرت بالمسلمين . وإذا كانت كتب التفسير هي الطريق المباشر الذي سلكه المفسرون لخدمة القرآن ، فإن هناك طرقات أخرى سلكها السالكون لخدمة كتاب الله ، وهي لا تقل أثراً في خدمته عن هذا الطريق .

فهناك العلوم الكثيرة التي عني بها المسلمون دراسة وتأليفاً .. بعضها عربي صميم ، وبعضها أخذته العرب عن غيرهم من الأمم ، فعلوم القراءات ، والفقه ، والنحو ، واللغة ، والأدب ، والمنطق ، والفلسفة ، والطب ، والرياضة ، والفلك .. وكثير غيرها إنما اتجه إليها المسلمون أول ما اتجهوا لخدمة القرآن ، وتمهيد الطرق لفهمه ، وتمهية الأجواء للدلالة على إعجازه ..

فكانت علوم اللغة مثلاً لصيانة مادته .. وكان علم النحو لحفظ إعرابه ، والأدب لتذوق أساليبه ، كما كان المنطق والفلسفة للرد على خصومه .. وهكذا .

ومن عجب أن يكون هذا كله من عمل الأفراد ، ومن وحى ضمائرهم ، دون أن تقوم عليه دولة ، أو تجمع له جماعة .. ولهذا كان ذلك الاختلاف المتشعب في كل علم ، وفي كل فن من فنون العربية وعلومها .. إذ كان كل فن . وكل علم قد اشترك فيه أفراد الأمة — أعني علماءها — فرداً فرداً ، كل فرد له رأيه ، وله فهمه ، ما وسعه الرأي والفهم .

فالمسألة الواحدة يلقاها المفكرون جميعاً ، كل برأيه ، يتناولها حسب استعداده ، واجتهاده .

ومن هنا كان الاختلاف الذي لا يكاد يحصر ، والذي لا نجد له شبيهاً عند أمة من الأمم ، أو في لغة من اللغات .

وحسبنا أن نشير إلى الفقه وما في أحكامه من آراء ، والنحو وما في مسائله من خلاف .

وقد كان لهذا الخلاف في الرأي آثاره الحمودة ، وآثاره السيئة معاً ..

فمن آثاره الحمودة أنه يرى في أي مسألة ، وفي أي حكم آفاقاً من النظر وأنماطاً من الفهم ، يستطيع الوقف على هذه الآراء المتخالفة أن يرى الأمر من جميع جوانبه ، وأن يلقاه من كل وجه من وجوهه .

فإنه في مجال هذا الآراء المتخالفة ، والمقولات المتباينة . يتعري الشيء من لقائف الغموض ، ويتبدى لعين الناظر من غير حجاب .

وهذا المحمود ذاته هو المذموم أيضاً ، فكثيراً ما يشير هذا التناقض للفكرة
بطيلة في الفكر ، واضطراباً في الرأي ، تذهب بالمرء فيه المذاهب ، فتركبه الحيرة
حين تتصادم أمامه الحجج ، فلا يدري ما يأخذ وما يدع ، وما يعمل منها أو يهمل .
وعلى أى فإن كثرة الآراء حول موضوع من الموضوعات إنما هو تمحيص
له آخر الأمر ، ولا يلبث أن يتهدى الناس — مع الزمن — إلى الرأي الراجح
فيه ، والوجه السليم منه .

فلا نفزع إذن لكثرة الخلافات التي دارت حول المسائل الإسلامية - وهي
في الفروع لافي الأصول — ولا ننظر إليها إلا على أنها أضواء كاشفة ، وشعاعات
مضيئة إن زادت بها بعض الأبصار ، فإنه يهتدى بها معظم الأبصار .

• • •

ونعود إلى حديثنا عن القرآن . . فنقول :

لقد بلغت عناية المسلمين بالقرآن أن عدوا حروفه ، حرفاً حرفاً ، وكلماته
كلمة كلمة ، وآياته آية آية . . بل وأكثر من هذا . . لأنهم ردوا حروفه إلى حروف
المعجم كلها ، وحصروا حظ كل حرف منه .

عناية لانظن أنها وجدت لئى أمر اتصل بحياة الناس ؛ أفراداً أو جماعات . .
ولم تسكن هذه العناية بالقرآن إلا من وحى الإيمان به ، وبأنه من عند
الله ، وأن كلماته من كلام الله .

فلم تكن نظرة المسلمين إلى القرآن نظرتهم إلى كتاب سماوى يحمل إلى الناس
شريعة ، ويقيم لهم ديناً ، وإنما هو فوق ذلك كلام الله الأزلى الأبدى . . ففي
كل كلمة أسرار ، وفي كل حرف سر وبركة .

وقد سمح القرآن بأن يغذى هذا الشعور عند المسلمين ، وأن يملأ أيديهم من
أسرارهِ وعجائبهِ ، وأن يصدقهم القول بأنه من عند الله ، وأنه كما يقول الله تعالى

« لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (١) .

وهذا التحدى للجن والإنس على مدى الأزمان هو الذى يقطع كل جدل بأن القرآن هو كلام الله ، وأنه معجزة الرسول الخالدة ، وأن هذه المعجزة قائمة ، وأن هذا التحدى قائم لا تنقضه الأيام ، مهما ولدت الحياة من ذكاء وعبقرية ، ومهما جاء فى الأجيال من أذكىاء وعباقره .

* * *

والظاهرة الواضحة فى التحدى بالقرآن أنها لو ن فريد فى التحدى . . فما عرف الناس قولاً لقائل مهما بلغت بلاغته ، وعلت فصاحته ، أن يتحدى الناس جميعاً أن يقولوا مثل قوله . .

إن موازين الكلام لا تخضع لقاعدة محددة ، ولا تنزل عند شرط معين . . وإنما هى موازين تخضع — فى قدر كبير منها — إلى المزاج ، وإلى العاطفة والوجدان . . إلى جانب العقل ومنازع التفكير .

إن فن القول واحد من الفنون الجميلة كالموسيقى ، والنحت ، والرسم . . تتفاوت أقطار الناس فيها ، وتختلف معاييرهم لها . .

ومن هنا لم يحفظ التاريخ الإنسانى حكماً قاطعاً على عمل فنان أو جانب من عمله ؛ أنه نهاية القمة ، التى لا يلقى لمليها مرتق ، أولاً يجاوزها أحد .

وغاية ما يمكن أن يقال إزاء عبقریات الفنون وروائعها أنها أعمال خالدة ، أو أنها فريدة من فرائد الفنون .

خذ مثلاً لذلك الشعر الجاهلى . .

لم يستطع النقاد على كثرة محاولتهم وطول نظرهم فيه ، أن يضعوا شعر شاعر فى المنزلقة المنفردة وحدها بالمسكان الأول . . وغاية ما بلغوه فى هذا أن عدوا جماعة من كبار الشعراء ، ورفقوهم إلى المسكان الأول جميعاً ، وأفسحوا لكل واحد طريقاً يدخل منه إلى هذا المسكان . . أمرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ،

والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب (١) .. إلى آخر هذه الأحكام التي كانوا يحكمون بها على عمل شاعر من أولئك الشعراء الكبار .
وأكثر من هذا ، فإنهم في ديوان الشعر العربي عامة لم يتفقوا على البيت الأول أو القصيدة الأولى في هذا الشعر .

وهذا الذي نقوله في الشعر العربي نقوله أيضاً في الشعر الأوربي .. فهذا « شكسبير » قد عاش زمناً في منزلة الرجل الإلهي ، ثم لم يلبث الزمن أن أضاف أدبه إلى المتحف الذي يضم كنوز التراث الإنساني .
إن شعر « شكسبير » وإن كان آية الآيات في روعة البداهة ، وعمق الفكرة ، ورصانة الأسلوب .. فإنه قد مضى زمنه .. وأصبح من مخلفات القرون ، وآثار الأولين .. لا يلائم روح العصر ، ولا يجرى مع أسلوب التعبير الذي يتفق مع أذواق الناس .. إنه أشبه بالخلي التي كان يلبسها ملوك العصور الوسطى .. رائعة ، معجبة بألوانها ، وأصباغها .. إلا أنها لا تلبس في هذا العصر إلا في حفلات التنكر ، وعلى مسارح التمثيل في الروايات التاريخية .

* * *

وإذا كان القرآن بهذه المنزلة في قلوب المسلمين ، وإذا كان ذلك هو إيمانهم به ، وتقديرهم له ، واجتماعهم عليه ، فإن أعداء الإسلام وقفوا من القرآن موقف المستخف به ، العائب له ، المشكك في منبعه الذي فاض منه ، وفي الوحي الذي نزل به ، وفي الرسول الذي دعا الناس إليه !
وسنرى كيف كان كيد أعداء الإسلام لكتاب الإسلام ، ولنبي الإسلام . وكيف كانت رمياتهم الطائشة تكاد تصيب المقاتل من رماثها .

ويلوح هنا سؤال : إذا كان القرآن على تلك الصفة الذي يجعل له ذلك السلطان القاهر على النفوس ؟ وإذا كان يحمل في كيانه دلائل إعجازه . فما الحاجة إلى النبي ؟ وإذا كان هناك ما يدعو إلى نبي يقدمه للناس ، فإن مهمة النبي (١) أي أن كل شاعر من هؤلاء كان مبرزاً في فن من فنون الشعر ، فأمرؤ القيس في الصيد ووصف الخيل ، والنابغة في الاعتذار ، والأعشى في وصف الحمر ، وزهير في المدح .

لأنه قد أن يعرض القرآن عرضاً ، ثم يدعه يحدث عن نفسه ، ويشهد لإعجازه .
ولأن تكون مهمة الرسول هيئة محددة ، ويكون دوره في الرسالة الإسلامية
دوراً ثانوياً ، يستطيع كل إنسان أن يؤديه من غير أن يكون مزوداً بقوى خاصة
في كيانه الروحي ، والنفسي ، والعقلي ، والجسدي . . فما تأويل هذا ؟

ونقول :

أولاً : لابد من رسول يبلغ دعوة الله ، وينقل كلماته إلى الناس . . وهذا
ما ينبغي أن يسلم به بادية ذي بده ، فإن كلمات الله إنما تحمل إلى الناس بواسطة
رسل يتخيرهم الله لهذه المهمة العظيمة . . فكان « محمد » هو الرسول المختير لتلقي
القرآن وتبليغه .

وثانياً : كون القرآن يحمل في كيانه دلائل صدقه وإعجازه لا يخفف العبء
الملقى على كاهل النبي ، ولا ييسر مهمته في تبليغ دعوته ، بل إن ذلك الموقف ذاته
يدعو إلى أن يكون النبي الذي يحمل هذه الرسالة مزوداً بصفات . . أقوى وأعظم
من تلك الصفات التي زود بها إخوانه من الأنبياء . . فيكون هو في ذاته معجزة
يتأدى منها إلى الناس شواهد تشهد له ، وتنبئ عن صلته بالسماء ، بما يحمل في
كيانه من أمارات السموات ، والعظمة ، والنبيل ، التي لا ترى على صورتها الكاملة في
أحد غيره .

إن دلائل الإعجاز في القرآن مع أنها تنظم القرآن كله ، وتجرى في كل آية
من آياته . . لا تكفي وحدها في حسن استقبال الناس لها ، وفي صدق نظرهم
إليها ، ووزنها بميزان الحق والإنصاف . . فإن الضلال والعتاد الذي يستولي على
كثير من النفوس يعمى على الناس سبل الهداية ، ويضيف عليهم حقائق الأشياء ،
فإذا الخير في أعينهم هو الشر الصراح ، وإذا النعمة المسافة إليهم نقمة وبلاء .
وشواهد التاريخ أكثر من أن يرصدها عد .

فلقد جاء موسى إلى فرعون بالمعجزات المحسوسة القاهرة : فألقى عصاه فإذا
هي ثعبان مبين ، ونزع يده . فإذا هي بيضاء للناظرين ، (١) . فكان ذلك في نظر

(١) سورة الأعراف : آية ٢٠٨ .

فرعون سحر ساحر، وشعوذة مشعوذ .. وقال فرعون : « إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم ؟ فإذا تأمرون ؟ قالوا أرجه وأخاه ، وأبعث في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم » (١) .

واجتمع السحرة لبيطلوا سحر « موسى » .. واجتمع الناس ليشهدوا هذا الأمر .. وقيل للناس : هل أنتم مجتمعون ؟ لعلمنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، (٢) .

« فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ، قال نعم وإنكم إذن لمن المقربين » ١ .

« قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون .. فألقوا حبالهم وعصيهم ، وقالوا بهزة فرعون .. إنا لنحن الغالبون .. فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون » . (٣) .

« فوقع الحق ، وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك ، واثقبلوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين ، قالوا آمنا برب العالمين .. رب موسى وهرون » (٤) .
 إن أهل الدراية والخبرة هم الذين عرفوا فرق ما بين الحق ، والسحر .. وتكشفت لهم المعجزة فأمنوا .. أما فرعون فقد ظل سادراً في ضلاله حتى بعد أن خذله من اعتز بهم واستنصر .. فقال « ما أتم له قبل أن أذن لكم ؟ إنه لسكير كرم الذي علمكم السحر .. فسوف تعلمون ، (٥) .

ثم ، كم من آية جاء بها موسى إلى بني إسرائيل فما تكاد تغرب شمس يومها يزحف ظلام الكفر والضلال على قلوبهم .. ويتأج الأمر إلى معجزة جديدة ، ثم لا تلبث أن تغرق في طوفان الظلام . وهكذا تتتابع الآيات ، وتترى المعجزات واحدة إثر أخرى ، والظلام يزداد تكاثفاً ، والقلوب تزداد صلادة وقسوة !

(١) سورة الشعراء: آية ٣٤، ٣٥ .

(٢) سورة الشعراء: آية ٣٩، ٤٠ .

(٣) سورة الشعراء آية ٤٢، ٤٣ .

(٤) -ورة الأعراف: آية ١١٨ - ١٢٢

(٥) سورة الشعراء: آية ٤٩ .

وعيسى عليه السلام يرى الناس معجزات قاهرة باهرة : يحيى الموتى ، ويرى
العلل التي لا يعرف الطب لها دواء ، وينزل مائدة من السماء . . فما تفعل كل هذه
المعجزات في قلوب القوم شيئاً ، ولا تزيدهم إلا إصراراً على ما هم فيه من
كفر وضلال !

فإذا كان هذا هو شأن الناس مع المعجزات المحسوسة التي تقع بين أيديهم ،
وتحت أسماعهم وأبصارهم ، فإن ذلك يكون أشد وأقوى ، في وجه المعجزات التي
يسدل عليها من وحى الكلمات وهدايا الالفاظ ، في القرآن الكريم ؟

إن الإعجاز القرآني يخاطب العقل ، ويناجي الوجدان ، على حين أن الإعجاز
في معجزات الرسل إنما يجابه الحواس ، ويصادم ناموس الطبيعة القائم في الناس ،
فيحدث في الحياة زلزلة عنيفة ، تنبه الغافلين ، وتوقظ النيام .

لهذا كان الإعجاز القرآني في حاجة ملزمة إلى قوة تظاهره ، وتفتح له القلوب ،
وتوجه إليه العقول ، وتقيم له في الحياة مكاناً راسخاً ، وتجعل له في الناس
قدماً ثابتاً .

وهذه القوة التي يحتاج الإعجاز القرآني إلى مظاهرها ينبغي أن تكون هي
ذاتها معجزة ، تتكشف في كيانات آيات القرآن ، وتجلي في أفعالها وتصرفاتها
أضوائه وأنواره . . وذلك ما كان عليه الرسول الكريم ، الذي حمل إلى الناس
معجزته الخالدة . . « القرآن » ، فكان هو صلوات الله وسلامه عليه عنوان هذا
الكتاب الكريم . قرأ فيه الناس — قبل أن يقرأوا آيات الكتاب — آيات
محكمة معجزة . . من الخلق العالی ، ومن الأدب الرفيع . . فكان كما يقول عن نفسه :
« أدبني ربي فأحسن تأديبي ، . . وكما وصفه القرآن بهذا الثناء العظيم من رب
العالمين : « ولأنك لعلى خلق عظيم » (١) . . وكما تقول السيدة عائشة في كتبها الجامعة
لصفاته : « كان خلقه القرآن » .

فليس في إعجاز القرآن على تلك الصفة التي اشتمل عليها في كيانه ما يخفف

من مهمة الرسول الكريم في أداء رسالته ، وفي تجلية حقيقتها للناس . . بل إن الرسالة التي تجيء على تلك الصورة ، فتحمل الإعجاز بين طياتها ، وفي ثنايا حروفها وكلماتها في حاجة أشد الحاجة إلى مبلغ يتخير لها من الصفوة الكرام في الرسل .
ليستطيع — كما قلنا — أن يفتح لها القلوب ويوجه إليها العقول ، ويهيء لها مكاناً آمناً مستقراً في الحياة ، لتظل كهذا أبد الدهر مصدر إشعاع للمؤمنين ، ومنار هدى للسالكين . .

ولولم يكن من وراء القرآن تلك الشخصية العظيمة التي وقفت تلتقي به على الإسماع آية آية ، وسورة سورة ، خلال ثلاث وعشرين سنة — لظل القرآن — إن يكن قدر له وجود على غير تلك الصورة — لظل كنزاً مخبوءاً ، لا يعرف الناس ما يضم من خير ، وما يحوى من رحمة وهدى !

إن الذي يقرأ القرآن غير متمثل تلك الذات الكريمة التي حملته إلى الناس ، وأذنت به فيهم ، ليفقد كثيراً من ذلك الجلال والجمال الذي كان جديراً أن يجده لو أنه قرأه متمثلاً صاحب الرسالة . . يتلقاه من السماء ، ويحرك به لسانه قرآناً عربياً لقوم يؤمنون !

إن أنفاس الرسول الكريم لتسرى في آيات الكتاب آية آية . . وإن شميم سيرته الطيب ليفوح في ثنايا كلمات الكتاب الكريم وحروفه .

ومن هنا ندرك العبء الثقيل الذي حمّله الرسول الكريم في تبليغ الرسالة ، وحملها إلى مواطن الإقناع والإيمان من الناس . . فإنهم يطالبون النبي بمعجزات محسوسة تصدق دعواه ، وهو لا يملك معجزة غير هذا الكلام الذي يوحى إليه :
« أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » (١) .

ومن هنا أيضاً ندرك ثقل هذه المهمة ، التي يقوم بها الرسول وليس بين يديه معجزة محسوسة . . يغشى بها الأبصار ، ويخرق بها الأسماع ، ويذهل بها العقول .

لأن كل ما بين يديه هو هذا الكلام الذى يوحى لإليه . وهو معجزات تملأ الوجود ، لو وجدت عقولا سليمة وقلوباً واعية . . . وهيهات أن تجد تلك العقول ، وهذه القلوب فى ظلام الجاهلية ، وفى عصبية قريش وكبريائها .

ومن أجل هذا دعا الله نبيه أن يحمل عبء هذه الجهاد ، وأن يصبر له . . . فإن العبء الذى ألقى عليه عبء لا يستقل بحمله غير أولى العزم من الرسل . . . فاضرب كما صبر أولو العزم من الرسل (١) . . . وإنا سنلقى عليك قسولا ثقيلا ، (٢) . . . فلا تطع الكافرين وجاهدكم به جهادا كبيرا ، (٣) .

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . . . وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحى الله لى . . . فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

يقول القاضى عياض : « معنى هذا عند المحققين بقاء معجزته ، ما بقيت الدنيا . . . وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين ، ولم يشاهدها إلا الحاضر لها ، ومعجزات القرآن يقف عليها — الناس — قرناً بعد قرن عياناً ، لا خبراً ، إلى يوم القيامة » (٤) .

ومعنى هذا أيضاً أن معجزات الرسل معجزات تحمل فى كيانها قوة قاهرة ، يخضع لها الناس لمجرد ظهورها فيهم . . . فإن أية ظاهرة خارقة من ظواهر الطبيعة يجتمع لها الناس ، ويقولون فيها ما يقولون ، ثم يجتمعون عليها ويستجيبيون لها . . . فما أكثر ما تجرف العجائب والزرائب — حتى الزائف منها — أفئدة كثير من الناس ، وتستهوئ قلوبهم . . .

ونحن نشهد فى الحياة ما بفعل مهرة المشعوذين بآلباب الناس ، بما يدون لهم من ضروب الخوارق الزائفة التى تعتمد على الخداع والتضليل . فكيف بالمعجزات السماوية التى تطلع على الناس على غير مألوف الحياة كما لو تطلع الشمس فى منتصف الليل ، ووسط ظلامه الحالك ؟ .

(١) سورة الأحقاف: آية ٣٥ . (٢) سورة المزمل: آية ٥ .

(٣) سورة الأحقاف: آية ٥٢ . (٤) الشفا فى التعريف بحقوق الاصطافى ص ١٣٥ .

فتلك هى معجزات الرسل ، يؤمن الناس على مثلها ، ولو لم تقع على يد رسول
يتحدى الناس بها . .

أما معجزة محمد ، فهي وحى أوحى الله إليه . . تدرك المعجزة فيه عن
طريق العقل . . والعقل يصحب الناس جميعاً ، على اختلاف أزمانهم وأوطانهم .
إن معجزات الأنبياء أمام مشاهديها وحدهم ، وليس لغيرهم حظ منها ،
أو نصيب فيها . .

أما معجزة محمد ، فهي تجاه العقل الإنسانى كله . . لكل إنسان نصيبه فيها ،
وحظه منها . .

« إن معجزة الأنبياء الذين سبقوا محمداً » كانت فى الواقع معجزات وقتية ،
وبالتالى معرضة للنسيان السريع . بينما تستطيع أن تسمى معجزة الآيات القرآنية
المعجزة الخالدة . . وذلك أن تأثيرها دائم ، ومنفعولها مستمر ، ومن اليسير
على المؤمن — بل وغير المؤمن — أن يرى فى كل زمان ومكان — أن يرى
هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله .

وفى هذه المعجزة نجد التعليل الشافى للانتشار الهائل الذى أحرزه الإسلام .
ذلك الانتشار — الذى لا يدرك سببه الأوربيون ، لأنهم يحملون القرآن ،
أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة ، فضلاً عن أنها
غير دقيقة (١) .

ويقول ابن خلدون : « فاعلم أن أعظم المعجزات ، وأشرفها ، وأوضحها
دلالة — القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الخوارق
فى الغالب تقع مغايرة الوحي الذى يتلقاه النبى ، ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه ،
والقرآن هو بنفسه الوحي المدعى ، وهو الخارق المعجز . . فشاهده فى عينه ،
ولا يفتر إلى دليل مغاير له ، كسائر المعجزات مع الوحي . . فهو أوضح دلالة ،
لاتحاد الدليل والمدلول فيه . . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « ما من

(١) محمد رسول الله . . ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود .

نبي من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إلی، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة . . .
يشير إلی أن المعجز متى كان بهذه المثابة فی الوضوح وقوة الدلالة، وهو كونها نفس الوحى — كان الصدق لها أكثر، لوضوحها فكثير المصدق والمؤمن، وهو التابع والامة، (١).

ويمكن أن نحصر مقولات أولئك المدعين على القرآن تلك الادعاءات الباطلة في أمور . . منها :

أولاً — أسلوب القرآن :

فقد وقف الغربيون من أساليب القرآن مواقف متناقضة، فبينما يرفعه بعضهم إلی منزلة الإعجاز التي أودعها الله فيه، إذا يحرزحه بعضهم عن تلك المنزلة، ويرميه بالغموض، وبالتكرار، وبما شاء خياله المريض أن يصوره له من صور الزرارية والتبرج !

بل إن الكاتب الواحد ليقع في هذا التناقض في مقرراته التي ينتهي إلیها في أية نظرة ينظرها إلی القرآن . . فإذا قال قولاً لم يثبت عليه، وجاء في أعقابه بتدريبات وتعليقات، تقف منه موقف الخلاف والمناظرة .

وأغلب ما يقع من ذلك التناقض عند أصحاب الآراء المحررة من الهوى والنعصب إنما هو نتيجة عدم الفهم لطبيعة الوحى، وللأسلوب الذي نزل به القرآن .

وقد قلنا من قبل إن علماء الغرب عامة يعتقدون أن القرآن من « منع ومحمد، وأنه إذا كانت بينه وبين السماء صلة فهي صلة غامضة يتلقى منها إشارات مبهمه يحولها إلی أفكار، ثم يترجمها في ألفاظ وعبارات هي « القرآن » .

وإلى هذا الجهل بطبيعة الوحي ، وبصلة محمد بالسماء جهل آخر بمعرفة اللغة العربية ، وبندوق أساليب الجمال فيها . والاهتداء إلى مواطن الحسن منها . . . قالوا أن هؤلاء الباحثين في القرآن من أولئك العلماء حضا من الحس الفني بأساليب البيان لوقاهم ذلك شر هذه المزالق التي كثرت فيها عثراتهم وسقطاتهم في القرآن ، فقالوا تلك المقولات الهزيلة الباطلة .

محمد والقرآن عند غير المسلمين :

أشرنا من قبل إلى أن الذين عرضوا للبحث في العقيدة الإسلامية من غير المسلمين كانوا من أمرهم على غير بينة . . . سواء منهم من جاء إلى تلك الدراسة بقلب مريض ، يحمل للإسلام الحقد والعداوة ، أو من جاء إليها باسم العلم ، وتحت راية البحث عن الحقيقة .

ذلك أن هؤلاء جميعاً ينسبون القرآن إلى «محمد» ، ويجعلونه من صناعه ، وتدبيره . . . وأهداهم طريقاً في هذا الشأن — وهم فقر قليل — من يرى أن محمداً كان يتلقى أمر السماء في صورة إشارات ورموز أشبه بالخواطر التي يجدها الإنسان عند شأن مع الشئون التي يهتم لها ويعنيه أمرها . . . ثم يتولى «محمد» صياغة هذه الإشارات أو الخواطر ، في قوالب لفظية هي ما عرف باسم القرآن .

ونقول : إننا قد أشرنا إلى هذا من قبل ، وكشفنا عن الدوافع التي تولدت عنها هذه الأباطيل — سواء أكانت متعددة أم غير متعددة — ونريد أن نقف هنا ووقفه خاصة مع أولئك الباحثين الذين نرى أنهم طلبوا وجه الحق في هذا الأمر ، فأخطأهم التوفيق للوصول إليه . أما تلك المفتريات المتعمدة فإنها تحمل في كيائها معاول هدمها ، التي ينكر آخرها أولها ، ويتقضى لاحقها سابقها . . .

واستمع في هذا إلى قول عالم تحسبه من أصحاب الآراء الحرة ، ونراه من طلاب الحقيقة فيما يعرض له من دراسة وبحث في الشريعة الإسلامية . . . هذا العالم هو «جرونيباوم» مؤلف كتاب «حضارة الإسلام» . . .

وهو على ما به من هذه الصفات التي نراها فيه، وعلى ما بذل من جهد في التحقيق والتمحيص — لم يستطع أن يحتفظ توازنه وهو يعبر الطريق إلى الحقيقة التي كان يشهد الوصول إليها — حسب رأينا — في شأن القرآن .

استمع إليه في حديثه عن أسلوب القرآن . يقول :

« لقي أسلوب القرآن من الغربيين نقداً إجماعياً شديداً ، وشاركهم في ذلك بعض المسلمين ، !

هذه حقيقة يقررها « جرونيباوم » في شأن حملات النقد التي لقيها القرآن من الغربيين عامة ، ولا شيء في هذا ، فذلك أمر معروف سلفاً . . أما مشاركة بعض المسلمين في هذه الحملات فلا يمكن أن تكون .. ولا ندفع هذا بمستند تاريخي ، وإنما مستندنا في دفعه هو أن المسلم الذي يستحق هذه الصفة لا يمكن أن يكون مسلماً وفي قلبه شيء من الارتياب أو الشك في أن القرآن كله كلام الله . . وهيهات أن يعقل أن إنساناً يؤمن بالله ثم يطعن في كلامه !

ثم يقول « جرونيباوم » :

« وقد يكون لبعض هذا النقد ما يبرره .

« على أن غلو الغرب عامة في هذا النقد إلى حد إنكار ما للقرآن من فضائل لغوية ، وإسناد التكرار وغيره إليه ، ليس من الإنصاف ولا التقدير الحسن في شيء . .

إذن ما هو الإنصاف وما هو التقدير الحسن عند « جرونيباوم » ، إذا كان يأخذ على قومه عدم إنصافهم للقرآن وسوء تقديرهم له ؟ .

لنستمع إلى رأيه في هذا . . يقول :

« فالكتاب على ما هو عليه اليوم بين أيدينا ليس هو الكتاب كما أبلغنا إياه محمداً . .

ياخيبة الأمل . أهذا هو الإنصاف ، أهذا هو التقدير الحسن ؟ .

واستمع إلى ما هو أدهى وأمر . . . يقول :
« بل الواقع أن كتاباً بأكمله لم يوح إليه قط .
« بل كانت توحى إليه رؤى قصيرة ، ووصايا ، وأمثال ، وقصص ذات
هزلي ، أو أحاديث في أصول العقيدة » (١)

ما مصدر هذه الرؤى ؟ وما طبيعتها ؟ أم هي منزلتة من السماء أم هي أبنخرة
تفيض من خواطر ومحمد ، وتندرب من مسارب تفكيره ؟ أم هي رسالة سماوية
يحملها ملك كريم ، إلى نبي كريم أم هي همسات جن ووسوسة شيطان يلقى بها
في قلب كاهن ، أو سمع ساحر ؟

لا تعدو المسألة أحد هذين الأمرين : نبي ، أم مشعوذ . . .
فإن كان نبياً فالصلة التي تكون بينه وبين السماء لا تكون صلة رؤى وأحلام ،
ولأنما هي صلة واعية مدركة ، تلمس الحقائق ، وتملاها يديها .

وإن كان مشعوذاً ، فهذا شأن آخر !

ثم يقول :

« ولعله — أي النبي — كان ينوي أن يجمع شتيت أجزائه المتعددة — أي
أجزاء الرؤى التي صورها محمد قرآناً — وأن يجمدها — إن صح هذا القول —
حتى تتخذ صورة القوانين الدينية ، وإن لم يكن في الإمكان إثبات ذلك » .
ولعل هذا القول هو أشنع قول وأنكره في شأن القرآن .

أترك محمد ، حقاً هذه الدنيا ، وأخلي مكانه منها قبل أن يتم رسالته التي
فدبته السماء لها ؟ أم هذا عمل يليق برسالة دنيوية بعث بها مبعوث من دولة أو سلطان ؟
أيكون من حسن الرأي والسياسة أن يكون هذا المبعوث قائماً بين يدي من
بعث إليه ، يؤدي ما أرسل به ثم يعزل قبل أن يتم رسالته ؟ وإذا جاءت ظروف
قاهرة اقتضت عزله ، ألا يكون هناك من يقف موقفه ويكمل ما بدأ به ؟ ذلك
أقل ما ينبغي أن يحدث لسد هذا الخلل ، الذي لا يمكن أن يقع إلا تحت ظرف
قاهر لا يستطيع الناس دفعه ! .

فهل يتصور أن تعجز السماء عن أن تتضمن لرسولها المبلغ عنها أن يقوم على أداء الرسالة إلى غايتها؟ أين تدرة الله إذن؟ وأين الحكمة المرادة من رسالته؟ لا ، لا ، إن ذلك القول لا يستقيم مع منطقي ، ولا يجري مع تفكير سليم أبدا .

أما وثائق التاريخ الوثيقة المحررة ، فإنها تشهد بأن رسول الله قد بلغ الرسالة على وجهها الأكمل ، وأنه ظل قائما عليها يتلوها آية آية حتى فرغ منها في ثلاث وعشرين سنة . .

لقد كان من تدبير السماء أن تمتد للرسول أسباب البقاء في مقام التبليغ ، وأن تلقى إليه بين وقت ووقت بحافب منها . فكان كل يوم — خلال الثلاث والعشرين سنة — يتوقع رسالة جديدة من السماء يخبرها إلى رسالته . . حتى إذا بلغ الكتاب أجله ، وتمت كلمة الله آذنت السماء للنبي بذلك ، وأعلنته بانتهاء مهمته . . فجاءه الروح الأمين جبريل عليه السلام يوحى إليه قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » . . فكانت هذه الآية من أواخر ما نزل من القرآن ، وفهم كثير من المسلمين عند نزولها أنها تنهى لإيهم رسول الله .

هذا ما نزل به القرآن صريحا في هذا الشأن . . وهو وثيقة لا تقبل شكاً ، ولا جدلاً باتفاق المسلمين ، وغير المسلمين .

أما ما وردت به الأخبار الصحيحة ، فهو أكثر من أن يحصى أو يحصر ، وجميعها تجتمع على أن القرآن قد تم على هذه الصورة التي بين دفتي المصحف قبل أن يترك الرسول هذه الدنيا ، وأنه كان محفوظاً حفظاً موثقاً في كثير من الصدور ، كما كان مجموعاً جمعاً كاملاً عند كثير من الصحابة .

وثابت من الأخبار الصحيحة أن جبريل كان يراجع النبي ويدارسه القرآن مرة في شهر رمضان ، وفي السنة التي توفي فيها الرسول قرأه عليه مرتين لا مرة واحدة . . فكان ذلك إشارة وداع بين جبريل ، وبين النبي .

أما ما صنعه أبو بكر ، في شأن القرآن ، فلا يمدو أن يكون نقلا له من الصدور التي حفظته بعد أن استشهد عدد كبير من الحفاظ في حروب الردة ، وفي حرب و البامة ، بالذات ، مع مسيلة الكذاب !

إن الذي فعله أبو بكر هنا هو أن يكتب القرآن في صحف حتى يظل بأمن من خطر النسيان عند من حفظوه ووعوه في صدورهم ، أو من خوف افتقار حفاظه بالموت في مواطن الجهاد .

فيكون من الحزم أن يقع هذا العمل ، وأن يكون بين يدي خليفة رسول الله وثيقة كاملة من كتاب الله .

أما ما كان مكتوباً من قرآن بصورة كاملة ، أو غير كاملة عند الصحابة ، فلم يكن على الصورة المطلوبة لحفظه وصيائه . . . إذا كان الذين أخذوا أنفسهم بكتابة القرآن إنما فعلوا ذلك لغاية أخرى غير التي قصد إليها أبو بكر ، وهي أن يستأنسوا لما حفظوا بما كانوا يكتبون ، وليكون ذلك المكتوب مرجعاً خاصاً لهم عند النسيان أو الشك في آية أو كلمة ، أو حرف ! .

وفضلاً عن ذلك . فإن هذا المكتوب كله كان في رقاع مختلفة الأشكال والأحجام والأنواع . . . فكانت صحف القرآن عند جامعيه أنماطاً غريبة من كل ما كان يكتب فيه ذلك المين . . . فبعض الصحف من العظام . وبعضها من سعف النخيل ، وبعضها من قطع الجلد ، وبعضها من الفخار أو الخزف . . . إلى عديد مما كان يصلح للكتاب ويهيئونه للكتابة من أية مادة تصلح للخط عليها . .

وفضلاً عن ذلك أيضاً ، فإن المداد الذي كان يكتب به كان في اختلاف صورته وألوانه على صورة أشد مما كان عليه اختلاف الصحف والرقاع .

إن الذين أخذوا أنفسهم بكتابة القرآن لم يكن بين أيديهم شيء من وسائل الكتابة في صورة مهيأة لأداء هذه المهمة ، يجدها الكتاب حاضرة بين يديه في كل حال ، وإنما كانت تنزل آيات الكتاب على رسول الله ، فيتلوها على أصحابه فيحفظونها . ثم يبادون إلى كتابتها بما يقع لا يديهم من رقاع أو مداد .

فهى على صورتها تلك لا تصلح أن تكون مستنداً قريب المأخذ سهل التناول، واضح المعالم يمكن الرجوع إليه بعد فترة من الزمن .

أما الصور التى كتب القرآن فى عهد أبى بكر فقد كانت أقرب إلى السكال من أية صورة كتب بها إلى ذلك الحين ..

فلقد اجتمعت الدولة لهذا العمل ، وحدثت له ما عندها من إمكانيات مادية وإنسانية . ليحىء على الصورة التى تحقق الصور المنشودة ، وهى تسجيل القرآن فى سجل من صحف خفيفة الخلل ، مصقولة ، منسقة أشبه بمانرى فى تلك المخطوطات التى سبجات فى القرن الأول أو الثانى .

أما ماصنعه د عثمان ، رضى الله عنه فقد كان غايته جمع المسلمين على قراءة واحدة بعد أن كثرت اختلافات القراء مما عده المسلمون أمراً خطيراً ، قد تعمق جذوره وتمتد ، فتصل إلى القرآن فى أصوله ذاتها .

فأراد « عثمان » أن يضع حداً لهذا الخلاف ، وأن يجمع المسلمين على قراءة واحدة هى قراءة زيد بن ثابت ..

وليس الخلاف الذى اهتم له د عثمان ، وفزع منه خلافاً فى ترتيب الآيات فى السور ، ولا فى زيادة آيات ونقصها .. فقد كان القرآن مرتب الآيات والسور على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يقع خلاف فى وضع آية مكان آية ، ولا زيادة أو نقص فى آيات آية سورة ، وإنما كان الخلاف فى النطق ببعض الكلمات من إمالة أو إثمَام أو إدغام ، أو فى صورة الكلمة التى لا يخرج الاختلاف فيها عن معناها ، وذلك على ما نراه فى القراءات المعروفة التى يقرأ بها القراء اليوم .

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : مررت بهشام بن حكيم بن حزام وهو يقرأ الفرقان - أى سورة الفرقان - فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمعت قراءته ، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة ، لم يقرئها رسول (١٩م - النبى محمد)

الله صلى الله عليه وسلم ، فكادت أساوره (١) في الصلاة ، فانتظرت حتى سلم ، فلما سلم ، لببته بردائه ، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي أسمعك تقرؤها ؟ قال : أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : كذبت ، فوالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أقرأني هذه السورة التي تقرؤها . . قال : فانطلقت أقوده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا رسول الله . . إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، وأنت أقرأني سورة الفرقان ! قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أرسله يا عمر . . اقرأ يا هشام . . فقرأ عليه القراءة التي سمعت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هكذا أنزلت . . ثم قال : اقرأ يا عمر . . فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : هكذا أنزلت . . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فأقرأ منه ما تيسر ، (٢) .

وعن أبي بن كعب قال : اختلفت أنا ورجل من أصحابي في آية ، فترافعنا فيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اقرأ يا أبي ، فقرأت ، ثم قال للآخر ، اقرأ ، فقرأ فقال : كلا كما محسن بحمل ، فقلت : ما كلانا محسن بحمل (٣) ؟ قال : فدفع رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدرى ، وقال : أى أبى إن القرآن أنزل على . . فقلت : على حرف أم حرفين ؟ فقلت : بل على حرفين . . ثم قيل لى : على حرفين أم أربعة أحرف ؟ فقلت : بل على أربعة ، فلم يزل بي حتى انتهى إلى سبعة أحرف ، كلها كاف شاف ، ما لم تختم آية رحمة بآية عذاب ، أو آية عذاب بآية رحمة . . وإذا كانت « عزيز حكيم » فقلت « سميع عليم » ، فإن الله « سميع عليم » ، (٤) .

(١) أساوره : أخذ برأسه ، أو وثب عليه .

(٢) مقدمتان في : علوم القرآن ص ٢٠٧ ، والرسالة للأمام الشافعى ص ٢٧٣ .

(٣) « ما » هنا استفهامية وليست نافية .

(٤) مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٠٨ .

والاختلاف في القراءات يقع على وجوه منها :

أولاً : الاختلاف في إعراب الكلمة أو حركات بنائها ، لا يزيلها عن صورتها في الكتابة ، ولا يغير معناها نحو قوله تعالى : « من أظهر لكم » (١) .
« من أظهر لكم » .. وقوله : « وهل يجازى إلا الكفور » (٢) ، و « هل يجازى إلا الكفور » .. وقوله : « يأمرن الناس بالبخل » (٣) و « بالبخل » .

ثانياً : الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها ، بما يغير معناها ، ولا يزيلها عن صورتها ، نحو قوله تعالى : « ربنا باعد بين سفارنا » (٤) و « ربنا باعد بين أسفارنا » ، وقوله : « وادكن بعد أمة » (٥) ، و « بعد أمة » .

ثالثاً : أن يكون الاختلاف في حرف الكلمة دون إعرابها بما يغير معناها ، ولا يزيل صورتها ، ونحو قوله تعالى : « وانظر إلى العظام كيف ننشزها » (٦) .
وننشرها .

رابعاً : أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتابة ، ولا يغير معناها ، كقوله تعالى : « وإن كانت إلا صيحة واحدة » (٧) و « صيحة واحدة » و « كالمهن المنفوش » (٨) و « كالصوف » .

خامساً : أن يقع الاختلاف بالتقديم والتأخير ، نحو قوله تعالى : « وجاءت مسكرة الموت بالحق » (٩) « وجاءت مسكرة الحق بالموت » .

سادساً : أن يكون الاختلاف بما يزيل صورة الكلمة ومعناها ، كقوله تعالى : « وطلع منضود » و « وطلع » (١٠) .

سابعاً : أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان ... كقوله تعالى :

- | | |
|------------------------|--------------------------|
| (١) سورة هود : ٢٨ - | (٢) سورة النساء : ٢٧ . |
| (٣) سورة البقرة : ٣٧ - | (٤) سورة سبأ : ١٩ |
| (٥) سورة يوسف : ٤٥ - | (٦) سورة البقرة : ٢٥٩ . |
| (٧) سورة يس : ٢٩ | (٨) سورة القارعة : ٥ . |
| (٩) سورة قى : ١٩ | (١٠) سورة الواقعة : ٢٩ . |

« وما عملت أيديهم » « وما عملته » (١) .. وقوله : « فان الله هو النفي الحميد » (٢) ..
و « فان الله الغنى الحميد » .

ففي هذا المجال كان يقع الخلاف بين القراء والدارسين لكلام الله .. فيش
هذا الخلاف بينهم جدلاً ، ويبعث فيهم شيئاً من الفاق والشك .. فعمل عثمان
رضي الله عنه بمشورة أصحابه رضوان الله عليهم ، وأمر بجمع الناس على قراءة
واحدة من تلك القراءات .

عن مصعب بن سعد قال : لما كثّر اختلاف الناس في القرآن قالوا :
قراءة بن مسعود ، وقراءة أبي ، وقراءة سالم مولى أبي حذيفة (٣) ١ فجمع —
عثمان — أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فقال : إني رأيت أن أكتب مصاحف
على حرف — أي قراءة — زيد بن ثابت ، ثم أبعث بها إلى الأمصار .. قالوا :
نعم ما رأيت .. قال : فأى الناس أعرب ؟ قالوا سعيد بن العاص .. قال : فأى
الناس أكتب . قالوا زيد بن ثابت .. كاتب الوحي فليمال سعيد . وليكتب
زيد بن ثابت .. قال : ثم كتب مصاحف ، فبعث بها إلى الأمصار .. قال :
فرأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقولون : أحسن والله عثمان .

وكان عثمان بعد أن كتب القرآن على قراءة زيد بن ثابت أمر بتحريق المصاحف
التي ليست مع هذه القراءة .. فكثّر من بعض الناس القول في عثمان رضي الله
عنه بأنه حرق المصاحف ، ١ .

يقول صاحب مقدمة كتاب المباني : « وأما المصاحف التي أمر — أي عثمان —
بتحريقها ، فإنها — والله أعلم — كانت على هذا النظم أيضاً — أي النظم الذي
عليه مصحف عثمان — إلا أنها كانت مختلفة الحروف على حسب ما كان النبي
صلى الله عليه وسلم سوغ لهم القراءة بالوجوه إذا اتفقت في المعنى ، وإن اختلفت

(١) - سورة يس : ٣٥

(٢) سورة الحديد : ٢٤ .

(٣) أي أن كل جماعة تركت قراءة من هذه القراءات وتفضت لها .

اللفظ ، ثم بان لنا بانفاقهم على هذا الوجه الواحد أن الإباحة التي كانت في قراءة القرآن من اختلاف اللفظ بالكلمة إذ اتفق المعنى قد نسخ ، وأنه لا يجوز القراءة بما يخالف هذا المصحف المتفق عليه ، (١) .

هذا ما كان من عمل الخليفةين أبي بكر وعثمان في كتابة المصحف ، لم يجاوز علمهما ما كان من شأنه صيانة القرآن وحفظه كما تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم . . لم يزيدوا فيه حرفاً ، أو ينقصوا منه كلمة !
ولكن لعلماء الغرب رأياً آخر في هذا . .

فهذا « جرونيباوم » الذي نقف إزاء آرائه هنا يقول في صدد هذا العمل الذي كان من الخليفتين أبي بكر وعثمان :

« ومن الأمور التي لا سبيل إلى معرفتها بما تبقى لدينا من معلومات — استبانة الأسباب التي دعت الأئمة القراء بإشارة الخليفة « عثمان » إلى تنظيم ما خلقه الرسول من الوحي . . »

ثم يقول : « والراجع أنه — أي القرآن — لم يفقد أو ينسى منه إلا جزء يسير جداً (٩٩) في ١١٤ سورة بالضبط تختلف في طولها اختلافاً بعيداً . . »

« كذلك ليس في الإمكان في كل حالة من الحالات تقديم تفسير مرض عن السبب الذي من أجله ضمت هذه الفقرة إلى تلك لتكون سورة واحدة . . أو لماذا قرر الكتاب أن يضعوا السور الطويلة أولاً ، وقصار السور أخيراً ، وإن كانت الأخيرة تحتوي في معظم الحالات على المواد القديمة . . » (٢)

هذا هو رأي « جرونيباوم » في حقيقة القرآن ، وقد تولى السلف الرد على مثل هذا الافتراء . .

يقول صاحب كتاب مقدمة المباني :

« ولئن ساغ لأحد أن يشك في أن هذا القرآن بجميع سورته وآياته هو الذي قرأه محمد صلى الله عليه وسلم على أصحابه رضی الله عنهم ، وتحدث العرب أن يأتوا بمثله فلم يجيبوه إلى ذلك . . وهو الذي تلقى المهاجرون والأنصار

(١) مقدمتان في علوم القرآن من ٤٤ . (٢) حضارة الإسلام من ١٠٩ .

وتلاوته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلوه من بعدهم ، وهلم جرا ، إلى أن اتصل بنا — ليسوغن له أن يشك في أن محمداً قد كان بمكة ، يدعى النبوة ، ثم هاجر إلى المدينة ، وأنه قد كان بينه وبين المشركين وقعة بدر ، ووقعة أحد ، وسائر الوقائع ، ثم توفي بالمدينة ، وهو المدفون بها !!

وإذا كان من أظهر الشك فيما ذكرناه مكابرا لنفسه ، إذ لا يمكن الشك في ذلك لمن خالط الناس فسمع أخبارهم ، كذلك لا يمكن في أن هذا القرآن هو الذي قرأه محمد صلى الله عليه وسلم على الناس — شك ألبتة !

ثم يقول :

« ولو قد اقتصرنا في دحر الملحد وقذعه على هذا القدر ، لقد كان ذلك كافياً ، غير أنا يجب أن نذب عن هذا الخبر ، إذ قد يمكن أن يقع فيه ريب . وإن لم يمكن ذلك فيما قلناه من أن القرآن هو ما بلغه محمد صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى .

« فأقول : إن القرآن كان مجموعاً على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يسكتب له أن يضعها في موضع كذا من سورة كذا . . . ومن المعلوم الذي لا خفاء به أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوم أحجابه في الصلوات الخمس ، لا يخل بذلك في سفر ، ولا حضر ، فقرأ في الركعتين من كل صلاة بسورة مع فاتحة الكتاب . . . ويسمعهم ذلك في النداء والعش . . . فماذا كان يسمعهم — ليت شعري — إن كانت آيات القرآن متفرقة ، ولم تنظم السور حتى أنها نظمت في أيام أبي بكر ، أو أيام عثمان ؟ فماذا كان يقرع العرب حيث يقول الله تعالى : « فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » (١) ؟ وذلك ما نزل بمكة . ثم قال تعالى : « فأتوا بسورة من مثله » ونزل ذلك بالمدينة ؟ . . . ولو كان ذلك على ما خيلوا لم يسكن العباس بن عبد المطلب يهدر (٢) يوم حنين حيث انهزم القوم ، فيقول : يا أصحاب سورة البقرة ، وسورة

(١) سورة هود آية ١٣ .

(٢) في الأصل يهرب ، وهو خطأ ، أو تصحيف .

آل عمران . . هذا رسول الله . . يستدعيهم بذلك إليه !

« ومن مشاهير ما نقلت الرواة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو بن العاص : « اقرأ القرآن في كذا ليلة . . » يدعوهم إلى التيسير . . وهو — أى عباده — يقول : لاني أطيق أكثر من ذلك . . إلى أن قال له : « اقرأ القرآن في ثلاث ليال ، . . »

« وعن ابن مسعود قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ علي » فقلت : أعليك أقرأ ، وعليك أنزل ؟ فقال لي : « أحب أن أسمع من غيري ، قال : فافتتحت سورة النساء فلما بلغت : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » قال : فرأيت عينيه تذر فان ، فقال لي : حسبك . . » (١)

ثم يعرض صاحب المباني للحديث الذي يروى عن زيد بن ثابت في جمع القرآن أيام أبي بكر . . فيقول :

« الوجه في ذلك عندنا أن القرآن قد كان بحملته معلوما على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« وكانت السور معدودة ، لا يريب فيها أحد منهم ، غير أنهم لم يكونوا قد جمعوها بين الدفتين ، ولم يلزموا القراءة توالى سورها ، فكان الواحد منهم يقرأ سورة البقرة ، ثم يقرأ سورة النساء أو الأعراف ، أو نحو ذلك ، من غير ولاء (٢) للسور . . .

« وذلك أن الواحد منهم إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها ، ثم خرج في سرية ، فنزل في وقت تنبيهه سور ، فإنه كان إذا رجع فأخذ في حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ، وينبع ما فاتته على حسب ما ينسمل له ، فيقع فيما كتبه تقديم وتأخير على هذا الوجه (٣) ،

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٧ .

(٢) أى من غير ترتيب مخصوص للسور .

(٣) أى أن هذا التقديم والتأخير يقع في السور لا في الآيات .

و قد كان منهم من يعتمد على حفظه فلا يكتب ، على ما كان من عادة العرب في حفظها أفساسها ، وأشعار شعرائها من غير كتابة .

و منهم من كان يكتبها في مواضع مختلفة من قرطاس ، أو عسيب ، أو لحاف — على ما يروى في الحديث — ثقة منهم بما كانوا يعملونه من جد المسلمين في حفظ القرآن ، وشدة تعهدهم له . . . (١)

ثم يتظن « جرونيباوم » سبباً من عندهم يراه الباعث على ترتيب السور . فيقول : « فقد يكون تشابه الموضوعات في حين ، ويكون تماثل الفواصل في آخر هو السبب الذي دعا إلى الجمع بين آيات كانت في الأصل مستقلة بعضها من بعض » (٢) وأنت ترى ما في هذا القول من جرأة على الحق ، واعتداء على حرمة التاريخ . . . إذ ضرب هذا العالم بالمستندات التاريخية الثابتة الموثقة التي بين يديه ، والتي تحدث عما كان من عمل لأبي بكر وعثمان في جمع القرآن — ضرب بهذه المستندات عرض الحائط وراح يصطاد من عالم الخيال تلك الآراء المضطربة المشوهة التي لا تقوم على أصل ، ولا تستند إلى دليل . .

فالقرآن — كما قلنا — قد تم نزوله ، وجمعه وترتيبه قبل أن يرايل الرسول الكريم مكانه من الدنيا ، وأن آلافاً عدة من صدور المسلمين كانت تحفظه كله كما نراه اليوم بين دفتي المصحف .

وبحسبنا ما قلنا في هذا من قبل لدفع هذا الضباب عن أضواء القرآن الكريم . . . وبحسب هذا القول الذي يقوله « جرونيباوم » ، — بحسبه من التفات والسقوط من عيني صاحبه أن يحىء عقب هذا القول فيقول :

« ومهما يكن من شيء ، فلا علينا إذا افترضنا أن محمداً لم يقصد ألبيته أن يجعل التوجيهات السياسية ، والمواد التشريعية ، وأساطير (كذا) الكتاب المقدس ، والحاجة للكفءار بمجتمعة كلها في فصل واحد ، أبعاد محدودة تحديداً دقيقاً ، لا سبيل إلى نقضه » (٣) . .

(٣) حضارة الاسلام ص ١٠٩ .

(١) مقدمتان في علوم القرآن ص ٣٢ .

(٣) المصدر السابق — نفس الصفحة .

إذن « فمحمد » هو الذى رتب القرآن وأخرجه على هذه الصورة التى عرفها المسلمون ! فإن لم يكن « محمد » هو الذى عمل هذا ، فقد عمله أصحابه . . وإن لم يكن قد عمله أصحابه فقد عمله هو !! .

كل شيء جائز هنا عند الكاتب إلا أمراً واحداً لا يدخله فى حسابه ، ولا يجعله فرضاً بين هذه الفروض ، وهو أن يكون القرآن من عند الله ، وأن يكون ترتيبه وجمعه بتوقيف من الله ! ولو أنه كان يضع فى حسابه هذا الفرض لوجد فى قول الله تعالى لنبيه الكريم : « لا تحرك به لسانك لتعجل به » ، إلنا علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه ، فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » (١) — لوجد فى هذه الآيات عاصماً يعصمه من الانزلاق فى هذا الخطأ المبين . . فإني لا يحرك لسانه إلا بإذن من الله ، وإلا بعد أن يستمع إلى ما يلقى إليه من وحى ، . وأن الله هو الذى يتولى جمع القرآن . وأن محمداً متبع يتبع ما يتلقاه من السماء . . بل وأكثر من هذا ، فإن كلام الرسول ذاته الذى يبين به الشريعة هو من عند الله أيضاً . وإن لم يكن من القرآن المقروء ، فالله هو الذى يتولى بيان القرآن وشرحه على لسان النبي . . ثم إن علينا بيانه » . . فإني يستمد أقواله من أمداد السماء : « وما ينطق عن الهوى » (٢) .

ثم يعود دجرونيياوم بعد هذا مباشرة فينسب ترتيب القرآن إلى الصحابة . يقول : « وربط جامع القرآن عدداً من قصص الأنبياء بعضه مع بعض ، فتولد عن ذلك فى بعض الأحيان شيء من الرتابة المملة (كذا) لم يكن النبي مسئولاً عنه بحال ! ! فى القرآن رتابة مملة .

لأن الذين جمعوا القرآن ربطوا قصص الأنبياء بعضه مع بعض !

وهى تهمة لا يخفف منها ، بل ربما يزيد من شناعتها - القول بأن النبي لم يكن مسئولاً عنه بحال .

(١) سورة القيامة آية ١٦ - ١٩ .

(٢) سورة النجم آية ٣ .

ومفهوم هذا القول أن المسلمين قد عبثوا بالقرآن بعد النبي وجمعوه جميعاً
مخلًا ، مملًا . . . ومفهوم هذا المفهوم أيضاً أن القرآن الذي مع المسلمين ليس هو
القرآن على الصورة التي كانت مع النبي .

والنبي غير مسئول عن هذا الذي حدث في القرآن من هدم وتخريب !
ولو كان هذا الكاتب يثبت على وجه واحد ويقف عند رأى لكان في
ذلك ما يضيّق مجال الأخذ والرد معه . . . ولكنه يراوغ ، ويتقلب من رأى إلى
رأى . . . وها هو ذا يعود للمرة الثالثة أو الرابعة مناقضاً لرأيه في مسألة واحدة .
يقول وكأنه يبرر لهذه الرتابة التي جاءت — كما يقول في القرآن — وكأنه
يراهما ضرورية في الرسالة التي كان يقوم بها النبي . . . يقول :

« وكذلك أيضاً يجب ألا يغرب عن البال أن محمدًا ، إنما كان ينبغي أن
يعلم وأن يصلح . . .

« والواعظ والمعلم مجبران بحكم عملهما في ذاته إلى التكرار ، بل إلى التكرار
بنفس الالفاظ تقريباً . . .

« ونحن الذين لا نقرأ القرآن من أجل إصلاح أمرنا ، ولا ابتغاء التهذيب
الخالق لنفوسنا تساورنا آمال خاطئة حين ننظر في كثير من فقرات الكتاب !
« فإن كثيراً من الآيات لم يكن قصد النبي من نقله إلى الناس هو الاستثارة
الذهنية ، بل توطيد مجايير جديدة للتقوى والأخلاق (١) . . . »

ثم يأخذ لهذا الرأى سنداً من مقولات بعض علماء الإسلام في معرض
الاستدلال على حكمة التكرار في القرآن . . . فيقول :

« هذا أحد كتاب المسلمين في القرن العاشر (٢) يقول : « ولأن الإنسان
قد يقرأ بعض القرآن ، ويحفظ شيئاً منه دون شيء — فلم يخل الله عز وجل كل
موضع منه من ترغيب أو ترهيب ، وادكار واعتبار ، تفضلاً منه على عباده ،

(١) حضارة الإسلام ص ١٠٩ .

(٢) هو أبو بكر الصول المتوفى سنة ٩٤٦ .

واستدعاء لطاعتهم ، ونهياً عن عصيانهم ، فوق التكرار لذلك (١) .

ويعقب « جرونيباوم » على هذا بقوله :

« والواقع أن ما يبدو لنا من مآخذ في طريقة العرض يكون له معنى مخالف لذلك تماماً — أى التلك التى تبدو أنها مأخذ — حين يوضع القرآن موضعه الحق من التاريخ الأدبي للعرب . .

« ذلك أن النثر العربى لم يكن يستخدم قبل عصر النبى إلا فى تسجيل الذكريات القبلية المتصلة بالوقائع الحربية ، أو ما عداها من حوادث البادية ، ثم صوغ الأمثال الموجزة ، وقواعد التشريع . . ويلوح أن النثر المسجوع كان قاصراً على المأثور من أقوال السكهان . . أما الشعر الذى كان قد تطور تطوراً كبيراً فى العبارة والصياغة الفنية فإنه تحاشى الموضوعات الدينية ، ولم يكن هناك أسلوب معتمد يمكن أن تقدم فيه المباحثات الكلامية أو التشريعية . . ولا سوابق أو شواهد للشعر تتعاقب يشمون الآخرة .

ثم يقول :

« لم يستعمل محمد ، ألبتة فى القرآن شيئاً من أوزان الشعر التقليدية ، بل راح يفك أسرار النثر المسجوع ، ويقوم اعوجاجه ، ويملاّ تضاعيفه حتى أصبح مركباً ذلولاً لرؤاء العجيبة (كذا) عن عذاب اليوم الآخر . . كما أنه دخل قسراً على نثر مستعص غير فاضح طريقة التعبير بعبارة جملية محدودة ، عن مبادئ تجريدية ، أو شرائط قضائية ونظرات سياسية . .

ثم يقول :

« ولكن محمد ، هو الذى وجد الصيغة العربية للتعبير عما صار أخص خبراته الشخصية ! وإن استطاع إدراك المدى الكامل لما بلغه من نجاح فى إدخال هذه الموضوعات الجديدة فى ذلك الأدب العربى المقيد بالأوضاع والتقاليد

(١) من أدب الكاتب للصولى . . طبعة القاهرة سنة ١٣٤١ هـ .

إلا بملاحظة إجماع الأجيال التالية في مواصلة الحديث في تلك الموضوعات
الشعرية السابقة - موضوعات الجنة والنار واليوم الآخر والحساب وتضمنها
في أشعارهم (١)

لقد طأنا وقوفنا في هذه المسألة - مسألة أسلوب القرآن وما جاء فيه من
تكرار ، وما قيل في جمعه وترتيبه - ولكن لم يكن بد من هذه الوقفة الطويلة
إذ كان الرجل الذي تخبرناه ليكون مثلاً للناقد العالم الحر من كتاب الغرب ، لم يستطع
أن يستقيم على الحياد ، وأن يتحرر من موروثات العصبية . . بل حشد ذكاه
كله للدراغة والمخاللة . . يلوح لك بقوله الحق ، فيخيل إليك أن الرجل رجل
عدل وإنصاف ، فإذا أنت لم تنظن إلى هذه الخدعة وقعت في مزلق من تلك
المزلق الكثيرة التي يلتقي بها فيما لوح لك به حق . .

لأنه بهذا الأسلوب المموه بمهارة وحذق يستطيع أن يخدع كثيراً من يلقاهم
بالحقائق ملففة في لفائف رقيقة من الزور والبهتان ، فيختلط عليهم الأمر ،
وتضطرب في قلوبهم أمواج الشك . .

إن في كلام الرجل كثيراً من الحق ، كما أن فيه كثيراً من الباطل . .

وأعجب ما في هذا أن يحىء الرجل بالحقيقة واضحة ، ثم يحىء كذلك بالباطل
صريحاً واضحاً في الأمر الواحد ، ويجمع بينهما في صور شتى . . وهذا أبعد في
الكيد ، وأمن في التضليل ، بمن يحىء بالحق متلبساً بالباطل ، أو بالباطل متستراً
في الحق !

ولعل أصدق ما قاله الرجل هنا في قوله في تفسير التكرار الذي جاء في
القرآن . . حين يقول :

« والواعظ والمعلم مجبران بحكم عملهما في ذاته إلى التكرار ، بل التكرار
بنفس الألفاظ تقريباً . . »

وذلك لاشك وجه من وجوه الحكمة في تكرار ما تكرر من عبارات

ومعان فى القرآن .. كما هو الحال فى سورة الرحمن ، وفى سورة المرسلات ، كما هو الحال أيضاً فى قصص الأنبياء ..

واسكن هذا التكرار ليس من عمل محمد ، وإنما هو من تدبير الله فى إنزال القرآن ، وفيه هذه المواقف التى تكرر فيها الألفاظ والمعاني، حيث تقتضيها دواعى الحال ، فى الأمور ذات الصفة المهمة الخطيرة ، أو فى الحالات التى تزدحم فيها النفس بالخواطر المزعجة ، فيرسل إليها العزاء ، والسلاوان ، حالاً بعد حال ..

وقد كان من عادة النبي عليه الصلاة والسلام أن يعيد الكلمة أو الجملة ثلاث مرات .. وذلك فى المواقف التى تقتضى العناية والاهتمام ..

عن أنس رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى يفهم .. وإذا أتى على قوم سلم عليهم ثلاثاً حتى يفهم ، (١) .

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها : «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث حديثاً لو عدّه العاد أحصاه ..»

ونكتفى بهذا القدر فى مواجهة هذا الباطل الذى يقول به علماء الغرب فى أسلوب القرآن ، وفى تكراره وفى جمعه وترتيبه .

التشريع فى القرآن :

والأمر الثانى الذى يقف منه الغربيون موقف التهمج والنطاول على القرآن هو الأحكام التى جاء بها ، والشرعية التى دعا إليها ، وأقام دعوة الإسلام عليها . والمفتريات هنا كثيرة متشعبة ..

تجىء أحياناً على طريقة المقايضة إلى الشريعة الموسوية أو العيسوية . وتجىء تارة بالمناظرة مع الأنظمة والشرائع المادية التى يعيش فيها الناس . وتلتقى جميعها عند القول بأن الإسلام — سواء كان ديناً سماوياً أم وضعياً —

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد جزء ٢ ص ٦٥ .

(٢) الشفا للقاضى عياض جزء ١ ص ١٠٨ .

فإنه إنما وضع لحياة البادية ، وجاء مقيداً على أحوالها وظروفها ، وأنه إذا خرج إلى محيط غير هذا المحيط ، وإذا جاوز هذه الأحوال والظروف اصطدم بظروف وأحوال لا يستطيع مواجهتها ، ولا الحياة فيها .

إن الشريعة الإسلامية — عن هؤلاء الغربيين — شريعة بدائية ، لا تستقيم أبداً مع الحياة المتحضرة ، ولا تتجاوز مع حاجات الناس في تلك الحياة !

وغاية القائلين بهذا القول أن يحصروا الإسلام في دائرة ضيقة من الزمان والمكان .. فهو لا يصلح إلا للجماعات البدوية ، ولا يعيش إلا في البيئات المختلفة التي لم تطلع عليها شمس الحضارة الحديثة ، ولم تنفذ إليها شعاعاتها .

وهم بهذا إنما يرون أن يضعوا « متاريس » من الوهم والخداع أمام زحف الإسلام ، وأن يكسروا من حدة انطلاقه في مشارق الأرض ومغاربها ، على رغم ما يلقى من مقاومة المبشرين ومحاربه بكل سلاح ، واضطهاد الداخلين فيه ، وحرمانهم من حقوقهم الاجتماعية والسياسية ..

ثم هم من جهة أخرى يحاولون أن يضعوا حواجز نفسية بين الإسلام وبين المؤمنين به ، بما يخيلون لضعاف العقول ، ولذخروين بالمدينة الغربية والمأخوذتين يريقهما — أنهم إنما يحرقون عقولهم ، ويرخصمون مواهبهم ،^١ وينزلون من شخصياتهم إذ يلبسون هذا الزي البدوي ، ويعيشون فيه ، على حين يعيش الناس في عصر الذرة ، ويستعدون لغزو الفضاء وسكنى المكواكب !

وقد كان لهذه المفتريات سلطان على كثير من أصحاب الشخصيات والمهوزة ، التي لم تنهأ لها المعرفة الصحيحة بالإسلام ، ولم يتح لها حظ من الإيمان القائم على العلم والمعرفة ، فكان من السهل الميسور أن تغزو هذه الأفكار الخبيثة تلك القلوب التي عاش فيها الإسلام من غير أن يشير فيها عاطفة ، أو يحرك شعوراً .

وشتان بين هذه الدعوى التي يدعيها الغربيون وأشياع الغربيين على الإسلام وبين حقيقة الإسلام والغايات الكبرى التي جاء لتحقيقها في هذه الحياة !

لقد جاء الإسلام لهداية الإنسانية كلها ، وإفياضة مجتمعاتها جميعاً ، على مدى الأزمان ، وفي مختلف المواطن

والقرآن الكريم يحمل بين آياته الكريمة مضمون دعوته تلك ، ويؤذن في الناس بها . . . وفي موضع آخر من هذا الكتاب تحدثنا عن إنسانية الإسلام ، ودعوته الشاملة لكل من يدخل في معنى الإنسانية من بنى آدم . . . فما جاء الإسلام إلى العرب وحدهم ، وما قصر خطابه عليهم ، بل لأنه لم يوجه إلى العرب خطاباً أبداً ، وإنما جاءت أوامره ونواهيته كلها متجهة إلى الناس جميعاً : « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » (١) . . . « يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها » ، وقوله : « يا أيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تفرنكم الحياة الدنيا ، ولا يفرنكم بالله الغرور . . . إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تمرت إن الله عليم خبير » (٢) . . . « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة . . . » (٣) .

قلنا هذا ، وقلنا إن الإسلام هنا جاء على غير ما جاءت الديانتين الموسوية والمسيحية ، حيث كان متوجه شريعتهما إلى بنى إسرائيل وحدهم دون الناس . . . كما قلنا إن الذين آمنوا بهاتين الديانتين من غير بنى إسرائيل إنما هم يتعاطون طعاماً لا يصلح لهم ، ولا يصلحون له . . . إذ كانت هاتان الشريعتان لشعب له ظروف خاصة ، وأحوال متصلة به . . .

ونقول هنا إن الإسلام في دعوته العامة التي حملتها أوامره ونواهيته ، كما نطق بها القرآن . لم يكن مجرد دعوة تهيب بالناس جميعاً ليوسع دائرة اختصاصه ، وليمد في قطر دائرته ، وإنما كان إلى جانب هذه الدعوة يحمل كل أسباب الحياة

(١) سورة لقمان آية ٣٣ .

(٢) سورة يونس آية ١٠٨ .

(٣) سورة لقمان آية ٣٤ .

(٤) سورة الأعراف آية ٢٧ .

المادية والروحية لكل من تبلغ أسماعهم دعوة الإسلام ، في أى مكان ، وفي
أى زمان .

والجدل في مجال عرض المبادئ الإنسانية التي جاء بها الإسلام ، ومقايستها
إلى الشرائع السماوية أو الوضعية قد تشتمد فيه معارك الكلام ، ويخدم الصراع ،
فتغرق الحقيقة في دخان هذا الصراع ، وتضيع معالمها في غبار هذا العراك .

فلا نتجه هنا إلى عرض حقائق الإسلام ، ولا نستعرض مقولات الخصوم
فيها ، وما تحمل من بهتان وزور . . . فذلك - كما قلنا - قد لا ينهي النزاع بانتصار
حاسم لأى من الفريقين المتنازعين .

ولما الذى تقدمه شاهداً يشهد للإسلام بسلامة مبادئه ، واستقامتها مع طبيعة
الحياة ، وتقلب المجتمعات البشرية فيها ، وتنقلبهم معها جيلاً بعد جيل - الذى
تقدمه شاهداً لهذا هو التطبيق العملى للإسلام ومبادئه ، وما كان لهذه المبادئ
من آثار في الحياة الإنسانية : المادية والروحية على السواء .

جاء الإسلام إلى الحياة ، فتخير أجذب بقعة فيها . . ونزل بين جماعات ضائعة
ضالة في غياهب الصحراء ، وفي بطون أوديتها وجبالها . . قد ركبهم طبايع تنضح
بالشر ، وترى به كل من يتصل بها من قريب أو بعيد . . فلا يلقى لإنسان لإنسانا
بمودة ، ولا يمد إليه يداً موادعة مسالمة ، وإنما هو البغى والعدوان ، وهو الصراع
بالخالب والأنياب لتتجلى المعركة عن قاتل أو مقتول . . « فن لم يكن ذمياً أكلته
الذئاب » ، ومن لم يكن قاتلاً فهو المقتول .

لقد تخير الإسلام هذا الوطن بالذات ليبدأ منه رحلته الطويلة مع الحياة .

هذا أول شاهد يشهد للإسلام بأنه جاء من جهة عليا . . حكيمة مدبرة . .
وأنه وضع أقدامه على أول الطريق الصحيح لإصلاح الحياة ، وعمرانها . . حين
بدأ بالجدب والفقر منها ، فأخرج منه جنات تفيض بالخير والثر .

إن الغيث لا يعرف فضله ، ولا تشهد آثاره إلا في مواطن القفر والجدب . .

حين تستقبله هذه المواطن فتجيب به ، وتتحرك في أحشائها أجنة النبات ثم تنشق عنها ، فإذا هي زروع ناضرة ، وأزاهير متفتحة ، وثمرات دائية القطوف مختلفة الطعوم ..

وليس كمهذه الشهادة شهادة تنطق بفضل الغيث ، وتحدث عن آثاره : فانظر إلى آثار رحمة الله . . كيف يحيى الأرض بعد موتها ، (١) . وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اعتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، (٢) وهكذا جاء الإسلام بحىء الغيث إلى هذه المواطن المجربة المقفرة ، فاهترت به وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج !

ولا يستطيع مكابر - مهاج به العناد - أن ينكر آثار هذه الرحمة الشاملة التي أخصب بها كل جديب ، وعمر بها كل خراب في أنحاء الجزيرة العربية ؛ منذ دخل الإسلام في قلوب القوم ، وعمرت تلاوة القرآن دورهم ومساجدهم !
فهذه الأمة التي جمعها الإسلام من أشلاء ممزقة ، وأقام بنيانها من أنقاض متهالكة .. هذه الأمة التي أتم الإسلام إعدادها في ثلاث وعشرين سنة - هي مدة الدعوة الإسلامية - هذه الأمة قد واجهت أكبر قوتين كانتا تقسمان العالم بينهما .. واجهتهما ولم تسكن قد تمرست بالحروب العامة الشاملة ، ولم تكن تعرف من فنون الحرب ما تعرف أمة الفرس وأمة الروم - ومع هذا فقد هزمت الدولتين العظيمتين معاً .

فوضعت يدها على دولة الفرس كلها ، واستولت على بلاد الشام ومصر من دولة الرومان . . كل هذا في بضع سنوات من وفاة النبي !

وقد يبدو لحاسد أو مجادل أن يقف من هذا الإعجاز الرائع لقوة الإيمان التي كان بها هذا الفتح فيقول : إن هذه الفتوح الإسلامية لم تكن عن فعل الإيمان ، ولا من وحى الإسلام . . وإنما هي قوة مخربة مدمرة من قوى الشر .. انطلقت من قلب الصحراء كما يطلق الإعصار العاق فيدمر كل شيء ! وفي التاريخ فعلمت

(١) - سورة الروم آية ٥٠ . (٢) - سورة الحج آية ٥ .

لمثل هذا .. فلقد اجتاحت التتار دولة الإسلام في وقت أقل مما اجتاحت فيه ميوش المسلمين دولتي الفرس والروم !!

وهذا القول ، وإن يكن في ظاهره ما يضل ويخدع ، إلا أنه مع قليل من النظر تتضح فيه أوجه الخلاف الشديد بين الأمرين ، فلا يبدو بينهما وجه يلتقيان فيه .

فأولاً : لم تكن قوة الإسلام الزاحمة حملة عسكرية تحمل إلى الناس الموت والخراب ، والدمار ، شأن الحملات العسكرية الممبأة بروح النعمة ، وحب السيطرة والظلم .

ولأنما كانت قوة الإسلام الزاحمة شعبة منيئة ، تحاول أن تخترق بشهاعاتها سحب الظلام المتكاثف على قلوب الناس وعقولهم ..

كانت قوة الإسلام الزاحمة بعثة لإنقاذ ، تحمل إلى الإنسانية الضالة أطواق النجاة ، ملقاة بنفسها في مواطن الموت في سبيل الحق والخير الذي تجمله بين يديها ، ليأخذ الناس بحظهم من هذا الحق والخير !

كانت قوة الإسلام الزاحمة لا ترفع سيفاً في وجه من يقول كلمة التوحيد ، وينضم إلى موكب النور لأنه حينئذ يصبح واحداً من تلك الجماعة ، له مالها وعليه ما عليها .

فهل كان شيء من هذا في حملة التتار ، أو غيرها من حملات الفتح والغزو ؟
لأنجب على هذا ، فقد تولى التاريخ الإجابة الواضحة المسببة !

وثانياً : كانت قوة الإسلام الزاحمة تعمل للبناء ، لا للهدم .. وكانت يدها البانية قوية ، حكيمة ، عادلة ، خيرة .. تبني الحق والخير .. وتقيم ما تبني على دعائم متينة من العدل والإحسان .. ومن أجل ذلك فقد رسخ ما بذت ، وزاد مع الأيام قوة ، وارتقاءً .. حتى أن النكسات التي كانت تصلب هذا البناء بين حين وآخر لم تكن لتقوض البناء ، أو تشيع معالمه . وإنما هي صدوع وشروخ لا تلبث يد الإسلام أن ترأب الصدع ، وتسد الثلمة !

وهذه حضارة الإسلام التي عرف الغرب آثارها وأقام حضارتها الحاضرة

على أضواء مشاعلها — هذه الحضارة لا تزال قائمة في بطون الكتب ، وفي معالم الحياة التي يقوم عليها اليوم يجتمع يضم أربع مئة مليون مسلم !

أفهدا كان شأن التار ، ودولة التار ؟

إن دولة التار لم تقم إلا في ظل الإسلام ، فقد أعلن قائدها إسلامه — إن صدقا وإن كذبا — ليضمن لدولته الناشئة — حياة تحت راية الإسلام . . . ومع هذا ، فقد ذاب التار في الدولة الإسلامية ، كما ذاب غيرهم من الأمم والشعوب التي ضمها الإسلام إليه وصبغها بصبغته .

فأقول بأن القوة العربية التي عبأها الإسلام لتكون طليعة بعركب النور — القول بأنها كانت ظاهرة من ظواهر الطبيعة العاتية قول لا يستقيم مع الواقع ، ولا يستند إلى شيء من مرويات التاريخ ؛ حتى الضعيف المكذوب منها .

قلنا إن أول الشواهد على أن الرسالة الإسلامية رسالة سماوية تستند إلى قوة عليا لا حدود لقوتها — أنه تخير لدعوته هذا المكان الجديب المقفر ، الذي لم يشهد يوما من الأيام أبهة سلطان ، ولا سطوة دولة ، كما عرف اليونان ، والرومان ، والفرس ، وكما عرف الفراعنة ، بل والتابعة بالين .

من هذا المكان المقفر الجديب كانت نقطة انطلاق الإسلام ، ومركز دعوته .
فإن الطبيب — كما يقول السيد المسيح — لا يزور إلا المرضى .

ومن جهة أخرى . . . فإن قيام الدعوة الإسلامية في هذا الموطن كان خير مكان يصلح لتربية إنسانية تستقيم مع مبادئ الإسلام ، وتستجيب مشاعرها للغذاء الطيب الذي يحمله إلى الناس .

والأمة العربية — على ما كان بها من فقر ، وما في حياتها من مخلفات الفقر والحاجة كانت لا تزال في صميمها سليمة نقية من العوارض والآفات التي أصابت الشعوب التي تمرست بالمادية وعاشت فيها زمناً ، ثم خذلتها الحياة ، وتركتها أشبه بالهشيم .

ومن هنا كان أثر الإسلام في الأمة العربية قويا واضحا ، منجزاً . . كالنيت .
يصيب أرضا بكرا ، لم يمتص مادتها الغذائية نبات أو شجر .

وهذا ما يمكن أن يفسر به قوة الجماعة الإسلامية الأولى ، مع قلة عددها ،
وشح مواردها ، وهذا ما يفسر أيضا ظهور هذا العدد الكبير من عظماء الإنسانية ،
بمثلا في صحابة رسول الله ، وما أظهره من عظمة في فنون السياسة ، والحرب
وفي تنظيم الدول ، وبناء الشعوب . إلى ما اشتملت عليه نفوسهم العالية من ترفع
عن ماديات الحياة ، واستعلاء على مطالب الجسد والنفس الامارة بالسوء .

ولا نذكر الأسماء ، ولا فخر الأسماء . . فكل صحابة رسول الله مثل
لهذا ، وكل أعمالهم شواهد له .

فالذين يحاولون أن يصوروا الشريعة الإسلامية بأنها شريعة متخلفة ، لا تصالح
إلا في الحياة البدائية ، ولا يعيش عليها إلا من يسكنون الغابات والكهوف —
هؤلاء الذين يضعون شريعة الإسلام في هذا الوضع هم — كما قلنا — ليسوا
أعداء الإسلام وحسب ، بل هم أعداء الحياة نفسها ، أعداء الإنسانية كلها . .
إذ يحاولون أن يجلبوا عن الناس هذا الخير الذي نزلت به آيات الكتاب الكريم ،
ليكون رحمة للناس ، وشفاء من تلك الأدواء التي تغشال ما بينهم من أواصر
الأخوة ، وصلات المودة والرحمة ، وتوقد بينهم العداوة والبغضاء التي تشعل
نيران هذه الحروب المدمرة . والتي تبيت الناس دائما على ذعر وفزع .

إن شريعة الإسلام هي التي جعلت من تلك الجماعة المبددة الضائعة في رمال
الصحراء أمة تظلال بأجنحتها أئما ، وشعوبا . . تشر فيها العدل ، والأمن ، وتقيم
في ربوعها مدنية مزهرة ، وحضارة قائمة على أصول راسخة من العلم والفن .

يقول د ول ديورانت ، في كتابه قصة الحضارة :

لم يكن لبلاد العرب بوصفها وحدة سياسية وجود قبل عصر النبي إلا في مسميات
اليونان غير الدقيقة ، فقد كانوا يسمون جميع الساكنين في شبه الجزيرة باسم :
السركنوى ، ويلوح أنه هو نفسه مشتق من لفظ « الشرقيين » العرب .

وكانت قلة سبل الاتصال وصعوبتها مما اضطر أهل البلاد إلى أن يعملوا على الاكتفاء بأنفسهم عن غيرهم ، كما أنهما كانتا سبباً في نمو روح العزلة فيهم .
فالعربي لم يكن يشعر بواجب أو ولاء لآية جماعة أكبر من القبيلة ، وكانت قوة ولاءه تتناسب عكسياً مع سعة الجماعة التي يدين لها بالولاء (١) .

ذلك هو الوصف الدقيق للحالة التي كانت عليها الحياة الفردية أو الجماعية للعرب في صحراء الجزيرة . لم يسكن العرب أمة من الأمم ، وإنما كانوا جماعات متناثرة ، هنا وهناك ، يكوِّنون وحدات . . كل وحدة تسمى قبيلة ، وتلك هي الوحدة الكبرى ، أو الأمة التي ينتمي إليها العربي ، ويدين لها بالولاء . .
أما ما وراء هذه الوحدة القبلية فلم يكن بموضع تفكير عند أحد منهم .

فكان من معجزات الإسلام أن أقام من هذه الجماعات المشتتة المتناثرة ، مجتمعاً متماسكاً متجانساً . . يشد بعضه بعضاً ، فكان كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالجنى والسر .

وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » (٢) .

ولا يذكر التاريخ مجتمعاً إنسانياً جمعت بين أفرادها روح الإخاء ، والمودة ، والإيثار مثل المجتمع الإسلامي الذي أقامه الرسول ، وورثه خلفاؤه الراشدون من بعده .

فقد كان هذا المجتمع أشبه بأسرة تجمع بين أبوين عطوفين ، وأبناء بررة كرام ، لا يلقى أحد أحداً إلا بالمودة ، ولا يبغض أحد مع أحد إلا على حب وسلام .
فإذا تحدثت المجتمعات الراقية اليوم عن التكافل الاجتماعي ، وعن التقارب بين الطبقات فيها ، فإنها لتستحزى إذا نظرت إلى ما حققه المجتمع الإسلامي من

(١) قصة الحضارة جزء ٢ مجلد ٤ ص ١٠

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣

هذا التكافل والتقارب على صورة كاملة ، لا يقوم عليها سلطان غير سلطان الضمير ، ولا يزعمها وازع غير وازع الدين .

يقول « ول ديورانت » المؤرخ العالم الفيلسوف :

« ولسنا نجد في التاريخ كله مصلحاً فرض على الأغنياء من الضرائب ، ما فرض عليهم « محمد » لإعانة الفقراء .

« وكان يحض كل موص بأن يخصص من ماله جزءاً للفقراء .

« وإذا مات رجل ولم يترك وصية فرض على ورثته أن يخصصوا بعض ما يرثون لأعمال الخير » (١) .

وليس الذى فرضه الإسلام من بر بالفقراء والمساكين هو ضريبة بالمعنى المفهوم فى العرف الاقتصادى اليوم ، وإنما هو زكاة . . والزكاة معناها : النماء والزيادة ، والطهارة ، والطيب . . فيقال : زكا الغلام يزكو زكاة ، إذا نما وشب . . ورأحة زكية أى طيبة . .

فالزكاة التى يؤديها المسلم عن ماله فيها زكاة لهذا المال أى نماء له ، وفيها طهر وطيب لصاحب المال المزكى . . وهذا ما نجده فى الآية الكريمة : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ، وتزكهم بها » (٢) . والآية الكريمة :

« الذى يؤتى ماله يتزكى » (٣) .

وشتان بين من يبدل المال فى سبيل الفقراء والمحتاجين وملء مشاعره أنه يعقد صفقة رابحة ، ينال بها نماء ماله ، وطهاره نفسه ، ومرضاة ربه ، وبين من يدفع « الضرائب » وليس فى نفسه أى معنى من تلك المعانى الطيبة الكريمة . . وإذا تحدثت المدينة الحديثة عن فضلها فى تخليص رقاب الأرقاء ، وفى القضاء على الرق ، فلتذكر أولاً صنع الإسلام فى تحرير الرقيق ، وما حملت

(١) قصة الحضارة جزء ٢ مجلد ٤ ص ٥٩ .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(٣) سورة الليل آية ١٨ .

تعاليمه من مساواة مطلقة بين الناس ، لا يتفاضلون إلا بالعمل الطيب ، فلا حساب للأحساب ، والأنساب ، والألوان ، والدماء ، في موازين الإنسانية . ومنازل الناس في المجتمع الإنساني . .

لنذكر المدنية الحديثة هذا ، ولنذكر معه أن مجتمعاتها وإن تخلصت من الرق على الصورة التي كانت معروفة من قبل ، وهي تملك الإنسان وعده سلعة . تباع وتشترى — فإن هناك صوراً كثيرة للرق لا تزال قائمة يمثلها الاستعمار الذي لم يتخلص منه بعض الجماعات الإنسانية إلى الآن ، كما تمثله التفرقة العنصرية بين زنوج أمريكا والأمريكيين ، وبين السود في أفريقيا وبين الأوربيين . . . كما يمثلها المحتكرون وأصحاب رؤوس الأموال في أوروبا وأمريكا .

لنذكر المدنية الحديثة هذا كله ، ولنقف وقفة لإجلال وإكبار وخشوع أمام عظمة الإسلام ، وسمو المعاني الإنسانية التي غذى بها مشاعر أتباعه ، ليتعاملوا بها فيما بينهم . . وفيما بينهم وبين الناس جميعاً .

سأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم : « كم أعفو عن الخادم ؟ » . فصمت النبي الكريم ثم قال : أعف عنه كل يوم سبعين مرة . .

وليس حصر عملية العفو في هذا العدد بواقفة به عند هذا الحد ، بل غاية ألا تكون له نهاية . . وأن يتعمل العفو حالاً بعد حال .

وعن ابن المنكدر أن رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبداً له ، فجعل العبد يقول : أسألك بوجه الله ، فلم يعنه ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد ، فانطلق إليه ، فلما رأى الرجل رسول الله ، أمسك يده فقال رسول الله : سألك بوجه الله فلم تعنه ، فلما رأيته أمسكت يدك ؟ فقال الرجل : هو حر لوجه الله يا رسول الله . فقال له النبي : لو لم تفعل لسنعت وجهك النار . .

ولم يكن هذا مجرد مبادئ وتعاليم يلقها الرسول في آذان أصحابه ، وإنما كان

صلوات الله وسلامه عليه القدوة الطيبة والأسوة الحسنة في كل ما يأمر به أو ينهى عنه .

عن أنس — خادم الرسول — قال : « خدمت الرسول عشر سنوات ، فما قال لشيء عمله : لم عمله ؟ ولا لشيء تركته لم تركته ، ؟ » .

فليست منزلة الخادم عند من يخدمه أو العامل عند صاحب العمل بالمنزلة التي دون من يخدمه أو يعمل معه ، وإنما الأمر بينهما قائم على التعاون لدفع عجلة الحياة . . هذا هو وضع العامل عند صاحب العمل في الإسلام .

يقول النبي الكريم : « إخوانكم خولكم . . استعينوا بهم على ما غلبكم ، وأعينوهم على ما غلبهم ، ١ » .

فأي نظام من أنظمة العمل ، وأي قانون من قوانين المال يرتفع إلى هذا المستوى الرائع الكريم الذي رفع به الإسلام منزلة العمل ، ومكانة العامل جميعاً ؟ .

وأي عقد من عقود العمل يضمن للعامل هذا الحق الأدبي عند صاحب العمل ، وقيمه عليه ، ويؤديه له ، في صورة عبادة وقرب إلى الله ؟ .
« إخوانكم خولكم » .

الآخوة هي الأساس الذي يقوم عليه عقد العمل ، بين العامل وصاحب العمل .

الآخوة أولاً وقبل كل شيء .

أخوة مقررة ، متبادلة بين الطرفين . .

أخوة قائمة مقررة قبل أن تكون بينهما صلة تعامل أو عمل .

أخوة إنسانية . . يلتقيان أو يفرقان دون أن ينقطع بينهما هذا الرباط الوثيق الذي جمعهما الله فيه .

وهذا هو السر في تقديم كلمة « إخوانكم » على كلمة « خولكم » ، في الحديث الشريف .

وفى قول الرسول الكريم : « استعينوا بهم على ما غلبكم ، وأعينوهم على ما غلبهم » تنبيه قوى إلى تسخير العمل والعامل معاً ، وأن من كرامة الإنسان أن يعمل ما وسعته قدرته وكفايته ، فإذا لم يكن فى استطاعته الوفاء بالعمل ، فلا عليه أن يستعين بمن يجد منه العون .

فأين من هذا الإحساس اليقظ بكرامة العمل وقيمه — هذه المشاعر المريضة التى يعيش فيها كثير من الأغنياء الذين يحسبون الترفع عن العمل ، وفراغ اليد ، والعقل والقلب منه — مدرجاً إلى العظمة ، ومرق إلى مقام السيادة ؟ .

إن الإسلام يدعو كل ذى طاقة جسدية أو عقلية أن يوجه طاقته تلك إلى العمل المنتج المفيد ، وأن يضم جهده إلى جهد غيره ليضاعف الثمرة وينمها .

وليس فى الإسلام ولا فى المسلمين من يقعه الترفع والتعالى عن أن يكون عاملاً مع العالمين ١٠٠ والرسول الكريم يقول: « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده » ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده . . . وكان نبي الإسلام أكل مثل وأروع شاهد لهذه الدعوة المباركة . . . كان يخفف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب شاته ، ويقم بيته . . .

* * *

هذا جانب من التشريع الإسلامى ، وأثره فى الحياة . . . فهل تنقض الحياة المعاصرة شيئاً من هذا ؟ وهل تعلو الحياة فى أعلى مستوياتها على هذا المستوى الذى ارتفعت إليه الحياة فى ظل الإسلام . وعلى أيدي المسلمين فى العصر الذى عملت فيه مبادئ الإسلام عملها ، وأخرجت ثمراتها ؟ .

إن الذين يحاولون أن يشوهوا مبادئ الإسلام ، ويشوشوا عليها ليرتكبون لاثماً غليظاً فى حق الحق ذاته ، وفى الجناية على كثير من الناس قد يصرفهم هذا الضلال عن الوقوف على مبادئ الإسلام والانتفاع بها .

وما يضاعف من هذا الإثم ويزيده شناعه أن يكون فى هؤلاء الطاعنين على شريعة الإسلام من نهج نهجها ، ويسير عليها . وينتفع بمقرراتها فى منازع حياته ، وفى أسلوب معيشته ، ثم يلقي الناس بلسان متعاطف عليها ، متسكراً لها !

صياغة أحكام الشريعة :

وقد يجاوز الناقدون من علماء الفرب مفاهيم الشريعة الإسلامية إلى نقد الصياغة المقننة لهذه المفاهيم ، وذلك ليلقوا في روع من يقرأ لهم أن أسلوب القرآن ومعانيه ، وخیالاته كلها مستمدة من الحياة العربية ، مستلهمة من روحها . . ملتقطة من لسانها . . وأن الشريعة التي جاء بها القرآن ليست إلا تهذيبا ، وتنظيما لما عرف العرب في جاهليتهم من أخلاقيات تدور معهم في مدارات الحياة التي يحيونها ويتقلبون فيها .

فمن ذلك ما يقوله مؤلف حضارة الاسلام ، جرونيباوم ، في أسلوب القرآن وصياغته لأحكام الشريعة . . يقول :

« وانه ليعبر — أي القرآن — في بعض الأحيان على طريقة الشعراء .
ويضرب لهذا مثلا ، فيقول :

« فالوحي يعترف بالثأر بقوله : « ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب » (١) ، ولكنه لكي يزين للناس روح الصلح والوفاق في تسوية المنازعات الدموية يضيف إلى تلك قوله : « لعلكم تتقون » :

« وفي مكان آخر يستعين الوحي في هذا الصدد بقصة قابيل وقتله أخاه هابيل ويتخذ هذا المفزى الخلق ... والنبي معارض للقصاص ، وإن رغب في إجازته في ظروف معينة ، غير أنه لم يخرج أفكاره في صيغ قانونية ودقيقة : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنه لا يحب الظالمين ، ولما انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويغيغون في الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم ، ولما صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور (٢) » .

والاسلام ، أو بمعنى آخر القرآن ليس كتاب قانوني جنائي أو مدني ، وليس

(١) سورة البقرة آية ١٧٩ .

(٢) حضارة الإسلام ص ١١٦ والآيات من سورة الشورى ٤٠ — ٤٣ .

لائحة إجراءات ، كل هم تحديد الجرائم ، ووصفها الوصف الكاشف لها ،
ورصد العقوبة المشددة أو المخففة لكل جريمة .

ليس القرآن على تلك الصفة التي ينظر إليه من خلاها الغربيون ، ويحسرون
نظرهم إليه فيها ، وإنما هو قبل كل هذا كتاب تربية وتعليم ، كتاب بناء للأخلاق ،
وتقويم للسلوك ، وليست غايته ضبط المجرم متلبسا بجرمه ، وإنما مقصده الأسمى
تقويم المجرمين وصددهم عن السبيل المعوجة والمنحرفة بما يلقى في قلوبهم من هداية ،
وما يشيع في ضمائرهم من يقظة وصحو !

ذلك هو مقصد الإسلام الأول فيما يشرع من شرائع ، وفيما يرصد من عقاب .
ثم يحىء بعد هذا دور التكيف للجرائم التي تقع ، ووزنها بما يناسب مستقيم عادل ،
ليحسب لها الجزاء المستقيم العادل !

ويقول : « جرونيذ اوم » ، أيضاً في هذا الصدد :

« كان لعرب الجاهلية محصول لغوى غير قليل من المصطلحات الاخلاقية ،
ولسكنهم لا يكادون يملكون أبسط مبادئ القانون المدني أو الجنائي .. »
ونسلم بهذا ..

ولسكنه يتخذ من القول ذريعة ليقول :

« حتى إذا استن (محمد)^(١) شريعة مجتمعة أراد أن يتجاوز البت في الحالات
الفردية ، وأن يصوغ قواعد عامة .. لما على أساس العرف القديم ، أو على وفق
ماركب فيه من إحساس بالعدالة مرهف ، شديد الامتياز .

والشواهد الأدبية الوحيدة التي كان يستطيع أن يسير على هديها لم تكن سوى
عموميات بجملة كالتي ترد أحيانا في الشعر ، كما كانت إلى حد ما قواعد لاتيحيء
مباشرة وصريحة ، بل ملخصة وضمنية ، وذلك عندما يمدح الشاعر بعض النابهين
من الأفراد ، أو يذمه .. لتسكه بفضيلة من الفضائل ، أو تجافيه عنها .

(١) وليس « محمد » هو الذي يستن الشريعة الإسلامية ، ولسكن هكذا يريد الغربيون .

فإذا أحببت لإحدى القبائل مسعى لرجل أجنبي عنها في طلب الثأر ، وأبت
أن تتخلى عن ابن من أبنائها كان قد تورط في نزاع دموى ، راح (زهير) يمدحها
بقوله :

كرام ، فلا ذو الوتر يدرك وتره لديهم ، ولا الجارم الجاني عليهم بمسلم
د فهو يصور قواعد السلوك الصائب بمتهى الزوج ، ولكن بغير الطريقة
التي ترضى المشرع . . . ثم إن أدب الحكمة كان يزود الناس بمدخرات أخاذه
من الحكم الخلقية الماثورة .

والبنى يصرع أهله والظلم مرتعه وخيم

د ولكن النبي لم يكن ليجد أى مرجع ينهل منه عندما تقضى عليه الظروف
بتمريف الظلم ، أو تعيين الطريقة التي ينبغي أن يتبعها القانون في المنازعات
المدنية (١) . .

والمغالطات هنا واضحة مفضوحة ..

فإذا كان القرآن قد سلك الترغيب في مكارم الأخلاق مسلك الإنارة الوجدانية
فليس معنى ذلك أنه يطرق النفوس كما يطرقها الشعر وما يحمل من صور المدح
أو الذم لخلق من الأخلاق ، أو عمل من الأعمال .

وفرق كبير بين صنيع الإسلام في هذا ، وبين ما يتضمن الشعر من فصائح
وحكم . . فإن القرآن تشريع ملزم . . يتبع العمل السيء بالجزاء السيء في العاجل
والآجل معاً . . وليس كذلك ما يجيء في الشعر مما يمدح أو يذم من أخلاق ، فإنه
لا إلزام فيه ولا متوجه به إلى جهة عليا تملك من الناس ما لا يملكون هم من
أنفسهم . . . وتجاوز الخير بالخير أضعافاً مضاعفة ، وتجزى بالسيئة على قدرها
أو تعفو عن مفرقها !

* * *

هذا ، وقد اختلفت نظرات بعض الناظرين في سيرة الرسول من المسلمين ، وغير المسلمين ، فلم يستطيعوا أن يروه بشراً رسولاً .. يعطى للبشرية فيه حقها ، كما يعطى النبوة منه حقها ..

فلقد رأى كثير من غير المسلمين أن تاجس النبي بالحياة البشرية لا يلائم النبوة ، ولا يوائم الرسالة السماوية التي اختير لها .. فهم يكادون يقولون : إن النبي ينبغي أن يحيا حياة الملائكة .. لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا ينام ، ولا يتزوج وقد سبقوا إلى هذا القول بما قاله كفار قريش عن النبي فيما حكاه القرآن عنهم : « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » (١) .

وكثير من المسلمين قد دخل عليهم من هذه المقولات ما عمى عليهم الرؤية الصحيحة . للبشرية القائمة في كيان النبي فحاولوا أن يصفوا حساب البشرية من كيان النبي ، وأن يروا النبي ملكاً لا بشراً رسولاً ..

ولعل أكثر ما لهج به غير المسلمين من سيرة الرسول ، وحاولوا أن يتألوا من مقام النبوة هو زواج النبي ، وما اجتمع في بيت النبوة من زوجات ..

فلقد كان هذا الجانب من حياة الرسول أقرب شيء يمد إليه أعداء الإسلام أيديهم .. ويبسطوا فيه ألسنتهم كلما أرادوا أن يهاجموا الإسلام في شخص نبيه الكريم .

ولهذا فإننا سنقف عند هذه المسألة وقفة نلقى فيها هذه المفتريات ، ونكشف عن زيفها ، ونقول قولة الواقع عنها ، وكلمة الحق فيها .

الباب التاسع

بشرية الرسول

ونعود بعد هذه الوقفة التي وقفناها مع سيرة الرسول ، وما وعى التاريخ منها ، وما ألقى إليها القصاص والمؤرخون من إضافات ، وما أدخل عليها الوضع ، وأصحاب البدع والأهواء من ألوان الباطل الزيف ، ليلبسوا الحق بالباطل ، وليشوهوا معالم هذه السيرة الوضيئة المشرقة .

نعود بعد هذا لننظر في موقف الرسول نفسه من جلال النبوة وروعها ، وما كان يأخذ الناس من هذا الجلال وتلك الروعة !

وليس في مقدور أى إنسان مهما يكن إدراكه لبشرية النبي وتيقنه منها ، أن يحبس في نفسه تلك العواطف التي تجيش أمام هذا الجلال المهيّب الذي لا يرى في هذا الوجود إلا في ظلال النبوة ، وفي رحابها السنى الظهور !

وحسبك أن تذكر هنا ما يروى عن موقف عمر بن الخطاب حين صدك سمعه بقولة من يقول : إن النبي قد مات وكان قد سبق ذلك توعدك وشكاة من الرسول ، حالت بينه وبين إمامة المسلمين للصلاة ، فأقام أبا بكر مقامه فيها !

لقد أنكر عمر — كما يقول المؤرخون — هذا القول ، وردّه على قائله في صرامة وعنف .. بل يقال : إنه سل سيفه ، وتوعد من يقول هذه القولة بأن يعجلوه بسيفه ! ، بل ويقال أيضاً : إن عمر قال : إن رسول الله لم يمّت ، وإنما ذهب لميقات ربه ، كما ذهب موسى ، وسيمود ليقطع السنة قوم كذبوا وضلوا !

وسواء أكانت هذه الروايات صحيحة في جملتها أم غير صحيحة ، فإن فيها دلالة على هذا النعور المذهل الذى طغى على المسلمين حين نعى إليهم النّبى

الكريم ١٠٠ حتى ليبلغ بهم هذا أن ينكروا على الموت أن يتخطى حدوده وينال من الرسول ما ينال من الناس !

ولاشك أن المسلمين كانت أسنتهم في هذا الوقت رطبة ندية بآيات القرآن الكريم التي تحدث عن الرسول ، وعن عاراض البُشرية التي تعرض له ، ومنها عارض الموت الذي لا منفر منه .

فلم يقف القرآن في أن يقرر للرسول نصيبه من هذا العارض الذي ينال كل نفس في قوله : « كل نفس ذائقة الموت » ، وفي قوله تعالى : « كل من عليها فان » ، لم يقف القرآن عند هذا ، بل أفرد للرسول قولاً خاصاً ، ينص في صراحة على أن الرسول ميت لا محالة ، كما يموت الناس جميعاً . . فقال تعالى : « إنك ميت ولإنهم ميتون » وقال سبحانه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (١) .

نقول : إن أي مسلم — بل إن أي إنسان — يقف من النبي موقف المتأمل في ذاته ، والمطالع لأحواله وتصرفاته ، والراصد لحر كاته وسكاته ، والمستقبل لنفحاته وبركاته — لا يستطيع أن يحبس ما يجيش في نفسه من عواطف الإجلال الذي يبلغ مبلغاً لانهاية له ، حتى ليكاد ينسى أنه أمام بشر يعيش على الأرض ، ويحيا في دنيا الناس !

وقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه يعلم ما له في قلوب أصحابه والمخاطبين له من أثر قوى ضاغطة على عقولهم وقلوبهم . . لأنهم يرون إنساناً سماوياً يعيش معهم ، ويحيا حياتهم ثم إذا هو متصل بالسماء ، يتلقى كلام رب العالمين ، من رسول رب العالمين « جبريل » . . وإذا آيات القرآن تشرق من فم الرسول ، فتغمر المجلس نوراً علوياً ، وينتشي بها المؤمنون نشوة تكاد تطير بها الأرواح طيراناً من الأجساد إلى عالم النور !

يعلم الرسول ، بل ويرى تلك الآثار القوية التي يجدها المسلمون من شعاعات النبوة وأضوائها . . فيعمل جهاداً على أن يمسك بالمسلمين أن يذهب بهم الحال

إلى أن يقولوا فيه ما قال أتباع المسيح في المسيح . من أنه ، الله أو ابن الله ، .

فما ترك الرسول الكريم حالا مواتية من أحوال أصحابه ، يكشف لهم فيه عن الجانب البشري منه إلا طلع عليهم به . ولقنهم إليه ، وأمسك بعقولهم أن تضل ، وبمشاعرهم أن تضطرب ، وعادهم إلى ما يدعوم له دينهم من أفراد الله وحده بالعبودية ، وإنزال المخلوقين جميعاً إلى مقام الانقياد للخالق والتصاغر أمام جلاله وعظمته ! لا فرق في هذا بين نبي وغير نبي . بل إن النبي هو أكثر الناس معرفة بهذه الحقيقة ، وأشدّهم تنبهاً لها ، وقياماً عليها .

شواهد من أحوال الرسول :

ولو أراد الإنسان أن يقف من سيرة الرسول الكريم على شواهد لهذه الحال التي يكشف فيها لأصحابه عن بشريته ، وعبوديته ، وخضوعه لضرورات الحياة الإنسانية ، وتلبسه بها - لو أراد الإنسان أن يجد لهذا شواهد من حياة الرسول لما كان له أن يتخير حالا دون حال ، أو يقف عند شأن دون شأن ، بل إن سيرة الرسول كلها ، وأحواله كلها ، وشؤونها جميعاً شواهد عدول على أن الرسول كان إلى جانب قيامه بأمر الدعوة وتبليغ الرسالة قائماً كذلك بتحديد معالم شخصية في نفوس أصحابه . ووضعها في إطار بشري خالص ، ليس فيه من امتياز على غيره إلا ما فضل الله به عليه باختياره لتلك الرسالة السماوية واصطفائه لها ، وإلباسه اللباس النفسي والروحي والجسدي الملائم لها ، دون أن يخرج ذلك كله عن أن يكون لإنساناً من الناس ، يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ! .

القرآن وشخصية الرسول :

ولم تدع الشريعة الإسلامية تقرير بشرية الرسول وتوكيدها إلى الرسول وحده . وإلى ما يقول عن نفسه من أنه إنسان قبل أن يكون رسولا ، وأنه يحكم هذه الطبيعة يعيش في مجال الإنسانية . ويتحرك في محيطها . لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا إلا ما شاء الله !

لم تدع الشريعة الإسلامية للرسول وحده أن يكشف لأصحابه عن هذه الحقيقة، بل جعلت ذلك أيضاً وحياً من السماء، مستطورياً في كتابها المنزل على النبي . . حتى لا تترك سيلاً لمناول أن يتناول فيما يقول الرسول الكريم عن نفسه . . كأن يحسب هذا القول على سبيل التواضع من الرسول لربه ، والتخاشع في مقام العبودية لخالقه . . وهو في واقع الأمر حق لا مزية فيه ، وإن حمل معه ما حمل من الولاء والخضوع والتخاشع لله رب العالمين ؛

من أجل هذا تكررت في آيات الكتاب الصور التي تحدد شخصية الرسول، وتنهها في الإطار البشري ، الذي لا يسمح لاتباعه أن يخرجوه من هذا الإطار، وإن بلغ ما بلغ من جلال ، وكال .

يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ، » (١) ، فالآية توجه إلى الرسول أولاً ، ليعلم من نفسه أنه بشر ، وهو عالم فعلاً ، ولكن ليكون ذلك تقريراً ، وتوكيداً لهذا العلم ، وتوجه ثانياً إلى من يعينهم أمر النبي من المؤمنين وغير المؤمنين ، ليعلموا أن هذا الإنسان المتكلم بالسماء المحلى بالسكالات ، ليس إلا بشراً من البشر ، وإنساناً من الناس . .

ويقول سبحانه لنبيه أيضاً : « قل سبحان ربي . . هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ » (٢) . . وهذا القول الذي أمر الله نبيه أن يقوله إنما هو رد لما كانت تريد قرين منه ، ودفع لهذا الفهم الخاطئ لطبيعة النبي ، إذ حسبوا أن النبي إله قائم في الأرض يتصرف في الوجود كيف يشاء ، فجاءوا يطالبون النبي بما حكاه القرآن عنهم . « وقالوا لنؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها فتفجيراً ، أو تسقط السماء كزعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء . . » وإنؤمن لرفيك حتى تنزل طلياً كتاباً فقررته . « قل سبحان ربي . . هل كنت إلا بشراً رسولاً ؟ » ، إنه بشر . .

(١) سورة الأعراف آية ٩٣

(٢) سورة النحل آية ١٠

وكونه رسولا لا يخرج من البشرية ؛ ولا يتطوع له أن يأتي بغير ما يرسل به ؛
ويوحى إليه ١ .

ولا يقف القرآن عند حد القول الصريح ببشرية الرسول ، بل يذهب إلى
أبعد من هذا فيقرر أن للرسول كل خصائص البشرية ، وممتلكاتها . . لأنه كسائر
الناس ، لا يعلم الغيب ، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا ، وأنه لا يهدى من
أحب ، ولا يملك الشفاعة إلا بإذن ربه ، وأنه يحزن . ويألم . ويضيق صدره .
وتقر عينه .

وهذه هي طبيعة الحياة البشرية ، وللرسول نصيبه منها .

يقول الله تعالى : قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعا إلا ما شاء الله ، ولو
كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما حسنى السوء . . إن أنا إلا نذير
وبشير لقوم يؤمنون ، (١) . . ويقول سبحانه : وإني لأتهدى من أحببت ،
ولكن الله يهدي من يشاء ، (٢) . . ويقول سبحانه : ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق
بما يمكرون ، (٣) . . ويقول عز من قائل : واصبر نفسك مع الذين يدعون
ربهم بالنداء والشهادة ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ،
ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ؛ وانبع هواه وكان أمره فرطاً ، (٤) . .
وهذه كلها منازع بشرية ، تهده إليها نفس الرسول ، كما تهده نفوس الناس ،
فيدعوه الله سبحانه إلى تجنبها ، والحذر منها ١ .

أما دور الرسول في مجال التطبيق العملي لتقرير بشريته بين أتباعه فهو كما قلنا
دور تمتد من أول بعثته إلى أن الحق بالرفيق الأعلى . . وشواهد تنظيم حياة
الرسول كلها في هذه المرحلة العظيمة من حياته .

والله اعلم هنا بمقتضى مواقف الرسول الكريم في هذا الشأن ؛

١ . جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في بعض شأئه ، فلما دافاه ليتحدث إليه

(١) . سورة القصص آية ٦٩

(٢) سورة الأعراف آية ١٨٨

(٣) سورة النحل آية ٩٨

(٤) سورة النحل آية ٩٧

اضطرب كيانه ؛ وتلعثم لسانه ؛ لما أخذه من هيئة الرسول وجلاله . . تلك
الهيبة وذلك الجلال اللذين لم يبعثهما في نفس الأعرابي ما تبعث في النفوس أبهة
الملك وصوله السلطان بما يحشد لها من حرس ؛ وحجاب ، وبما يقوم فيها من
ألوان الترف ؛ وعجائب التحف ونواديرها — وإنما مبعث تلك الهيبة وذلك
الجلال هو ما تشع به ذات الرسول الكريم من عظمة نفسية ، وصفاء روحي . .
تسرى منها إلى من حوله موجات من النور العلوي ، يجد لها الناس مساً أشبه
بمس الكهرباء !

ونعود إلى ذلك الأعرابي ، فجدده بين يدي الرسول ، وقد علاه البهر ،
وبلله العرق . . وإذا الرسول الكريم يبعث إليه نسمة ندية عطرة ، تشيع
في كيانه الطمأنينة والسكينة ، ويسقيه من رحيق كلماته الطيبة ما ينعش روحه ،
ويمسك أوصاله . فيقول له رسول الله ﷺ : هون عليك . . فإنني لست
بملك . إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد ! . .

لأنه إنسان من الناس ، ولد لأبوين كما يولد كل إنسان . . ثم هو — وإن كان
نبياً — لم يبتعد عن الجماعة الإنسانية بما يتخذ الموك والاباطرة من أقنعة الابهة
والسلطان التي تعزهم عن المجتمع الإنساني . . إنه ابن امرأة تأكل القديد .

٢ — وأخرج أبو داود في سننه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم
طاف بالبيت . ثم أتى السقاية ، فقال : اسقوني . فقال له ابن عباس ألا نخوض
له سويقاً ؟ . . فإن هذا يتناول منه الناس ! فقال صلوات الله وسلامه عليه :
اسقوني بما يشرب الناس . !!

وكيف يعتزل النبي الناس ، ويعتزل الحياة التي يحيونها وهو الطبيب الذي يعالج
أدواءهم ، ويطبب عائلهم ؟ وهل يعتزل الطبيب مرضاه ؟ وهل يرضى الأب أن
يكون في خير لا يصيب منه أبناؤه خطأ لحظة ؟

وعلى الذين في البيت من رسول الله ، ومن رسالته أن يفتقروا عنه هذه
الأحوال منه ليروا ماذا كان يطلب بدعوى النبوة والرسالة إن لم يكن نبياً أصلاً ؟

وما المأرب التي قصد إليها ، وما النايات التي حققها ؟ أين المال الذي جمع ؟ وأين التاج الذي وضع على رأسه ، وأين متع الحياة التي تحف به ؟ وهل يدخل لإنسان في مثل هذه التجربة ، ويدعى مثل هذه الدعوى ، ويحتمل فيها ألوان الضرر والأذى ، ثم إذا استجاب الناس لدعوته ، وداروا حول مشيئته ، وساقوا إليه مقام النصر ... نفص يديه من كل هذا ، وعاش على الكفاف من كل شيء ... ؟ في المطعم ، والمليس ، والمسكن ... ؟ فكانت حجراته التي يأوى إليها حجارة مرصوفة ... سقفها من الجريد ... لا تزيد على أي كوخ أو خيمة ... وكان أكثر طعامه خبزة الشعير ، وإدامه الخل ... لا يشبع منهما ... وقد كانت السيدة عائشة رضي الله عنها تقول : « إن كنا آل محمد لنمكث شهراً ما نستهوي ناراً ، إن هو إلا التمر والماء » (١) . . . وعنها رضي الله عنها قالت : « ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله » ١٠

وعنها رضي الله عنها قالت : « ولقد مات - أي النبي - وما عندي شيء يأكله ذئ كبد إلا شطر شعير في رفلي » .

وعن ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت هو وأهله الليالي المتتابعة طاوياً لا يجدون عشاء » ١٠

وعن أنس رضي الله عنه قال : « ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان ولا في سكرجه (٢) ، ولا خبز له مرقني ، ولا رأى شاة سميطاً (٣) قط » .

فهذا طعامه صلى الله عليه وسلم بعد أن فتح الله له تلك الفتوحات التي شملت الجزيرة العربية كلها ... طعام غليظ خشن ، وهو مع غلظه وخشونته قليل لا يشبع .

وإذا جلس صلى الله عليه وسلم للأكل جلس مستوفراً على الأرض ،

(١) الشفا بجزءه ص ١٩ هـ

(٢) السكرجة : الصنعة التي يوضع فيها الطعام هـ

(٣) الشاة : السميط التي تشوى بالنار ،

لا ينصب له خوان ، ولا يتكىء على أريكته أو نحوها . وكان يقول : « إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » (١) .

وأما فرشته الذى ينام عليه فكان أدماً حشوه ليف ، وغن حنصمة رضى الله عنها قالت : كان فراش رسول الله صلى الله وسلم مسحاً (٢) ، ثنيتين ثنيتين ، فينام عليه : فثنياه له ليلة بأربع ، فلما أصبح قال : ما فرستموا لى الليلة ؟ فذكرنا ذلك له ، فقال : ردوه بحاله ، فإن وطأته منعتنى الليلة صلاتى » ١

لأنه نبي صاحب دعوة ، وليس طالب ملك ، ولا صاحب دنيا ... فلقد سيقت إليه الدنيا بحذافيرها ، وترادفت عليه ، فتوحها ، إلى أن توفى صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله .. وكان يدعو ويقول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » .

٣ — قالت أم العلاء الأنصارية :

لما قدم المهاجرون المدينة . . اقترعت الأنصار على سكنائهم ، فصار لنا عثمان ابن مظعون فى السكنى فرض .. ثم توفى .. فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل .. فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب .. فشهادتى أن قد أكرمك الله ! قال النبي صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله قد أكرمك ؟ قالت : لا — والله لا أدرى ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما هو فقد أتاه اليقين من ربه ، وإنى لأرجو له الخير .. والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل بى ، ولا بكم ! (٣)

ولأنه صلوات الله وسلامه عليه — وإن يكن نبياً — بشر ، مقيد بقيود البشرية .. لا يعلم الغيب ، ولا يدرى ما يفعل به ولا يفكره .. فذلك مما استأثر الله سبحانه وتعالى به .. « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » (٤) .

٤ — عن عمر رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا تنظرونى كما أظرت النصارى ابن مريم .. إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

(٢) المسح : الكساء من الشعر .

(٤) سورة البقرة آية ٢٥٥

(١) الشفا جزء ١ ص ٦٦ .

(٣) النبوات لابن تيمية ص ٩

وعن أنس رضى الله عنه : إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنتطلق به حيث شاءت ، حتى تقضى حاجتها .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : دخلت السوق مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فاشتري سراويل ، وقال للوزان زن وأرجع . فوثب إلى يد النبي صلى الله عليه وسلم يقبلها ، فجذب النبي يده وقال : هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بذلك .. إنما أنا رجل منكم .. ثم أخذ السراويل ، فذهبت لأحملها ، فقال : صاحب الشيء أحق بشيئيه أن يحمله ، (١) .

أفيبقى بعد هذه التربية القولية والعملية من رسول الله لأصحابه ولأنبائه ما يدع في نفوسهم إثارة من شك في بشرية النبي ؟ وأنه عبد الله ، ورسول الله ؟ كلا ، ثم كلا .

ما شهدت به الأعداء !

ولكثرة ما كان في حياة الرسول من صور التواضع ، ومن المواقف الكاشفة عن طبيعته البشرية — لم يستطع الدارسون لسيرته — من غير المسلمين — أن يخفوا هذه الحقيقة ، على رغم ما لبسهم من استعداد طبيعي للبحث عن مواطن الضعف في تلك السيرة الطيبة ، والتوصل إلى ذلك بأوى الأسباب ! هذا إذا كان الباحث طالب حقيقة ، وقليل من هؤلاء من وقف موقف الحياد والإنصاف من سيرة النبي . أما من كان من أولئك الباحثين من نصب نفسه للنيل من رسول الإسلام فإنه يتعمى عن الحقائق ، ويقف متمسكاً في ظلال الشكوك والريب التي يسوقها مساق اللمز والغمز !

نقول إن المؤرخين من غير المسلمين — منصفين أو مغرضين — لم يستطيعوا أن يخفوا ما كان في سيرة النبي .. من مواقفه التي كشفت بها عن بشريته ، وعمل على إزاحة التعصبات التي كانت ترتفع لأنظار أصحابه ، مما تفيض به مشاعرهم من

عواطف الإجلال والتعظيم الممزوجين بالولاء المخلص ، والحب الخالص لذات الرسول وصفاته !

١ - فهذا العالم الفيلسوف الإنجليزى ، ول ديورانت ، يقول : ومع اصطلاح النبي بهذه الشؤون كلها - أى القيام بأمر الدعوة وتنظيم شئون الحرب والسلام فى المجتمع الإسلامى - فقد كان جم التواضع إلى درجة تحييه إلى النفوس ، وكثيراً ما كان يعترف أن ثمة أموراً لا يعرفها ، ويحتاج على الذين يظنونه أكثر من لإنسان يجرى عليه ما جرى على الناس جميعاً . من موت ، ووقوع فى الخطأ .. ولم يدع فى يوم من الأيام أنه قادر على معرفة الغيب أو الإتيان بالمعجزات .. (١) .
هذه قولة رجل على غير دين الاسلام ، لا يحمل عاطفة تعطفه على هذا الدين ، وإن يكن فى نفسه شيء فهو أن يجله المغامر والعشرات !

فلقد عز عليه أن تقلت منه هذه الحقيقة ، وأن تغلبه شواهد التاريخ الصادقة عن أن يقلت هو منها - عز عليه هذا ، فألقى على تلك الحقيقة التى قررها مرغماً أنفاساً من صدره المريض ، يتصاعد منها دخان خبيث يخلط بين الحق والباطل ، ويجمع بين العسل والسقم .. فيقول بعد هذا القول الذى أرغمه الواقع التاريخى على قوله - يقول : لكنته - أى النبى - على هذا لم يكن يستكشف أن يستعين بالوهمى فى الأغراض البشرية والشخصية كما حدث حين نزل الوهمى مؤيداً زواجه من زوجة زيد متبناه « (٢) .

وعجيب من مثل هذا العالم الفيلسوف أن يسمح لعقله بهذا العبث بالمنطق والخروج على المثل القائل : « إذا كنت كذوباً فكنت ذكوراً » !
لأنه يعترف بأن « محمداً » نبى . .

فهل يتفق ووظيفة النبى أن يكذب على الله ؟ وأن يصطنع وحيماً يوحيه إلى نفسه ، ثم ينسبه إلى الله ، ليجد به حاجة من حاجات نفسه ، ويشبع به هوى من أهوائه ؟

(١) قصة الحضارة الجزء الثانى من المجلد الرابع ص ٤٣ .

(٢) قصة الحضارة الجزء الثانى من المجلد الرابع ص ٤٣ .

أمن يفعل هذا يكون نبياً حقاً .. ؟ وهل يكون رسول السماء خائناً لرسالة السماء ؟ إن هذا اتهام لله — سبحانه — إذ لم يكن الرجل الذي اختاره لحمل رسالته إلى الناس بالرجل الأمين الصالح لأداء هذه المهمة .. وسوء اختيار الرسول يلقي اللائمة كلها على من أرسله !

هذا ما يجرى عليه منطق الناس في الحياة — فهل يصح أن يكون من كمال الإنسان حسن اختياره لمن يؤدي عنه أمراً من الأمور، ثم لا يكون هذا السكّال لله في اختياره لأنبيائه ورسله ؟

إن القول بأن أنبياء الله ورسله يتقولون على الله ... فيه تجديد على الله وكفر به ! وأهون من هذا أن يشتم النبي بأنه غير نبي .. فهذه تهمة ، وإن كانت شنيعة ، إلا أنها دون تلك التهمة التي تقر النبي في مكانه من النبوة ، ثم ترميه بالكذب على الله ، والافتراء على ما أرسل به : « ومن أظلم مما افترى على الله كذباً .. أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء » (١) .

إن المنطق الذي يقبل مثل هذا القول في شأن الأنبياء ، منطق مقلوب ، يتأذى منه العقل ويتقزز منه ...

٢ — وهناك عالم فيلسوف آخر كان له في هذا الجانِب من حياة الرسول نظرة أشمل وأعمق من نظرة المؤرخ العالم « ول ديورانت » .. كما كانت نظراته تلك أبعد من الهوى ، وأقرب إلى الحق من نظرة صاحبه ! إنه جوستاف جرونيباوم مؤلف كتاب « حضارة الإسلام » .. فقد وقف وقفة طويلة عند تلك القصص الكثيرة التي أدخلها القصاص ، ورواة الأخبار على سيرة الرسول ، وكشف عن تلك الدوافع التي نسجت من أجلها تلك القصص ..

فهو يعترف أولاً بأن حياة الرجل العظيم تنطوي على شرارة إلهية ، تجعل لصاحبها شأنًا في نظر أصحابه ، ومكانًا من قلوبهم .. وأن الأعمال العظيمة التي

تجرى على يديه تطلق في الناس أعنة الخيال لينسجروا منها ضروباً من القصص التي لا يمكنها منطق ، ولا يحكمها عقل ..

يقول « جرونيباوم » : « إن انطواء حياة الرجل العظيم على قدر من الشرارة الإلهية أقوى بأساً مما لدى إخوانه الضعفاء لآية حافاة بالمعاني للعالم كافة !

» ذلك أن رسالته تؤخذ بيده مرحلة جديدة في قصة هذا العالم .

« ولا شك أن القوى التي يفك أسارها ستكون رهن إشارته ، وستكون أهم أدوار مقامه في هذه الأرض موضع الترحاب أو المحاكاة من العالم الذي كان مجرد ظهوره فيه ذا أثر في حظه ومجراه !

« وإن القلوب الساذجة النفل لتروح تنسج الخوارق وشياً تحيط به حياة الرجل المزله العظيم ، غافلة عن أن هذه الخوارق تنفض من شأن النصر الإنساني الذي يحرزه بطلم (١) » .

وطبعاً أن « جرونيباوم » يتخذ من مدلول كلمة « العظيم » مرقى يرقى به إلى الحديث عن العظمة السكمنة في النبي ... فهو إنما يناقش هنا قضية المعجزات التي تنسب إلى نبي الإسلام .

واللفتة الذكية البارعة من « جرونيباوم » هنا هي إشارته إلى غفلة أولئك الذين يرون أن عظمة النبي إنما تتجلى في كثرة الخوارق والمعجزات التي كانت بين يديه — وهم في الواقع إنما ينتقصون من كفاح النبي ، ويقطعون الطريق على هذا الكفاح الإنساني أن يتلبس بالحياة . ويتق بأحداثها ، وينتصر عليها ... لأنه حينئذ انحصار نفوح من عرق الجهد الشخصي ، وهو جهد يحسب له ، وينسب إليه .. أما الخوارق والمعجزات ، فلا يملك الرسول من أمرها شيئاً ، وإنما هي أمانة تلقاها من السماء وأداها للناس !!

ثم ينتقل « جرونيباوم » إلى موقف النبي من تلك الموجات التقديسية التي كانت تتدافع في عقول أصحابه وقلوبهم .. فيقول :

« حرص محمد مدة رسالته على أن يؤكد للناس أنه بشر . ذو طبيعة إنسانية ، وأنه بفضل من الله ، لا يستحقه ، ولا يعرف له سبباً اختيار رسولاً له تعالى . .

« وفيما عدا هذه الخصوصية — خصوصية اختياره للرسالة — ليس ثمة شيء يفرق بينه وبين إخوانه من البشر .

« وإن علمه بالغيب لمحدود بما يريد الله أن يعلمه إياه .

« فكل ما لم يرشده إليه الوحي فأمر قد يضل فيه السبيل .

« وليس له بعمل المعجزات يدان .

« وكلما لج أعداؤه في تحديهم إياه بأن يثبت أقواله بإحدى المعجزات أن ذلك ، غير عاين بسخرية الساخرين ، وخيبة أمل المتشككين . . ذلك أن رسالته نفسها هي آيته ، وأمارته :

« وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ؟ قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون . (١) ...

ثم يعقب « جرونيباوم » على هذا بقوله :

على أن حصة « محمد » لم تجده نفهأ .. فهما أنكر لم يكن إنكاره ليتنحى العرب أنه بشر مثلهم ، تعوزه البصيرة الحارقة التي تنفذ حجب الغيب وآفاق المستقبل .

« ولم يكذب ينقض على وفاته طويل زمن حتى ثار الخيال الشعبي متغلباً على نصوص الوحي نفسها ، ومغطياً على الاحتجاجات الفاترة التي أبدعها ذوو الضمير الحى من الفقهاء — وراح يقص من جديد سيرة النبي ، واضعاً إياه في صورة الساحر القوى II

« ولقد رانت عليهم تلك الرغبة الساذجة في تعظيم البطل برفعه فوق درجة الإنسانية إلى أقصى حد مستطاع ، وظاهرها على ذلك التقليد الهريق الذى يؤكد من أهميته الشخصية الفذة ، بما ينسب إليها من تعاون العالم الروحى كله وإياها... »

ثم يعرض المؤلف صوراً من القصص التى يرى أنها أضيفت إلى السيرة النبوية لترفع من شأن النبي — كما توهم واضعوها .

وهنا يكشف عن العناصر الغريبة التى دخلت في تاريخ السيرة : وأضيفت إليها . فيقول : « وشم أقاعيص عن معجزات زرداشقية ، وهيلينستية ، وبوذية ، تنسب بمتبى الحرية إلى شخص الرسول ! »

ثم يقول : « وإن اللهفة على تمجيد رسول الله ، وإخراجه عن طن طبيعة البشر لأمر كانت تحركه في مدارج معينة تلك النزعة المطوية في الناس عامة ، بل في نفس محمد نفسه (٢٩) في إظهاره في صورة النبي المطابق لسنة الأنبياء كافة ! »

« فكل ما أثبتت به دعاوى الرسل يعاد قوله في «محمد» ١١ فليس يكفي أن تشهد له أعماله ورسالته ، بل لابد من تسويغ الإيمان برسالته ، وذلك على الأقل بإظهاره في قوة الأنبياء الآخرين المرهوبين . »

ثم يقول : « إنه من المحتمل أن هذه الأساطير كانت مقصورة في بادئ الأمر على غير المتعلمين ، وأن القصاص المحترف كان المسئول الأول عن صوغها ونشرها . ولكن بعد فترة وجيزة شرح جملة الفقهاء بمضمون الدلائل النبوية هذه جمعا منظم ! »

« كان الفقهاء بين دافعين قويين . فإن الخيال الشعري كان يصر على اعتبار رسول الله نبيا صاحب معجزات .. ثم إن إجماع المؤمنين على المطالبة بالاعتراف بالعناصر الإعجازية في حياة «محمد» كان كافيا في حد ذاته لحل الفقهاء على الاستجابة لهم .. »

« إلا أن التحدى المسموحى الذى كان يطالب المسلمين بتقديم الشواهد الخارقة على نبوة «محمد» اضطر هؤلاء الفقهاء إلى استجابة سريعة ! »

وقد استمر ضجيج المجادلين المسيحيين عنيفاً لا تهدأ له مفاخرة حتى بعد أن أسرف المسلمون في الاستجابة لتلك المطالب المسيحية (١) .

وهذا الكلام كلام رجل منصف إلى حد ما ، فقد كشف عن طبيعة هذا القصص الخرافي الذي دخل به القصاص والوضاع على سيرة الرسول ، كما كشف عن تلك الدوافع التي اندفعت منها هذه القصص في صورها الخيالية المبهمة على أن « جرونيباوم » لم يرض لنفسه أن تسخو بهذه الحقيقة ، وأن تقول كلمة الحق ، ولو كانت مرة . . فرمى تلك الرمية الخبيثة الماكرة خلال كلمات مشرقة يدعمها الحق ، ويزينها المنطق حتى لتكاد هذه الرمية تمر دون أن يتنبه لها أحد . .

فيقول فيما نقلنا عنه آنفاً : « وإن اللفة على تمجيد رسول الله وإخراجه عن طبيعة البشر لأمر كانت تحركه في مدارج معينة تلك النزعة المطوية في الناس عامة بل في نفس « محمد » نفسه ، في إظهاره في صورة النبي المطابق لسنة الأنبياء كافة ! !

د بل في نفس محمد نفسه ، ! .

كذب مفضوح بشهادة أهله . . فقد قرر المؤلف من قبل أن النبي كان حريصاً أشد الحرص « على أن يؤكد للناس مدة رسالته أنه بشر . . ذو طبيعة إنسانية . . وأنه بفضل من الله لا يستحقه ، ولا يعرف له سبباً اختير رسولاً لله تعالى . . وكلما لجأ أعداؤه تحديهم إياه في أن يثبت أقواله بإحدى المعجزات أبي ذلك ، غير عابئ بسخرية الساخرين . . ولا نخبة أمل المتشككين) . . هذا ما يقرره المؤلف ، فهل يتفق مع هذا القول أن يقول : إن في نفس « محمد » نزعة تنزع به إلى تمجيد نفسه . وإخراجه عن طبيعة البشر ؟

أهذا من ذاك ؟ كلا . فشتان بين الحق والباطل . وبين الرأي والهوى .

وما نحسب المؤلف كان على غير معرفة كاملة بسيرة الرسول حتى نجد له

العذر لهذا الخلط المشين . . فالعلم الذي بين يدي الرجل من تلك السيرة الكريمة قد أتاح له أن يبني آراء سديدة ، وأن يصدر أحكاماً عادلة . . ولكن الذي أتى منه هذا الكاتب أنه لم ينظر إلى الرسول على أنه مبعوث السماء ، وترجمان الملائ الأعلى ، وإنما نظر إليه في حدود الإنسان الذي لاصته له بالسماء ، وأن في هذا الإنسان جانباً من جوانب العظمة التي تبرز في كثير من الناس على اختلاف الأهم والأزمان .

ولو نظر هذا العالم الكبير إلى « محمد » على أنه نبي . لما رعى هذه الرمية الطائشة ، التي لا تستند إلى شيء من الواقع الذي يعلمه علم اليقين من سيرة الرسول والذي لم يستطع أن يخفيه ، فقرر في أول هذا الحديث أن « محمداً » قد حرص مدة رسالته على أن يؤكد للناس أنه بشر . . ذو طبيعة إنسانية ، وأنه بفضل من الله لا يستحقه ، ولا يعرف له سبباً اختير رسولاً له تعالى . . فكيف يتفق أول هذا الحديث مع آخره ؟ لأنه نضيج حقد قديم على الإسلام ، وعلى رسول الإسلام لم يستطع هذا العالم الكبير أن يحبسه في صدره فتفطت منه عن قصد . أو غير قصد .

إن أعظم العظمة في « محمد » ، أنه بشر ، وأنه في ثوب البشرية هذا استطاع أن يعاو على الضعف الإنساني ، وأن يقهر ظلام الطين الذي خلق الإنسان منه ، وأن يحيل هذا الظلام نوراً مشبعاً بضياء الوجود ، ويكشف للناس الطريق إلى السماء . . إلى عالم الحق ، إلى الله رب العالمين .

إن بشرية « محمد » وما بلغ بها الله من كمال وجلال لشهادة قائمة بين الناس ، قددهم أطيب الحديث وأصدقه عن الكمال والجلال المودع في الإنسانية ، والمنطوي في كياناتها ، وإن الطريق المفتوح أمام الإنسان إلى التحليق في آفاق الكمال إلى مآلاتها ، على قدر ما يندل من جهد للاستعلاء على نزعاته وأهوائه . . وأنه بقدر ما يمد بهمه إلى السماء ، وبقدر ما يفتح قلبه لأنوار الحق فيها ، يكون ارتفاعه وعلوه في عالم التراب .

الباب العاشر

المرأة في حياة النبي

اتخذ أعداء الإسلام من تعدد زوجات النبي ، ومن تعدد الزواج في الإسلام
مطعنا على هذا الدين ، واعتباره شريعة تركي مطالب الجسد البهيمية . ولاتفى
بالجانب الروحي والنفسي في الإنسان !

ويصور أعداء الإسلام الشريعة الإسلامية من خلال هذه النظرة إلى تعدد
الزواج فيه — بأنه دين جماعة من الأعراب الثامنين في الصحراء ، المحرومين من
طيبات الحياة ، فكان من تدبير هذه الشريعة — لكي تجذبهم إليها ، وتفرهم
بقبولها — أن استجابت لأحلامهم التي كانت تطرق خواطرم في اليقظة
وتظهر على مسرح حياتهم في النوم ، فجعلت من مقرراتها تأويل هذه الأحلام
بإطلاق سراح هذه الخواطر ، وإرخاء العنان لها لترعى حيث تشاء ، مما ينفذ
شهوات الجسد ، ويوسع جوعها !

فهناك النساء .. مثنى وثلاث ورباع .. للمسلم أن يتزوج أربعاً ، فأربعاً
يخلى فريقاً ، ويمسك فريقاً .. إلى غير حد محدود !

وهناك ألوان الطعام ، والمشتبهات التي تمد المعدة بأوقود الذي يحيل هذا
الطعام إلى طاقات تستهلك في معركة الحياة مع المرأة !!

فإذا لم يجد المسلم بين يديه هذه المتع الجسدية كما تصورها له أحلامه وخواطره
في هذه الدنيا ، أحياه الإسلام إلى وجود آخر يجد فيه تلك المتع على صورة أتم
وأوفى ، هي جنات الخلد في الحياة الآخرة ، وهي حيث النعيم المقيم فيها ، وهي حيث
الحور اللدان لمن يريدن ، وهي حيث هناك الأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، ومن
نسل مصفى ، ومن خمر لينة للشاربين !

هذا هو المفهوم الذي يحاول أعداء الشريعة الإسلامية أن يظهروها به ويعرضوها في الناس على صورته .

وهم يتخذون من نبي الإسلام ، والقائم على شريعته غرضاً منصوباً لسمامهم الطائشة .. حين يعرضون من سيرة الرسول هذا العدد الكبير من النساء اللاتي تزوج بهن ، ويعدون تجاوز النبي عن العدد الذي أباحته الشريعة للمسلم ، وبإمساكه تسع نساء أو عشر أمعاً ، في حين أنه لا يجوز للمسلم أن يمسك أكثر من أربع - يعدون هذا التجاوز مما لا اله من السماء له ، إن كان ذلك يتدبير من السماء ، أو يشاراً لنفسه ، وترضياً لها إن كانت شريعته من عمله ! ويقول أصحاب هذا القول : إن النبي جعل قانون شريعته بحيث يخضع لمطالبه ، ويستجيب لحاجته في هذا الباب .. !

فتراهم يقولون مثلاً :

« إن النبي حين يرى هذا العدد الكثير من النساء في حوزته ، ويرى أبصار المسلمين ، وغير المسلمين تتجه إليهن - حين يرى ذلك يحى . بقرآن يحرم على المسلمين أن يدخلوا بيته : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث .. إن ذلكم كان يؤذي النبي ، فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق ، وإذا سألتهم عن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب .. ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم كان عند الله عظيماً » (١) .

ثم من جهة أخرى يقرأ على نساءه قرآنا يفرض عليهن فيه الحجاب : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ، إن اتقين فلا تخضعن بالقول ، فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولا معروفاً ، وقرن في بيوتكن . ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » (٢) .

ثم من جهة ثالثة يزل قرآنا يبيح لنفسه ما لا يباح لغيره ممن هم على شريعته :

(٢) سورة الأحزاب : ٣٢ - ٣٣ .

(١) سورة الأحزاب : ٥٣ .

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ ، وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ
مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَبَنَاتُ عَمَّاتِكَ ، وَبَنَاتُ خَالَكَ ، وَبَنَاتُ
خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ، وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ، إِنْ أَرَادَ
النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ، خَالِصَةً ، لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ
فِي أَزْوَاجِهِمْ ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ — لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ، تَرْجَى مِنْ نَشَاءِ مَنْهَنْ ، وَتَوَوَّى إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءِ ، وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِنْ عَزَلَتِ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ تَقْرَأَ عَيْنَهُنَّ ، وَلَا يَحْزَنَ ، وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ
كُلَّهِنَّ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ، (١) »

كل هذا ، الذي يستنزه به محمد ، من قرآن ، أو يحصى به من عنده ، إنما ليبلغ
به حاجة نفسه من النساء ، وليشبع شهوته منهن .

هذا هو نبي الإسلام في تصور المستشرقين له ، وفي نظر من نظر إلى الإسلام
من الغربيين بوجه عام ..

لأنهم لا يرون حياة النبي إلا في جو « الحريم » ، ولا تقع أبصارهم من سيرته
إلا على هذا الأفق ، لا يبرحه أبداً ، ولا يتحول عنه إلى غاية من غايات الحياة .
أما الرسالة وأعباؤها . وأما الدفاع عن المجتمع الإسلامي وحمايته .
وأما سياسة الحرب والسلم لهذا المجتمع . فذلك كله من وراء ظهر « محمد » ومن
نافلة الحياة عنده .. هذا ما يقول به غير المسلمين ممن يرصدون حركات الإسلام
ويترجمون الدوائر به .

أما مقطع الحق في هذه الآراء ، فلا نحب أن نفرد فيه بالحكم لها أو عليها
كما لا نحب أن نقول فيها قولاً قبل أن نضع لإزاءها الحقائق التاريخية الثابتة ،
وقبل أن نشهد واقع الحياة على مضامين هذه الآراء ، وما فيها من عناصر التجاوب
مع الطبيعة البشرية ، وتفاعلها مع الزمن .

الرجل والمرأة :

الصلة بين الرجل والمرأة أمر طبيعي ، تدعو إليه الحياة . وتنادى به غريزة بقاء النوع . تلك الغريزة التي تملأ كيان كل حي ، وتحمله على أن يستجيب لها . وينتهى إلى الغاية التي ترمى إليها ..

وأى خلل فى هذه الغريزة يكون من أثره خمودها ، أو القضاء عليها — هو خروج على الطبيعة ، وانحراف عن الوضع السليم للكائن الحى فيها ..

فليس مما يعيب إنساناً من الناس أن يكون على الصحة والسلامة ، وأن تكون غرائزه الحيوية ، أو الحيوانية عاملة ، تؤدي وظائفها على الوجه الذى يحفظ وجوده فى ذاته ، وفى نوعه جميعاً .

أيعيب الإنسان أن يأكل ويشرب لأن الحيوان يأكل ويشرب ؟

أيعيب الإنسان أن ينام لأن الحيوان ينام ؟

أيعيب الرجل أن يتصل بالمرأة لأن الحيوان تتصل ذكوره بانثائه ؟

كلا .. فإن بقاء الناس فى الحياة مرتبط بما يحفظ هذه الحياة التى هى جسد ينمى ، ويتناسل ، كما تنمى وتتناسل الكائنات الحية جميعاً ..

نعم .. إن الإنسان يفارق الحيوان فى أن له وراء هذه الحياة الحيوانية حيوات أخرى عقلية ، وروحية ، ونفسية !

ولا بقاء ، أو بمعنى آخر لاجود للحياة العقلية والروحية والنفسية للإنسان من الناس إلا فى إطار هذه الحياة الحيوانية . التى من مستلزمات وجودها وبقائها الغذاء والتناسل !

وقد يقول المتفلسفة أو الروحانيون .. إن الإنسان لىكون إنساناً ينبغى أن يوهى الصلة بينه وبين الحياة الحيوانية ، بمعنى أن يحتذى من الحياة الحيوانية بالقدر الذى يحفظ حياته وحسب ، وألا يتجاوز ذلك بحال أبداً ، فإن أى وقود

تد به الإنسان جسده . ويندئ به شهواته هو تبخير لجانب كبير من حيوانه العقلية والروحية والنفسية ، وهو تبديد لتلك الحيات ، وإضفاف لها ..

وفي هذا القول حق ، ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن التحيف على حاجة الجسد ومطالبه ، والمصادمة العنيفة لغرائزه ورغباته ، هو في الجانب المقابل للإفراط في الشهوات ، وتخمة الجسد بإشباعها .. كلا الأمرين غير محمود .. وخير الأمور أوسطها ، .. فلا الإفراط محمود النتائج ، ولا التفريط مأمون العواقب !

ولهذا كان من شريعة الإسلام القصد في كل شيء .. ومنه القصد في مطالب الجسد وحاجاته .. « وكلاوا واشربوا . ولا تسرفوا .. » لأنه لا يحب المسرفين . وقد ذم الله الكافرين الذين لا يحبون إلا لأجسادهم ، ولا يتفكرون في خلق السموات والأرض . ولا يرجعون حياة وراء هذه الحياة .. كل همهم أن تنال أيديهم ما يقدرون عليه من حياتهم الدنيا . والذين كفروا ، يتمتعون ، ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مشوى لهم ، .. كما كان من تدبير الإسلام أنه حرم الرهبانية ، فقال نبي الإسلام : « لا رهبانية في الإسلام . » !

النبي البشر :

ونبي الإسلام بشر ، لم يقل هو أو لم يقل عنه أتباعه ، أو لم يتحدث القرآن الذي نزل عليه - إنه غير بشر . بل إنه يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ، وكونه رسول الله ، ومصطفاه لرسالته لم يخرج به ذلك عن طبيعة البشر ، ولم يخله من ضرورات الحياة البشرية .. فهو يجوع ، ويظأ ، ويشبع ، ويروى ، ويتزوج ، وينام ، ويستيقظ ، ويحزن ، ويسر ، وينألم ، ويشكو .. ويقول ، ويتغوط .. إلى غير ذلك مما هو من شأن الناس ، في هذه الحياة !

وإذن فزواج النبي شأنه شأن كل مطلب من مطالب الحياة ، وضرورتها عند الناس ، فليس بدعاً إذن أن يتزوج ، وأن تكون له زوج وولد !

فالزواج في الإسلام — كما هو في الحياة — شريعة من شرائع هذا الدين ،

وسنة من سنه ، كما هو سنة من سنن الحياة ، وشريعة من شرائعها . لا يعدل عنه إلا جائر ، ولا يزهده فيه إلا معتل سقيم !

يقول النبي الكريم : النكاح سقنى ، فمن رغب عن سقنى ، فليس منى ، !

وهنا اعتراض لا بد منه ؛ وهو أن الذين أرادوا أن ينالوا من نبي الإسلام وأن يشوشوا على شريعته لم يققوا عند زواجه لمجرد الزواج ، وإنما كانت وقفهم وتطاولهم عند هذا العدد الكثير من الزوجات اللائى تزوج بهن الرسول ، من ثيبات وأبكارا ، ومن أجناس وألوان .

فهذا العدد الكثير من الزوجات المختلفات سناً ، ولوناً ، وجنساً ، ماذا كانت غاية النبي منه إلا المتعة ، وإلا الإسراف الشديد فى هذه المتعة ؟ وظاهر الأمر يعطى لهذا القول شيئاً من المنطق الذى يقيمه على تلك الصورة ، ويلبسه لباس القبول والتسليم .

إنسان يضم إلى بيته اثنتى عشرة زوجة ، فيهن غير واحدة من ذوات الجمال والشباب . فماذا وراء ذلك إلا التمتع بهن ، ووصل حياته بحياتهن ؟ وماذا يقال عن مثل هذا الإنسان إلا أنه مزواج مظلم ، وأنه زير نساء ، وأسير شهوة ؟ وماذا يبقى لإنسان من متجه آخر فى الحياة ، يكون له فيه شأن ومكان بعد أن صرف وقته كله . وجهده كله فى عالم الحريم . ودنيا النساء ؟

وهذا الظاهر الذى يضع على أفواه الواقعين فى سيرة النبي هذه المقولات الزائفة — يخفى وراءه الحقيقة التى تقوم وراء هذا الظاهر شاخنة ، مشرقة ، واضحة ، حتى ليسكون هذا الظاهر بمنزلة الظل الواقع تحت قدمى الإنسان فى رابعة النهار .

الحقيقة ، والظل :

والذى يعنى عن هذه الحقيقة ، ويفتح عينيه على الظل المرتسم منها ، لا يمسك من الحق بشيء ، ولا يستدل على الحقيقة بدليل . . . وكيف تقول عن إنسان إنه إنسان من صفته كذا ، وكذا ، وأنت لا تنظر

منه إلا إلى ظله الملقى على الأرض ؟ وكيف تأخذ من هذا الظل صفاته التي
تحدد شخصيته ، وتحدث عن ملاحظه ؟ إن موقف الذين نظروا في سيرة الرسول
من غير المسلمين لم يكن أعدل من هذا الموقف الذي يفقه من ظل لإنسان من
يريد أن يتعرف على صفات هذا الإنسان . . وهم من أجل هذا لم يروا محمداً
النبي ، وهم ينظرون في سيرته ، وإنما رأوا سواداً حسيبوه سواد لإنسان !

وهم من أجل هذا أينما راحوا يلقون على هذا السواد أحكاماً مختلفة مضطربة ،
ليس فيها من الحق شيء ، وليس فيها من واقع أمره كثير أو قليل !

ومن عجب أن يضل كثير من المسلمين بهذه النظرات الخاطئة ، وأن
يجرفهم الخماس فيبادروا إلى خوض المعركة في هذا المستوى المنحدر في منخفضات
التضليل ، ومتاهات الخداع !

فزواج النبي بأكثر من امرأة وقد ذهب به أعداء الإسلام هذا المذهب من
التشنيع والتضليل ، ولم يحتسبوا فيه إلى عقل ، أو ضمير . بل استجابوا لنوازع
السكرامية والحققد — هذا الزواج وإن يكن ذهب به أعداء الإسلام — هذا
المذهب . فإنتنا نحن المسلمين . وأعني أولئك الذين تصدوا للرد على هؤلاء
الطاعنين — لم نحسن الرد على هذا التشنيع . ولم نقل ما ينبغي أن يقال من حق
في هذا الأمر . . إذ لم ننظر إليه في واقعه مجرداً عن هذا التصوير الخاطيء الذي
صوره الخصوم به ، ولم نخرجه عن هذا الإطار المصطنع الذي احتجروه فيه ،
فاندفعنا وراء هذه التصورات الخاطئة ، وعيننا بالرد عليها بما يشبه أسلوب
المخالفة في قضايا المنطق . . فإذا قال الخصم هذا ليل ، قلنا هذا نهار . وإذا قال
هذا الشيء أسود ، قلنا إنه أبيض . . نقول ذلك مجرداً أن القائل بهذا معروف لنا
مقدماً بأنه لا يقول في الإسلام وفي نبي الإسلام إلا مقولات الحقائق وأصدادها ،
وهذا الإحساس المتسلط على المسلمين من جهة غير المسلمين يجعل الذين ينتصبون
منا للرد على مقولات أعداء الإسلام لا يكلفون أنفسهم أدنى جهد في هذا .
ولما حسيبهم أن يأتوا بقلب الصورة التي جاء بها الخصم . لتكون هي صورة
الحق عندنا ، الذي نرضى عنه ، ونسعد به .

وقد عرفنا في مواقف كثيرة من قبل أن خصوم الإسلام لا يذهبون هذا المذهب الساذج في الهجوم على حقائق الإسلام . . لأنهم لا يقبلونها هكذا على هذا الوجه المكشوف ، بل لأنهم يرضون الواقع الإسلامي في صورته التي يعرفها المسلمون ولا ينكرونها ، ثم يسلطون على هذه الصورة — في حرص وحذر — سحبا رقيقة مأكرة لا تسكد ترى ، تحمل في طياتها ألوانا متممة ، تتكاتف شيئا فشيئا حتى تلمس معالم الحقيقة دون أن يتنبه لذلك أحد ، إلا بعد أن يقضى الأمر وتفوح رائحة الكذب والافتراء !

وفي موقفنا نحن المسلمين من زواج النبي لم نكن لنذهب إلى أبعد من هذا المذهب الذي أشرنا إليه . وهو أن نلقى الخصم بحد ما يقول به . . وكفى ! !

ومثل هذا الأسلوب لا يفتح الخصم ، ولا يخدم الحقيقة . . لأنه لا يقوم إلا على أكثر من التماس الادعاءات التي يلقي بها إلى الخصم في مقابل ادعاءاته . . سواء أكان ذلك مما يقتضيه الواقع ، ويتطلبه الحال ، أم كان بما حكمة وتكلمة . .

وفي هذه القضية بالذات وقع أكثر علمائنا في هذا ، وتورطوا فيه . .

فإذا قال أعداء الإسلام : إن « محمداً » قد ركبته شهوة طاغية نحو المرأة فراح يتزوج الواحدة بعد الأخرى حتى بلغ نساؤه اثنتي عشرة زوجة — كان ردنا على هذا في كثير من الأحيان لا يتجاوز النظر إلى زوجات النبي ، ووضعهن جميعاً — عدا واحدة أو اثنتين موضع « المحالات على المعاش » اللئي لا يصلحن للرجال ، وإن صالحت منهن واحدة أو أكثر فقد كانت والنبي عنها في شغل شاغل بالدعوة وبلقاء الأعباء الثقيل ، ومواجهة الأحداث الموهلة التي جاءت من قبل أعداء دعوته ، ثم باشتغاله بالدفاع عن المجتمع الإسلامي وملافاة أعدائه في ميادين القتال ، ثم في القيام على تربية المسلمين ، وشرح مبادئ الشريعة لهم . . وهكذا . .

وهذا دفاع حق ، ومقبول بلاشك . . ولسكنه إن أرضى الحقيقة ، ورضى عنه المسلمون فإنه لن يجد مقنعا عند غير المسلمين . . بل وعند بعض المسلمين !

فلقد غفل هؤلاء المحامون عن حياة النبي قبل البعثة . وقبل أن يحمل هذا العبء الثقيل ، الذي نذبت له السماء له ، وشغلته به !
فإذا كانت حياة النبي قبل البعثة ، وقبل حمل أعباء الدعوة . . في عهد الصبا والشباب حيث يشتد سلطان الشهوة ويبلغ غايته في الاستبداد والتحكم في كيان الإنسان ؟؟

لا بد أن يكون ، محمد ، شبابه ، وفتاه ، وما تدعو إليه دواعي الشباب والفتاه ! كان سليم البدن ، معافى من كل داء ، فكان من السلامة والصحة والقوة بحيث لا يرى إلا على أتم صورة للشباب العربي الممتلئ قوة وصحة ، في هذه البيئة التي لا يحيا فيها إلا الأقوياء الأصحاء !

وسيرة النبي الكريم تحدث عن قوته وبطولته التي ظل محتفظاً بها بعد أن قارب الستين من عمره ، وبعد أن مر بهذه الأحداث ، واحتمل ما احتمل من أعباء . . فكان يشهد الحرب ، ويخوض غمارها ، في ثبات وقوة وعزم . . وقد كان موقفه يوم «أحد» حين هزم المسلمون ، وفي حنين يوم انكشفت عنه أحبابه مما أثار عجب أعدائه قبل أصدقائه الذين بلوا شجاعته عن قرب ، وخبروه عن تجربة . . .

يقول علي بن أبي طالب : « كننا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقيننا برسول الله صلى الله عليه وسلم » . . .

فإذا عن شباب النبي ، وهو ما هو هذا الشباب من القوة والفتاه ؟

إن من ينكر أن « محمداً » كان في كيانه من الرغبة في المرأة ما في كيان أقوى شاب في بيئته إنما ينكر حقيقتين معاً . حقيقة تاريخية ، سجلتها مواقف النبي في الحرب . . وحقيقة شرعية هي سلامة البدن ، وصحة الجسد ، وكال بنائه لأنبياء الله ورسله . . وقد شهد الواقع لأنبياء الله جميعاً بهذه القوة الجسدية ، إلى جانب قواهم الروحية والنفسية .

وقد تحدث القرآن عن قوة موسى . . « قالت يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين » (١) .

وعن قوة يوسف : « قال اجعلنى على خزان الأرض .. إني حفيظ علم » (١) .
وعن قوة داود « وقتل داود جالوت » .. وكان جالوت هذا فارس الفرسان
وبطل الأبطال في عصره .

ونعم . إن « محمداً » كان له من القوة الجسدية رصيد كبير إلى جانب هذا
الرصيد العظيم من القوة الروحية والنفسية .

وهو بهذه القوة الروحية والنفسية استطاع أن يحفظ توازنه ، وأن يغلب
دواعي القوة الجسدية ، وأن يحمى شبابه من أن تستبد به شهوة ، أو تغلبه
نزوة .. وهذا هو فارق ما بين الكمال والنقص ، وفيصل ما بين الإلهان
والحيوان : توازن القوى الجسدية والروحية ، وتبادل بين مطالب الجسد
وأشواق الروح

فالنبي إذن على ما به من قوة جسدية ، وعلى ما فيه من رغبة قوية للرأفة ، كان له
من قوته الروحية ما يستطيع به أن يملك زمام أمره ، ويتحكم في هذه الرغبة ،
وينفق من هذه القوة بالحساب الذي لا يجور على شيء من حياته الروحية ،
ولا يوهن من هذه الصلة الوثيقة التي بينه وبين الملائ الأعلى !

وشواهد السيرة النبوية قائمة تحدث بلسان صدق مبین عن هذه القوة الروحية
التي كان يسيطر بها النبي على قوته القوية المنبثقة من الجسد نحو المرأة !

إن هذه القوة الجسدية ، والرغبة القائمة فيها للرأفة عند النبي — شأن كل
قوة جسدية عند أي إنسان — هذه القوة وما فيها من رغبة للرأفة لو أنها كانت
في كيان إنسان آخر غير النبي لجمت حياته كلها منامرات في مراوغ الشهوة ،
ولما تركت له لحظة يفرغ فيها لشيء آخر وراء هذا السعار المضطرب ، ولما كان له
في حياته حال غير هذه الحال !

ولكن « محمداً » بما أراد الله به من كرامة ، وما أفاض عليه من فضل قد أعطاه
حظه كاملاً من هذه القوة ، كما أعطاه حظوظه كاملة من قوى النفس والروح ،

بُشرت قوته الجسدية في هذا المستوى العالى الذى كانت تجرى فيه قواه الروحية والنفسية ، بعيدة عن الرجس والدنس ، مبرأة من كل شائبة ، نقية من كل سوء . لم يتزوج محمد ، إلا في الخامسة والعشرين من عمره .. ومع هذا فما أخذت عليه في فترة شبابه تلك الفترة الحرجة ، التى يحتل فيها توازن كثير من الشباب — ما أخذت عليه ميالة هوى ، ولا نظرة سوء ، وما كان منه غدوة أو روحة إلى مرائع اللهو ، ومواطن السمر التى كان يغشاها شباب قريش ، حيث يلهون ، ويسمرون ..

لقد سلطت قريش كل ماتملك من قوى لتقع على سقطة أوزلة لمحمد ، فتأخذ بها ، وتفضحه على الملأ بأنه جاء بشريعة تحرم الزنا ، وتحرم الخمر ، وهو الذى كان من شأنه كيت وكيت ، ومن أمره مع فلانة وفلانة كذا وكذا ..

لم تجد قريش شبهة من الشبهة في هذا المجال ، تقيم منها حجة لإسقاط دعوته ، وكان هذا الصنيع أقرب شيء وأيسره لينهى ما بينهما وبين محمد ، من خصام ، لو أنها وجدت سبيلا إليه .

وهذه الحقيقة السافرة عن نقاء صفحة « محمد » قبل النبوة قد سجلت غير المسلمين على أن يعترفوا بها ، لأنها أكبر من أن تنسكروا ، وأعرف من أن تخفى .. يقول « ول ديورانت » :

ولم يتداعى محمد ، الخمر التى حرمها هو على غيره ، (١) .

لم يكن ما عرف عن « محمد » من عفة وطهارة قبل البعثة ناجماً عن ضعف ، أو نحوذ في رغبته للمرأة ، وطلبه لها ، وإنما كانت تلك العفة وهذه الطهارة عن نفس نقية ، وروح طاهرة ، تأبى الخبث ، وتتأذى منه ، وتضيق به ! قال ، أبو العباس المبرد :

قسم كسرى أيامه ، فقال : يصلح يوم الريح للزوم ، ويوم الغيم للصيد ، ويوم المطر للشرب واللاهو ، ويوم الشمس للحوائج ... !

قال ابن خالوية تعليقاً على هذا . ما كان أعرفهم بسياسة دنياهم : ويعلمون
ظاهراً من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون ، ١

و لكن نبينا صلى الله عليه وسلم جزأ يرمه ثلاثة أجزاء : جزءاً لله ،
و جزءاً لآلهه ، و جزءاً لنفسه . ثم جزأ أجزاءه - أى الجزء الذى لنفسه -
بينه وبين الناس ، فكان يستعين الخاصة على العامة ، ويقول : أبلغوا حاجة من
لا يستطيع إبلاغى ، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها أمته الله يوم
الفرع الأكبر ، (١) .

هذه هى العظمة فى أرفع منازلها ، وأكمل أحوالها . إنه يملأ بشخصيته
الحياة كلها ، ويأخذها من جميع أطرافها . يتحكم فى كل شىء ، ولا يتحكم فيه
أى شىء ١١

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها :

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل ، ويأشرك وهو صائم ، ولكنه أملككم
لإربه ، . . (صحيح مسلم جزء ٢/ ص ١٣٥) (٢) .

هذا ، وقد طلق النبي نساءه جميعاً شهراً كاملاً . فكيف كان صبره على هذا
الاتصال بينه وبين المرأة ؟

ولقد كان يطوف على نسائه جميعاً فى ليلة واحدة . فكيف هجرهن هذا الهجر
الطويل وقدر عليه ؟

إنه كما قلنا - قوة النفس ، وسمو الروح ، اللذان يتحكمان فى شهوة الجسد ،
ولا تتحكم فيهما شهوته ١

وإنه لمن الخطأ الفاحش أن يقول الدافعون لهذه التهمة المملقة : إن النبي

(١) الشفاء الجزء الأول ص ١٠٦

(٢) الإرب الرغبة ، والشهوة ، والمباشرة : الملامسة ، والمداعبة : مما يكون بين
الرجل والمرأة قبل اتصالهما .

صلى الله عليه وسلم كان قليل الرغبة في المرأة ، أو أنه قتل في كيان الشهوة الداعية إلّا .

إن ذلك نقص في الرجولة ، وليس كالأ ك يفهمه - خطأ - بعض من يطلب مزيداً من العصمة للنبي ، أو يسوق كالأ إليه على تلك الصفة . . والنبي في هذا الذي كان عليه من قوة رغبته في المرأة ، وشدة طابه لها ، مع قدرته على هجرها ، وإسك نفسه عنها - أكل كالأ ، وأسمى عصمة . . من كل كالأ ، ومن كل عصمة .

يقول القاضي عياض :

النكاح دليل الكمال ، وصحة الذكورية .

و فإن قلت : كيف يكون النكاح وكثرته من الفضائل ، وهذا يحيى بن زكريا عليه السلام قد أثنى الله تعالى عليه أنه كان « حصوراً » ؟ فكيف يثني الله عليه بالعجز لما تعده فضيلة ؟ . . وهذا عيسى ابن مريم عليه السلام تقتل من النساء ، ولو كان كما قررته لنكح ؟ ؟

ويجب القاضي عياض على هذا الاعتراض . . فيقول :

و فاعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى بأنه « حصور » ليس كما قال بعضهم لأنه كان هيوباً (١) ، أو لا ذكر له ، بل لقد أنكر هذا بعض حذاق المفسرين ، وتماد العلماء ، وقال هذه تقيصة وعيب ، ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أى لا يأتيها ، كأنه حصر عنها ، وقيل مانعاً نفسه من الشهوات ، وقيل ليست له شهوة في النساء .

و قد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم قمعها ، إما بمجاهدة النفس ، كعيسى عليه السلام ، أو بكتمانها من الله كيحيى عليه السلام ..

(١) أى يتهيب لقاء النساء ، والاتصال بهن .

ثم هي - أى القدرة على النكاح - فى حق من أقدر عليها ، وملكها ، وقام بالواجب فيها ، ولم تشغله عن ربه - درجة عليا . وهى درجة نبينا صلى الله عليه وسلم ، الذى لم تشغله كثرتهم - أى كثرة النساء - عن عبادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة لتحصيلهن ، وقيامه بمحقوقهن ، واكتسابه لهن ، وهدايته لهن ، (١) .

على أن الذى يريد أن يفهم الوضع الصحيح لحال النبي مع المرأة يجب ألا يقصر نظره على هذا الجانب من الحياة الإنسانية ، ويفضل الجوانب الأخرى التى تتجه إليها نزعات الإنسان ، ورغباته اتجاه أقوى لا يقل عن الاتجاه إلى المرأة ، والرغبة فيها !

فهناك إلى جانب المرأة شهوات أخرى تستبذ بالإنسان ، وتغلب مراجلها فى كيانه .. كشهوة المال ، والجاه ، والسلطان ، وكشهوة الطعام ، واللباس ، وصور كثيرة من حياة الترف والزينة التى يقتتل من أجلها الناس ..

• زين للناس حب الشهوات من النساء ، والبهين ، والقناطر المقنطرة من الذهب ، والفضة ، والحيل المسومة ، والأنعام ، والحارث .. ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ، (٢) .

ففى هذه الشهوات يتقلب الناس ، إليها يتسابقون ، وعليها يتزاحمون .. وليست واحدة منها بمغنية عن الأخرى .. بل إن بعضها ليعزى ببعض ، حتى لكأنها كائن واحد ، وهى منه بمنزلة الأعضاء فلا يكمل وجوده إلا بها ، ولا تؤدى هى وظيفتها إلا معه !

ونخذ أى مطلب من هذه المطالب ، نجده لا يمكن أن يستكمل وجوده ، ويستوفى حقيقة إلا إذا رفته هذه المطالب الأخرى وغذته ، كما يرفدها هو ويغذيها .
مطلب المرأة مثلا ..

هل يكفى أن يجد الرجل الذى ركبته الشهوة إلى النساء - امرأة أو أكثر وهو جائع فارغ الجيب والبطن ؟

(١) الشفا للقاضى عياض جزء ١ ص ٦٨ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٤

لأنه لا بد له من أن يتغذى الغذاء الغائب ، ولا بد أن يوفر لجسده الراحة ، وأن يتيح له فرص الاستجمام من عناء ما بذل في لقائه بالمرأة ، كي يجد القدرة على الاستجابة لداعى شهوته إليها .

ثم لا بد لمثل هذا الإنسان أن يطلب المال ، ويلج في طلبه ، ويتهالك على جمعه ، كي يجد حاجته من النساء ، وكي يجدن في جواره من تنوع الحياة ما يرغبن في السكن إليه ، والرغبة فيه وهل يسكنى المرأة أن تجد رجلاً يضمها إلى نساها . ويمنحها حظها منه . ثم لا تطعم بمد هذا الطعام الشهى . ولا تحيا الحياة التى تجد فيها مطالبها المادية مرفورة ، قريبة من يدها ؟

ثم لا بد له أيضاً من أن يطلب الجاه والسلطان فإن هذا مما يهيء له حياة تقدره على أن ينال كثيراً مما يطلب ، وتدني منه كثيراً مما يشتهى !

قلنا : إن الذى يريد أن يفهم الوضع الصحيح لحال النبى مع المرأة يجب ألا يقصر نظره على حاله مع المرأة ورغبته فيها . بل ينبغى أن تمتد نظراته إلى المطالب الأخرى التى لها سلطانها على النفوس ، والتى لا تقل الرغبة فيها عن الرغبة فى المرأة ، والتى لا يمكن إشباع الرغبة فى المرأة إلا بها .

قلنا هذا — ونقول للذين قالوا فى نبي الإسلام من استكشاره من النساء . وإفراطه فى الحياة معهن ..

نقول لهؤلاء — انظروا هذا الجو الذى كان يحيط بالحياة الزوجية التى كان يحياها أزواج النبى معه ؟

أكانت هذه الحياة ، حياة ترف ، ومتع ، ولذات جسدية ؟ وهل من أجل هذه الحياة أحبين النبى ، وحرصن على السكن إليه ، والحياة فى ظله ؟

لقد شهدت الدنيا كلها أن الحياة المادية فى بيت النبوة كانت حياة كفاف ، بل وجوع يكاد يكون متصلاً . . .

فالنبى كان يلقي أهله فيسأل هل من طعام ؟ وكان أكثر ما يكون الجواب : لا طعام ! فيحمد الله ، ويطوى نهاره صائماً . . . هكذا كان أغلب أيامه . . .

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : « ما شبع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً من خبز ، حتى مضى لسبيله » .

وتقول : « لقد مات النبي صلى الله عليه وسلم وما في بليته شيء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير في رق لي » .

أما فراشه فهو كما تقول السيدة عائشة : « كان فراشه الذى ينام عليه صلى الله عليه وسلم أدماً ، حشوه ليف » .

أما البيت الذى يضم نساءه فهو « دخوخات » أشبه بالأكواخ التى يتخذها رعاة البدو فى الصحراء للوقاية من الحر أو البرد لعدة أيام .

يقول : « ول ديورانت » :

« كانت المساكن التى أقام عليها — النبي — واحداً بعد واحد كلها من اللبن لا يزيد اتساعها على اثنتى عشرة أو أربع عشرة قدماً ، ولا يزيد ارتفاعها على ثمان أقدام ، سقفها من جريد ، وأبوابها ستائر من شعر المعز أو وبر الجمل ، (١) » .

هذا هو ما أمسك به رسول الله من الحياة الدنيا ، وما ضم إليه من حظائها ، ولو شاء أن يأكل فى صحاف من ذهب ، وأن يتخذ له قصرأ أشبه بقصر كسرى ، يسوق إليه ألوان الحياة ومفاتنها — لو شاء ذلك لكان حاضراً عتيداً عنده ، بعد أن استجابت الجزيرة العربية كلها لدعوته ، وآمنت برسائله ، وجعلت كل حياتها رهن كفته وإشارته !

ولكنه رسول السماء ، ما جاء بتلك الرسالة العلوية لتكون لحسابه ، وإنما هى لحساب الإنسانية كلها ، ولم يطلب بجهاده فى سبيلها ما عند الناس ، وما فى دنيا الناس ، وإنما طلب بها ما عند الله من رحمة ورضوان !

ونساء النبي شاركنه هذه الحياة ، ووجدن فى جواره من أنوار النبوة ، وجلالها ما أسعدهن ، وأنساهن شظف العيش ، وخشونة الحياة . . فلقد كان

الغذاء الروحي الذي وجدته في ظلال النبوة زاداً طيباً ، ملأ حياتهن راحة ورضى !

ومع هذا ، فقد شعر الرسول الكريم بأن الحرمان الذي يعيش فيه نساؤه ربما كان مفروضاً عليهن بحكم الطاعة للرسول ، والولاء له . . . فهن كمسلمات مفروض عليهن أن ينزلن عند حكم الآية الكريمة : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . . . والنبي الكريم يريد أن يمنحهن حق المرأة في اختيار حياتهن التي ترضاهن . . . وأن يكن منه زوجات وزوجاً ، لامسلمات ونبياً . .

وقبل أن يقول النبي كلمته في هذا الذي دار في خاطره ، وقبل أن يلقى نساءه ليخبرهن بين الحياة معه ، واحتمال العيش على تلك الصورة التي يعشنها ، وبين أن يطلق سراحهن — قبل أن يفعل النبي هذا جاءت كلمة السماء لتقول عنه ما كان يريد أن يقول هو لهن . .

« يا أيها النبي قل لأزواجك . . إن كنتم تردن الحياة الدنيا ، وزينتها ، فتعالين أمتعنكن وأسرحكن سراحاً جميلاً . . وإن كنتم تردن الله ، ورسوله ، والدار الآخرة ، فإن الله أعد للحسنات من كن أجراً عظيماً ، (١) .

فهاتان الآيتان تسجلان في غير لبس : أى حياة كان يحياها النبي في نسائه ، وأى حياة كان يحياها نساؤه معه ؟

إنها حياة لا يراد بها الحياة الدنيا وزينتها . . فإن كن يردن الحياة الدنيا وزينتها فإنهن أن يجدنهن عند النبي ، وهو صلوات الله وسلامه عليه لا يحول بينهن وبين هذه الحياة الدنيا ، وما فيها من زينة إن أردنها ، بل سيختل بينهن وبين ما يردن ، بعد أن يتمتعن متعة المطلقات . .

هاتان الآيتان وثيقتان تاريخيتان ، ليس بين وثائق التاريخ كلها ما يداينهما صحة

وثبوتاً .. إنهما في صدور الآلاف والملايين من البشر وعلى أفواههم وألسنتهم منذ عهد النبوة إلى اليوم ، محفوظتين أو وثق الحفظ من أى تعديل أو تحريف ! ليست الحياة الدنيا وزينتها من مطالب النبى ، ولا من مطالب من يسكن إليه من زوج وولد !

هذا ، ما أذاعه القرآن على أسماع الناس ، وأعلنه فيهم على لسان النبى الكريم . ورأوا واقعه رأى العين فى حياة النبى ، وحياة زوجاته معه .. ! فهل يعقل عاقل أن يكون النبى على غير ما نطق به القرآن فى هذا الشأن ؟ وهل يعقل عاقل أن يحيا النبى حياة منعمة رافهة ، ثم يحى القرآن لينفى عن هذه الحياة ما فيها من نعيم ورفه ؟

ماذا يقول أعداء النبى إذ ذاك من يهود وغير يهود ؟ بل ماذا يقول المسلمون أنفسهم من الصحابة وغير الصحابة . . ماذا يقولون عن النبى ، وعن القرآن ؟ ولو أن هذا القرآن لم ينزل كله على النبى ، ولو أن هاتين الآيتين لم يكن لهما شأن خاص ، وملايسات ذات دوى وقت نزولهما — لكان هنا مكان للتأويل المنحرف ، والتخريج المريض .. ولكن القرآن نزل كله على محمد ، وهاتين الآيتين فاضت عنهما أحاديث وأخبار فى سيرة النبى . وفى سيرة زوجاته ، وفى سيرة آباء زوجاته ، كآبى بكر وعمر .

وبعد ..

فنعوذ ونقرر مرة أخرى إنه لا يضير النبى أن يكون آخذاً بحظ الرجل من المرأة ، فذلك — كما قلنا — من ضرورات الحياة البشرية ، ودعوة من دعواتها . والعجز عنها إنما ينشأ عن خلل فى تكوين الجسد وسلامته !

لا يضير على النبى إذن أن يكون على ما كان عليه من سلامة الجسد وصحة الاعضاء ، وقوة البنية ، ثم يكون له إلى المرأة داع ، وله فيها رغبة .. إنه لإنسان ونبى معاً .. ومن السكال أن يعطى الإنسانية فيه حقها ، وأن يؤدى للنبوة حقوقها !

ولسكن ينبغي ألا يفهم هذا على أن زواج النبي من كل هذا العدد من نسائه كان لإشباع حاجته من المرأة وقضاء رغبته فيها ..

فكثير من زوجات النبي كان زواجه من لغير هذا ..

كان زواجه لبعثهن تطبيقاً لحاظهن ، أو عزاء لهن ، أو رحمة بهن ..

فإنه مع ما في كيان النبي من قوة بادية ، وحيوية ظاهرة ، لم يكن مصروف هذه القوة وتلك الحيوية في جانب واحد من جوانب الحياة ، بل لقد كان أكثر هذه القوة وتلك الحيوية منصرفاً في القيام بأمر الدعوة في ميادين السلم والحرب ، وفي التمكين لها في قلوب المؤمنين ، ولقاءهم أفراداً وجماعات ، ويسألونه في أمور دينهم ، ويحفظون بالحديث إليه ، ويسعدون بالقرب منه .. فإذا جاء الليل ، وسكنت الحياة ، وآوى الناس إلى مضاجعهم قام ليله أو شطراً كبيراً منه ساجداً ، وقائماً ، يناجي ربه ، ويقرأ ما نزل عليه من كتابه .. وكان ذلك دأبه حتى تورت قدماه !

ومع هذا ، فإن ما سبق له بعد ذلك من وقت ، ومن قوة وحيوية كان كافياً لإرضاء نسائه وقضاء حق الزوجية لهن .

فعن أنس رضي الله عنه : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدور على نسائه في الساعة من الليل أو النهار ، وهن إحدى عشرة » .

وعن طاوس ، قال : « أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوة أربعين رجلاً » .

وعن سلمى مولاة رسول الله قالت : طاف النبي صلى الله عليه وسلم ليلة على نسائه التسع ، ويطهر من كل واحدة منهن قبل أن يأتي الأخرى ، وقال : « هذا أطهر وأطيب » .

وننظر نظرة سريعة في زوجات النبي ، والاحوال والظروف التي تزوجهن فيها ...

١ - خديجة بنت خويلد :

أول امرأة تزوج بها النبي . وقد تزوجها قبل البعثة ، وكان إذ ذاك في الخامسة والعشرين من عمره ، وهى فى نحو الأربعين ؟

ولم يتزوج عليها حتى ماتت قبل هجرته صلى الله عليه وسلم . وقد تجاوزت الستين ، كما قارب هو صلوات الله وسلامه عليه الخمسين .

ومن هذا نرى أنه قد ذهب أكثر شباب النبي مع امرأة واحدة ، قد كبرت ، ولم يكن فيها مأرب للرجال .

ومع هذا ، فقد كانت أحب لسان النبي إلى النبي . . . وقد ظلت ذكرها الطيبة تجرى على لسانه بين نسائه . فيجندن في أنفسهم غيرة منها .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة ، فيحسن الشاء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام فادركتنى الغيرة فقلت هل كانت إلا عجوزاً أبداً لك الله خيراً منها ؟

« فغضب حتى اهتز مقدم شعره ، ثم قال : « لا والله ، ما أبدلنى الله خيراً منها . . . آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبني الناس ، وواستقنى فى مالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها أولاداً إذ حرمنى أولاد النساء . قالت عائشة : فقلت فى نفسى لا أذكرها بسيئة أبداً » ؟

وانظر سبب هذا الحب الذى كان من الرسول الكريم للسيدة خديجة ؟ أكان لجمالها ؟ أو لشبابها ؟ إنه لم يمكن لشئ من هذا وإن كان لها جمال ، ولها شباب وإنما لأنها كانت أول من استجاب لدعوته وآمن برسالة ، ووقفت إلى جواره تشد من عزمه ، وتخفف من آلامه .

وكان هذا الحساب للمرأة فى نظر الرسول يقضى عن متابعة النظر فى زيجاته الأخرى ، للتعرف على الغايات التى كان يبغيها النبي الكريم من الزواج بمن تزوج بهن .

(٢٣م) النبي محمد)

ويكنى أن نذكر هنا أنه قضى شبابه مع امرأة واحدة ، وأن هذه المرأة كانت تكبره بأعوام ، حتى لقد أدركتها الشيخوخة ، ولم يكن هو قد بلغ الخمسين من عمره .

ويكنى أن نذكر أنه — صلوات الله وسلامه عليه — لم يذكر في معرض الكشف عن حبه لها شيئاً مما كان لها من جمال وشباب في أيامها الأولى معه ، وإنما ذكر نبلها ، ومتانة خلقها ، وعظمة وفائها ، وسابقة إيمانها .

كان يكنى هذا أو بعض هذا .. ولكن لا بأس من أن نمضى في النظر إلى هذه الزيجات .. ففيها عظات ، وعبر ، وفيها دروس نافعة ، وحكم بالغة .

٢ — سودة بنت زمعة :

تزوجها النبي بمكة بعد موت السيدة خديجة .

وكانت حين تزوجها الرسول في سن متقدمة ، وهاجرت مع النبي إلى المدينة وتقدمت بها السن ، وبدأت بين نسائه في موقف جرح ، فهم النبي بطلاقها فقالت له : لا تطلقني . وأنت في حل من شأني ، وإنما أريد أن أحشر في أزواجك ، وإني قد وهبت يومي لعائشة ، وإني ما أريد ما تريد النساء ، فأمسكها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصار يقسم أيامه لبقية نسائه دونها ، ويجعل نوبتها لعائشة .

وواضح من هذا أن النبي إنما هم بتطليقها لينفخها من عبء الزوجية ، بعد أن أصبحت في هذه السن المتقدمة . وقد كان النبي حريصاً على أن يعطيها نصيبها كبقية نسائه من المبيت عندها في يومها الذي لها . فلما نزلت عن هذا الحق ارتفع الحرج الذي كان بينه وبينها .. فأمسكها عنده بين نسائه .

٣ — عائشة بنت أبي بكر :

تزوجها النبي وهي بنت تسع سنين ، وكان صلوات الله وسلامه عليه قد شارف الخامسة والخمسين .

والجدير بالنظر هنا ، أننا نرى النبي . وهو في مطلع شبابه ، واكتمال قوته يتزوج بمن هن أكبر منه سناً ، بل ومن تكون قد بدت عليها الشيخوخة ، كما رأينا في الزيجتين الأوليين له من السيدتين « خديجة » و « سودة » . . ثم هو وقد ولى شبابه ، وجاءته أعباء الرسالة . وأثقالها ، وما لاقى من أجلها من ضروب الآلام ، وشقى المسئوليات - يتزوج فتاة في التاسعة من عمرها !

أف هذا زواج يراد به المتعة حقاً ؟

قد يكون ذلك لشباب في مقتبل العمر . يرقب نمو شبابه وشبابها معه ، ففي مستقبل أيامهما فسحة فسيحة للمتعة !

أما والزواج في مثل هذه السن ، في الخامسة والخمسين . . فهاذا ينتظر من مرور الأيام والسنين إلى أن تغضج فتاته ، وتصبح أهلاً للقاء الرجل ؟
كم عاماً تقدر لهذه الفتاة حتى تصلح لأن تكون زوجة . . ؟ سنتين ؟ ثلاثة ؟ أربعة ؟ . . خمسة ؟

إن أدنى هذا العدد لا يصبر عليه من في هذه السن إذا كان يريد بزواجه مجرد الزواج ، ومجرد المتعة به ! . . فإن الأيام التي تمضي تخطو به نحو الشيخوخة والضعف ، بينما تخطو بفتاته نحو الشباب والاكتمال !

لأذن فلا بد أن يكون للزواج هنا غاية غير المتعة ، ومطلباً أسمى من الزواج لمجرد الزواج ..

والمعروف أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه هو والد السيدة عائشة ، والمعروف أيضاً أن مكانه من رسول الله ، كان المكان الأول من الحب والتقدير ، لما كان من موقفه في الإسلام ، وبلائته مع رسول الله ، واحتماله العدمات الأولى في سبيل الدعوة الإسلامية ..

كان أبو بكر أول من أسلم من الرجال — على أصح الروايات — فهو هذا .
كان ثانياً اثنين — الرسول ، وهو — في الإسلام ، كما كان ثانياً اثنين إذ هما في النار كما يذكر القرآن الكريم .

وقد أذن الرسول الكريم — وهو بمكة — لأصحابه بالهجرة ، ولم يأذن
لأبي بكر ، ليكون ظهيراً له ، وسنداً .. فلما هاجر النبي إلى المدينة كان أبو بكر
رفيق هجرته دون المسلمين جميعاً !

ومن أجل هذه المواقف التي وقفها أبو بكر من الإسلام ومن رسول الله
كانت له تلك المنزلة عند الله ، وعند رسول الله ، وعند المسلمين !

فلقد رفع الله شأن أبا بكر ، وأذاع في العالمين ذكره وفضله ، فأشار إليه
في القرآن أكثر من مرة ..

ففي هجرته مع رسول الله ، وتخفيه معه في غار ثور .. يقول الله سبحانه
وتعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما
في الغار ، إذ يقول لصاحبه ، لا تحزن .. إن الله معنا » (١) . وصاحب الرسول
في الغار هو أبو بكر الصديق ، بإجماع لم يخرج فيه أحد .

وفي حديث الإفك .. الذي امتحننت فيه السيدة عائشة . كان الذي تولى كبر
هذا الإثم ، وأطلق لسانه بالفاحشة قريب لأبي بكر ، اسمه مسطح .

فلما برأ الله السيدة عائشة ، وقطع السنة السوء فيها بمأزول من القرآن ، حلف
أبو بكر ألا ينطق على قريبه هذا ، وكان من قبل محسناً إليه ، باراً به .. فنزل قوله
تعالى : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين
والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا ، وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ،
والله غفور رحيم » (٢) .. وكان أبو بكر هو المشار إليه هنا في هذه الآية ، فامتثل
لأمر الله ، وعاد بالفضل والإحسان على قريبه هذا !

هذا هو أبو بكر ، وقد أسبغ الله عليه هذا الفضل ، واختصه بهذا الإحسان
فذكره في القرآن ورفع ذكره بهذا الذكر !

فماذا يصنع رسول الله لأبي بكر لقاء ما صنع أبو بكر معه ؟ وماذا يعمل
ليجزى إحسانه بإحسانه وفضله بفضله ؟

لقد رضى رسول الله عنه كل الرضا ، ورضا رسول الله ربح عظيم في الدنيا والآخرة ، لأنه من رضا الله ورضوانه !

ومن تمام هذا الرضا أن يدنى الرسول أبا بكر منه إلى أقرب مكان يمكن أن يكون . . إنه لا يكتفى لأبي بكر أن يلقاه في مجالسه بين المسلمين في المسجد ، وفي الصلاة ، وفي غير المسجد ، وغير الصلاة . إنه يريد أن يتيح له من يدا من الفرص للقاء الرسول ، ويؤثره من بين أصحابه بأن يدخل عليه بيته متى أحب . . فكان أحكم تدبير لهذا أن يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة . ليكون في ذلك زيادة في إدفاء أبي بكر منه . وباب يدخل منه إلى بيت الرسول ، ويجلس إليه في خلوته مع أهله . . وكان في التمجيد بزواج الرسول من السيدة عائشة قبل أن تنضج . وتصبح أهلاً للزواج — كان في هذا مبادرة بالخير لأبي بكر وتعجيل به له .

ولعلنا نستطيع إذ نلتمس أسباب هذا الحب والتدليل الذي كان من الرسول الكريم لوجه عائشة أن نضيف ذلك كله ، أو أكثره إلى حب الرسول لأبيها أبي بكر ، وجعل هذا الحب والتدليل الذي يضيفه الرسول عليها زيادة في الحب والإيثار الذي أضفاه على أبيها . .

« روى عن عمرو بن العاص قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أحب الناس إليك ؟ قال : عائشة . قلت : فمن الرجال ؟ قال : أبوها ؟

ولقد اكتسبت السيدة عائشة من حب رسول الله لها بركات من السماء والأرض . . فكان لها هذا الذكر العظيم بما حملت من العلم ، والمعرفة ، وما حفظت من حديث الرسول ووعت من آثاره ، على حداثة سنّها ، إذ توفى عنها رسول الله وهي ابنة ثمانية عشر عاماً !

ثم كان لها من الله ذكر عظيم في القرآن إذ نزلت آيات الكتاب مبرئة لها ، ناطقة ببراءتها وطهارتها : فقال تعالى في حق من أذاعوا هذا السوء فيها ، وافتروا هذه الفرية عليها « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم ،

بل هو خير، لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإيمان، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم» (١) .. ثم قال فيمن استمع إلى هذا الحديث ، وأعطاه أذنيه : «ولولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هذا إلفك مبين» (٢) . ثم التفت القرآن إلى أصحاب هذا الإلفك يسألهم البيضة عليه ، وما بيدهم من حجة . «ولولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون» (٣) ثم يلتفت مرة أخرى إلى الذين استمعوا لإلفك الآفكين : «ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك .. هذا بهتان عظيم» (٤) ، والذي يتدبر آيات القرآن التي جاءت في هذا الشأن يجد فيها شواهد ناطقة على ما للسيدة عائشة من منزلة كريمة عند الله ، إذ دفع عنها القرآن هذا الإلفك دفعاً قوياً ، وكان في هذا الإلفك خير كثير ، ولعمرة من الله ورضوان للسيدة عائشة ، ولا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم .

عن القاضي أبي بكر الطيب قال :

«إن الله تعالى إذا ذكر في القرآن ما نسب إليه المشركون سبّح نفسه لنفسه ، كقوله «وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه» (٥) في آي كثير .. وذكر تعالى ما نسب له المنافقون إلى عائشة ، فقال : «ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك» (٦) سبّح نفسه في تنزيهها من السوء ، كما سبّح نفسه في تنزيهه من السوء» (٧) .

هذه هي الزوج الأثيرة عند رسول الله ، وأحب الناس إليه ! لم يكن زواجه منها صلى الله عليه وسلم لشهوة ، لأنه حين تزوجها لم تكن بلغت بعد سن الاشتاء ، ولم تكن دوافع الزواج بها المتعة الزوجية بقدر ما كانت غاية ذلك تكريم أبي بكر ، وإيثاره وإدناؤه إليه ، وملء قلبه غبطة ورضى في ضم فليذة من كبده إليه ، وإنزالها أكرم المنازل في بيت النبوة .

(١) سورة النور : آية ١١ (٢) سورة النور : آية ١٢

(٣) سورة النور : آية ١٣ (٤) سورة النور : آية ١٦

(٥) سورة الأنبياء : آية ٢٦ (٦) سورة النور : آية ١٦

(٧) نهاية الأرب — الجزء الثامن عشر ١٧٦

٤ - حفصة بنت عمر :

وما يقال في زواج الرسول الكريم من عائشة ، يقال كثير منه في زواج حفصة بنت عمر بن الخطاب . . وإذا كان شأن عمر في الإسلام في المنزلة الثانية بعد أبي بكر ، وإذا كان مكانه من رسول الله بالمكان التالي لأبي بكر . . . وهذا أمر لا يحتاج إلى شرح أو بيان ، إذ كان لشهرته ، وإفاضة أخباره أظهر من أن يدخل عليه شرح أو بيان !

كانت حفصة من المهاجرات ، وكانت قبل زواج رسول الله بها عند خنيس ابن حذافة السهمي ، وكان من شهد بدراً . . فلما مات عنها ، وتأيت ، ذكرها عمر لأبي بكر وعرضها عليه ، فلم يرجع إليه أبو بكر كلمة ؛ فغضب من ذلك عمر ، ثم عرضها على عثمان حين ماتت زوجه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عثمان : ما أريد أن أتزوج اليوم ، فانطلق عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكا إليه عثمان وأخبره بعرضه « حفصة » عليه . . فقال رسول الله : « يتزوج » حفصة « من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان » من هو خير من « حفصة » . . ثم خطبها رسول الله من عمر ، فتزوجها ، فلقى أبو بكر الصديق عمر بن الخطاب ، فقال : لا تجدد علي في نفسك ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد ذكر « حفصة » فلم أكن لأفشي سر رسول الله ، ولو تركها لتزوجتها . . ثم زوج رسول الله « عثمان » بابنته « أم كلثوم » . . ولهذا سمى عثمان بندي النورين ، إذ تزوج بأبنتي رسول الله : رقية ، وأم كلثوم . . ولما مات أم كلثوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان : « لو كانت عندنا ثالثة زوجناكها يا عثمان » (١) .

وأنت ترى من هذا أن الزيجات كانت بين النبي وأصحابه ، وبين الصحابة والصحابة قائمة على معيار الوثيق للصلات التي بينهم وشدها وأصهرها بلحمه النسب ، والمصاهرة .

٤ — زينب بنت خزيمة :

كانت تدعى في الجاهلية أم المساكين .. وكانت قبل رسول الله عند الطفيل ابن الحارث بن عبد المطالب بن عبد مناف ، فطلقها ، ثم خلفه عليها أخوه عبيدة ابن الحارث ، فقتل عنها يوم بدر شهيداً ، فتزوجها رسول الله (١).

وقد مكثت عند الرسول ثمانية أشهر ثم مات .

٦ — أم سلمة ، هند بنت أبي أمية :

وكانت قبل رسول الله عند أبي سلمة بن عبد الله المخزومي . وكانت هي وزوجها أول من هاجر إلى أرض الحبشة ! فلما مات عنها زوجها تزوجها رسول الله ، وأصدقها فراشاً حشوه ليف ، وقدحاً ، وصحفة ، ومجشة (٢).

٧ — زينب بنت جحش :

كان اسم زينب برة ، فسمها رسول الله زينب .. وقد زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم « لزيد » بن حارثة متبناه ، وقد وقعت بينها وبين زيد فقرة ، إذ كانت قرشية ، وزيد غير قرشي .. وللتسبب وزنه عند العرب ، رجالاً ، ونساء ! ولما لم يستقم الأمر بينهما طلقها زيد .. فتزوجها رسول الله .

وقد لفظ المنافقون بهذا الزواج في عهد الرسول ، وقالوا حرم محمد نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه ؟ فأفزل الله سبحانه وتعالى : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (٣) . وقال تعالى : « ادعهم لأبائهم هو أوسط عند الله » (٤) . فدعى « زيد » من يومئذ زيد بن حارثة ، وكان من قبل يدعى زيد بن محمد ..

(١) في بعض الروايات أنها كانت عند عبد الله بن جحش ، فأتى عنها شهيداً يوم أحد فتزوجها رسول الله .
(٢) المجشة : الرحى .
(٣) سورة الأحزاب : آية ٤٠
(٤) سورة الأحزاب : آية ٥

وبهذا التدبير العملي أبطل الإسلام عادة التبني التي كانت شائعة عند العرب ...
ولوا اقتصر فيها على حكم القرآن لظلت بعض علائق هذا التبني قائمة مقام العادة في
النفوس ، وظل في الناس من لا يرضى بزواج من يجعل منزلته عنده بمنزلة
ابنه ، وإن رضى بحكم الإسلام فدعاه باسم أبيه الذي ولده .

٨ - جويرية بنت الحارث :

وهي من سبي بني المصطلق ، وقد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس ..
تقول السيدة عائشة : لما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق ،
وقعت جويرية بنت الحارث في سهم ثابت بن قيس بن شماس ، فكانت به على
نفسها ، وكانت امرأة حلوة ملاحه (١) ، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت
رسول الله تستعنه في كتابتها - أي في عتقها - ؛ قالت عائشة : فوالله ما هو
إلا أن رأيته على باب حجرتي فكرهتها ، وعرفت أنه سيري - أي النبي -
منها ما رأيت .. فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله : أنا جويرية بنت الحارث
ابن أبي ضرار ، سيد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ، وقد
وقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس ، فكانت به على نفسي ، فثبتك
أستعنيك على كتابتي ؛ قال : د فهل لك في خير من ذلك ؟ قالت : وما هو
يا رسول الله ؟ قال : أقض عنك كتابتك وأتزوجك ؛ قالت : نعم يا رسول الله
قال : وقد فعلت .. قالت - السيدة عائشة - نفرج الخبر إلى الناس أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم تزوج بجويرية بنت الحارث ، فقال الناس : أصهار رسول
الله صلى الله عليه وسلم ! فأرسلوا ما بأيديهم .. فلقد أعتق بتزويجه - أي
النبي - إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق .. فما أعلم امرأة كانت أعظم
بركة على أهلها منها ، (٢) .

وطبيعي أن الجمال وحده لم يكن هو داعية الرسول إلى زواجه من جويرية

(١) أي بالغة قدراً كبيراً من الملاحه والحن

(٢) نهاية الأرب جزء ٨ ص ١٨٣

هذه ، بل كان من دواعي هذا الزواج لإكرام عزيزة قوم ذات كما يقول الرسول الكريم : « أكرموا عزيز قوم ذل » . . كما كان من دواعيه لإكرام أهلها الذين دخلوا في الإسلام بهذا الذي صنعه المسلمون مع من وقع في أيديهم منهم .

٩ - أم حبيبة بنت أبي سفيان :

كان زوجها عبد الله بن جحش من مهاجري المسلمين إلى الحبشة ، وقد هاجرت معه . . ثم ارتد زوجها عن الإسلام هناك ، وثبتت هي على إسلامها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي لينخطبها له ويزوجها إياها ، فخطبها النجاشي لرسول الله . وأصدقها أربع مئة دينار .

وواضح من هذا الزواج ما فيه من ترغية لهذه السيدة الكريمة وهي في غربة عن أهلها . بعد أن فارقها زوجها كما فارق دينه ! كما أن فيه أيضاً استرضاء لابن سفيان .

وتخفيف من حدة العدواة التي في قلبه لرسول الله (١) .

١٠ - صفية بنت حيي بن أخطب :

كان أبوها سيد بنى النضير . . من بنى إسرائيل . . من سبط هرون بن عمران عليه السلام . . فلما غزا الرسول بنى النضير . ووقع حصن « أبي العقيق » في يد المسلمين جىء إليه بسباياهم . . وكانت فيهم صفية بنت حيي . . فأعتقها رسول الله ، وتزوجها !

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها — بعد أن تزوجها وهي تبكي ، فقال : ما يبكيك ؟ قالت : بلغني أن عائشة وحفصة تنالان مني وتقولان : نحن خير من صفية ! نحن بنات عم رسول الله وأزواجه ! ، فقال لها : ألا قلت لمن : كيف تسكن خيراً مني وأبي هرون ، وعمي موسى ، وزوجي محمد ؟ ! .

(١) نهاية الأرب : جزء ١٨ ص ١٨٣ .

١١ - ميمونة بذت الحارث :

تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة سبع من هجرته ، في عمرة القضاء ، وقد خطبها عليه جعفر بن أبي طالب ، وكانت أختها أسماء زوجة الجعفر ، وأختها سلمى عند حمزة ، وأختها أم الفضل عند العباس بن عبد المطلب .

١٢ - ريمانة بنت زيد بن عمر بن خنافة بن شمعون :

وهي من يهود بنى قريظة ، وكانت قد وقعت في السبي يوم قريظة ، فكانت صفي (١) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخيرها بين الإسلام ودينها فاختارت الإسلام ، فأعتقها وتزوجها .. وقيل إنه لم يتزوجها ، بل كان يطؤها بملك اليمين ، وأنه خيرها بين العتق والتزويج ، أو تكون في ملكه ، فقالت : أكون في ملكك أخف على وعليك ، فكانت في ملكه حتى توفي عنها .
والرواية الأولى أثبت وأرجح .

• • •

هذه هي زيجات النبي ، وأولاء كن زوجاته .. والاحوال والملايسات التي تزوجهن فيها .

ولان يستطيع منصف ، يحترم الحق ، ويحترم العقل ، أن يقول إن هذا العدد الكثير من النساء اللاتي جمعهن الرسول في بيت الزوجية - كن لإشباع رغبته في النساء وإرواء ظمئه منهن !

إن ذلك افتراء على التاريخ ، واعتداء على الواقع ، وإجتراف على الحق .

يقول ول ديورانت في شأن زيجات النبي :

« ولقد كان بعض زيجاته من أعمال البر والرحمة بالأرامل الفقيرات اللاتي توفي عنهن أتباعه أو أصدقاؤه .. وكان بعضها زيجات سياسية ، كزواجه بحفصة

(١) العني : ما يختاره الرسول من الفتيمة .

بذت عمر الذي أراد به أن يوثق صلته بأبيها ، ركز واجأ من ابنة أبي سفيان ليكسب بذلك صداقة عدوه القديم ، وربما كان الدافع إلى بعضها أمله في أن يكون له ولد^(١)

فإذا تعلق مغيظ من الإسلام ، محقق على شريعته . بهذا اللون الظاهري للصورة التي يبدو فيها هذا العدد الكثير من النساء في بيت النبوة — إذا تعلق بهذا اللون الظاهر . من الصورة . وعمى عن إيجاباتها . وتغافل عن المعاني الجليلة السامية التي تنطق بها — فحسبنا أنه لن يستطيع أن يجد حتى كلمة زور تستوجب له ليطهم النبي مع ما يدعيه له من قوة شهوته إلى المرأة — في شيء من عنته وطهارته . في حياته كلها . قبل البعثة وبعدها . وذلك مما يزيد النبي عظمة إلى عظمته . وجلالا إلى جلاله .

• • •

الباب الحادى عشر نبى المسحمة

الخير والشر ، والنور والظلام ، والطمأنينة والقلق ، والرجاء واليأس ،
والعافية والسقم ، والفقر والغنى ، واليسر والعسر ، والسعادة والشقاء . هذه
وكثير غيرها من المتناقضات هى دنيا الناس ، التى قدر لهم أن يعيشوا فيها ، وأن
تدور أمورهم على هذه الاضداد المتقابلة المتناقضة فى كل شىء منها .

فليس فى هذه الحياة شىء لا يضافه شىء ، ولا يقف له ، حتى لسكان ميزان
الحياة لا يقوم إلا على هذا التراجع بين السكنتين . . فى إحداها النىء ، وفى
الأخرى نقيضه !

انظر إلى الحياة بالمنظار الذى يروك تجد أنها ليست لوناً واحداً أبداً فى أى
حال من الاحوال . . إن نظرت إليها بمنظار أسود حالك السواد . بدا لك من
خلال هذه الظلمات الكثيفة التى تسد وجه الأفق شعاعات من النور ، ولمعاً من
الضوء تخطط السواد بالبياض ، وتفسد عليك هذه الصورة « السوداء » التى
وقعت فى شباك تشاؤمك ويأسك ، فإذا أنت ممسك بخيوط هذا الضوء ، متعلق
بشعاعات الأمل والرجاء . . وإن نظرت إليها بمنظار سحرى يريك الأشياء فى
حلل عروس تحف بها الهجة ، وترف عليها أطيايف السعادة طلع عليك من
خلال ذلك وجوه كئيبة كالحة تدخل فى هذا الفرح القائم ، وتضرب بيدها فى
عقده المنتظم ، فيتناثر ، وتنفخ بأفواهما فى أنواره ، فتضطرب ، وإذا هذا المنظر
البهيج الجميل تظلمه سحابة كثيفة ، كما تكسف السحب وجه الشمس فى يوم مشرق
من أيام الربيع !

تلك هى الحياة . . ليست خيراً محضاً ، ولا شراً خالصاً ، وإنما هى

مزاج من الخير والشر معاً ، لا ينفرد أحدهما في هذه الحياة ، ولا يستقل بوجوده فيها ! .

وكذلك الناس .. أخيار وأشرار . لن تخلو الحياة أبداً من وجهيهما معاً .. فما خلصت الحياة للأخيار ، ولا وقعت كلها ليد الأشرار ..

وتمثل هذا في الإنسان الفرد . تجده تركيبة من الخير والشر .. فليس هناك ذلك الإنسان الذي يحسب خيراً لا شراً فيه ، كما أنه ليس هناك ذلك الإنسان الذي يحسب شراً لا خيراً معه !

ولما الحياة في شئونها ، والناس في جملتهم ، والإنسان الفرد في خاصته — خير وشر ، أشبه بتلك المركبات الكيميائية التي تبرز بين حمضين ، وتواف بين عنصرين ..

على هذه الصفة قامت الحياة ، وعلى تلك الصورة صبحت الناس ، وصحبا الناس ، فألفتهم وألقوها .. سنة الله .. ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

° ° °

نقول هذا ليستقيم في فهمنا أن الرحمة الخالصة ليست هي الدواء في كل حال ، وليست الطعام السائغ الذي تحيا عليه النفوس في كل حين .

وأنبياء الله ورسله هم أطباء الإنسانية وأساتها . ومن تدبير الطبيب الحكيم أن يجعل لكل حال حالاً ، وأن يصف لكل داء دواء . فهناك داء دواؤه الجنة والإمساك عن الطعام زمناً ، وهناك داء دواؤه طعام دون طعام .. وهناك داء تقضى مصلحة الجماعة أن يغيب مع صاحبه في التراب اتقاء لعدواه ، ودفعاً للبلاء الذي ينجم عنه إذا لم يكن من الممكن شفاؤه من هذا الداء .

وحين يحمل رسل الله إلى الناس رحمة السماء فإنما هي دواء تستقيم عليه نفوس ، وتضيئ به نفوس ، وتفتتح له قلوب ، وتستغلق دونه قلوب ..

إن النور الذي يضمن الوجود ، نعمة يعيش فيها الناس ، ويحيا بها الأحياء ،

وتكشف به مسالك الطريق إلى أبواب الرزق . . ولكنه عدو مبين للخناس
مثلاً . . يمزله عن الحياة . . ويعمي عينيه عن موارد الرزق ، ومواقع الخير . .
لأنه لا يحيا إلا في الظلام الخالك ، ولا تنهأ له الحياة إلا في ظلمات الليل البهيم .

وفي الناس من ارتكست نفسه وانتكست طبيعته ، فلا ينتفع بأنوار السماء ،
ولا يتقبل الرحمت التي تجيء منها على يد رسل الله وأنبيائه ثم لا يقف الأمر به
عند هذا ، بل يحاول جاهداً أن يطفىء هذا النور ، ويبدد تلك الرحمت . . فإنها
— في تقديره — العدو المبين له . . ولو استطاع الخناس أن يسد وجه الشمس
بجناحيه لفعل ، ولو غرق الناس والأحياء في بحار الظلام . . إنه لا يريد
نوراً أبداً !

وإنه لكي يصل هذا النور السامى الذى تحمله رسالات الرسل إلى أقوامهم
لا بد أن يدفع عنها كل ما من شأنه أن يعطل وظيفتها ، أو يعوق سيرها
إلى غايتها . .

ومن أجل هذا كانت كل رسالة سماوية تحمل معها من القوى المضاربة على
يد المعتدين عابها ، والمعوقين ، والواقفين في وجهها — تحمل القدر الذى يناسب
قوى الشر والعدوان المواجهة لكل رسالة .

فإذا كان العناد إجماعياً . وكان الشر مستولياً على الجماعة كلها . . كان العقاب
على قدر الجرم . . فناءً إجماعياً ، وهلاكاً كاملاً يأتي على كل شيء . .

أما إذا كان في الجماعة راشدون : رأوا الهدى فاهتدوا ، وسمعوا منادى
الحق فأجابوا ، فإن العقاب لا يقع إلا على الميثوس من هدايتهم ولم تقاؤهم .

و قوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم . وجعلناهم للناس آية ، (١) .

وكان ذلك بعد أن لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً . يدعوهم إلى
الله . ويرفع لهم أعلام الهدى والرشاد . فما استقاموا ولا استجابوا . .

وكان أن دعا ، نوح ، عليهم دعوته . فاستجاب الله له ..
« وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم
يضلوا عبادك : ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » (١) ..

« إنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ،
وأصروا . واستكبروا استكباراً ، ثم إنى دعوتهم جواراً ، ثم إنى أعلنت لهم
وأسررت لهم إسراراً ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم
مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ..
مالكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً » (٢) ..

فإذا بعد هذه المصابرة ، وهذا الغدو الروح بالدهاء ؟ لم هذا والمرضى
يشورون فى وجه الطبيب ويحسبونه بكل ما يقع فى أيديهم .

وهكذا كان الشأن فى قوم : عاد ، وثمود ، وقوم لوط .. عصيان عنيد :
عقابه الإبادة الشاملة التى لا ينجو منها إلا القليل .

يقول الله سبحانه وتعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم
الكتاب والميزان .. ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد
ومنافع للناس » (٣)

يقول ابن قيم الجوزية فى تفسير هذه الآية : « من عدل عن الكتاب قوم
بالحديد .. وقد روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « أمرنا رسول
الله صلى الله عليه وسلم أن نضرب بهذا — يعنى السيف — من عدل عن هذا
» يعنى المصحف » (٤) ا

فالإسلام دين قام على الدعوة بالحق ، فمن لم ير فى الحق مقملاً .
فالسيف ..

(١) سورة نوح : آية ٢٧ (٢) سورة نوح الآيات من ٧ — ١٤

(٣) سورة الحديد : آية ٢٥

(٤) السيرة النبوية : لابن تيمية ص ١٢ ،

لأنه لا بد للحق من قوة تزيده ، وتدفع عنه يد المعتدين الظالمين . . . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله (١) .

الإسلام والسيف :

من مفتريات الغرب على الإسلام ، ومحاولاتهم النيل منه ، والزراية عليه القول بأن العقيدة الإسلامية إنما قامت على السيف واستندت إليه في حمل الناس عليها . وإلباسهم لبأسها ، وأنه لولا سطوة سيوف المسلمين وما فعلت في رقاب الناس لما كان للإسلام أن يبلغ هذا المدى الذي بلغته دعوته . ولا بسط سلطانه على هذه الآفاق البعيدة في الشرق والغرب التي يسطر سلطانها عليها .

ولرائحات عن عقول هؤلاء الغربيين عماية الحق على الإسلام . وتبخرت من أدمغتهم أذخنة الغل الدفين له ، لرأوا أنهم قد خافوا الأمانة العلية التي جاءوا إلى الناس بها ، ودخلوا عليهم من أبوابها ، بهذه المقولات التي تقولوها على الشريعة الإسلامية ، وعلى رسولها الأمين . .

ولو أننا وجدنا عذراً لرجال الدين منهم . . من الذين نشئوا على التعصب لعقيدتهم وخلع المجادة عليها ، والقداسة لها ، ولم يشارها بالحسن الجميل من كل شئ . دون غيرها ، ولم يظهروا محاسنها بإلقاء الريب والشكوك على من يناقشها أو يهددها في وجودها - لو أننا وجدنا عذراً لرجال الدين من هؤلاء العلماء ، فإننا لن نجد مثل هذا العذر للعلماء غير الدينيين ، الذين تخصصوا للبحث العلمي . ونذرنا أنفسهم له . .

ولو أننا وجدنا شيئاً يعتذر به للعلماء العصور الماضية حيث استحكم الجدل ، وسيطرت السفسطة على عقول العلماء ، وحيث كانت مذاهب الكلام ، وتركيبات المنطق هي المادة التي يقيم منها العلماء مذاهبهم ، ويعلمون بها صروحها - لو أننا وجدنا شيئاً يعتذر به هؤلاء العلماء الثغابرين لما وجدنا شيئاً من ذلك للعلماء المعاصرين الذين أدخلوا معهم تلقينات العلم التلقيني ، وأفرغوا عقولهم من تلك المسلمات التي آمن لها الناس من غير بحث أو تمحيص ، حين أعادوا بناء العلم على أساس التجريب في

(١) سورة الحج آية ٤٠

سقط الحياة ، وتأجيص الحقائق وتنقيتها بمسطحات الحس والمساهمة .

إن هذه القولة التي يقولها العلماء الغربيون المعاصرون عن الإسلام هي إحدى رمياتهم المزيلة الطائشة فيما يرمون به الإسلام من أباطيل ومفتريات !

* * *

ونحن لاندفع أن الإسلام قد أعمل السيف في رقاب أعدائه وخصومه ، وأنه أطاح به يساً وقلق هامات ، وأراق دماء .

هذه حقيقة غير منكرة ، فلم يحاول الإسلام أبداً أن يقول إن شريعته لاتتمسك بالسيف ، بل إنه دعا إلى استعمال السيف وسعى عليه تحريضاً شديداً .
لأنه لم يجعل في أنبائه قولة السيد المسيح : « من ضربك على الخد الأيمن فأدر له خدك الأيسر » ، بل حمل إليهم : « فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » (١) . بل دعا إلى أكثر من هذا ، دعا إلى أن يستقبل المسلم في ميدان المعركة إذا لم يكن له بد من لقاء العدو . . فليقتل خصمه قبل أن يقتله الخصم . . قال تعالى : « فإن قاتلوكم فاقتلوهم . . كذلك جزاء الكافرين » (٢) . . فالقتل بين المؤمنين هو الجزاء الذي يجب أن يكون للكافرين ، وهو الحساب الذي ينبغي أن تختم به المعركة بين المؤمنين والكافرين !

لقد دعا الإسلام إلى الجهاد في سبيل الله ، وإلى الإقدام في الحرب ، والشباب في وجه الأعداء ، ومجد الاستشهاد في ميدان القتال ، وجعل منازل الشهداء مع النبيين والصديقين . وحسنا أن نقرأ في كتاب الله قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير » (٣) وقوله : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » (٤) ، وقوله جل شأفه : « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أغنستمهم فشدوا الوثاق » (٥) وقوله سبحانه : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ، كأنهم بنيان مرصوص » (٦) . . حسبي أن نقرأ مثل

(٢) سورة البقرة : آية ١٩١

(٤) - سورة الأنفال : آية ٤٥

(٦) سورة الصف : آية ٤

(١) - سورة البقرة : آية ١٩٤

(٣) - سورة الأنفال : آية ١٦

(٥) - سورة محمد : آية ٤

هذه الآيات ، من كتاب الله لتعلم أن الإسلام قد جعل الجهاد بالسيف في سبيل الدعوة والدفاع عنها أمراً واجباً ، من نكل عنه ، أو تخاذل في ميدانه ، أو قُبِث في الانطلاق إليه ، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الفسوق والعصيان ، واستوجب غضب الله ومقته (١) .

هذه حقيقة لا ندفعها ، ولكن ليست هي الحقيقة كلها . . لأنها شطر الحقيقة أو بعضها . أما الشطر الثاني من الحقيقة ، أو القدر الأكبر منها فهو الدعوة الإسلامية ذاتها ، أو بمعنى آخر حتمائ هذه الدعوة ، وما تحمّل إلى الناس في يديها من خير كثير ، ورحمة واسعة . وأن هذا الخير ، وتلك الرحمة هما مقصد الدعوة وغايتها . أما السيف الذي قام إلى جانب هذا الخير وتلك الرحمة ، فإنه ليس أمراً مقصوداً لذاته . وإنما هو شيء عارض ، لا ينبغي أن يكون من مقومات الدعوة ولا أن يحسب عليها . إنه الحارس الذي يقف وراء هذا الكنز الثمين ، يدفع عنه غارات اللصوص ، والمتبهين ، والخطافين !

أرأيت إلى هذا العدد من الشرطة ، يقوم على حراسة هذه الخزائن التي تضم الأموال الطائلة وكرائم الجواهر والحلى في مصرف من تلك المسارف العالمية ؟ ثم أرأيت إلى اللصوص يتسللون إلى هذه الخزائن ، يريدون الاستيلاء على ما يقدرّون على حمله منها ؟ ثم أرأيت إلى الشرطة وقد انكبوا إلى هؤلاء اللصوص ؟ ثم أرأيت هؤلاء اللصوص وقد تنبّهوا إلى ما يريد الشرطة بهم ؟ ثم أرأيت إلى تلك المعركة التي تشبه بين الفريقتين ؟ وإلى الدماء التي سالت ، والأرواح التي ذهبت ؟ ثم .. ماذا ؟ ماذا ترى فيما حدث ؟ هل ينقص ذلك من قيمة الخزائن وما أودع فيها ؟ وهل يقع لوم على الشرطة وما نالت أيديهم من المعتقلين ؟ وهل تأخذك هؤلاء اللصوص أو يقتلهم وجرحهم مريحة ؟ إنهم أئمة معتدون ظالمون . . قبلتهم اليد الآمنة الحارسة . . وذلك جزاء الظالمين . .

(١) تأمل هذا الإنجاز في تلك السكّابة الطليعة الرائعة التي قصدتها تنفير المؤمنين من الفرار عند ملاقة الأعداء في قوله تعالى : « فلا تولوهم الأدبار » حتى لكان الذي يفرض إنما يكشف عن - و - ته .

إن أمر الدعوة الإسلامية - وكل دعوة سماوية - ليس دون هذه الخزان وما تشمل عليه من أموال ، وإن بلغت ما بلغت من تنافسه ووفرة : فإن الروح الذى تقولاه رسالات السماء أهم بكثير من أمر الجسد الذى تتجه إليه هذه الأموال ! ومن جهة أخرى . فإن الإسلام ليس وحده الذى دفع بالسيوف بغى الباغين عليه ، وكيد الكائدين لدعوته ، فإن الرسالات السماوية جميعها قد حملت الناس مع ما حملت من أفوار الهداية والرحمة صوراً مختلفة من النذر ، وألواناً متعددة من النكال لمن كذب برسل الله ، ووقف فى سبيل دعوتهم ، وبسط يده أو لسانه بما يسوؤهم !

وهل طوفان نوح أو صواعق عاد ، أو رسائل هود ، أو لوط ، أقل أهلاكاً وتدميراً مما فعلت سيوف الإسلام بالعصاة والملاحدين ؟ وهل لما رقع فى بنى إسرائيل من مسخ ، وارتكس من الطبيعة البشرية إلى طبيعة الفردة والخنازير دون ما أحدثت سيوف الإسلام فيمن أصيبوا بها ، وكانوا من إصرعها ؟

ليس الإسلام إذن بدعاً بين الرسالات السماوية فى الالتجاء إلى السيوف حين لم يجد النصيح ، ولم تكن البينات ؟ بل إن السيوف لأرحم كثيراً مما حل بالمعاندین المخالفين للرسل فى الأمم السابقة !

يقول الله سبحانه وتعالى فى شأن المكذبين بالرسول : « فكلما أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً . ومنهم من أخذته الصيحة . ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ! . وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (١) وقد كانت السماء فى الرسالات السابقة هى التى تتولى تأديب العصاة ، والتبكيل بهم ، على حين أن الرسالة الإسلامية قد جهلت أمر ذلك إلى النبى ومن اتبعه من المؤمنين ، ليبتلى ما فى قلوبهم ، وليحصى ما فى صدورهم ، حتى ترسخ قواعد الإسلام ، ويتأكد مقامه فى الحياة ، وليكون للمؤمنين فى كل زمان ومكان يشاركه فى هذا الغرس الطيب الكريم الذى غرسه النبى ، حتى يرووه حتى رعائته ، وحتى

يجد الناس فيه ربح الإنسان، فيأفسموا إليه، ويخططوا أنفسهم به .. وفي هذا ما ينبغي
عن أن هذه الرسالة هي رسالة الإنسانية كلها، وأن الناس قد شاركوا في رعايتها
والقيام عليها .

وفي الرسالة الموسوية أول دعوة إلى الجهاد في سبيل الله .. وهي أشبه بالطفقة
الأولى في المعركة الإنسانية بين الإيمان والكفر . ولكنها حركة لم تبدأ إلا في
الرسالة المحمدية ..

لقد سأل موسى قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة ، وأن يظهروها من
الملحدين ، فأبوا أن يسمعوها له ، وأن يلقوا عدوهم هناك .

ويقص القرآن الكريم هذا الذي وقع بين موسى وقومه .. فيقول سبحانه
وتعالى : « ولذا قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جعل فيكم
أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين ، يا قوم ، ادخلوا
الأرض المقدسة ، التي كتب الله لكم ، ولا ترمدوا على أدباركم فتقلبوا خواسرين ..
قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن
يخرجوا فإذا نادلناهم .. قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا
عليهم الباب ، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ،
قالوا يا موسى : إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها .. فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا
ههنا قاعدون ، قال : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم
الفاستقين .. قال : فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض .. فلا تأس على
القوم الفاسقين » (١) .

لم يقدر لبني إسرائيل أن يحملوا هذا الشرف الذي نذبته السماء له ، ودعتهم
إليه ، بل استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، فكان هذا الإجماع الأثم على النكول
عن الجهاد في سبيل الله ، وعن تلقي هذا الشرف بإهلاك العصاة .. الذي كانت تتولاه
السماء ونذبت الإنسان له ، ليكون له شرف المشاركة في هذا الأمر العظيم .

(١) هذان الرجلان هما موسى وأخوه هرون أكيدل عليه سياق الآيات : « ولا أملك
إلا نفسي وأخي » ، وهي في المائدة من ٢٠ — ٢٦

وعمل الزمن عمله في بني إسرائيل من بعد موسى ، وولدت الحياة منهم من
يرضى الجهاد في سبيل الله . . . ولكنهم قلة لا تستند إليهم دعوة ، ولا يشته
هم دين .

يقول الله سبحانه وتعالى : « ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل من بعد موسى ؟
إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله ! قال هل عسيتم إن كتب
عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله . وقد أخرجنا من
ديارنا وأبنائنا ؟ » (١) . . . فإذا كان من أمرهم بعد أن كتب عليهم القتال ؟

« فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم . والله عليم بالظالمين . . . » (٢)
الآيات . . . إنها غلطة من غلطات الحياة أن يوجد في القوم من يقاتل في سبيل دعوة
الله ، ينصرها دينه ، ويؤيد كلمته ، ولو كان ذلك من قلة بحيث لا يذكر .

ولكن ما هكذا كان الشأن حين دعا محمد ، إلى الجهاد . . . لقد استجاب
له المؤمنون جميعاً . وألقوا بأنفسهم في أحضان الموت . لا يبالون أن يلقوه
مصعبين أو عمسين . إن المسلمين جميعاً كتيبة معبأة للحرب ، والجهاد في سبيل
الله . . . ما كان للمؤمنين أن يتخلفوا عن رسول الله ولا أن يرغبوا بأنفسهم
عن نفسه . »

فلقد كان من فضل الله على العرب أن فتح قلوبهم لدعوة الإسلام ، ثم ضاعف
هذا الفضل بما حجب إليهم من أمر الجهاد في سبيل الله ، وجعلهم أهلاً للخراسة
هذا الدين ، ودفع بهم كل يد آثمة تريد أن تنال منه .

لقد كانت الدعوات السماوية في الأمم السابقة تؤيد من السماء بالقوى القاهرة
المسلكة : من طوفان ، وصواعق ، وسحابة من سميجيل ، وريح صرصر عاتية ،
وغيرها مما يذهب بالمسكدين المعاندين ، وبما معهم من مال وبنيين .

(١) وقد كانت سابقهم مع موسى لا تزال ماثلة . والآية من سورة البقرة رقم ٢٤٦ .

(٢) سورة البقرة : ٢٤٧

لأنه لم يكن آنذاك في الإنسانية مكان لمل هذه المهمة النبيلة . ولم يكن في الناس - غير رسول الله - من يستحق أن يقوم بالحراسة على الدعوة السماوية وحمايتها من السفهاء . وهذا ما يؤيد مذهبنا لإليه من قبل أن الإنسانية كانت قبل الرسالة الإسلامية في أطوار لم تبلغ بها مبلغ الرشد . . ولهذا لم يصح أن يقوم في الناس أوصياء على الناس . . لأنهم جميعاً في طور مادون الرشد، ولا يقوم بالصيانة إلا من كل ورشد .

فلما أن جاءت الرسالة الإسلامية التقت مع الإنسانية وقد طلعت فيها طلائع الرجولة ، وبزغت من بينها بواكير الرجال - نذبت السماء من أمنا بهذه الدعوة أن يكونوا هم حمايتها، والذائدين عنها . لأنهم - وقد أصبحوا الإنسان الذي خلق على صورة الله - أن يكونوا خلفاء الله في الأرض وعلى الناس .

هذه حقيقة من حقائق الدعوة الإسلامية، وفضل من أفضالها على أهلها المؤمنين بها . ثم هي من جهة أخرى شهادة للعرب أنهم كانوا البواكير المتمجة في الإنسانية كلها، وأنهم أول من اتقى بالسماء، واستأهل حمل رسالتها، وحمل مسئولية حمايتها والدفاع عنها (١) .

وندع هذه المقارنة بين الديانات السماوية ومواقع العقاب وصوره فيها للبهائين والمكذبيين ، لننظر في تلك الدعوات والمذاهب غير الدينية التي تتجه إلى تغيير الأوضاع والنظم القائمة في المجتمعات الإنسانية . . ماذا أرى في سبيل هذه الدعوات وتحقيقها من دماء؟ وماذا أزهق لدعمها والتمكين لها من أرواح؟ ولا نسأل إذا كانت هذه الدعوات وتلك المذاهب صالحة أم فاسدة، ولزناً . . تلد خيراً أم شراً . . أم عقيم لا تلد شيئاً ! فإنها على أى حال لا ترتفع إلى مستوى الدعوات السماوية التي خلصت للخير ، وخلت من الدوافع الذاتية والاهواء الشخصية ؛ لأنسأل عن هذا ، ولكن لننظر كيف سارت هذه الدعوات في طريقها ، وكيف كان بدؤها ونخاتها ؟ وكيف ذهب بريقها الذي استهوى الناس

(١) لعل هذا الرأي يفتح مجالاً للنظر عند علماء الحياة - في مدى تأثير البيئة الصحراوية وخاصة الصحراء العربية - في السكبان الإنساني وإيضاح ملامحه : فإن المواطن المختلفة من الأرض أشبه بالأرحام، والناس في كل موطن هم الأجنة في هذه الأرحام .

لأول أمرها ، ثم تحول هذا البريق إلى نار تظلم . . استغرق بها أولياؤها قبل أعدائها . . وخذ لذلك مثلاً : الثورة الفرنسية . . لأنها قامت على مبادئ إنسانية رفيعة ، رسمتها أقلام الكتاب ، ولونتها قممائد الشعراء ، وهامت بها أفئدة الجماهير . فكانت هتافاً عاماً للآفاق بالحرية والإخاء والمساواة . . واندفع الناس ثورة عارمة وفي زحف مجنون ، يبشرون بهذه المبادئ ، ويجلون بها للناس عن أسس عليها بهجة العرس ، ونضرة النعيم . ولكن سرعان ما تنحو لت هذه الثورة إلى مجزرة ، فسالت الدماء أنهاراً بلا حساب ولا مراحم . . لا يدرى أحد الطريق إلى النجاة . . فلا يكفي أن ينضم إلى صفوف الثائرين ، ولا أن يتحلى بشايرهم ، ولا أن يردد هتافهم . . فلن ينجيه ذلك من أن يساق إلى القصة ، مادام هناك من يدس له ويشو به ، ويكيد له عند من صارت إليهم مصائر الأمور .

فأين هذا من دعوة الإسلام ومبادئه ؟ لقد كشف الإسلام للناس عن دعوته ، ورفع لهم أعلام النجاة . . فن استظل بها فقد ضمن السلامة لنفسه وماله . . من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقد أصبح في الإسلام مسلماً ، لا سبيل لأحد عليه . . يقولها بلسانه ، وإن لم يستقدها في قلبه . لأنها جواز المرور إلى الأمن والسلامة . . وهي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر . لأنها حسابه في الدنيا ، يصدق فيها بقوله : . . أماما في قلبه فسابه على الله الذي لا تخفى عليه ماتخفى الصدور .

فلم يترك الإسلام الأمر في دعوته طوى الناس وشهواتهم ، يسكيلون بالكيل الذي يرضى منازلهم ، ويجرى مع أهوائهم . . وإنما الذي صنعه الإسلام هو أن أقام إلى جانب دعوته حجازاً بين الحق والباطل هو شهادة الله لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . . يقولها الإنسان فيتحول من الكفر إلى الإيمان ، وليس لأحد عليه بعد هذا من سبيل !

أما القلوب وما تنطوى عليه فأمرها إلى الله . . ليس لأحد أن يدعى الكشف عما فيها من خير وشر . . من إيمان أو كفر . .

يقول النبي الكريم : دأمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم . . وحسابهم على الله ، ! وفي حديث ذي الخويصرة ، وقد استبان منه للمسلمين ما استبان من ربح

النفاق . . وبدا لأحد الصحابة أن يستأصل هذه الجراثيم الفاسدة . . لم يمكنه
النبي منه ، وقال : « هلا شئت عن قلبه ؟ » . . ومن أجل هذا احتفى بالإسلام
كثير المنافقين من لاخلق لهم ، ولا مودة عندهم ، وإنه على الرغم من أعارات
النفاق البادية عليهم . فإن الإسلام قد تركهم وشأنهم ، وجعل الحكمة التي نظموا
بألسنتهم دون أن تدخل قلوبهم - وقاية لهم ، ومعتاراً يستترون فيه ومدخل يدخون
به في المجتمع الإسلامي .

ولا شك أن هذا المنهج على ما فيه من ثمرة ينفذ منها ذوو النفوس الضعيفة
هو أعدل منهج يمكن أن يقوم بين الناس ، ويعصمهم من الدسائس والوشايات التي
إن أدانت مذنباً فإنها تدين إزاءه عشرات من الأبرياء الذين لا ذنب لهم . . ولهذا
كان من مبادئ الإسلام : « الخطأ في العفو عشرات المرات خير من الخطأ في
العقوبة مرة واحدة » .

ونخذ مثلاً آخر — غير الثورة الفرنسية ومذابحها — الثورة الروسية . إنما
جاءت باسم الاتصاف للطبقات الفقيرة الكادحة وتخليصها من العبودية والإذلال
لأصحاب رموس الأموال ، من طبقات الأمراء وأصحاب الأعمال !

كذهب في سبيلها من ملايين البشر الذين حصدهم من أجل قادة الحركة رز عمامها ؟
وكيف غرق الناس في بحار من الفوضى فلا يدري أحد ما المصير الذي يصير إليه
في مصيحه أو عمامه ؟ ولا يدري أحد الاتحاد الذي يتجه إليه فيجد عنده الأمن
والسلامة ، إن مشى في ركب الثائرين لم يأمن أن يجيء من يشهد عليه أنه ليس
على دين الثورة . ولم ؟ لأن أسارى وجهه تقول هذا ، أو أنه سمع يقول كلاماً
يشتم منه ربح العداوة للثورة ، أو أن فلاناً سمعه يقول كذا وكذا . . أولاً هذا
ولا ذاك . . إنه ليس من شأنه أن يسأل : لم ؟ إن عليه أن يجد رقبته لسيف
الجلاد وحسب ، دون أن يفتح فيه !

هذا شأن كثير من المذاهب والدعوات المدنية التي ربما تكون قد نشأت عن
دوافع إنسانية كريمة ، وقامت من أجل مقاصد طيبة نبيلة ، ولما كانت عند دخولها
في دور التطبيق العملي اصطدمت بالمماندين ، أو الحاقدين أو الجاهلين ، فكان

صراعهم صراعاً لا تحكمه قاعدة عامة شاملة تفرق بين الأولياء وبين الأعداء ،
ولذا الناس جميعاً متهمون ، وإذا كل إنسان متهم إلى أن تثبت براءته ، وذلك
على عكس القاعدة القضائية التي تقول : « كل إنسان بريء إلى أن تثبت إدانته » .

* * *

ولايأس من أن نستطرد هنا بعض الاستطراد ، فنسأل : ترى لو أخذت
الدعوات والمذاهب المدفعية بالمبدأ الإسلامي وطبقته في مجال الحياة العامة لنشر
مذاهبها ، والتسكين لها - أكانت تصادف بعض النجاح الذي صادفته الدعوة
الإسلامية؟ أو بعبارة أخرى : لو أن كل دعوة من هذه الدعوات المدنية جعلت لها
شعاراً مادياً يعرف به الأولياء من الأعداء هذه المعرفة الظاهرية التي لا تكشف
عن الواقع الذي عليه الناس - أكان ذلك يلقحها الغاية ، ويدفع عنها كيد الكائدين ،
ومكر الماكرين؟ ونقول في غير تردد : أن نعم ! فليس بعد هذه التجربة الكبرى
التي اتبناها الإسلام في دعوته - من يستطيع أن يدفع هذا الجواب أو ينقضه !

استطيع الدعوات الدنية أن تقفو أثر الدعوة الإسلامية ، وتستطيع أن
تضمن - مقدماً - نجاحاً مؤكداً ، وأن تأمن النكسات التي تعترى كثيراً من
الدعوات .. ولكن .

ولكن ليس هذا على إطلاقه ..

فليس كل دعوة صالحة لأن تدخل في مثل هذه التجربة الإسلامية ، وأن تظهر
ببعض النجاح الذي قدر لها .

فهناك دعوات هوجاء طائشة ، تمنحنت عنها عقول مضطربة ، وتنفصت بها
صدور محمومة ، ونزوات طائشة . ومثل هذه الدعوات لا يمكن أن تحتفظ
بحيائها إلا كما يحتفظ الدود الذي يتولد من الجيف . لأنه لا يتحرك إلا ليوت
وفي التاريخ - في الشرق والغرب - شواهد كثيرة لهذا ..

دعوة بابك الخرمي مثلاً (١) . وهو فارسي ظهر أيام « قباز » بمذهب إباضي

(١) الخرمية : لفظة أعجمية تدل على ما يلد وما يشتهي .

دعا فيه إلى انتهاب كل شيء ، واستحلال كل شيء .. فاجتمع إليه الجياع والمحرمون ، والمنهلون . وتهاقت أصحاب اللذات على دعوته تهاقت الذباب على العسل ١ .

هذه الدعوة قد صادفت في أول أمرها نجاحاً ملحوظاً ، واجتمع الناس عليها ومظاهرتهم لها .. ولكن سرعان ما عصفت بالناس أعاصيرها ، فأفقدت حياتهم وقلبت أوضاعهم ، وانقلب أكثر الناس من دعايتها حرباً عليها .

وهكذا شأن الدعوات التي تخرج على طبيعة الحياة ، وتقلب أوضاعها .. لأنها حينئذ لا تجد من الناس من يسندوها ويشد أزرها ، لأنها لا تعمل بمقتضى أو بقلبه .

فلنرى كيف تجد الدعوة مدخلاً للتجربة الناجحة يجب أن تكون دعوة إنسانية .. بمعنى أنها تستخدم الصالح العام للناس وترعاه ، فلا تكون لحساب فرد ، أو جماعة ، أو طائفة ، وإنما هما للناس ، ولخير الناس . إن لم يكن كل الناس فالناتية العظمى فيهم . ثم لا يكفي أن تكون هذه الدعوة كلاماً يصاح في عبارات طلية ، أو أساليب منطقية ، وإنما يجب أن يكون الداعي أو الدعاة لها مؤمنين بها عن فهم ، متحمسين لها من غير تعصب . يدعون لها بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويحيثون بها إلى الناس عن إقناع .

إن مثل هذه الدعوة لا تثبت أن تجد كل يوم ، لأمؤمنين بها فاعسب ، بل دعاة يسندون الدعاة ، ويقفون إلى جوارهم ومن وراءهم .. لأنها ليست دعوة فرد ، وإنما دعوة الحياة .. دعوة الناس جميعاً .

وفي الناس دائماً — في كل عصر ، وفي كل أمة — منحرفون ، لا يستجيبون لدعوات الخير ولا يستقيمون عليها .. وهؤلاء ينبغي — لكي تسلم الدعوة ، ولكي يصل الخير إلى أهله — أن يضرب على أيديهم ، وأن يرصد لهم العقاب الرادع الذي يناسب كل حالة ..

وهنا ممكن الداء وموضع الخطر ، فما أكثر ما تختلط الأمور . وتختل

الارازين ويفلت الزمام من يد القائمين على الدعوة ، فيسكون البلاء ، وتكون
الفتنة .

يحذف دائماً بأصحاب الدعوات كثير من أصحاب الأهواء والضلالات . يزينون
لهم الشر ، ويفتحون لهم أبواب السكيد والافتقار ، في صورة من يبنى النصح ،
ويريد الخير .. وقد يتخذ هؤلاء الناصحون من القول . ولطف المدخل ما يفرى
أصحاب الدعوة بالاستماع إليهم ، والأخذ بمشورتهم ، وهنا ينفتح الباب الذي
لايسد أبداً . بل يزداد على الأيام اتساعاً ، وتزداد الفتنة به عمقاً وامتداداً ..

ولعلنا نجد العبرة ماثلة في فتنة وقعت في المجتمع الإسلامي — هي فتنة خالق
القرآن - التي قسمت المسلمين شيعاً وأحزاباً . وحملت الخليفة « المأمون » على
ما به من عقل وما عنده من حكمة — حملته على جناحها وأشرفت به على هاوية
كادت تذهب بخلافته .

ولم يكن المأمون هو الذي يطرق هذا الامر ، ولا أن يفتح له عقله أو أذنه ،
لولا أن النف حول العصية أرادت أن تنتقم من خصومها ، فلم تجد سبيلاً غير هذه السبيل
التي تضعهم أمام الخليفة موضع المخالف لرأيه ، الخارج على عقيدته !

وانظر كيف كان مكر هذه العصابة وكيف كان تدبيرها !

فأولاً : أوقعت في نفس المأمون ، بعد دراسات ومباحثات في مجالسه
العلمية — أن القرآن مخلوق ! لأن كل شيء مخلوق لله ، والقرآن شيء وإن كان
كلام الله ! فهو مخلوق !

وثانياً : كل من لا يعتقد هذا المعتقد فهو مشرك بالله . مستوجب العقاب ،
وكان أن فوجيء الناس بهذا الرأي ، ووقع العلماء في عنة ! الخليفة — وهو القائم
على حماية العقيدة — لا يرى المؤمن مؤمناً حتى يقول إن « القرآن مخلوق » !
والعلماء يرون هذه القولة بدعة ، لأنها لم تكن من مقولات السلف ، ولم تكن
موضع نظر وبحث ، ولم يكن لها مكان في مقررات العقيدة .

ولك أن تقرأ صحفنا من أخبار هذه المجنة ترى كم أذيق الناس فيها من بلاء
وكم نزل بهم من كرب ؟ حتى أن الإمام الجليل أحمد بن حنبل قد قيد ، وحبس
وضرب ، وكادت تذهب روحه بما نزل به من بلاء !

نقول هذا لنقرر أن الدعوات المدنية كثيراً ما تدخل عليها العناصر الغريبة ،
فتمسك على القائلين بها تدبيرهم المستقيم ، وتلتوى بمقاصدهم الطيبة .

والناس هم الناس ، أياً كانوا من رجاحة العقل وسمانة الخلق يخضعون
للعوثرات الخارجية ، ويتأثرون بالذوافع الشخصية ، والرغبات الذاتية .

وليس هناك من عاصم لمن يقوهم على أمور الناس إلا الرجوع إلى
« قانون » يحكمهم إليه ، هم وخمومهم على حد سواء .

لا بد من شريعة تحكم بين الناس . لكل جريمة جزاؤها ، من غير إفراط
ولا تفريط .

و « الإسلام » يهضم دماء الناس وأموالهم إلا بحق . هذا مبدأ قرره الإسلام
من أول يوم جاء ! .

فشكل ما وقع من الذين عارضوا الدعوة الإسلامية ، قبل أن يدخلوا في
الإسلام — كل ما وقع منهم من أذى للرسول الكريم قدحاه الإسلام ، منذ اللحظة
الأولى التي دخلوا فيها مع جماعة المسلمين في الإسلام .

فدخل أولئك الذين حاربوا الدعوة وأذوا رسول الله حين دخلوا في الإسلام
بصفحات بيضاء ناصعة ، لم يعلق بها شيء مما كان منهم قبل أن يسلموا .

فهذا « وحشي » (١) قاتل حمزة ، أسد الله ، وعم النبي ، وأحب الناس
إليه . يدخل في الإسلام ويعيش في المسلمين مسلماً ، لا يناله لسان بسوء ولا تهمة
إليه يد بأذى .

وهو بن الخطاب يرى قاتل أخيه زبيراً ، فلا يزيد على أن يقول له : « والله

(١) وحشي هذا عبد حبشي كان يجيد استعمال الحرب ، وقد جعل له سيده الخلاس
من الرق إذا هو قتل حمزة في غزوة أحد : وقد فعل ، فقتل حمزة ، وتحرر من الرق .

لا أحبك أبداً حتى تحب الأرض الدم المسفوح ، فيقول الرجل : وهل ذلك يمتنعني
- وفقاً هو لي ؟ فيقول عمر : أما هذا فلا . فيقول الرجل : لا بأس . إنما تبكي على
الحب النساء !

« العدل » القائم على معيار ثابت مستقيم هو الذي ثبت أركان الدعوة
الإسلامية ، ويمكن لها في القلوب .

« والعدل » الذي يقول به الإسلام هو « العدل » المطلق ، العدل الذي لا يتغير
وجهه أبداً ، ولا يناله أسد دون أحد .

* * *

ونعود إلى حديثنا عن الإسلام . وأن السيف لم يكن الأداة العامة في انتشاره .
ودخول الناس فيه أفواجا .

فيقول - إلى ما قلناه ، من قبل - إن سيف الإسلام قد أغمد منذ أكثر من
ألف عام .. ولا زال الإسلام يعمر القلوب في أربع مئة مليون من البشر ،
ولا زال الناس يدخلون في الإسلام أفراداً وجماعات وأما ، وليس للإسلام سيف ،
بل إن السيف تشهر ضد الإسلام في صور من حملات التبشير ، والاضطهاد
للمسلمين في المواطن التي يتجه أهلها إلى الإسلام عن اقتناع ، دون أن يدلهم
عليه لغراء بهال أو منصب وإنما دليلهم لإليه مبادئه الإنسانية العادلة ، وشرعيته
السمحاء .

وانظر في آفاق العالم الإسلامي تجد أن كثيراً من هذه الآفاق قد دخلها
الإسلام دون أن يسبل فيها سيف ، أو تراق قطرة دم ..

مثلاً أندونيسيا ، وأطراف الصين ، وسومطرة وجاوة وفيها جميعها أكثر
من نصف العالم الإسلامي .. هل كانت ميادين حرب بين الإسلام والإلحاد ؟
وهل شهدت جيوش المهملين تطلوها بخيلها ورجلها ؟ إن الإسلام قد دخل تلك
الأوطان في غير جليلة ولا صخب .. دخلها كما يدخل شعاع الشمس على الناس

في يمتطئهم أو نومهم دون أن يطرُق باباً أو يكسر نافذة . . إنه يتجسس المنافذ المفتوحة فيسلسل منها في رفق إلى الحجرات، والساحات، فيخمرها بالنور والدفء، على حين يتقف مترصداً النوافذ المغلقة والأبواب الموصدة حتى تفتح فيتدفق منها تدفق السبيل الفاس .

هكذا دخل الإسلام على أهل تلك البلاد كما دخل على أوطان كثيرة أخرى في أفريقيا مثل السنغال ، والسنغال ، وأوغندا ، وجنوب إفريقيا ، وغيرها .

• • •

وندع هذا كله ، ونسلم جدلاً ، للقائلين — كيداً أو جهلاً — بأن الإسلام قامت دولته على السيف ، وأن السيف وحده هو القوة العاملة فيما كان للإسلام من امتداد في المشرق والمغرب .

نسلم بهذا جدلاً .

ولسكن لنا سؤال نريد جواباً عليه من أصحاب هذا القول : ما الذي يمسك نظام الإسلام اليوم ؟ ومن الذي يقوم عليه ، فلا تقلت منه من هذه الأمم والشعوب التي اتدبن به ؟ إن النظام الذي يقوم بالقوة ويعتمد عليها لا يبقى في الحياة لحظة واحدة إذا ذهبت عنه تلك القوة أو ضعف شأنها .

وواتع الإسلام اليوم ، وقبل اليوم ينبغي عن أن القوة التي صحت الدعوة في أول أمرها لم يعد لها مكان . . وأنه لاسلطان لأحد على أحد في مواطن الإسلام في أن يدين بأى دين ، أو لا يدين بدين أصلاً .

رأ كثير من هذا . . الدعوة الإسلامية نفسها صريحة صراحة لا تقبل جدلاً في أنها لا تعتمد بشيء . . حسناً كان أو شيئاً — إذا جاء عن طريق الإكراه . . فن آمن مبكرها ، فلا إيمان له . . كمن كفر مبكرها ، فليس من الكفر في شيء . يقول الله سبحانه وتعالى :

و من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره ، وقلبه مطمئن بالإيمان . . ولكن

من شرح بالسفر صدرأ فعليهم غضب من ربهم ولهم عذاب عظيم » (١) .
ويقول نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه : « رفع عن أمتي الخطأ ،
والنسيان ، وما أكرهوا عليه » .

الدين . . إيمان ، ولا يكون إيمان تحت مؤثرات مادية تهدد الإنسان في ماله
أو دمه أو عرضه .

الدين . . هو إيمان . . والإيمان حب وتقديس وإجلال لما يقع الإيمان به . .
فسكيف بدين يدخل على الناس من طريق الإرهاب والتهديد . . إن النفس
لا تنضج على مثل هذا الدين إلا السكره والمقت والازدراء ، وإنها ستلفظه كما
تلفظ المهدة الطعام الفاسد .

وأمر الإسلام من أوله إلى آخره قائم على ألا إكراه في الدين ، حتى تنفتح
له القلوب وحتى يقع منها موقع الحب ، يخاطبها بخالطة الروح للجدد .

يقول الله سبحانه وتعالى : « لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي . .
فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ، لا انفصام
لها ، والله سميع عليم » (٢) . .

فالسيف لم يستعمل إلا ليفتح الطريق للدعوة حتى تبلغ أسماع الناس ،
وحتى يدفع عنها حملات التضليل أو الإرهاب التي كان يقوم بها أعداء هذه
الدعوة . . من المشركين ومن أهل الكتاب . . وحسبنا أن قلب الصفحات
الأولى من حياة الدعوة لنرى ما لقي النبي والنفر القليل من صحبه السابقين إلى
الإسلام من بلاء ، وما احتملوا من شدائد . . حتى أنهم قد سدت عليهم منافذ
الطرق إلى الهجرة عن الأهل والوطن ، فرأوا بدنيهم وتنفيذاً لهذا الضيق الذي
بلغت به القلوب الحناجر !

وأرى من جانب آخر تلك المفترقات الحبيثة والمزاحرات الدنيئة التي كان

(١) سورة النحل : آية ١٠٦

(٢) - سورة البقرة : آية ٢١٦

يذيعها اليهود في الناس ، ويدبرونها للكيد للإسلام ولنبي الإسلام ، ولمن دخل في الإسلام .

فكان لا بد أن يكون للسيف موقف هنا . . وأين يكون موقفه إذن إذا تخلف عن هذا الموقف ، ليمضي بقافلة الرحمة والخير إلى حيث تنتظرها الإنسانية لتجد فيها زادما العتيد لحياتها ، ولما بعد حياتها ؟ . .

فإذا سلمت القافلة من يد اللصوص وقطاع الطريق ، ووصلت إلى أهلها سالمة فقد آن للسيف أن يغمد . . إلا أن تسول لقطاع الطريق ، وللصوص ، أن يحركوا الفتن ، أو يعينوا عليها .

ولا كراه في الدين . . قد تبين الرشد من الغي . . فهذا هو مبدأ الإسلام الذي تقر به أن رسخت قواعد الدين ، وبعد أن وجدت الدعوة طريقها مفتوحة بيننا وبين الناس . . يجيئون إليها أو تيجي . . إليهم . . على حد سواء .

ودع عنك ما يذهب إليه بعض من يستبد بهم الخناس الكاذب من العلماء والفقهاء الذين يقولون — بغير علم — إن هذه الآية منسوخة بآية أخرى أطلقوا عليها آية السيف ، وهي قوله تعالى :

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين » (١) .
« قاتلوا المشركين كافة » . . هذا المقطع من الآية هو الذي تعلق به من تعلق من الفقهاء والمفسرين ، فجعلوا منه وثيقة إعلان حرب على غير المسلمين ، إعلاناً عاماً ، قائماً أبداً ، لا فرق بين أن يكون ذلك في مقام الدفاع أو العدوان .
وتحصيل هذا المقطع من الآية هذا المعنى هو مما لا تعين عليه دلالة النص ، ولا يلتقي معه المقطع الآخر من الآية نفسها ، كما لا يشهد له الحال الذي نزلت الآية فيه . .

فأولاً : « قاتلوا المشركين كافة » لا يمكن أن يفيد العموم المطلق ، وإلا كان على المسلمين أن يشتبكوا في حرب شاملة مع جميع المشركين على هذه السكرة الأرضية . وإلا كانوا في حكم المخالفين لأمر الله ، الخارجين عن طاعته ، إذا هم لم يفعلوا ذلك وبحققره .

(١) — سورة التوبة : آية ٣٦

ومحاربة المسلمين للمشركين على هذه الصورة أمر مستحيل لا يمكن أن يتحقق في أى ظرف ، وفي أى حال . والتكليف به تكليف بما لا تنسه النفوس ، ولا تقوم له .. وشريعة الإسلام شريعة يسر لا حرج فيها .. « ما جعل عليكم في الدين من حرج » (١) . « يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » (٢) . « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (٣) .

وثانياً : المقطع الثاني من الآية : « كما يقاثلونكم كافة » هو في مقابل « قاتلوا المشركين كافة » .. وهذا يدل على أن المسلمين ليسوا هم البادئين بالحرب ، ولا بقتال جماعى الجماعات المشركين ؛ وإنما المشركون هم المعتدون ، فسكنا اعتدوا في جموع جمعوا لها الشيع والاحلاف ، فعلى المسلمين أن يجمعوا جموعهم لهم وأن يقاثلهم جميعاً .. « قاتلوا المشركين كافة .. كما يقاثلونكم كافة » .

وثالثاً : نزلت هذه الآية في غزوة الاحزاب « الخندق » .. وفيها جمعت قريش جمعوا ، وأحلافها من كل ملة وقبيل .. وبهذا الجمع النفير رمت قريش المسلمين ، فكان لزاماً على المسلمين أن يسكنوا جميعاً جهة واحدة ضد المشركين جميعاً .

وعلى هذا فليست هذه الآية — آية سيف — كما يسمونها . وليست ناسخة للآية المحكمة : « لا إكراه في الدين » ؛ قد تبين الرشد من الغي .

ثم كيف يستساغ أن يقول الله لنبيه « لا إكراه في الدين » .. ويقرره أن الدين لا يكون عن إكراه . ولا يشمر ثمرة طيبة إذا جاء عن هذا الطريق ، ثم يأمره أن يعلن هذه الحرب الجماعية على غير المسلمين أيأ كافوا ، وأين وجدوا ؟ أهذا منطلق يقبل إنسان أن يكون له ، وينسب إليه ؟ فكيف بالحكيم الخبير .. رب العالمين ؟

وكيف يلتقي النبي والمسلمون مع المشركين في حرب عدوانية عامة ، والله سبحانه وتعالى يقول له : « أفأنت تكبره الناس حتى يكفركوا مؤمنين » (٤) ؟ ويقول له :

(٢) سورة البقرة : آية ١٨٥

(٤) سورة يونس : آية ٩٩

(١) سورة الحج : آية ٧٨

(٣) سورة البقرة : آية ٢٨٦

« ليس عليك هدام ، ولكن الله يهدي من يشاء » ويقول له : « عليك البلاغ وعلينا الحساب » .. ويقول له : « لست عليهم بمسيطر » ويقول : « وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ويقول : « إنما أنت منذر .. ولكل قوم هاد » ويقول : « ما على الرسول إلا البلاغ » ويقول : « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم .. فإنهم ظالمون .. » (١) وكثير من الآيات غير هذه تدعو إلى هذا الموقف .. وورودها على هذه الكثرة لتؤكد هذا المعنى ، ولتكون للسياق الذي يحمله النبي والمسلمون معه أو من بعده - أشبه بالمؤشر الذي يضبط وجهة المدفع عند انطلاقه حتى لا يصيب غير الهدف الموجه إليه .

وأكثر من هذا ، فإنه في سورة التوبة ، وهي آخو ما نزل من القرآن وفيها يوضع وسبعمون آية تحدد موقف المسلمين من المشركين .. وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب رافداً به أبا بكر - أمير الموسم في الحج - ليعلم المشركين بها ..

في سورة التوبة الآية التالية : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلأيقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة ففسرهم الله » (٢) . فهذه الآية صريحة صراحة قاطعة بأن الأمر بقتال المشركين ليس أمراً عاماً على إطلاقه في كل زمان وفي كل مكان .. فهو لاء مشركون كانوا يشاركون المسلمين في الحج والطواف بالمسجد الحرام ، وذلك بعد فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا .. وكان أول الناس بالقتال وأحقهم بالقتل هؤلاء المشركين الذين يخاطبون المسلمين ويدشون المسجد الحرام .. ولكن دعوة الإسلام هذه لم تكن للتحريض على قتالهم أو الأمر به ، وإنما هي لإعلانهم بالألا يقربوا المسجد الحرام ، ومتى بعد عامهم هذا !

فما أعظم هذا الدين ، وما أكثر رحماته بالناس .. حتى بالمشركين .. أعدائه السافرين ..

لأنه لم يشأ أن يعجل بطردهم - وهم رجس - ولو شاء لكان في المسلمين القوة

(١) سورة آل عمران: آية ١٢٢ . (٢) سورة التوبة : آية ٢٨ .

المبيرة المبيدة لهم .. ولكنه سمح لهم إن يطفروا بالبیت ، وأن يملأوا حاجتهم منه .. لأنه لم يكن أنذرهم بذلك من قبل ..

وقد جاء بعد هذه الآية قوله تعالى :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » (١) .

ومجىء هذه الآية بعد الآية السابقة بيان كاشف للعلة التي من أجلها ينبغي أن يضحي المسلمون بما كان يعود عليهم في موسم الحج ووفود المشركين إليه ، ومشاركتهم في هذا الرواج المادى الذى يكون عادة في مثل هذا الموسم ..

إن على المسلمين أن يضحيوا بهذا النفع المادى في سبيل تطهير المسجد الحرام من هذا الرجس الذى يطوف به ، مع المشركين الذين يقتربون منه .. وعلى المسلمين أيضاً أن يعملوا على تطهير المجتمع الإنسانى من الشرك والمشركين ، وخاصة فى مواطن الطهر والقداسة ، الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب .. قاتلوهم وحتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ..

فهذه الآية وسابقتها فى مساق واحد .. لقتال المشركين الذين يطوفون بالبیت الحرام بعد أن أنذروا ألا يطوفوا بعد عامهم هذا .. فإن عادوا بعد هذا الإنذار وجدوا المسلمين لهم بمرصد ..

الجهاد .. فى الإسلام :

الحرب شر لا بد منه .. ودواء من تقتضيه طبيعة الحياة الإنسانية لعلاج الأدواء الخبيثة ، والعلل المستعصية .

وفى الشر نجاته حين لا ينجيك إحسان

لأنها سنة الحياة .. سلام وحرب .. وخير وشر .

والإسلام دين الفطرة . وتعاليمه وأحكامه قائمة عليها ، مقدرة بمقدارها .
فما كان على فطرة الناس من أمور فهو دين وشريعة . . وما خرج على الفطرة
وخالف طريقها ، فليس من الدين ، ولا من الشريعة .

وقد أشرنا من قبل إلى أن الحرب التي قامت في ظلال الدعوة الإسلامية
كانت حرباً دفاعية لاهجومية ، وأن غاية هذه الحرب كانت اقتلاع الأشواك ،
ورفع الحواجز التي اصطنعها المشركون في طريق الدعوة ليمسدوا الناس عنها ،
وليحولوا بينهم وبين الاتصال بها ، والتعرف عليها !

وقد عرفنا أيضاً أن آيات القتال التي جاءت في القرآن داعية إلى قتال
المشركين والضرب على أيديهم أين كانوا ، وحيث وجدوا — كانت غايتها تعبئة
شعور المسلمين ، واستثارة حميتهم للذود عن الدعوة وإرهاب أعدائها حتى
لا يجدوا فيها مطمئناً ، وحتى يتجسم الأمر بين الإسلام والكفر ، ويوضع حد للفتن
التي يدفع بها المشركون إلى مواطن المسلمين . . . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ،
ويكون الدين كله لله ، (١) . . . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل
ترهبون به عدو الله وعدوكم ، (٢)

عرفنا هذا ، وقلنا إنه بعد أن قويت شوكة الإسلام ، وانحجر أعداؤه ،
أخذت الآيات القرآنية تنزل بالدعوة إلى إغمداد السيوف التي لم يعد لها مكان بعد
أن أدت مهمتها ، وبلغت غايتها . . فما كان بالإسلام حاجة إلى إراقة ما أريق
من دماء ، لولا أن هذه الدماء كانت إراقتها أمراً تدعو إليه المصلحة العامة لسلامة
الإنسانية وخيرها . . لأنها دماء فاسدة في الكيان الإنساني ، وفي إراقتها شفاء من
هذا الصداع الذي يزعج راحة هذا الكيان وسلامته . . لأنها أشبه بعملية «الفصد»
تذهب ببعض الدم وإن كان الدم ينبوع الحياة ، وسرها الممسك بها :

وكذلك الجسوم وهي مراض بعض أعضائها لبعض وقام

هذا هو صميم الإسلام في تشريعه للقتال : « لا عدوان إلا على الظالمين »
فما جاء الإسلام ليقم بين الناس العداوة ، وليوقد بينهم نار الحرب . . وما جاء
عقيدة سماوية لذلك ، وإنما جاء ليزرع الود ، والمحبة ، وليؤلف بين القلوب

المتنافرة وليجمع بين الشيع المتباعدة ، ولتبت العصيات التي تولد الحقد والضغينة بين الناس والناس .

والمجال التطبيقي لدعوة الإسلام أصدق شاهد لهذا ، فقد انضوى تحت لواء الإسلام السادة والعبيد ، والأشراف والسوقة ، ووقف الناس جميعاً في مقام واحد ، ليس لأحد فيه فضل على أحد إلا بالتقوى .

فما اخصت الدعوة قريشاً بشيء ، ولا ميزت العرب بشيء ! لأنها دعوة الله لعباده جميعاً ، وهي رحمة للناس جميعاً . . . كالشمس ، والهواء . لا يحجبان عن أحد ، ولا يؤثران بلداً عن بلد !

وأيها الناس : إني رسول الله إليكم جميعاً ، . . . ليس للغرب ولا للعجم ، وإنما لهم جميعاً .

وليس بين المسلم — في شريعة الإسلام — وبين غير المسلم عداوة . . . فهما إن فرق بينهما الدين ، فقد جمعتهما أوامر الإنسانية ! وهي أوامر يمكن أن يعيش الناس فيها على مودة ووافق ، فإن دعوة الإسلام — في صميمها ليست إلا توثيقاً لهذه الصلات الإنسانية ، وإقامة قواعدها على أسس ثابتة ، ودعائم متينة ، تمسك بميزان العدل والحق والخير بين الناس . فلا يضطرب ولا ينحرف !

ولا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوك في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . . . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوك في الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ، (١) !

فأي سماحة بعد هذه السماحة ، وأي دين مثل هذا الدين في سماحته تلك ؟ أو أي مذهب مثل هذا المذهب يسع الأولياء والأعداء ، ويبسط لهم يده جميعاً ؟ أي دين أو أي مذهب رفع هذه الحواجز القائمة بين الناس من مختلف الأجناس ، والألوان ، والعقائد ، والألسنة ، والمشارب ، وجمعهم على

مائدة الحياة ، في مودة ووفاق ، كما فعل الإسلام بالمجتمع الإسلامى فى المجتمع الإنسانى ؟ .

ودع مايتحدث به الغربيون من تسامح الديمقراطية وإنسانيتها ، فإنها لا تعدو أن تكون أحاديث منمقة مزوقة ، ينكشف زيفها ، ويبطل عملها ، عند التطبيق ، وعند ملامسة الواقع الذى يعيش فيه الناس .

إن العصبية اللون ، والجنس ، وللعقيدة ، مازال يملأ نفوس الغربيين ، ويتحكم فى تصرفاتهم ، فإذا الناس عندهم بيض وسود . . وإذا العالم فى نظرهم غرب وشرق ، وإذا الشعوب فى حسابهم مسيحيون ومسلمون !

ولو أخذنا نخصى الشواهد ، ونضرب الأمثال لهذا ، لاستولى ذلك على زمام المواقف منا ، وخرج بنا عن موضوعنا الذى نعالجه .

ولكن حسبن أن ننظر إلى مأساة فلسطين نظرة خاطفة . . فى هذه النظرة السريعة ينكشف تعصب الغرب ، ويفضح زيف دعواه التى يدعيها عن مبادئه الإنسانية الديمقراطية . .

فلو كان الفلسطينيون غير عرب . . أكان يلقى بهم فى العراق يموتون جوعاً ، وبرداً ومرضاً ؟

وهل شهد التاريخ أمة تجلى عن وطنها فى القرن العشرين ، وعلى مرأى ومسمع من جمعية الأمم المتحدة ، بل وبتدبير الأمم المتحدة التى يسيطر عليها الغرب ، ويوجه سير الأمور فيها ؟

وهل كانت الهدنة الأولى بين العرب واليهود فى سنة ١٩٤٨ وقد أوشك العرب أن يدقوا بجيوشهم تل أبيب ، هل كانت هذه الهدنة التى دعت إليها الأمم المتحدة إلا الخنجر المسموم الذى أغمد فى صدر الشعب العربى لينزع تلك القطعة الغالية من الأرض المقدسة لتكون مرتعاً خصباً لعصابة من جراثيم اليهود ، تستوطن فلسطين ، وتخرج منها أهلها مشردين ، مجردين من كل ماكان لهم من مال ومتاع وديار !

وقد عاشت هذه المأساة ، وسلخت من عمرها قرابة خمسة عشر عاماً إلى يومنا هذا ولا ندرى إلى متى تعيش . . . ولكن الذى ندرىه ويسجله التاريخ أن العالم الغربى الذى يزعم لنفسه الوصاية على العالم باسم الإنسانية والديمقراطية قد استساغ هذه المأساة ، وكأنها أمر مألوف لم يدخل على العالم بما يزعج ضميره ، ويؤذى وجدانه !

ولو كان أبناء فلسطين غير عرب لما استساغ الغرب هذا المسير الذى صاروا إليه . فقد كانت الحرب العالمية الأخيرة — مثلاً — بما وقع فيها من أحداث قادرة على أن تنبذ أماً وتمحو شعوباً وتجلبها عن أوطانها فى الميدان الأوربى ، ولكنها مع ذلك احتفظت لكل أمة بأهلها وبأرضها ، وبعضها لا يعدو أن يكون فى صغره قرية من القرى « كإمارة موناكو » مثلاً ؟ ولم ؟ لأن أبناء أوربا — مهما يكن الأمر بينهم — لا يمكن أن يسرقوا ، وأن يباعوا فى الحياة بيع العبيد . . .

أما غيرهم من أمم الشرق فلا عليها أن تطرد ، وتشرد ، وتهيم على وجهها . ومأساة أبناء فلسطين لم تقع على الصورة التى وقعت بها لأنهم عرب وحسب ، ولكنهم عرب ومسلمون معاً . . . وهذا مما ثبت أقدام المأساة ، وأكدها ، ويمكن لها . . . فإن كون الشعب الفلسطينى شعباً مسلماً هو جريئة غليظة ، إلى كونه شعباً عربياً . . . لأن الغرب على رغم لادينيته اليوم وعلى رغم دعوى التسامح التى يدعيها حيال المعتقدات الدينية ، والسياسية ، والاجتماعية وغيرها ، فإنه مازال يحمل للإسلام نفوع خاص دون سائر المعتقدات والمذاهب — مازال يحمل قدراً كبيراً من البغض والكراهية للإسلام والمسلمين ، وإن الحرب الصليبية التى وجهها الغرب إلى الإسلام منذ تسع مئة عام وإن سكن لها فيها فإنها ما تزال تخفى تحت رمادها جمرأ يتضرم حنقاً وغيظاً على الإسلام ، ومازال يرمى بين آونة وأخرى بشرر وشر ينال من الإسلام ومواطنه ما ينال من ضرر وأذى .

وارجع البصر إلى مواطن الإسلام خلال موجة الاستعمار التى اجتاحت قارتى آسيا وأفريقيا خلال القرنين الماضى والحاضر تجد أن ما وقع على الإسلام ومواطنه من آثار الاستعمار وسيئاته أضعاف ما وقع على الشعوب غير الإسلامية

التي أصيبت به ! فإذا كان ما وقع عليه الاستعمار أمة ينسب أهلها إلى المسيحية
كأن يد الاستعمار رفيقة عليها رحيمة بها ، بل إن الاستعمار لا يجد له مقاماً
فيها ، فسرعان ما يجلو عنها وينسحب منها إلى أقطار إسلامية جديدة به !
الحبشة - مثلاً - أمة للمسيحية مكان فيها . فما حدث لها ؟

إنها الدولة الوحيدة بين دول أفريقية هي التي سلمت من الاستعمار ومن
جرائمه ، فلم يدخلها في حسابها ، ولم يضمها إلى قائمة الأمم التي يتعامل معها ؟
ولم ؟ ألا أنها بما يزهد فيه الاستعمار لقلّة مواردها ، وضآلة شأنها ؟ كلا ، فإن
فيها موارد كثيرة ، وخيرات موفورة ، ومجالات للاستغلال ، ومواقع
« استراتيجية » لها شأنها في الحرب ، وفي السلم .

فإذا إذن ؟ إنما في حساب الدول المسيحية ! وهذا وحده كاف لأن يمر لها
عن موكب العيد الذي ينتظم الشعوب المستعمرة .

لقد كانت قبيل الحرب العالمية الأخيرة حرب بين إيطاليا والحبشة . . وفيها
استولت إيطاليا الفاشية ، التي كانت تنفتح فيها في شهية محمومة إلى التوسع
والاستعمار . .

وكانت هذه فرصة لإيطاليا الوحيدة للتوسع والاستعمار الذي تنشد
ذلك ، ولم يكن لها فرصة غيرها .

فماذا حدث ؟

الذي حدث هو ما كان ينبغي أن يحدث لأية دولة « مسيحية » غابت على
أمرها في مجال الحرب ، ووطئت أرضها حيرش أعدائها .

لقد طلبت عصبة الأمم ، - وكانت هي المنظمة الدولية إذ ذاك - طلبت
إلى إيطاليا أن تنسحب من الحبشة .

فلما تلمسأت فرضت عليها « عصبة الأمم » هذه حصاراً اقتصادياً ، وطلبت
إلى جميع الأمم المتمثلة فيها أن تنفذ هذا القرار ، وألا تتعامل مع إيطاليا ، حتى
تضاع لطلب العصبة ، وتجلو عن الحبشة . . وقد كان ! فلم تحتمل إيطاليا مقاطعة
العالم لها ، فجالت عن الحبشة بعد بضعة أشهر من احتلالها .

أو لو كانت الحبشة دولة إسلامية ، — دولياً — وهي في حقيقةها دولة إسلامية لأن غالبية أهلها من المسلمين ، ولكن ضعف أحوال المسلمين قد مكنت للناصر المسيحية القليلة أن تسود وأن تحكم ! لو كانت الحبشة دولة إسلامية دولياً أكان جلاء إيطاليا يحدث . . وعلى تلك الصورة ؟

ولماذا إذن لم تجل الجيوش الإنجليزية عن مصر إلا بعد نحو ثمانين عاماً ؟ ولماذا لم تجل فرنسا عن الجزائر إلا بعد قرن وثلاث قرن ولا بعد أن استتبسل أهلها — وبعد أن استتبسوا — فدخلوا في صراع غير متكافئ مع المستعمرين وضجوا بأكثر من مليون شهيد ؟

ومثل آخر أوضح من كل هذا وأكثر دلالة على ما عند الغرب من حقد دفين على الإسلام الدولة العثمانية . . كانت تضم تحت سلطانها شعوباً إسلامية وغير إسلامية .. فإذا حدث عندهما وهنت قوة العثمانيين ، ولانت شوكتهم !

لقد أقام الغرب حرباً صليبية جديدة على الدولة العثمانية فنشبت حرب «البلقان» التي حشدت بها أوربا قوى كثيرة — ظاهرة ومستترة — في ميادين الحرب ، وفي مؤتمرات — أو مؤامرات — الصلح ، وانتهى ذلك الدور بقطع الاوصال الأوربية من جسم الدولة العثمانية . . فانشطت بلاد البلقان كلها ، وخرجت من الدولة العثمانية : — اليونان ، ورومانيا ، وبلغاريا ، الصرب ، ومقدونية الأوربية وغيرها !

أهو موقف إنساني وقفته أوربا مع الدول المغلوبة على أمرها والخاضعة لسلطان العثمانيين ؟ قد كان ذلك يمكن أن يسجله التاريخ ! ولكن ماذا يقول في الوجه المقابل لهذا الموقف ؟

لقد هزمت تركيا مع حليفاتها ألمانيا في الحرب العالمية الأولى . . وكالحال مع كل مهزوم فرضت عليها عقوبات . . وكان من تلك العقوبات أن تنسأخ عنها الدول الباقية تحت سلطانها ، وهي دول إسلامية كلها ! وكان المنطق يقضى — كما حدث في الولايات التي كانت تابعة لتركيا من القطاع الأوربي ، كان المنطق يقضى أن تحكم كل دولة من الدول الإسلامية نفسها بنفسها . .

ولكن الذى حدث كان على غير هذا ! لا لعل إلا أن هذه الدول تدين
بالإسلام ، وتلك جريمة لا تغسل أوضارها إلا بالاستعمار !!
ولقد قسمت التركة على الغرب المستعمر ، فهو الوارث ، الشرعى ، لتلك
التركة . .

فذهبت فرنسا بالشام ، وجعلت منه دولتين : سوريا ولبنان .
وضعت إنجلترا يدها على العراق ، وشرق الأردن ، وأقامت فى الأول
حكما ملكيا وأقامت فى الثانية أميرا على إمارة — وكلا المملك والمؤمر لا يملك ،
ولا يأمر .

أما فلسطين — الجزء الباقى من بلاد الشام — فقد جعلت إنجلترا وصية عليه
وصاية انتهت بتسليم فلسطين لليهود !!
وهكذا تم توزيع الأسلاب والغنائم .
أفرايت إذن كيف كان نضيج هذه الضغائن التى يحملها الغرب للإسلام
والمسلمين ؟

على أننا لسنا فى مقام الكشف عن جنيات الغرب وآثامه فيما جر على البلاد
الإسلامية من مصائب ومحن . . ولكننا هنا لإزاء مقايضة بين مبادئ الإسلام فى
الأخوة والمحبة والبر بالناس جميعا وبين دعوى الغرب فى ظل المدنية الحديثة لتلك
المبادئ الكريمة ، والتهم التى يرمى بها الإسلام من أنه دين حرب وعداوة يثيرها
أتباعه فى وجه من يخالفهم ولا يدخل فى دينهم !

ونسأل عن السلام الذى نعم به العالم فى ظل المدنية الحديثة فلانجد إلا حروبا
قائمة فى كل مكان ، تتجمع شيئا فشيئا حتى تكون حربا عالمية يصلى العالم كله
بنارها ، ويحترق فى لهيبها . .

فى خلال النصف الأول من هذا القرن قامت حربان عالميتان بسبب أطماع
الغرب ومدنية الغرب . . وبسبب هذه الأطماع لم يبت العالم ليلة واحدة دون أن
تسكون هناك حرب فى جزء من أجزائه . . هذا إلى جانب الحرب « الباردة » التى
تهدد العالم فى كل لحظة بحرب عالمية ثالثة ، تنطلق فيها الصواريخ محملة بالقنابل
الذرية والهيدروجينية . وحسبك أن تتصور وقوع هذه الحرب ، لتعرف المصير

الذى يصير إليه العالم . . إنه الفناء الذى لا يبقى على صورة من صور الحياة على هذه الأرض .

فأين هذا من دعوة الإسلام إلى السلام ، دعوة مخلصة ، تنبع من أعماق حقيقة من كل مبادئه ..

فكل ما اشتملت عليه شريعة الإسلام من مبادئ إنما غايته تقويم الإنسانية كلها فى أفرادها وجماعاتها ، حتى يقوم بين الناس ميزان العدل ، فلا عدوان على الضعفاء ، ولا اعتماد على أموال الناس ودمائهم وأعراضهم . . فنخرج عن هذا الطريق القويم وجد العقاب العاجل الذى يردعه . إلى جانب العقاب الآخرى الذى ينتظره .

لقد أقام الإسلام من مبادئه سياجاً متيناً يحمى الناس - كل الناس - من الناس - كل الناس . . إن المجتمع المثالى الذى أقامه الإسلام بمبادئه ليس مجتمعاً مطلقاً على نفسه بما فيه من خير وشر ، وإنما هو مجتمع أشبه بالشجرة المثمرة الطيبة ينتفع الناس بثمرها . . فنقاته ثمرها فلن يفوته الانتفاع بظلها . . ومن حرم من هذا وذاك فلن يحرم النظر منها إلى منظر معجب يسر الناظرين .

فما عند المسلم من مبادئ دينه وأحكام شريعته لا يتعامل به فى المجتمع الإسلامى وحده وإنما يتعامل به مع الناس جميعاً . . مسلمين وغير مسلمين . .

فالمسلم شخصية واحدة . . لا تنقسم إلى شخصين أو أشخاص ، فيكون لها مع المسلم حال ، ومع غير المسلم حال أو أحوال . . كلا .

فإذا أمر الإسلام بالوفاء بالعهد ، فإنما هو وفاء واحد لكل الناس وفى جميع الأحوال . قال تعالى : « وأوفوا بعهدهم الله إذا عاهدتم » . . ويقول نبي الإسلام : « من أمن رجلاً على نفسه فقتله ، فأنا بريء من القاتل ، وإن كان المقتول كافراً ، هو قول واحد للناس جميعاً ، وتشريع واحد ينزل عليه الناس جميعاً .

وإذا دعا الإسلام إلى العدل وأمر به ، فإنما هو عدل واحد ، لكل الناس وفى جميع الأحوال . .

يقول الله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم

بين الناس أن تحكوا بالعدل، (١) . . بين الناس عامة ، وليس بين المسلمين وحدهم؟
ويقول سبحانه وتعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو
أقرب للتقوى » (٢) .

هكذا كل مبدأ كريم ، وخلق قويم جاء به الإسلام ، وكل ما جاء به كريم
وقويم إنما هو خير عام يعود فضله على القريب والبعيد على المسلمين . وغير
المسلمين جميعاً .

كالبحر يلقي للقريب جواهره منه ، ويرسل للبعيد سحائبه

• • •

عودة على بدء :

قد يشير دعاة التشجيع على الإسلام ، والتشويه لحقائقه اعتراضات على هذا
القول فيلقونك بعدد من الأسئلة الخبيثة المأكرة . . وكأنهم يحلون جوابها
ولا يعرفون وجه الحق فيها . .

فتراهم يقولون مثلاً : لماذا يدفع الإسلام بأتباعه زمرأ إلى ميادين الحرب
ويصور لهم الموت في ساحة القتال بصورة شبيهة ، يحرصون على الفوز بها : حتى
ليتدافعون إلى ساحة القتال تدافع الإبل العطشى على موارد الماء ؟

ولماذا يمجّد الإسلام البطولة ، والفروسية على هذا النحو الذى يمثل حياة
الفروسية في العصور الوسطى ؟

أذلك مما يعده الإسلام لقيام السلام في الحياة ؟ وهل سلام مع هذه النفوس
المعبأة للقتال ، والموطنة على الموت للانتقال في رحلة سعيدة إلى عالم الخلود ؟ إن
مثل هذه النفوس إن لم تجد باباً مفتوحاً للقتال عملت بكنائسها على فتحه
أو تحطيمه ، لتجد طلبتها ، ولتحقق الأمنية التي تحرص عليها !!

وقد يبدو لهذا القول ظاهر مقبول إذ أنه يجرى على مألوف الحياة التي لا تقوم
على دين ، ولا ترجع إلى شريعة إنسانية كشرعية الإسلام

« فالنازية ، حين عبأت شعور الشعب الألماني للحرب ، ومآلات رهوس الشباب بهذا الهوس المسعور باستعلاء الشعب الألماني وامتياز عنصريه ، وحقه في السيادة على العالم - حين عملت النازية على هذا وحققتة اندفع الشعب الألماني نحو الحرب بكل قواه ، وكان من هذا أن قامت الحرب العالمية الأخيرة !

وشئ مثل هذا كان من « الفاشية » الإيطالية التي أرادت أن تحذو حذو النازية الألمانية وأن تجري معها .

وشتان بين ماصنع الإسلام في أتباعه ، وبين تلك النزوات التي دعت إليها النازية الفاشية وما على شاكلتهما من دعوات .

وشتان بين إنسان تنمى فيه ملكاته الإنسانية ، فتملأ كيانه قوة ، وعزماً كما تملأ عقله حكمة ورشداً ، وتملأ قلبه مودة ورحمة .. وبين إنسان تنفذه بطباع الحيوانات المفترسة . وتستنبت له مخالب الأسود وختل الذئاب ، ومكر الثعالب !

فالإسلام حين دعا إلى القوة ، وحين مجد الأقوياء ، فإنما لتكون هذه القوة قوة عاملة لحساب الخير ، قائمة على ميزان الحق والعدل .. قوة يحكمها خلق ، ويعصمها دين ، وإلا كانت غير محسوبة على الإسلام ، ولا عاملة تحت لوائه .

القوة في ذاتها كمال مطلوب ، وعدم بلوغها نقص وقصور .. واسكنها تسكون عيباً حين تتحول إلى أداة شر ، وتستحيل إلى إعصار مدمر .

وقد أراد الإسلام لأتباعه القوة المادية والمعنوية معاً .. قوة الروح ، وقوة الجسد ، لا ليكونوا نموراً وأسوداً يأكلون الناس ، وإنما ليكونوا أعزاء ، أقوياء ، تجد مبادئ الإسلام في كنفهم حمى كريماً تنفتح فيه أزهارها ، وتضج ثمارها ، أشبه بالأرض الطيبة التي تشتمل على عناصر القوة والخصب . فالنبت الطيب لا يؤق ما عنده إلا في أرض طيبة .. فإذا ضمت أرض سبعة فكدة ذبل ومات .. « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً » (١) .

فالقوة حين تضبطها قوى الخير والعدل تكون رحمة وبركة على نفسها وعلى من حولها ، أما حين تنعزل عن هذه الضوابط أو تتفلات منها ، فإنها تكون شراً وبلاءً ، على نفسها ، وعلى من يتصل بها ، أو يدنو منها !

والقوة التي يزكها الإسلام ، ويحث أتباعه على تحصيلها هي هذه القوة الملاجئة للجرام العقل والحكمة ، والحب والرحمة . . قوة مستبصرة ، تعرف طريقها ، وتوجه إلى غاياته ، ولهذا لم يحمد القرآن القوة إلا ومعها الأمانة . . الأمانة التي تمسك بالقوة أن تجور على حق ، أو تعتدى على ضعيف . . قال تعالى على لسان ابنة نبي الله شعيب في مرسى عليهما السلام : ديا أوت استأجره . . إن خير من استأجرت القوى الأمين (١) . قوة ترفنها أمانة . . أمانة هي اليد الممسكة بزمام القوة أن تميل إلى ظلم أو فساد في الأرض ، أو بغي أو عدوان بغير حق !

إن الإسلام ليدعو كل مسلم أن يكون قوياً ، ممسكاً من القوى بأقوى أسبابها ، بمحصلاً لأكرم جواهرها . . قوة عامة شاملة . . قوة في الروح ، وقوة في الجسد . . وقوة في الخلق . وقوة في العلم . . قوة في كل جانب من جوانب الحياة ، وفي كل كنف من أكفافها . .

لأنه حين يحصلها المسلم تكون . . طاقة ، كبيرة من القوى ، يشتمل عليها كيانه ، ويدفع بها في مجالات الحياة فتعلم يديه من كل خير فيها . .

فإذا كانت داعية الحرب خف إلى ميدانها منطلقاً كالريح المرسلة ، فإذا واجه الأعداء كان إصمصاراً عانياً لا يريم مكانه حتى تقتل أو يقتل !

إن الإسلام كان يعطى كل حال حالها . . وحال الحرب ليست لهو ولا لعباً . . إنها الحرب . . وليس لمن يشهدها إلا أن يكون على حال من حالين : قاتل أو مقتول . .

فهل ترى يدع الإسلام أتباعه أن يكونوا في عداد القتلى ؟ فمن إذن لجهة الخير يحمياها ؟ ومن الدعوة السماء يقوم عليها ؟

وهل من شريعة العدل أن يقتل دعاة الإصلاح ويسلم الطغاة والمفسدون ؟
إن ذلك تأباه الحكمة والعدل !

فليكن إذن ما يجب أن يكون . . وهو أن يلقي المسلمون أعداءهم في المعركة وهم مزودون بالقوى النفسية والمادية ، ليكونوا أقدر على أن يصيبوا من أن يصابوا . . واستمع إلى قوله تعالى : « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال : إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا . . بأنهم قوم لا يفقهون » (١) . . والآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا ألفاً ، وإن يكن منكم منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين ، (٢) .

فإنك تجد في هاتين الآيتين الكريمتين كثيراً من مواقع العجب والدهش :
فن ذلك أن هذه المقابلة النسبية بين قوة المسلم وبين قوة خصمه في الآية الأولى تنبئ فيما تنبئ عنه أن المسلمين في أول أمرهم كانوا قلة . . وهم — فوق هذا — جهة الإسلام والسابقون إلى غايات الخير من الناس — ومن أجل هذا كان الحرص عليهم أشد ، والضمن بهم ألزم . . فلا يقتل أحد منهم إلا في مقابل عشرة يقتلون من الجهة المعادية !

ومن ذلك أيضاً أن الخير لا يوزن بالشر . . والحسن لا يباع بالسيئ . فإن كان ذلك أمراً لا بد منه — وهو أمر لا بد منه — فليكن الطيب الواحد في مقابل عشرة ؟ !

ولهالك تذكر هنا تدبير الإسلام في الحسنات والسيئات . فإن الحسنات تذهب بعشر سيئات . . وإن الحسنات يذهبن السيئات ، (٣) . وهذا وجه يمكن أن نرى فيه المعنى الذي أشرنا إليه في الآية السابقة من تقويم المسلم بعشرة من مقاتليه في ميدان الحرب ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، .

« والفقه ، الذي ختمت به الآية وجعلته صفة مثنية عن مقاتلي المؤمنين . هو الفقه الذي يمنح المرء وعياً مبصراً ، مستقيماً مع الفطرة ، فيولد في كيانه إيماناً

(١) سورة الأنفال: آية ٦٥ (٢) سورة الأنفال: آية ٦٦ (٣) سورة هود: آية ١١٤

راسخاً بالخير والعدل . . وكراهية بالفة للعوج والانحراف . . فإذا قاتل قاتل عن عقيدة واضحة بيّنة . . وليس كذلك غير المؤمن . . إن فؤاده فارغ من كل معنى من معاني الخير والحق ، وإنما تدور في فؤاده خيالات من أوهام وأباطيل لا يجد منها في مجال القتال مداد يده بالصبر ويلقى إليه بالعزم . وهذا المعنى ذاته نجده في المنافق . . فإن أبرز صفاته ألا صفة له . . إنه أشبه بالحرباء ، يتلون كما تقولون ويدور كما تدور . . ولهذا كان وصف المنافقين الذي وصفهم الله به هو أنهم لا يفقهون : قال تعالى : ذلك بأنهم آمنوا ، ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، (١) .

فالفرق بين المسلم وبين غير المسلم هو هذا : الفقه ، الذي عبأ به الإسلام نفوس المسلمين ، بما كشف لهم من معالم الخير . وما أراهم من آيات الحق . وانظر كيف تفعل أجهزة الدعاية في نفوس المقاتلين ، وكيف تقدم إلى جانب العتاد والسلاح ، عتاداً أقوى من أى عتاد ، وسلاحاً أمتنى من كل سلاح . إن غاية هذه الأجهزة هي تعبئة النفوس ، بما تلقى إليها من التصورات ، وما تحمل إليها من المعاني ؛ التي تزيدها معرفة وفقهاً — إن حقاً ، وإن كذباً — بموقفها من عدوها هذا الموقف الجائر ، الظالم . . أبدأ !!

وفرق كبير بين قضية الحق التي يدافع عنها الإسلام ويجمع عليها الانصار ، ويبدل من أجلها المهبج والأرواح ، وبين قضايا محتلطة ظاهرها حق منترى ، وباطنها أحقاد وأطماع ، ونزوات وشهوات .

وإذ لم يعرف أعداء الإسلام من الإسلام إلا جانب السيف الذي قام بين يدي الحق ؛ يرد عنه هجمات المبطلين ، ومضلات المضللين — فإننا نرى جانب الرحمة التي حملها الإسلام إلى الناس ، وحمل معها السيف الذي يحميها ، ويثبت مغارسها في الأرض .

* * *

(١) - سورة المنافقون : آية ٣ .

(٢٦ - النبي محمد)

الباب الثاني عشر

نبي الرحمة

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

- ١ -

النبوة :

النبوة رحمة ورحمة حيث كانت ، وخير غدق حيث أصابت . لأنها تحمل كلمة السماء إلى الناس محملة برحمة الله لعباده ، موقرة بالخير لمن اتصل بها ، وفتح قلبه لها .

فما بزغ في الناس نبي من أنبياء الله أو رسول من رسله ، إلا والناس منه في معرض الرحمة ، وفي عارض ممطر بالرفد والخير العميم .

فبين يدي كل نبي نور يضيء دنيا الناس ، ويكشف لهم معالم الطريق إلى الخير والحق . . وعلى لسان كل نبي كلمات ربانية ترسم للناس مناهج العمل لغايات الخير والسعادة . . يقول الله سبحانه وتعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » (١) . . ويقول سبحانه : « رسلنا مبشرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » (٢) ويقول سبحانه : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » (٣) . . فأنبياؤه الله ورسله هم حجة على عباده . . لأنهم يحملون إلى الناس « أطواق النجاة » ، حين تضطرب بهم سفينة الحياة ، وحين تنطمس أمامهم معالم الطريق إلى شطآن الأمن والسلامة ! فن استجاب لهم ، وتناول ما في أيديهم من أضواء الحق ، وأطواق النجاة ،

(٢) سورة النساء: آية ١٦٥ .

(١) سورة الحديد: آية ٢٥

(٣) سورة الإسراء: آية ١٥

سلم ونجا ، وكان من الفائزين برحمة الله ورضوانه . . ومن أبى واستكبر أن يمد يده إلى هذا الحبل الممدود لإنجائه ، واستنقاذه من الهلاك المطلق عليه ، فلا يلو من إلا نفسه ؟ . . من اهتدى فيما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإيما يضل عليها . . (١)

إن أنبياء الله ورسله هم رحمة خالصة ، لا أجر عليها ، ولا من معها . لإنهم من الله ، وإلى عباد الله ، ويا قوم لا أسألكم عليه أجراً ، إن أجرى إلا على الله . (٢)

فما حملت دعوة نبي ، أو رسالة رسول شيئاً من شأنه أن يضيق به الناس أو يشقوا به . لإنها دعوة تحمل إلى الناس الحياة لموات القلوب ، والهدى لضلالات العقول ، كما يحمل النيث الحياة لصنوف الأحياء ، أو مامن شأنه أن يكون في الأحياء : أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله الظلمات ليس بخارج منها ؟ ، (٣)

فهم . . قد يضيق بعض المنحرفين ، والمقسلطين بدعوات الأنبياء لأن انحرافهم لا يستقيم معها ، ولأن تسلطهم لا يحيا في ظلها . . إذ هي دعوة من شأنها أن تقيم العوج ، وتقضى على التسلط ، وتقيم بين الناس موازين المساواة والعدل .

وهن أجل هذا كان الذين يعادون الأنبياء ، ويعسدون الناس عنهم هم دائماً أصحاب السلطان ، وأرباب الجاه والغنى ، إذ يحسبون في هذا الذى تحمله الدعوة النبوية إلى الناس من عدل وإخاء — تضيقاً لما معهم من سلطان وجاه ، وذهاباً لما بين أيديهم من مال وحطام . . أو هو أقل تقدير لزجاج لما هم فيه من حال رضوا بها وأطمأنوا إليها . .

ولو عقل هؤلاء لعرفوا أن النبي لا ينزع سلطانهم ليضعه في يده ، ولا يأخذ ما لهم ليضيفه إلى نفسه . . فما جاء رسل الله لطلب جاه أو سلطان ، وما عملوا على جمع المال ، ولا تشييد القصور والاستكثار من الخشم والخدم . . لإن دعوة النبي وجهاده وكفاحه من أجل الناس ، ولحساب الحق والعدل ، وليس له من شئ إلا ما فضل الله به عليه من منزلة كريمة عنده ، وثواب طيب لما حمل من عبء الدعوة . ولما لقي في سبيلها من عنت وأذى : . . إن أجرى إلا على الله ،

ولو عقل هؤلاء الذين يعادون الأنبياء ، لعرفوا أن دعوتهم هي دعوة الحق والإحسان ، والعدل والبر ، وأنها لا تتعرض للسلطان العادل ، ولا تقف في وجهه الغنى ، إذا كان فيه حق الله وحق السائل والمحروم .

قد يصاب بعض الناس من الشمس بضربة . أو من الماء بفضة . . ومع هذا فإن الشمس هي سر الحياة ، والماء هو أصلها وممسكها . . فالتطلع الشمس في كل مكان وليجر الماء في كل صوب ، وإن أودى بالشمس خلق ، وغرق أو غص بالماء خلق ، فإن هذا الذي يذهب هو ضريبة الحياة للأحياء .

وكذلك دعوات الأنبياء قد تضيق بها بعض النفوس ، وقد يهلك بها بعض الناس ، ولكن ذلك لا ينقص من قدرها ، ولا ينال من جلالها ، فإن الذي يذهب ويعطب لا يعد شيئاً إلى جانب الذي يبقى ويسلم .

الرسالة المحمدية :

وإذا كانت دعوات الأنبياء رحمت وبركات على الناس في أجيالها وأوطانها ، فإن رسالة محمد ، رحمة شاملة ، وبركة عامة ، للناس جميعاً ، من كل أمة ، ومن كل جنس ، على مدى الأيام والدهور .

إنها رسالة لا تخص أمة من الأمم ، ولا تنتهي عند زمن من الأزمان . . فهي ليست للعرب وحدهم ، وليست لعصر النبوة وحده . . فما العرب فيها إلا لسانها وترجمانها ، وما عصر النبوة إلا مطلعها ، ومجلى أنوارها . . ثم هي بعد ذلك رحمة مشاعة في الناس كلهم ، وحظ مقسوم لجميع الأزمان ؛ « قل يأيتها الناس : إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله . . النبي الأبي . . الذي يؤمن بالله وكلماته . . » (١)

ومن أول آية نزلت من القرآن شعر النبي أنه رسول الله إلى الناس كافة ، إذ كانت الآية شارحة لقضية الإنسانية ، من حيث أنها مخلوقة من معدن واحد ،

فليس لأمة ، ولا لشعب فضيل أو امتياز في الأصل والنشأة . . ولا في الدم أو الموطن ، ولا في الزمن السابق أو اللاحق .

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق » (١) .

فهذه أول آية يتلقاها الرسول من السماء ، وتفتتح بها رسالته : الله هو خالق كل شيء . . والإنسان هو من مخلوقات الله . . قد خلق من علق !

هذا هو عنوان الرسالة المحمدية : « الإنسان ، . . الإنسان مطلقاً ، في أى مكان ، وفي أى زمان !

والقرآن الكريم كله ، في أحكامه وتشريعاته ، وفي أوامره ونواهيه ، وفي نصائحه ووصاياه — يخاطب الناس جميعاً ، ويدعو الناس جميعاً . . بهذه الكلمة العامة الشاملة : « يا أيها الناس » أو « يا بني آدم » أو « يا أيها الإنسان » ، ولم يختص العرب أو قريشاً بخطاب أبدأ ، فلم يقل يا أيها العرب ، أو يا بني إسماعيل ، أو يا أبناء عدنان وقحطان . . كما كان ذلك شأن أنبياء الله ورسله في أقوامهم ، ومن أرسلوا إليهم . . فكان كل نبي يدعو قومه خاصة كما حكى القرآن الكريم ذلك في قصص الأنبياء : « إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم ، قال يا قوم إني لكم نذير مبين » (٢) .

« وإلى مدين أخاهم شعيباً .. قال يا قوم . . . » (٣) .

« وإلى عاد أخاهم هوداً .. قال يا قوم . . . » (٤) .

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً .. قال يا قوم . . . » (٥) .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، وذكّرهم بأيام الله . . » (٦) .

(١) سورة العلق: آية ١

(٣) سورة هود: آية ٨٤

(٥) سورة هود: آية ٦١

(٢) سورة نوح: آية ١

(٤) سورة هود: آية ٥٠

(٦) سورة إبراهيم: آية ٥

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوني ، وقد تعبدون أنى رسول الله إليكم ؟ » (١)

« وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » (٢) .
وهكذا كانت دعوات الأنبياء في أقوامهم خاصة ... ولم تتعد أقوامهم ، ولم تتجاوز حدود أوطانهم .

وأكثر من هذا .. فالذى يقرأ التوراة والإنجيل — على ما هما عليه الآن — يجد فيهما حرصاً شديداً على اجتياز الرسالة الموسوية ، والرسالة العيسوية عن الناس ، وقصرها على بني إسرائيل خاصة .. فلم يكن لهاتين الرسالتين متوجهة لغير بني إسرائيل ، ولم يكن لهدى النبيين الكريمين — موسى وعيسى — شأن ببداية أحد من الناس غير شعبيهما الذى بعثا إليه .. والقرآن الكريم يذكر ما بين موسى وفرعون فيحدد الغاية التى من أجلها أرسل موسى إلى فرعون . وهى تخليص بني إسرائيل من قبضته ، وإخراجهم من تحت سلطانه ، الذى بسط عليهم فيه يد القهر والاذلال « يقتل أبناءهم ، ويستحي نساءهم » . ولم يكن لموسى دعوة مباشرة إلى فرعون ليؤمن بالله ، اللهم إلا ما قد يلح فرعون من دلالات تدل على الله ، فيما قدم له موسى من معجزات ، تصدق دعواه أنه رسول رب العالمين ، قد أرسله إلى فرعون ليرسل معه بني إسرائيل .. يقول الله سبحانه وتعالى لموسى وهرون :

« اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولاً ليناً ، لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا ، إنا معكما أسمع وأرى ، فأتياه فقولا إنا رسول ربك ، فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم ، قد جئناك بآية من ربك ، والسلام على من اتبع الهدى » (٣) .

ويقول سبحانه على لسان موسى يخاطب فرعون : « يا فرعون ، إني رسول

(١) سورة الصف: آية ٥

(٢) سورة البقرة: آية ٦٧ .

(٣) سورة طه: الآيات ٤٣ — ٤٧ .

من رب العالمين حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم بآية من ربك .
فأرسل معي بنى إسرائيل ، .

والتوجهات التي يلقى بها موسى إلى فرعون للقاء مباشراً هي في الواقع لحساب
الغاية الأصلية من الرسالة الموسوية ، وهي تخليص بنى إسرائيل من العذاب الممين ،
فإذا دعا فرعون إلى الله فإنما ليستقيم على الحق ، وليأخذ بنى إسرائيل بالرحمة
والعدل . . التي يأمر الله عباده بها . . يقول سبحانه وتعالى : « اذهب إلى فرعون
إنه طغى ، فقل هل لك إلى أن تزكى ؟ وأهديك إلى ربك فتخشى ؟ » (١)
أى ليخشى الله في بنى إسرائيل ، ويرضى يده القابضة على رقابهم !

وليس معنى هذا أن فرعون لا تقوم عليه الحجة بدعوة موسى له إلى الإيمان
بالله . . كلا ، فإن موسى قد دعاه إلى الإيمان بالله ، وأقام عليه الحجة بتلك الدعوة ،
وما قام على دلائل صدقها من آيات معجزة قاهرة ! ولكن لم يكن ذلك إلا لأن
لفرعون شأناً في حياة بنى إسرائيل ، فهم في ملكه ، وتحت سلطانه ، ولهم ،
لكي يخرجوا من هذا السلطان كان لابد أن يكون ذلك عن رضى من فرعون ،
ولا يرضى فرعون حتى يخرج عن طيبة البطش والقهر والظلم ، التي تستبد به ؛
ولا يكون ذلك إلا عن إيمان بالله وعن مراقبته وخشيته . . ومن هنا كان
موسى رسولا إلى فرعون ، وداعياً له إلى الله ، وإلى الرفق بعباد الله . . فلما
لم يستجب فرعون لهذه الدعوة ، ولم يرسل بنى إسرائيل مع موسى ، كان لله
تدبير . . فأوحى الله إلى موسى أن يخرج بنى إسرائيل متخفياً بالليل ، وأن يهرب
إلى حيث لا سلطان لفرعون . . : « أن أسر بعبادى ليلاً ، إنكم متبعون ،
واترك البحر رهوا . . إنهم جند مغرقون » (٢) .

أما التوراة فإنها كلها لبنى إسرائيل ، ليس فيها شيء لأحد من الناس غيرهم . .
حقى أن الله هو إلههم وحدهم دون الناس ، لا يلتفت إلى غيرهم ، ولا ينال
برحمته وفضله سواهم . . هو رب الجنود ، وهو ، « رب إسرائيل » ، وليس
رب الناس ، ولا رب العالمين !

(٢) سورة الدخان: آية ٢٣ ، ٢٤

(١) سورة النازعات: آية ١٧ - ١٩

« وكلم الرب موسى قائلاً : كلم بنى إسرائيل وقل لهم : أنا الرب إلهكم ، مثل عمل أرض مصر التى سكنتم فيها ، ومثل عمل أرض كنعان التى أناأت بكم إليها لاتعملوا ، وحسب فرائضهم لاتسلكوا » (١) .

« وكلم الرب موسى قائلاً : كلم بنى إسرائيل أن يأخذوا إلى مقدمة .. من كل من يحته قلبه تأخذون تقدمتى ، وهذه المقدمة التى تأخذونها منهم .. ذهب وفضة ونحاس .. » (٢) .

وهكذا كل ما حملت التوراة من تشريع هو موجه إلى بنى إسرائيل ، لايراد به غيرهم من الناس . إنه تشريع « مفصل » على « كياس » هذا الشعب ، وهو « دواء » لا يصلح إلا لهذه الجماعة التى حملت فى كيانها تلك الجراثيم الخبيثة التى أفسدت فطرة الله فيها ، وكان أصدق وصف ما وصفهم به المسيح فى قوله : « يا أولاد الحيات .. »

وكذلك « الإنجيل » .. وصاياه كلها لبنى إسرائيل ، ومهجرات « عيسى » كلها لبنى إسرائيل .. فهو إذا أقرأ الكهنة ، والعلمى ، والبرص فى بنى إسرائيل لا يلتفت إلى غيرهم ، ولا يمد يداً إلى سواهم :

ففى إنجيل متى : « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى فواحي صور وصيدا ، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم ، وصرخت إليه قائلة : ارحمنى ، ياسيد ! يا ابن داود ! ابنتى مجنونة جداً .. فلم يجبها بكلمة .. فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها ، لأنها تصيح وراءنا ! ، فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ! فأنت وسجدت له قائلة : ياسيد .. أعنى ! فأجاب وقال : ليس حسناً أن يؤخذ خبز البهين ، وي طرح للكلاب الضالة ! فقالت : نعم ياسيد : والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذى يسقط على مائدة أربابها ! » (٣) .

(١) الإصحاح الثامن عشر من سفر اللاويين .

(٢) الإصحاح الخامس والعشرون من سفر الخروج .

(٣) إنجيل متى : الإصحاح الخامس عشر .

فانظر كيف كان موقف السيد المسيح مع هذه المرأة التي علقت آمالها به ؟ وكيف أذلت كبريائها ، ونزلت إلى منزلة الكلاب ، لتتال من فتات المساندة الممدودة لبنى إسرائيل ؟

وليس في هذا ما يؤخذ على الرسالة العيسوية . . فهو رسول الله إلى قومه . . مهمته محددة هؤلاء القوم . ليس له شأن بما عداهم من الناس . . وذلك شأن جميع الرسل المبعوثين من قبله . . كل رسول داعية إلى الله في قومه ، مشغول بهم عن كل ما عداهم .

ولكن الذى لا يستقيم مع هذه الدعوة المحددة القول بأن عيسى ، هو ابن الله أو هو الله ، أو ما شاكل ذلك من الادعاءات . . وأنه إنما جاء على تلك الصورة البشرية المجسدة ، ليكون له مكان بين الناس ، يعيش فيهم ، ويحيي معهم ، ثم تختم حياته بالصلب ليكفر الخطيئة التي تعيش في الناس . من ميراث أبيهم آدم ، وليطهرهم منها !

وفي هذا القول تماقت ، وبتلان من وجوه كثيرة :

فأولاً : لو كان المسيح هو الله أو ابن الله تجدد في صورته التي عاش بها في الناس لما كان له مكانة في بنى إسرائيل خاصة ، ولا قصر دعوته عليهم . . وإلا لما كان الإله الذى يقرم على السموات والأرض ، ويبدع رحمته للناس جميعاً .

وإذا كان من تدبير عيسى — وهو الله أو ابن الله — أن يكفر خطيئة آدم في أبنائه ، فكيف يجعل هذا التكفير لبنى إسرائيل وحدهم دون أبناء آدم ، وكلهم آخذ بنصيبا من تلك الخطيئة ؟ . . معقول جداً أن يحمي النبى إلى جماعة من الناس ، وأن يطلع عليهم بالهدى والرحمة والبركة ، كما يصيب الفيت جانبا من الأرض فيخضب ويمرغ على حين تظل هناك كثير من وجوه الأرض مغبرة كالحقة مجذبة ! ولكن غير معقول أن يحمي الله في صورة بشر ليخلص الناس من الخطايا ، ثم يختص بهذه الرحمة التي أرادها للناس — فريقاً منهم ، ويحجزها عن

الغالبية العظمى من الناس . . إن ذلك تدبير لن يدخل في حكمة الله ولا يحى مع عدله . . فأين يذهب الناس بعد أن قبض الله عنهم يده التي بسطها لحفنة قليلة من الناس هم بنو إسرائيل ؟

وثانياً : إذا كان المسيح الإله قد جاء ليخلص الناس ، وليحمل عنهم خطيئتهم ، فذلك — إذا سلمنا به — إنما يكون للجيل الذى أدركه المسيح الإله من أجيال الناس ، وقد يمتد للأجيال اللاحقة لهذا الجيل . أما الأجيال السابقة لظهور المسيح من عهد آدم إلى يومه الذى ظهر فيه فإنهم بمعزل عن هذا الذى جاء المسيح من أجله ، لا يناهض منه شيء ، لأنهم لم يؤمنوا به ، ولم يعمدوا بماء المعمودية الذى باركته يد المسيح !

وإذا كان ذلك كذلك ، فما شأن هذه الأجيال الكثيرة التى تقدمت لظهور المسيح من آدم إلى يوم ظهوره . لماذا لم تأخذ فرصتها من التطهير ؟ ولماذا لم يحىء إليها المسيح فى الصورة التى جاء بها ، وللغاية التى قصد إليها منذ هبط آدم إلى الأرض ؛ ليسح بيده على ظهر آدم أو أبنائه فيطهرهم ويحمل خطيئتهم وخطايا الأجيال المتعاقبة من ذرائعهم ؟ ألم يكن ذلك هو الذى تقتضيه الحكمة والعدل ، إن لم يكن من مقتضيات المنطق والعقل ؟

والم يكن ذلك هو الذى يناسب الغاية التى يدعيها المدعون لنجىء المسيح الإله ، وهى تطهير خطايا الناس وحمل أوزارهم ؟

إن القول بأن السيد المسيح هو الله أو ابن الله هو قول أبتر ، لا يستقيم أبداً ، على تملك الصورة التى يدعيها المدعون له .

إن المسيح إلهاً فليكن شأنه عاماً فى الناس ، ورحمة شاملة لهم فى أجيالهم جميعاً . . من آدم إلى أن ينتهى دور الناس على هذه الأرض لا أن يكون ذلك لبنى إسرائيل خاصة . . وإن لم يكن المسيح إلهاً ، وكان نبياً من أنبياء الله ورسولا من رسله ، فلتكن دعوته فى بنى إسرائيل ولبنى إسرائيل ، شأن الرسل والأنبياء من قبله !

المسيح إله أو نبي . . إله للناس جميعاً . . أو نبي في بني إسرائيل ، ولا نالت وراء هذين الأمرين

الرحمة الدائمة الشاملة :

وعجب أن تقصر يد المسيح الإله ، أو الإله المسيح عن أن تمس برحمته الناس جميعاً وأنها تضيق بهم إلى الحد الذي لا يسع أحداً غير بني إسرائيل . . ثم يكون لإنسان من الناس ، ولبشر من البشر محض الإنسانية ، خالص البشرية ، ليس إلهاً ولا ابن إله ، — يكون لهذا الإنسان أن يحمل رحمة السماء إلى الناس جميعاً . من كل أمة وفي كل جيل !

عجب هذا . عجب ألا يتساوى الإله مع الإنسان . . وأن يكون المسيح الإله دون محمد ، الإنسان النبي !

فهذه رسالة محمد ، قد حملها صاحبها — بتدبير السماء — إلى الناس كافة . . فأذنهم من أول يوم بما أمر الله سبحانه وتعالى أن يؤذنهم به : « يا أيها الناس . . إني رسول الله إليكم جميعاً » (١) . وجاءت آيات الكتاب تحمل أحكام الشريعة للإنسانية كلها : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٢) . « يا أيها الناس اتقوا ربكم . . إن زلزلة الساعة شيء عظيم » (٣) . « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » (٤) . « يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنا ما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل » (٥) . « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك » (٦) . « يا بني آدم لا يفتنك الشيطان كما أخرج أبويك من الجنة » (٧) .

(٢) سورة البقرة : آية ٢١

(٤) سورة لقمان : آية ٣٣

(٦) سورة الانططار : ٦ - ٨

(١) سورة الأعراف : آية ١٥٨

(٣) سورة الحج : آية ١

(٥) سورة يونس : آية ١٠٨

(٧) سورة الأعراف : آية ٢٧

وهكذا تتكرر دعوة الإسلام على لسان الرسول ، وفي آيات القرآن في تلك الصورة العامة للناس جميعاً ، لا يلتبس بها شيء من التخصيص بأمة دون أمة ، أو بجيل دون جيل .. فهي خير مطلق للناس جميعاً ، ورحمة مبسطة لكل من يتعرض لها ، ويمد يده إليها !

وقد ظهرت آثار هذه الدعوة الشاملة العامة منذ اليوم الأول للإسلام ، فدخل فيه منذ أيامه الأولى ، بل منذ يومه الأول العبيد والأحرار ، والعرب ، والعجم ، فكان بلال ، — العبد — وسلمان — الفارسي — من أول الناس إسلاماً ! سئل النبي صلى الله عليه وسلم : من أول من بايعك على الإسلام ؟ قال : « حر وعبد — .. قيل : إن الحر هو أبو بكر والعبد هو بلال .

ولعل في هذا البدء الذي بدأ به الإسلام من أن يكون أول المستجيبين له حر وعبد — لعل في هذا ما يفني عن طبيعة هذه الرسالة المحمدية ، وأن حظ الناس فيها سواء ، وأن للعبد مثل ما للحر منها . وأن العبيد والأحرار فيها في كفتي ميزان . لأنهم جميعاً أبناء طينة واحدة .. كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، كذلك كان من مقررات الرسالة المحمدية دعوة النبي للملوك والقيصرة ، والرؤساء من غير العرب ، فبعث النبي بكتبه ومبعوثيه إلى النجاشي ملك الحبشة ، وإلى كسرى ملك الفرس ، وإلى المقوقس رئيس القبط في مصر ، يدعوهم جميعاً إلى الإيمان بالله والاستجابة لله ولرسوله .. فالملوك والسوقة والأحرار والعبيد ، والرجال والنساء كلهم مدعون إلى الإيمان بالله والاستجابة لداعى السماء .. ثم لأنه لم تمر سنوات على الدعوة الإسلامية حتى دخل في دين الإسلام كثير من الأمم والشعوب ، من جميع الأجناس . ومن مختلف الأمم .. وكان مسكنهم في الإسلام بمنزلة واحدة .. لأفضل لعربي على عجمي ، ولا لاسود على أحر .. إلا بالتقوى ، .. يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .. إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، (١) .

فأين من هذا ما ادعى للدعوة المسيح الإله أو الإله المسيح ؟

ولا تنظر إلى ما صارت إليه دعوة السيد المسيح بعد أن انتهى دوره فيها ، وبعد أن ردها أمحايها من بني إسرائيل ، وأبوا أن يقبلوا هذا الرسول الكريم ، وأن يعترفوا به وبرسالته .. فلم يؤمن به إلا نفر قليل لا يكاد يذكر من بني إسرائيل .. لا تنظر إلى هذا ، ولا إلى من دخل في دعوة المسيح من غير اليهود .. فإن دعوته لم تكن إلا لليهود خاصة ، ولم يكن للسيد المسيح تدبير فيما حدث بعد ذلك من دخول غير اليهود في دعوته .. فإنه لم يتجه بدعوته إلى أحد غيرهم ، ولم يحاول أن يقول كلمة واحدة لقيصر أو لجنود قيصر الذين كانوا يحكمون إسرائيل ، ويعيشون بين اليهود ..

فإذا قدر لدعوة السيد المسيح أن تخرج من محيطها إلى محيط آخر ، وأن تتحول من شعب إلى شعوب أخرى ، فإن ذلك لم يكن من طبيعة الرسالة ، ولم يكن من أهدافها .

ذلك لأن الوصايا التي حملتها رسالة السيد المسيح لا يمكن أن تقبلها الحياة ، وأن يعيش فيها الناس أجيالا وأزمانا ، وإنما هي دواء مر المذق لشعب إسرائيل الذي كان قد أصيب في روحه بداء ذهب بكل ما فيه من مقومات الإنسانية ، وبالعناصر الطيبة فيها . فكان لابد من هذا الدواء المر الثقيل ، ليخلص هذه النفوس المنكوسة من دائها الويل .

ومن أجل هذا نرى هذا التفاوت البعدين حياة المسيحيين ، وبين الدعوة المسيحية ، فما استقام المسيحيون على تلك الدعوة في أي دور من أدوار حياتهم فيها .. لأن مقررات هذه الدعوة لم تكن للحياة العامة ، ولم تكن للناس جميعاً ، وإنما هي لفترة من فترات الحياة ، ولجيل معروف من أجيال الناس .

ولو أراد المسيحي أن يكون مسيحياً حقاً ، مستقيماً على دعوة المسيح . لكان راهباً يعيش في إطار من الإذلال لنفسه ، والانطواء على ذاته .. !

ولا شك أن مثل هذه الحياة لا تستقيم بها حياة الناس ، ولا يصبر عليها كثير من الناس .

وكيف يستطيع الناس أن يحيا حياة طبيعية في ظل هذه الوصايا التي ألقاها السيد المسيح في أسماع اليهود فجعلوا أصابعهم في آذانهم دونها ؟

وهل يستطيع الناس أن يقوموا على الوفاء لمثل هذه الوصايا ؟

يقول السيد المسيح في بعض وصاياه : « قد سمعتم أنه قيل عين بعين ، وسن بمن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر . . بل من لطمك على خدك الأيمن فاحول له الآخر أيضاً . . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً . ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين !

« سمعتم أنه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك ، وأما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، وباركوا لاعدائكم . . ١ ، (١)

وأحسب أن النفس البشرية لا تتسع لهذه الوصايا ، ولا تستقيم عليها . . إن الناس هم الناس ، وليسوا ملائكة يمشون في الأرض . . وما نحسب أن الحياة على هذه الأرض تسمح بتجربة ناجحة لهذه الوصايا في أى مجتمع بشري . يقول د جان جاك روسو ، في مدى التطبيق العملي لتعاليم المسيحية :

« ويقولون لنا إنه إذ وجد شعب من المسيحيين الحقيقيين فإنهم يؤلفون مجتمعاً هو أكثر المجتمعات التي نتصورها كلاً . وأنا لا أرى في هذا الفرص سوى صعوبة كبرى واحدة ، هي أن المجتمع المسكون من مسيحيين حقيقيين لا يعود مجتمعاً بشرياً . . بل أقول أيضاً إن هذا المجتمع المزعوم لن يكون رغم كل كماله أقوى المجتمعات ولا أدومها ، فبقدر كماله ستعوزه الرابطة ، وستكون جرثومة هلاكه في كماله ؛ ذاته . .

ويقول : « إنى أخطئ ! إذ أتحدث عن جمهورية مسيحية ، فالسكلمتان متناقضتان : إن المسيحية تبشر بالعبودية والطاعة . . إن المسيحيين الحقيقيين خلقوا ليكونوا عبيداً ، (٢) .

ويقول « نيتشه » في سخرية : « إن المسيحي الوحيد مات على الصليب !! ، .

(١) إنجيل متى : الإصحاح السادس .

(٢) المقصد الاجتماعي ترجمة عبد الكريم أحمد ص ٢٣٧ .

نستطيع بهذا أن نقرر في يقين نقض ما يدعيه المدعون المسيح من أنه خارج عن طبيعة البشر ، وعن سنة الأنبياء من قبله . فنقول إنه بشر ، وإنه هو نبي ورسول إلى بني إسرائيل وخدمهم دون الناس .

وأكثر من هذا ، فإذا نستطيع أن نقرر أيضاً أن الذين تابعوا السيد المسيح وآمنوا بدعوته من غير اليهود هم دخلاء على هذه الدعوة ، يتناولون من طعام غير معد لهم ، وغير متناسب مع طبيعتهم . لا يصلح لهم ولا يصلحون له . إن الرسول ليس رسولا إليهم ، والرسالة لم تكن شرعاً لهم . فكيف يدينون بدين لم يدعوا إليه ، وشرعية لم يحسب لهم حساب فيها ؟

ولو كانت شريعة موسى ، أو المسيح شريعة عامة شاملة لكان إيمان المؤمنين بهما من غير اليهود إيماناً صحيحاً ، لا شائبة فيه ، بل هو الإيمان الواجب على كل عاقل أن يدين به ، ويستقيم عليه .

ولسكن الأمر — كما قلنا — على خلاف هذا ، فالديانة الموسوية ليست لأحد غير اليهود ، ولا متوجه لها إلا هذه الجماعة من الناس ، لئعالج داء «مخليا» ، متوطناً فيهم ، متمكناً في نفوسهم . . وليس الدواء الذي تحمله شريعة موسى . وتؤكد وصايا المسيح إلى هذه الجماعة المريضة بالذي تصلح عليه نفوس غير تلك النفوس ، أو يداوى به داء غير هذا الداء !

وهل رأيت مريضاً بالجنى — مثلاً — يتداوى بالدواء الذي يوصف للرمم ؟ وهل يغير ذلك من واقع الأمر شيئاً أن يكون الطبيب الذي شخص داء الرمد ووصف علاجه هو ماهو في العلم والمعرفة ؟ ذلك هو الحال سواء بسواء في الديانة العيسوية فهي امتداد لشريعة موسى وتأكيدها . بل هي تكرار للدواء لذات الداء الذي يكمن في كيان بني إسرائيل .

• • •

وقد يقول قائل : إن شريعة الإسلام ذاتها تدعو إلى الإيمان بالشريعتين الموسوية والعيسوية ، وأن القرآن يقول : «قلوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ،

وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب : والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ، (١) .

ونقول في إيجاز : إن الذي تدعو إليه شريعة الإسلام من الإيمان بالنبيين وما أنزل عليهم ، هو التصديق بالرسول ، والتصديق بما جاءوا به ، إذ أن ما جاءوا به هو الهدى والخير ، وهو الحق من عند الله ، وليس المراد بهذا التصديق العمل بالشرائع التي جاءوا بها ، فقد جاء القرآن بهذا الخير كله ، وبهذا الهدى كله .

• • •

وندع هذا كله لنعود إلى حديثنا عن الرسالة المحمدية من جانب الرحمة العامة فيها ، فنقول إننا قبل أن نأتمس الشواهد والأدلة على هذه الرحمة العامة في الرسالة المحمدية نجد القرآن الكريم قد تولى تجاية هذه الحقيقة ، فجاء فيها بالقول الفصل في غير موضع منه ، وفي غير آية من آياته . فقال تعالى مخاطباً نبيه الكريم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (٢) . وقال سبحانه : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » (٣) . فالرسول مبعوث لرحمة الناس جميعاً . . . وليس شيء في باب الرحمة بالناس أفضل من استنقاذهم من الضلال ، وتزكية نفوسهم وتطهيرها من الرجس . إن ذلك يعادل الحياة بعد الموت ، والبصر بعد العمى ، والسمع بعد الصمم . « أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ؟ » (٤) ورسالة محمد ، تحمل للناس جميعاً الهدى في رفق ، وفي لين . فليس فيها هذا البريق الذي يخطف الأبصار ، ثم يخبو ، وليس فيها هذا العنف الذي تنقطع له الأنفاس ، وينقطع دونه جهد كثير من الناس .

إنها ليست رسالة طوارئ ، كما جاءت كثير من الرسالات في أحوال مضطربة ، وظروف قاسية . قد ركب الناس فيها ظهر الفتنة ، ولابوا طوائف

(٢) سورة الأنبياء : آية ١٠٧ .

(٤) سورة الأنعام : آية ١٢٢ .

(١) سورة البقرة : آية ١٣٦

(٣) سورة التوبة : آية ١٢٨

الوحوش الكاسرة .. فكان مجيء الرسول في مثل هذه الأحوال ، وفي مواجهة تلك الظروف ، إنما هو للإنقاذ الحاسم السريع ، الذي لا يحتمل مهلة أو تطاولاً في مدة الإنقاذ .. ومن أجل هذا كان إعلان حالة الطوارئ ، هو العلاج الحاسم في مثل هذه المواقف ، ومن أجل هذا أيضاً كانت عملية الرسول أحياناً تنتهي بالبتر الحاسم ، والتدمير الكامل للمجتمع المريض الذي بعث إليه ، حين لم يكن ينفع العلاج ، ولم يفيد الدواء .. فقد شهد كثير من الرسل مصرع أقوامهم واستئصال فروعهم وأصولهم .. لم ينج منهم إلا قلة تعد على الأصابع .

و الحاقة ، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة .. كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ففترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية . (١) .. وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من قبل .. إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، (٢)

فالإهلاك الجماعي ، والإبادة العامة ، والاستئصال الشامل لهُزلاء المنحرفين داعية من دواعي التأمين للإنسانية ، وحمايتها من عدوى هذا الانحراف الذي لا يرجى له شفاء ، والذي إن عاش في الناس امتدت عدواه إلى غير المصابين به ، فتعهم به البلوى ، ويشمل البلاء .

أما الرماللة المحمدية فإنها لم تجيء من أجل أمر عارض ، ولا لحالة طارئة في جيل من أجيال الناس .. وإنما جاءت للناس جميعاً في جميع أحوالهم وأزمانهم .. ولهذا لم يكن من تدبيرها تلك الإجراءات السريعة الحاسمة التي تنتهي الموقف بين النبي وقومه في لحظة واحدة ينتهي فيها كل شيء ، ويسكن فيها كل شيء ، فلا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا .. بل إن تدبيرها قائم على ترويض الناس ، وأخذهم بالرفق ، وإعطائهم الدواء جرعة جرعة ، على فترات متفاوتة ، وأزمان متباعدة .

(١) سورة الحاقة : الآيات من ١ - ٨ (٢) سورة النجم : الآيات ٥٠ - ٥٢

(٢٧ - النبي محمد)

ولم يكن لرسالة عامة شاملة أن تجيء على غير هذا التدبير والتقدير ، لكي تنجح في مهمتها ، وتبلغ الغاية المرجوة منها .

ولأنك لترى هذا في التشريعات والقوانين الوضعية . . فهي في أحوال الطوارئ تكون إحاسمة قاطعة ، لا تحتل تأويلا ، ولا تقبل تحويرا ، ولكنها في الأحوال الطبيعية وفي الحياة المستقرة تجيء في صورة تتسع للاحتتمالات المختلفة ، وللتأويلات المتعددة . . التي تفرضها الحياة المتطورة المشتتة بالناس من حال إلى حال . . ولهذا فإنها لا تتناول إلا الأصول العامة ، وأهميات المبادئ دون الفروع والجزئيات ، التي تختلف صورها وأشكالها ، حالا بعد حال ، وجيلا بعد جيل .

والذي ينظر في الشريعة الإسلامية يجد أنها تناولت الحقائق العامة والأحوال الثابتة التي تعيش في الناس ، ويعيش بها الناس ، في جميع الظروف والأحوال ، ولم تقف عند الحالات التي لا تقع إلا في الفلوات النادرة الشاذة من الحياة !

ولك أن تأخذ أي مبدأ من مبادئ الإسلام ، وأي حكم من أحكامه ، وأن تنقل به عبر الأزمان وأن تطوف به في مختلف الأمم والشعوب ، فإن رأيت فيه نبوا عن الحياة ، أو مجافاة لطبائع الناس ، أو تخلفاً عن مواطن الخير والفلاح لمن اعتقده وعمل به — فلك أن تسوء الرأي بهذا الدين ، وأن تنضم إلى الجهة المعادية له . . ولكن أنا زعيم لك إن أثبت نظرت فأحسنست النظر ، وقدرت فأحسنست التقدير ، وحكمت فعدلت في الحكومة ، ووقفت إلى جانب الحق — أن تعود بعد هذا وملء كيانتك لإيمان بأن هذا الدين هو الدين الحق ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وليس من ههنا هنا أن نعرض حقائق الإسلام ، وأن نكشف عن جوهرها الحر الكريم ، فذلك ليس من موضوع هذا البحث ، وإنما يكفي أن نشير إلى بعض تلك الحقائق لإشارات سريعة ، وأن نضعها في إطار البقاء والخلود ، وأن ننتعها بالصلاحيية في كل زمان ولكل مكان . . ثم ليقم من يجد في وسعه القدرة على دفعها من مكانها هذا ، وإخراجها عن صفحتها تلك ! فإن

من يقيم لذلك ويجد الدليل عليه — وهيات — فإن له ، كما قلنا — أن يسء
الرأى بالإسلام ، وأن يفضم إلى الجهة المعادية له . . والإسلام في هذا لن يخسر
شيئاً ! لأن الذى ينتهى به الأمر مع الإسلام إلى هذا الموقف فهو أحد رجلين :
إما رجل يحمل العداوة الموروثة للإسلام ، ويمتلئ دماغه بما نشىء عليه
وغذى به من صغره من مفتريات على الإسلام ، وطمس لحقائقه . . وإما رجل
أحق مغرور يريد أن يلفت إليه الأنظار فيتعلق بأذيال العطاء ، ويندس في
ركب المفكرين . . ليحسب في الرجال . لأنه كالوعل ينطح بقرنيه جبلاً شامخاً . .
يقف منه موقف الند للند !

ونعرض هنا بعض الأصول التى شرع لها الإسلام ، وبين معالمها وحدودها
فن ذلك : —

١ — الإيمان بالله :

وقد رسم الإسلام إلى التعرف على الله طريقاً واضحاً لا يتعثر فيه إنسان ،
ولا يضل . .

والعقل في شريعة الإسلام هو الذى يهدى إلى الله عن طريق النظر في ملكوت
السموات والأرض . .

فهذا الوجود لا بد له من صانع . . والله هو صانع هذا الوجود ، وهو القائم
عليه . . والله في مفهوم الشريعة الإسلامية إله واحد . . أزلى أبدي . . لا تدركه
الابصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

ذلكم هو الله رب العالمين !

لا يبعد مفهومه عن أحد من الناس .

ولا يحتاج لإنسان في طريقه إلى الله إلى أكثر من نظرة يديرها في هذا الوجود . .

فلا أستار ولا حجب بين الله وبين الناس جميعاً . . !

والعقل هو في كيان الناس جميعاً . . لم تختص به أمة دون أمة ، ولم يستأثر به
جميل دون جليل . . بل لأنه في الناس جميعاً . . فرداً فرداً . . لا تزيده الأيام
إلا قوة وعمقاً .

فالإسلام يدعو الناس إلى الله ، ويدلهم عليه ، وفي كيانهم جميعاً الدليل الذي يدلهم عليه ، ويكشف معالم الطريق .

٢ — ما يتصل بالإنسان في حفظ حياته :

وفي هذا يقرر الإسلام القصاص في القتل والجراحات .. قال تعالى : « كتب عليكم القصاص في القتل : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى : فمن دنى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » (١) وقال سبحانه : « وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله » (٢) وقال : « وإن عاقبتم فاعقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خیر للصابرين » (٣) .

فالقصاص مبدأ من مبادئ الإسلام ، يتولاه ولي الأمر كما أمر الله ..

ومن تدبير الإسلام في هذا أنه أبطل التضحية بالنفس الإنسانية ، وتقديمها على مذهب القربان لله .. فقد كان ذلك مباحاً حتى في الشرائع السماوية .. ولكن الإنسان الذي أدركته شريعة الإسلام لإنسان قد بلغ رشده ، وارتفعت قيمته عن أن يكون قرباناً ولو لحالقه .. فإنه وقد بلغ رشده يستطيع أن يتقرب إلى الله بالمعرفة الواعية لجلاله وعظمته ، وهذه المعرفة في ذاتها قربان إلى الله أعظم من التضحية بالجسد ، وأعظم دلالة على حب الإنسان لحالقه .

ومن تدبير الإسلام في هذا أيضاً أنه جعل قتل النفس من أكبر الكبائر ، فلا يتطهر القاتل بأية وسيلة من وسائل التطهير أبداً .. قال تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ، ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ، إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله ، وكان الله عليماً حكيماً .. ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً » (٤) .

(٢) سورة الشورى: آية ٤٠ .

(٤) سورة النساء: الآيات ٩٢ ، ٩٣ .

(١) سورة البقرة: آية ١٧٨ .

(٣) سورة النحل: آية ١٢٦ .

وليس معنى استبعاد أن يقتل المؤمن مؤمناً أن للمؤمن أن يقتل غير المؤمن .
ولكن المراد بالآية هنا الإطلاق والتعميم ، فلا يقتل المؤمن المؤمن أبداً في جميع
الاحوال ، على حين أنه قد يقتل المؤمن غير المؤمن في حال الحرب بين المؤمنين
وغير المؤمنين . أما في غير هذه الحالة فإن لدم غير المؤمن حرمة مثل دم المؤمن .

٣ — ما يتصل بالإنسان في ماله :

وللبال في الإسلام حرمة كحرمة النفس ، ولهذا وضع الإسلام - حماية للبال -
حداً للشارق ، والنهاب ، والمختلس . كما حرم الإسلام الربا وأكل أموال الناس بالباطل ،
كالغش في البيع ، وتطفيف الكيل ، وخسران الميزان ، كما حرم الاختكار ،
والرشوة ، وغيرها مما من شأنه أن تصيب الإنسان في شيء من ماله . . يقول
الرسول الكريم : « كل المسلم على المسلم حرام : ماله ، ودمه ، وعرضه » .

٤ — ما يتصل في حياته مع الناس :

(١) الرجل والمرأة :

مكان المرأة في الحياة ، وموضعها من الرجل لم تأخذ صورة مستقرة في الحياة ،
وما زال وضع المرأة قلقاً مضطرباً حتى في تلك المجتمعات التي تدعى أنها ساوت
بين المرأة والرجل ، وجعلتها بمنزلة سواء . . فما زالت المرأة هي المرأة . . إنها غير
الرجل ، وستظل أبداً هكذا . . شيئاً آخر غير الرجل ما دامت تختلف عنه في
تكوينها العضوي وفي وظيفتها لحفظ النوع . . لإنهسا أثني . . . وليس الذكر
كالأنثى ، (١) .

ولسنا هنا في مقام الموازنة أو المفاضلة بين الرجل والمرأة ، فذلك ليس في
موضوع بحثنا ، ولا يدخل في مقرراته ، . وإنما الذي نريد أن نقرره هو ما لا
يشير خلافاً بين أنصار المرأة وخصومها ، وهو أن المرأة غير الرجل . . وأنها وإن
اتفقا في كثير من الصفات فإنها يختلفان أيضاً في كثير من الصفات ، كما أنها
يختلفان فيما اتفقا فيه من صفات كما وكيفاً . . ذلك أمر لا يمارى فيه أحد . .

(١) سورة آل عمران : آية ٣٦ .

وهذا القدر يكفيننا لما نريد أن نقرره ، وهو أن الحياة قد سارت بكل من المرأة والرجل في الاتجاه الذى ينبغى أن يسير فيه كل منهما كي تحقق من سيرها النهاية التى خلقا لها ..

ولأن أى انحراف يحدث لهما أو لأحدهما فى الطريق الطبيعى يضر بهما ، كما يضر بالحياة التى يعملان فيها .

وإن أى تشريع سماوى أو غير سماوى لا يقوم على هذا التقدير ، ولا يتخذ أساساً فى تحديد العلاقة بين الرجل والمرأة ، وفى وضع كل منهما بالموضع المناسب له — كل تشريع لا يقوم على هذا التقدير لا يمكن أن ينظم به ركب الحياة ، بل لا يمكن أن يعيش فى الحياة ، وإن قدر له أن يقوم فى حال من الأحوال وفى زمن من الأزمان . فلن يكون ذلك إلا أمراً عارضاً لا يلبث أن يزول .

ولا تتخذ لما يبدو اليوم فى المجتمع الغربى ، من إدماج الرجل والمرأة فى كيان واحد ، تبدو فيه الحياة وكأنها أخلت من الرجال ، أو تعرت من النساء .. وأن الناس قد أصبحوا كائناً واحداً .. لك أن تقول فيهم لأمهم جميعاً رجال أو هم جميعاً نساء ..
لا تتخذ لهذا ...

لا تتخذ لهذا ، فما هو إلا عارض لا يلبث أن يزول ، ويعود كل شئ إلى وضعه الذى لا يصلح شأنه إلا عليه .

والإسلام قد جعل تشريعه فى العلاقة بين الرجل والمرأة قائماً على ما بينهما من ضروب الاتفاق والاختلاف .. فألف بينهما من جهة ، وفرق بينهما من جهة أخرى .. جمعها فى كائن واحد هو الإنسان ، وفرق بينهما داخل إطار الإنسانية : رجلاً وامرأة ، ذكرًا وأنثى .

وهو بهذا التدبير الحكيم وضع الأمر فى مكانه الصحيح السليم .

فهما من حيث الإنسانية كائن واحد : المرأة والرجل سواء .

يتكافئان فى الدم ، والعرض ، والمال !

فتقتل المرأة بالرجل . ويقتل الرجل بالمرأة فى القصاص عند قتل أحدهما الآخر عن عمد . فإذا قتل رجل امرأة عاهداً كان القصاص قتله . وكذلك الشأن فى المرأة . إذا قتلت رجلاً قتلت به . والرجل والمرأة إذا فاحشة أقيم عليها حد واحد . . وهو جلد كل منهما مئة جلدة إذا كانا غير محصنين ، أو رجماً إذا كانا محصنين .

وفى المال : يسرق الرجل فتقطع يده اليمنى ، وتسرق المرأة فتقطع يدها . وحرم ما فى يدها من مال كحرمه ما فى يد الرجل من مال ، لا يؤخذ إلا بحق ، والاعتداء على ما بيدها من مال مثل الاعتداء على ما فى يد الرجل من مال ، يقام فيه الحد على السارق ، وتوقع العقوبة على الخاطف والمغتصب .

والقرآن الكريم يوجه أو امره ونواهيته إلى الناس جميعاً ، لم يفرد النساء بأون خاص من الأهرأ أو النهى إلا ما كان من مستلزمات طبيعتهن ، وما يقتضيه الحياء الذى ينبغى أن يكون سمة بارزة فى المرأة ، ليظل لها مكاناً فى قلب الرجل . وذلك كالنهى عن التبذل والخلاعة فى الزنى والحركة .

أما فيما عدا هذا الذى تقتضيه طبيعة المرأة فالأوامر والنواهي متوجهة إليها معاً وبقدر واحد . فالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، وقبلها جميعاً الإيمان بالله وبرسوله . هى جميعها للرجال والنساء على حد سواء ، لا يكمل إيمان الرجل أو المرأة إلا بهما . والمرأة والرجل فى موقف الجزاء سواء . الحسنه يؤثر أمثالها ، والسبيمة بمنزلها .

وأكثر ما يتوجه الخطاب إلى الرجل والمرأة فى القرآن على صورة الجمع بينهما فى مثل : « يا أيها الناس . ويا أيها الذين آمنوا » .

ولكى لا يكون هناك أدنى لبس فى أن المرأة والرجل على حد سواء تجاه أوامر الله ونواهيته . جاء القرآن الكريم بصور من الخطاب يزاوج فيه بين الرجال وبين النساء مثل قوله تعالى : « إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين

والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا^(١) .

فهذه تسوية مطلقة بين الرجل والمرأة في مجال الطاعات والعبادات ، وفي مقام الجزاء الطيب للعمل الطيب . ويقول سبحانه وتعالى : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً »^(٢) ويقول جل شأنه : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلننجينه حياته طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »^(٣) . هذا هو وضع المرأة مع الرجل في إطار الإنسانية .. هما في مقام واحد ، لأنهما من نفس واحدة ، كما يقول سبحانه وتعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً »^(٤) .. ويقول سبحانه : « هو خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها »^(٥) .. ويقول سبحانه أيضاً : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

فأما في غير المجال الإنساني للرجل والمرأة فهي رجل وامرأة .. ذكر وأنثى .. فليسكل منها طاقاته واتجاهات طبيعته !

فالجهاد - مثلاً - الذي فرضه الإسلام على المسلمين عند اقتضاء دواعيه وقيام أسبابه ، قد أعفى الإسلام منه المرأة أن تدخل ميدان الحرب مقاتلة ، تقتل أو تقتل .. لأن ذلك لا يناسب طبيعة المرأة ، ولا يتفق مع وظيفتها في الحياة . إن الحرب شر يشع الوجه .. دماء تراق ، وأشلاء تتناثر ، وأرواح تزهرق .. منظر مفرع مروع .. تطير له نفوس الأبطال شعاعاً وتنخلع قلوبهم هلعاً .. فكيف بالمرأة وما في طبيعتها - منها تكن - من رقة ؟ وما في عزميتها من خور ؟

(٢) سورة النساء : ١٢٤

(٤) سورة النساء : آية ١

(٦) سورة الروم آية ٢١

(١) سورة الأحزاب : آية ٣٥

(٣) سورة النحل : آية ٩٧

(٥) سورة الأعراف : آية ١٨٩

أستطيع المرأة أن تصبر على هذا الموقف ، وأن تهاك أوصالها فيه ؟ ذلك شيء فوق طبيعتها من غير شك .. وقد دارت الحرب بين الناس والناس في ملحمة متصلة من أول الحياة إلى اليوم ، ولم يشهد الميدان جيوشاً من النساء ، ولا عرف فوارس منهن إلا في فترات نادرة ، وظروف قاهرة — لا تكاد تذكر في هذه الملحمة الطويلة التي عاش فيها الناس محاربين .. وحتى في هذه الفترات كانت المرأة لا تخرج للحرب إلا وقد لبست ملابس الرجال ، وشدت نفسها وعزمها بهذا الثوب المستعار .

ومن جهة أخرى ، فإن المرأة وهي التي كانت مصدر الحياة ومستودعها ، وهي التي حملت الإنسان جنيناً ونشأته في كيانها ، وغذته بدمها ولبنها ، وشاظرته — روحها — هذه المرأة كيف تحمل على أن تغدو إلى ميدان القتال لتهدم ما بنت ، وتقتل أبناءها بيدها . إن ذلك لا يمكن أن يستقيم مع طبيعة المرأة ، وإن استقام — على عوج — عند أفراد في الحياة الإنسانية من النساء .. لا يحسب لمن حساب . وهناك — غير هذا — واجبات كثيرة أعفت الحياة منها المرأة ، وألقت بها على عاتق الرجال ، كالقوامة على الأسرة وتدبير شأنها وحمل أعبائها ، كما أن هناك واجبات أعفت الطبيعة الرجال منها وجعلتها منوطة بالنساء ، كالخل والرضاعة .

(ب) الزوج والزوجة:

وحين يجتمع الرجل والمرأة كزوج وزوجة يسكون للرجل المقام الأول ، والمرأة المركز التالي له . إن اجتماع الرجل والمرأة كزوجين هو نواة لمجتمع صغير ، ولا بد أن يكون لهذا المجتمع — على صغره — من أمير يقوم عليه ويتولى تدبير أمره وتوجيه شؤونه .

إن الإسلام لا يدع أي مجتمع — مهما صغر — دون أمير يقوم عليه ، ويتولى حمل المسؤولية عنه . يقول النبي الكريم : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته . فالأمر الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ، وهو مسئول عن رعيته ، وعبد الرجل راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه » .

فلسكل من الرجل والمرأة نصيب من حمل المسؤولية في مجتمع الصغير ..
ومع هذا فلا بد — لهذا المجتمع الصغير من مسئول عام ، يتولى — إلى جانب
مسؤوليته الخاصة — المسؤولية العامة .. وعلى هذا ، كان لابد أن يكون الرجل —
لا المرأة — هو الذى يتولى القيام على شئون هذا المجتمع الصغير ، ويكون منه
بمنزلة الرأس من الجسد .. قال تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله
بعضهم على بعض ، وبما أففقوا من أموالهم » (١) .. ويقول سبحانه : « وللرجال
عليهن درجة » (٢) .

ومع هذا ، فقد نبه الإسلام على رعاية الحقوق التى ينبغى أن تكون للزوجة
في هذا المجتمع لئلا يظلم عليها الرجل ويسقط بها ، وتطفيه الإمارة ، فلا يرى
للمرأة مكاناً معه ..

فالقوامة التى جعلها الإسلام في يد الرجل ليست قوامة جبرية ، أو استبداداً ،
وانتقاماً ، وإنما هي قوامة ألفة ، وحب ، ومودة . قوامة غايتها إسعاد أفراد
المجتمع الأسرى ، فرداً فرداً ، لأن في إسعادهم سعادة لرب الأسرة لأنه إنما يسعد
نفسه في أبنائه الذين هم بضعة منه ، وفي زوجه التى هي بعض نفسه كما يقول القرآن :
« خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » (٣)
الرحمة الشاملة أيضاً :

وفمود إلى حديثنا عن جافب الرحمة في الرسالة المحمدية بعد أن عرفنا شمول
هذه الرسالة وعمومها ، وامتدادها عبر الأزمان والأجيال .. وبعد أن عرفنا
أنها لم تسكن رسالة طوارئ ترى مهمتها في وقت محدود .

وقد استبان لنا مما تقدم أن الناس في ظل الرسالة المحمدية في أمن من الضربات
المفاجئة القاصمة ، فلا ينزل بهم ما نزل بأقوام الأنبياء من قبلهم من خسف ،
وإغراق ، ومن صواعق ومهلكات تحملها حجارة من سجيل تملأها السماء ..
« وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » (٤)
ولا شك أن هذا رحمة واسعة وفشل كبير اختصت به الرسالة المحمدية ،

(٢) سورة البقرة: آية ٢٢٨

(١) سورة النساء: آية ٣٢

(٤) سورة الأنفال: آية ٣٣

(٢) سورة الروم: آية ٢١

التي ما كان غير « محمد » في كآله الكامل أن يحمل مثل هذه الرسالة العامة الشاملة .
يقود فيها الإنسانية كلها إلى شيطان السلامة والأمن ، محتملاً ما احتمل من أذى ،
وعنت ، وألم ، دون أن تطاوعه نفسه الرحيمة بالانتقام من آذوه . . ولو دعا
دعوة عليهم لتفتحت لها أبواب السماء بالقبول ، واصبغت المهلكات على أعدائه
صباً . . ولكن صبر وصابر ، واحتمل أن يلقي عليه الروث ، وأن يرى بالاحجار
من سفهاء ثقيف حتى تدمى قدماه ، وأن يتبادره السهام في غزوة أحد حتى ينغرز
المخفر في جبهته وتنكسر رباعيته ، ويسيل دمه ، ثم يسأله بعض أصحابه : ألا تدعو
على قريش دعوة تمحقهم وتذهب بهم ؟ فيجيب الرسول الرحيم : « إنا بعثت هادياً ،
ولم أبعث لعاناً . . » ويخفق قلبه الكبير بعواطف الحنو والرحمة مع زوجة
بالإشفاق والامل ، وتحرك شفاته ، بهذه الكلمات الخالدة : « اللهم أهد
قومي ، فإنهم لا يعلمون » .

وقد تندافع في صدر الرسول دوافع الغيظ والألم . وتحرك في نفسه الرغبة
في الانتقام من المعتدين الظالمين . فتصرف السماء هذه الرغبة إلى ما هو أليق
بالرسول العظيم ، وإلى ما هو أنسب لرسالته الرحيمة . . تصرفه إلى التسامح والعفو ،
فالعفو والتسامح من شريعة الإسلام . « وأن تغفروا أقرب للتقوى » « ولمن صبر
وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » (١)

في غزوة أحد قالت قريش من المسلمين ، فقتل عدد كبير من خيار الصحابة ،
وأصيب الرسول بجراحات في جسده الشريف . . ولم تقف قريش عند هذا ،
بل مثلت بقتلى المسلمين ، وقولت هند بنت عتبة ، وزوج أبي سفيان - كبر هذا
الإثم . وقادت حملة التمثيل ، فبقرت بطن حمزة عم النبي ، وأسدت الله والإسلام ،
وتناولت مرقه من كبده ولا كتفا في فمها . . تشفياً وانتقاماً من قتلى بدر ، وفيهم
أبوها عتبة ، وأخوها الوليد بن عتبة .

ولما رأى الرسول الكريم ما فعلت قريش بعمه ، وبصحابته من تقتيل
وتمثيل قال : لئن كان لنا غلبه على قريش لثملن بقتلاهم أكثر مما فعلوا بنا . . فنزل
قوله تعالى : « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير

للمصابرين .. واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولاتك في ضيق
ما يذكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، (١)

فانظر إلى أدب السماء مع رسول رب العالمين إلى العالمين .. لأنها ترضى في
نفسه جانب البشرية ، فلا تمد عليه منافذ التنفيس لعواطفه وانفعالاته ،
فتأذن له بأن يعاقب ولكن بمثل ما عوقب به . فذلك هو شرع الله مع الأعداء
والأولياء .. وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به .. لاخرج في هذا .. وهنا
يتنبه الرسول إلى أنه قد بعد شيئاً عن هذا الأدب السماوي في تلك العزيمة التي
عزمها للانتقام من قريش ، لأنه لايعاقب بمثل ما عوقب به بل بأكثر مما عوقب به،
وهذا ما تأباه شريعة العدل الذي يمسك ومحمد ، بيمينه المستقيم .. ولو انتهت الآية
عند هذا الموقف لكان فيها العظة البالغة للنبي في أن يدع عزمته في الانتقام من
قريش حتى بمثل ما كان منهم ، فذلك هو الذي يراه مناسباً لهذا العتاب الخفي
الذي شعر به من الآية الكريمة ، والذي لا يشعر به إلا قلب متعملاً بالملاء الأعلى ،
موصول بأنوار السماء ..

ولكن الآية لم تقف عند هذا .. « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به » .
بل أظهرت المفهوم الذي فهمه النبي منها .. « ولئن صبرتم لهو خير للمصابرين »
فجاءت الدعوة عامة للنبي وأتباع النبي بالصبر على أذى الأعداء ، وعلى مبالغتهم
في هذا الأذى بالتمثيل بالقتل .. ولا يقف الأمر عند هذا ، بل يختص النبي بتوجيه
خاص .. « واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولاتك في ضيق
ما يذكرون .. عزاء جميل من رب العالمين لنبيه الكريم في هذا الموقف الذي
فقد فيه سبعين شهيداً من أكرم صحابته ، وأعز أوليائه !

ثم يحتتم المشهد بهذه الخاتمة التي تدعو إلى التقوى وإلى الإحسان : « إن الله
مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .. ومن التقوى والإحسان .. العفو عن
الجاهلين وملافة إساءتهم بالإحسان ، والغفران .. ويدرون بالحسنة السيئة ..
« ادفع بالتي هي أحسن » ، (٣)

(١) سورة النحل: الآيات ١٢٦ — ١٢٨ (٢) سورة الرعد: آية ٢٣ .

(٣) سورة فصلت: آية ٣٤ .

أرأيت إلى هذا اللطف الذي يحف الله به نبيه في هذه المحنة القاسية التي مسّت
شخاف قلبه ؟ ثم أرأيت إلى تدبير الله سبحانه وتعالى في هذه المداخل التي دخل
بها إلى قلب النبي ليتجه به إلى جانب العفو والمغفرة ؟ لقد عاتب الرسول في رفق ،
وعزاه في حكمة ، ودعاه إلى حضرة في إعزاز وتسكريم .

ويلقى الرسول هذا التوجيه السماوي بالرضا والقبول . فيقول : د بل
ننقى ونصبر ، !

o o o

ومن ينابيع الرحمة ، التي تفيض بها الشريعة الإسلامية هذا اليسر الذي
تقوم عليه أحكامها . فإنها الشريعة التي اختير لها الطريق الوسط بين الشرائع
السماوية كلها . وهو سمة الإسلام ، وسمة أهله . قال تعالى : . وكذلك جعلناكم
أمة وسطاً ، لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً ، (١) .

والوسط في كل شيء هو مركز الاعتدال فيه . ومكان القلب منه . !
وطبيعي أن فوق الوسط منزلة أعلى منه ، وأنه ليس هو غاية السجل . .
ولكنه مع هذا هو خير في مجموعه مما فوقه . . لأنه أثبت وأدوم ، ولأنه أقرب
إلى متناول الناس . . إن لم يكن الناس جميعاً ، فالأغلب الأعم منهم . .

إن الاعتدال في أي شيء ، وفي كل شيء يحتمله الناس ، ويقدرّون على
الوفاء به ، ويصبرون على مكروهه . . أما ما فوق الوسط فهو أمر لا تحتمله
أكثر النفوس ، ولا تصبر عليه . . وقد يرتفع الإنسان إلى أكثر مما يحتمل ،
فيختل توازنه ، ويسقط في الهاوية ، ولا تكون السلامة والعافية إلا حيث
الاعتدال الذي يجد فيه الإنسان القدرة على التحرك إلى فوق أو إلى تحت ، وهو
في تلك الحركة لا يخرج عن المقام الكريم اللائق به حيث يظل بالمنزلة التي
يشرف منها على الأرض ، ويشارف فيها السماء !

قد يقول بعض الناس إن الوسط ، لا طعم له ، ولا ذاتية له .. إنه أشبه
شئ بالخط الوهمي .. إنه ليس شيئاً ، ولا ضد شئ .. إن القسمة في الأمور
إنما هي الشئ وما يقابله : الخير ، والشر .. الأبيض ، والأسود .. الحلو ،
والمر .. الجميل والقيبح .. والوسط الذي يفصل بينهما ليس إلا خطأ وهمياً .
أما الذي يأخذ صفته من هذين الطرفين ، فيأخذ شيئاً من هذا وشيئاً من ذاك
فهو دخيل عليهما ، لصيق فيهما .. يضاف إلى هذا مرة ، وإلى ذاك مرة حسب
الصفة الغالبة عليه من أى منهما .

والشئ الذي على تلك الصفة شئ باهت اللون ، واهى الأساس .. لا يمسك
بشئ ، ولا يمسك به شئ !

انظر .. الماء الفاتر .. وهو وسط بين الحار والبارد .. لا يصلح للاستحمام
ولا يساغ للشرب !

والشراب المز .. وهو وسط بين الحلو والمر .. لا طعم له .. قد جمع بين
الضدين ، وخلط بين المتناقضين .

هذا في الماديات . فإذا ذهبت إلى المعنويات وجدت أن التوسط فيها ،
والوسط منها ليس هو غاية الكمال فيها ، ولا نهاية الخير منها .. بل إنه كلما بلغ
المرء فيها منزلة وجد فوقه منازل أخرى أكرم وأفضل .. ولهذا كان التفاضل
بين الفضلاء ، وكان الفضل للسابق المتقدم ، والحظ الأوفر لمن جد في الطلب .
وتقدم الركب .. فالعلم والتقوى ، والإحسان ، والجهاد في سبيل الله ، والصبر
على المكروه ، وغيرها من الفضائل التي يتميز بها الأخيار من الأشرار ، هذه
الفضائل لا ينازع أحد في أن الاستزادة منها استزادة من الخير ، وأن القول
بالتزام حد الوسط منها هو غاية الغايات فيها قول مردود . وكيف وقد علم
الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم أن يدعو فيقول : « رب زدني علماً » (١) .. وهو
الذي بلغ غاية العايات من العلم الذي لا يبلغه من البشر غيره ؟ وكيف والله

سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى التسابق في مجال الخير فيقول سبحانه : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » (١) . ويقول : « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » (٢) . لقد فتح المجال للتنافس بين المتنافسين على مصراعيه بلا حدود .. فما تأويل هذا ؟

ونقول إنه غير منكر أن فوق حد الوسط منازل كثيرة للفضل ، وأنه غير محجور على الناس أن يرقوا إليها ، وأن يتنافسوا فيها . . . إن الطريق إلى الكمال مفتوح للناس جميعاً . . ليس عليه حارس . . فكل من وجد في نفسه القدرة ، وأنس منها الاستعداد على مجاوزة « نقطة » المرور أن يضع قدمه على الطريق ، وأن يسير إلى حيث يبلغ جهده !

ولكن هذا شيء ، والتشريع العام شيء آخر ..

التشريع إلزام . وهذا عن تطوع واختيار !

التشريع عقد بين صاحب الشريعة وبين أتباع هذه الشريعة . فهم مطالبون بالوفاء بها . . إذا قصرُوا حوسبوا على تقصيرهم وأخذوا به ، ولا كذلك ما كان عن تطوع واختيار ! يستطيع الإنسان أن يمتصيه ! ويكف عنه !

والتشريع حين يكون عاماً تقتضي الحكمة فيه أن يكون قائماً على معيار يسهل الناس جميعاً . الأقوياء والضعفاء . كما تقتضي رحمة الخالق بعبادة أن يكون التكليف مقدرأعلى ما يحتمل الضعفاء لا الأقوياء ، وأن يكون مافي الأقوياء من قدرة على احتمال ما فوق التشريع هو فضل من فضل الله عليهم . . يردادون به كمالات فوق الكمال الذي بلغوه بأداء ما كلفوا به .. فإنه « ما على المحسنين من سبيل » !

وهنا يتضح معنى الآية الكريمة « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (١) ، فإن أي نفس لا تضيق بالتشريع الذي قد على قدر الضعفاء ، وفصل على مدى احتمالهم ! وما تسع نفوسهم .

لهذا كان تشريع الإسلام كله مضبوطاً على هذا التقدير . وكانت سيرة الرسول

في المسلمين ، وأدبه لهم ، قائماً على هذا الصراط المستقيم ، صراط الله الذي له
مافي السموات وما في الأرض ..

يقول الرسول صلوات الله ، وسلامه عليه : «سيروا بسير أضعفكم» ،
فوكب الإسلام موكب ملاحظ فيه جانب الضعفاء في ماديات الحياة
ومعنوياتها ، فلا يوطأ فيه الضعفاء بالأقدام ، ولا يتخطاهم الركب .. ١٠
وهذا إعلان من نور ، وصحيفة مشرقة مسطورة بيد الرحمة والحكمة السماوية
بمكانة الإنسان ، وقيمه عند الله .

فالإنسان شيء عظيم عنده .. ينبغي ألا يضيع بحال أبداً .. وعلى الجماعة ،
أن تتقيد به ، لا أن يتقيد هو بها ، ومن حق الإنسان الفرد أن يحيا في الجماعة ،
وأن ترعى الجماعة هذا الحق ، بل وأن تضحي بالكثير من جانبا لأجله .. ١١

فأين هذا مما تدور عليه حياة كثير من المجتمعات في هذا العصر ، عصر المدنية ،
وعصر النور كما يسمونه ؟

إن الإنسان في كثير من هذه المجتمعات لا يعدو أن يكون أداة من أدوات
الإنتاج ، وأن مكانه في الجماعة على قدر ما يمدى من محصول ! فإن لم يكن من القوى
المنتجة فليلق به في عرض الطريق ، وليذهب طعاماً للجوع والحرمان !

وأين هذا الذي يلقاه الضعفاء في ظل المدنية الحديثة من امتهان وازدراء
من هذا العطف والحنو ، والرعاية التي يلقونها في ظل الدعوة الإسلامية وتحت
جناحها ؟

رأى نبي الإسلام شيخاً من اليهود قد ضعف بصره ، وذهبت قوته وهو
يتكفف ، فقال الرسول الرحيم .. «ما أتصفناك ..» ثم فرض له في العطاء !

وليس هذا شأن الإسلام مع الإنسان وحده ، بل إنه مع كل حي .. من
حيوان وإنسان ..

فقد نهى الإسلام عن تجويع الحيوان ، أو إرهاقه بالعمل .. فإن ذلك ظلم
كظلم الإنسان للإنسان .. له جزاءه السيء عند الله ..

ويكشف نبي الإسلام للناس عن صور من هذا المصير الذى يصير إليه أولئك
التمساة الذين يؤذون مخلوقات الله ..

يقول النبي الكريم : عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت ، فدخلت فيها
النار .. فلاهى أطعمتها ، ولاسقتها ، ولاهى تركها تأكل من خشاش الأرض ..

كما يكشف النبي الرحيم عن المصير الكريم ، والجزاء الحسن الذى يلقاه أصحاب
القلوب الطيبة الرحيمة فيقول صلوات الله وسلامه عليه : وبيننا رجل يمضى فاشتد
عليه العطش فوجد برأ ، فنزل ، فشرب ، ثم خرج .. فوجد كلباً يلمث ، يلعن الثرى
من العطش فنزل فملا خفه ، فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ..

والحيوانات التى أحل الله لنا أكلها بعد ذبحها . يجب أن نرفق بها إلى آخر
لحظة من حياتها .. يجب أن تدبج ذبحاً حسناً . فلا يطول إيلاؤها وتعذيبها ؛ فيقول
النبي الرحيم : « إذا ذبحتهم فأحسنوا الذبحة » .

والحيوان المؤذى كالمقرب والشعبان ، وغيرها مما يتأذى الناس بمقامهم بينهم
يلبغى إذا قتلناه أن نقتله من غير تعذيب له .. فنقتله لنُدفع أذاه ، لالنتشفى منه :
« وإذا قتلتم فأحسنوا القتل » .

ذلك هو تدبير الإسلام فى رعاية الضعفاء والرفق بهم ، سواء أكانوا من
الإنسان أو الحيوان .

فإذا ظهرت فى هذا العصر بعض الدعوات التى تنادى بالرفق بالحيوان ،
فإنها على ظاهرها الطيب البهيمى - ليست نابعة عن طبيعة أصيلة ، وإنما هى
صورة من صور التعويض عن الجوانب المفقودة فى الإنسان من عاطفة الحب
والرحمة ، بحيث استحكمت فى الناس رغبات التحكم والقهر والسيطرة من جانب
الأقوياء على الضعفاء ، أممراً وأفراداً ، وحيث تجلت هذه النزعات الخبيثة الوحشية

في تلك الحروب المروعة المدمرة التي تأتي على الأمم ، وتحصد الناس بنير حساب ، وتغرق في بحورها العميقة الأطفال والشيوخ والنساء بلا رحمة . فكان هذا المظف البادى على الحيوان هو في الواقع تكفير عن هذه الجرائم ، وتبرير لها ، في حال معاً .

وقد يسأل سائل : كيف تمضى الحياة بهذا الركب الذي يدعو الإسلام الناس فيه إلى أن يسيروا بسير أضعفهم ؟ وهل يستطيع مثل هذا الركب ، السلفاء ، أن يبلغ غاية ، أو يحقق مقصداً ؟ أليس هذا هو سر تخلف المجتمع الإسلامى وسبب ضعفه وتخاذله بين المجتمعات الإنسانية ؟ وماذا يرجى لسائر يسير هذا السير الواهن المتخاذل بينما الناس يشدون وينطلقون ؟ ماذا يرجى لهذا الإنسان غير التخلف والضعف والقصور عن أن ينال شيئاً من طيبات الحياة التي تمتلئ بها أيدي الجادين المنطلقين فيها ؟

ونقول : إن الذي يدعو إليه الإسلام في أن يسير المجتمع الإسلامى بسير الضعيف ليست غايته توهين قوى الأقوياء ، وإطفاء جذوة الحماس المتقددة فيهم . بل هو ما هي سبب للضعفاء على إطلاق القوى الكامنة فيهم ، وبهئها من رقدتها . عن طريق الغيرة والتنافس والدوى التي تصيبهم من جانب الأقوياء .

إن تدبير الإسلام في هذا هو أن يجعل من طاقات الأقوياء ، ومن الحرارة والحماس الذي مالا صدورهم . دفئاً يملأ صدور الضعفاء بالأمل والرجاء ، ويطرد من كبائهم هذا اليأس الذي يغتال كل رغبة دافعة إلى السير في ركب الحياة .

إن الذي يريده الإسلام بهذا التدبير هو استنقاذ هذا العدد العديد من ضعفاء النفوس . أصحاب الهمم الفائرة ، والعزمات الخائرة ، حين يطفئ عليهم الركب القوى فيضمهم إليه ، ويدعوهم إلى السير معه .

ولا شك أن في هذا كسباً كبيراً للجماعة ، وزيادة غير قليلة في رصيدها من القوى العاملة في الحياة ، بهذا العدد الكبير الذي يضاف إليها من الضعفاء الذين لولا هذا التدبير الحكيم لذهبوا مذاهب الضياع .

إن إطلاق أقوياء إطلاقاً لا التفات فيه إلى الضعفاء يوقع اليأس في قلوب المتخلفين فيظنون حيث هم ، إذ لا أمل لهم في اللحاق بالناس .

وربما بدا لبعض القائلين أن يقول : ولم لا يقع العكس ، وهو أن تبنى العدوى من الضعفاء إلى الأقوياء ، فيتحول الركب كله إلى دسلحناء ، لا تتحرك أبداً . أو تتحرك إذا تحركت في تناقل وبطء ؟

ونقول أيضاً : إن هذا القول مردود لأمر :

منها أن الإنسان مدعو من جانب ذاته وحب تحصيل الخير لشخصه أن يسعى ويعمل ، وأنه إذا وجد الجادين العاملين استولى عليه دافع يدفعه إلى مساهمة الناس واللحاق بهم . وخاصة إذا وجد أنه لن يفرق في لجج الحياة أبداً إذا اندفع مع المندفعين وخاتمه قواه . لأنه سيجد أيدياً كثيرة تمتد إليه ، وتستندقه ، ولا تدعه وشأنه يلقى مصيره .

وهذه هي فائدة السير بسير الضعفاء . . إنه يعطى إحساساً للضعفاء أنهم لو انفكوا وانطلقوا ، فإن يتحركوا إذا غارت قواهم ، وأدركهم الجهد والإعياء . وهذا لا يترددون عن الإقدام والمناصرة والاندفاع .

ومنها أن الإنسان — في الركب الإسلامي — مدعو إلى العمل والكفاح ، وذلك فوق ما في نفسه من دوافع للعمل والكفاح حفظاً لحياته — وأنه إذا قصر في ذلك عند مخالفاً لشرعية دينه التي تحت على العمل وتدعو إليه . وتجهله ضرباً من ضروب العبادة والقربى إلى الله .

يقول النبي الكريم « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » ، وليس اتقان العمل في مجرد تجويده ، وإحسان صنعة كما يفهم كثير من الناس ، وإنما من تمام إتقانه الجد في أدائه . وإفراغ ما في الوعاء لإنجازه في سرعة . وفي إتقان .

هذا ، وليست دعوة الإسلام — هذه بالتي تأخذ على الأفراد طريقهم

في الانطلاق إلى غاية ما تحتل طاقتهم . فإن كل فرد له في مجال عمله أن يطلق كل قواه ، وأن يتحرك في كل مجالاته ، ما دام لم يعتمد على أحد ، أو لم يفوت حقاً على أحد . .

فالناس في ظل هذه الدعوة في حرية مطلقة للعمل حسب طاقتهم واستعداداتهم . . ولكن الذي تدعو إليه تلك الدعوة هو أن تنسق حركات الناس حين يكونون في عمل جماعي يقتضى أن يعملوا له جميعاً ، سواء أكان ذلك في شئون الدنيا أم في شئون الدين كالسير إلى الجهاد لملاقاة العدو . فإن واجب الجماعة أن تسير في ركب واحد وأن تنظر إلى الجانب الضعيف منها ، فلا تحمله على ما عند الأقوياء من قوة . . أما إذا لاقوا العدو فعلى كل مقاتل أن يعطى كل ما عنده من قوة . . فلا يقع - مثلاً - أن يسير على بن أبي طالب في مضاربة العدو بسير حسان بن ثابت ، وإن كان ذلك واجباً أن يكون في حال السير إلى جهة القتال ، لا في ميدان القتال ، والنحام المعركة .

وفي الصلاة - صلاة الجماعة - ينبغي أن يكون أداء الصلاة على قدر طاقة الضمءاء ، حتى لا يكون في أدائها ما يشق على المرضى والعجزة والشيوخ . . وهذا ما يشير به الحديث : « من أم فليخفف » .

ومن جهة أخرى . . هل مطلوب الحياة من الناس أن يهجروا حتى يلهثوا ، وحتى تقطع أنفاسهم ؟

إن الاعتدال في العمل ، والموازنة بين الحركة والسكون ، وبين العمل والراحة ، فيه الكفافية كل الكفافية لحاجة الإنسان في الحياة ، وتكميل مطلوباته منها .

ومن جهة ثالثة ، فإن دعوة الإسلام هذه راحة بالأقوياء أن يشقوا على أنفسهم وأن يهجروا كل طاقتهم في سكرة الانطلاق وحميا التزامهم والتنافس . . فكثيراً ما يذهل الإنسان عن نفسه ، وينسى ما ينبغي أن يكون لبدنه ، وعقله

من حق في الدعة والراحة . . وكثيراً ما يكون هذا سبباً في انحلال قوى الإنسان ، انحلالاً مفاجئاً ، فيفسد جهازه ، وتتعطل ملكاته ، ويصبح غير صالح للعمل القليل ، فضلاً عن الكثير . وفي هذا يقول الرسول الكريم : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، . . ولمل فيما نرى في المجتمعات الأوربية والأمريكية التي جرفت تيارات الحياة المادية ، وألغتها مياط التنافس ، والتسابق في الحصول على المال — لعل فيما نرى من الآثار السيئة التي أصيب بها الناس من انحلال في القوى الجسدية والعقلية فوق ما أصيبوا به في قواهم الروحية — لعل في هذا شاهداً ودليلاً .

نعود بعد هذا إلى ما في مقررات الدعوة الإسلامية من مظاهر اليسر والرحمة بالناس . . ففي القرآن الكريم ، وفي سنة النبي القولية والعملية منهج واضح متكامل لتربية المجتمع الإسلامي وإقامته على طريق الاعتدال في أموره جميعها ، الديني منها والدنيوي على السواء ففي القرآن الكريم :

يقول الله سبحانه وتعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (١) . ويقول سبحانه : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ، الذي يجدره مكنوياً عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » (٢) . لقد كانت الديانات السابقة تأخذ أتباعها بأفواج من العقاب ، لما كان منهم من عناد ، وبغى وظلم ، فتحرم عليهم بعض الطيبات التي كانت من قبل حلالاً لهم ، كما يقص القرآن من أنباء بني إسرائيل : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدمهم عن سبيل الله كثيراً ، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكسبهم أموال الناس بالباطل » (٣) ، « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر

(٢) سورة الأعراف : آية ١٥٧

(١) سورة البقرة : آية ٢٨٦

(٣) سورة النساء : آية ١٦١

والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما ، أو الحوايا ، أو ما اختلط
بعضهما ، ذلك جزيناكم بينهم » (١) .

وقد جاءت الشريعة الإسلامية فرفعت هذا الحظر ، وأباحت لأتباعها كل
طيب : « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ،
وطعامكم حل لهم » (٢) . « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه
إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل
لغير الله به » (٣) . « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من
الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، خالة يوم القيامة » (٤) .

ثم إن القرآن قد حمل إلى المسلمين دعوة يدعون بها الله : « ربنا ولا تحمل
علينا بصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » (٥) .
وفي هذه الدعوة الضارعة إلى الله تخفيف ورحمة .

وكثير من آيات القرآن تحمل إلى المسلمين هذه الدعوة إلى الرفق ، وإلى
الصدق في الأمور : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا وكان بين ذلك
قوام » (٦) . « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتعد
ملوماً محسوراً » (٧) .

وهل منهج أعدل وأكمل من هذا المنهج الذي دعا الله إليه نبيه ، وهل أدب
ينظر هذا الأدب الذي أخذ به في قوله تعالى : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ،
وأعرض عن الجاهل » (٨) .

فهل رحمة بعد هذه الرحمة التي تحف بالمسلم ، وتوف عليه من ظلال شريعته
السمحاء ؟ إن الذي يستقيم على شريعة الإسلام لا تتعثر خطاه ، ولا ينقل

- | | |
|----------------------------|------------------------------|
| (١) سورة الأنعام آية : ١٤٦ | (٢) سورة المائدة : آية ٥ |
| (٣) سورة الأنعام : آية ١٤٥ | (٤) سورة الأعراف : آية ٣٢ . |
| (٥) سورة البقرة : آية ٢٨٦ | (٦) سورة الفرقان : آية ٦٧ . |
| (٧) سورة الإسراء : آية ٢٩ | (٨) سورة الأعراف : آية ١٩٩ . |

ظهره ، إنه يلب في ركب الحياة نشيطاً قوياً ، لا تثقله قيود ، ولا توهم نواه أعباء . إذ أن كل ما نكلفه الشريعة به هو في واقع الأمر زاد عتيد ، يعينه على الحياة ، ويثبت أقدامه فيها ، وليست تلك التكاليف مما يهبط الإنسان ويحطم ظهره ، هي حمل على كل حال ، ولكنها لا تعدو أن تكون ذلك الحمل الذي يحمله المسافر من زاد يزود به ، وعتاد يعينه على الطريق !

الرحمة عنوان الإسلام : والإله الذي يتوجه إليه المسلمون بصلاتهم وولائهم هو « الرحمن الرحيم » ، وليس « رب الجنود » كما تدعوه اليهود . . !

الإنسان في القرآن :

الإنسان — من حيث هو ذات لها وجودها الخاص هو في واقع الأمر متوجه الرسالات السماوية ومناطق أوامرها ونواهيها . . فغاية هذه الرسالات هداية الناس ، وإسعادهم ، وتوثيق روابط الألف والمودة بينهم .

والفرد هو القوة العامة في الخلية الإنسانية . فإذا صلح الفرد كان لبنة صالحة في بناء تلك الخلية . وعلى قدر ما في الخلية من أفراد صالحين يكون حظها من الصلاح ، ومكانها في بناء المجتمع الإنساني !

الحياة تجري على هذا الناموس . من الذرة يتكون الجبل . ولا تقوم الشجرة العظيمة إلا من البذرة ، ولا النخلة الباسقة إلا من النواة . ولا تكونت الأنهار العظيمة إلا من قطرات المطر . . قطرة قطرة .

كذلك المجتمع الإنساني . هو مجتمع لم يأخذ هذه الصفة . ولم يجرى على تلك الصورة إلا لأنه فرد يقوم إلى جانب فرد ثان إلى جانب فرد ثالث . . وهكذا . إلى ملايين ومئات الملايين من الأفراد .

والإسلام ينظر إلى المجتمع الإنساني من خلال « الإنسان » الفرد ، فلا يرى المجتمع كتلة متضخمة من لحم ودم . وإنما يراه أفراداً مجتمعة . كل فرد له

وجوده الخاص ، وله حساب المستقل . ثم له حساب آخر فى رصيد المجتمع
الإنسانى الكبير .

يتحدث القرآن عن الإنسان فى أول آية نزل بها جبريل على الرسول الكريم :
« اقرأ باسم ربك الذى خلق . . خالق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم
الذى علم بالقلم . . علم الإنسان ما لم يعلم » (١) .

فأفراد الإنسان هنا غايته الإلفات إلى ذاتية الإنسان الفرد ، وأنه خلق خلقاً
مستقلاً . خلقاً سبق خلق الناس . فالإنسان هو الأصل . . والناس لامفهوم لهم
إلا بالإنسان . ويتكرر هذا المعنى فى القرآن أكثر من مرة . فيقول تعالى فى
موضع آخر : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه » (٢) . « فآله خلق
الإنسان . . ومن الإنسان كان الناس » ويقول سبحانه : « ولقد خلقنا الإنسان
من سلاله من طين » (٣) والإنسان هو مخلوق الله ، والناس من الإنسان . ويقول
سبحانه : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ، نبئليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً » (٤) .

لأفراد الإنسان فى تلك الآيات التى تتحدث عن خلق الإنسانية ونشأتها
لا يمكن أن يكون لغير علة . فما وردت إشارة فى القرآن إلى خلق الإنسان إلا فى
هذه الصورة المفردة ، وحق حين يخاطب الناس ويلفتون إلى نشأتهم لا يطلق
الخطاب عاماً . وإنما يردده إلى الإنسان الفرد . « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر
وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل ، لتعارفوا » (٥) .

فالشعوب والقبائل لم تخلق هكذا شعوباً وقبائل ، وإنما جمعات من المخلوق
الفرد ، وهو الإنسان ، من ذكرو أنثى . فالفرد أصل ، والمجتمع وليد هذا الفرد ،
وثمره بذراته .

-
- (١) سورة العلق : آيات ١ - ٤
(٢) سورة ق : آية ١٦
(٣) سورة المؤمنون : آية ١٢
(٤) سورة الإنسان : آية ٢
(٥) سورة الحجرات : آية ١٣

وبهذا التقدير كانت نظرة الإسلام إلى المجتمع الإنساني . . الفرد أولاً ، ثم الجماعة بعد هذا ، فهو يشد بناء الفرد ، ويقيم وجوده ، ويدعم كيانه ، ثم يبعث به عضوًا صالحاً يأخذ مكانه في كيان أكبر منه هو كيان الأسرة ، ثم هو مع الأسرة في كيان أكبر . . هو المجتمع .

والتشريع الإسلامي يخاطب الفرد ويوجه إليه أوامره ونواهيه . . يخاطبه باعتباره ذاتاً مسئولاً عن أعماله ، محاسباً عليها . ويخاطبه باعتباره خلية حية في كيان المجتمع ، يصيبه ما يصيب هذا المجتمع من خير أو شر .

ثم يكون حصاد هذه الأعمال الذي يحصده المجتمع من الخلق الإنساني للحياة موزعاً على العالمين جميعاً . كل حسب ما بذل من جهد ، وما عمل من عمل : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها » (١) . « من يعمل سوءاً يجز به » (٢) ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (٣) .

وفي القرآن الكريم سورة سميت باسم الإنسان . . وفيها الخطاب موجه إلى الإنسان الفرد في آياتها الأولى ، وموجه إلى الإنسانية في الآيات التالية . « يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذي خالقك ، فسواك فبدلك ، في أى صورة ما شاء ركبك . . كلا ، بل تكذبون بالدين ، وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين ، يعلمون ما تفعلون . . » (٤) .

والذى يتدبر آيات الكتاب في هذا الأمر يجد تصريفاً عجيباً في توجيه الأوامر والنواهي هذا التوجيه المردد بين الفرد والجماعة . .

فآيات الأحكام كان من شأنها أن تجيء في صورة الخطاب الجماعى ، لأن شريعة الإسلام شريعة عامة لكل من يدين بها من الناس — فالصلاة ، والزكاة ،

(٢١) سورة النساء : آية ١٢٣
(٤) سورة الانفطار : الآيات ٦ - ٩

(١) سورة فصلت : آية ٤٦
(٣) سورة الزلزلة : ٧ ، ٨

والصيام ، والحج فرائض عامة على المسلمين جميعاً — هذه الآيات قد جاء فيها الخطاب جمعاً كما جاء مفرداً .. يخاطب الجماعة حيناً ويخاطب الفرد حيناً .. وأحياناً يزوج بينهما ، فيجمل الخطاب في صدر الآية للفرد ، ثم يجعله في آخرها للجماعة ، أو العكس .. فن الآيات التي توجه فيها الخطاب للجماعة ، قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واركعوا مع الراكعين » (١) . . وقوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » (٢) . وقوله سبحانه : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » (٣) .

ومما جاء فيه الخطاب مفرداً قوله تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً . فهو له قرين » (٤) . « من عمل صالحاً فلنفسه . ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » (٥) . « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فلاقه . فأما من أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً » (٦) .

ومما توجه فيه الخطاب إلى الفرد والجماعة معاً على الوجهين تقديمياً وتأخيراً :

قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا » (٧) .

وقوله سبحانه : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » (٨) .

وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، وماواه جهم وبئس المصير » (٩) .

- (٢) سورة الحديد : آية ٧
(٤) سورة الزخرف : آية ٣٦
(٦) سورة الانشقاق : الآيات ٦ — ٩
(٨) سورة النور : آية ٢

- (١) سورة البقرة : آية ٤٣
(٣) سورة التوبة : آية ٢٩
(٥) سورة فصلت : آية ٤٦
(٧) سورة المائدة : آية ٣٩
(٩) سورة الأتفال : آية ١٦ .

ونقف هنا وقفة قصيرة عند تلك الآيات التي زاوجت بين خطاب الفرد
وخطاب الجماعة . . نقف للشهد منهجاً رائعاً من مشاهد الإعجاز القرآني ففي
الآيات من روائع الإعجاز ما يملك على الراء مشاعره ، فلا يكاد يدري ما يصنع
إنزاهها . . ولو جاز السجود لغير الله لكان هذا القرآن أحق ما يسجد له !

فانظر في قوله تعالى : « والسارق والسارقة فانقطعوا أيديهما » !

جاء الخطاب في صدر الآية محدثاً عن المفرد : السارق ، والسارقة ، ثم جاء
الحكم موجهاً إلى الجماعة . .

ذلك أن السرقة إنما تقع في أغلب الأحيان من الفرد الواحد ، ولا نتفع من
جماعة إلا نادراً ، وفي هذه الحال تأخذ صورة غير صورة السرقة فتكون غصباً ،
أو قطع طريق .

أما تنفيذ الحكم ، وإقامة الحد على السارق ؛ فهو إلى الجماعة التي خرج الفرد
على نظامها . وخالف شريعتها !

فإقامة النظام وتنفيذ أحكام القانون — الشرعي أو الوضعي — واجب
على الجماعة . . إن فرطت فيه ، أو تخاذلت عنه كانت آثمة في حق نفسها معرضة
للقوضى والضياع .

وكذلك الشأن فيما في الآية الثانية : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد
منهما مائة جلدة » .

أما الصورة الثالثة : « يأبى الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا
توليهم الأدبار » . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال . أو متحيزاً إلى فئة .
فقد باء بفضب من الله . وماواه جهنم وبئس المصير » .

ففي هذه الصورة : جاء التوجيه عاماً للذين آمنوا عند لقاء الكفار ، ونهوا عن
أن يولوا عدوهم الأدبار . وأن يفروا من ميدان المعركة .

وهذا التوجيه ملزم للمسلمين جميعاً أن يستقيموا عليه في ساحة الحرب . .

وقد تسمح قيادات المسلمين جميعاً ، وينتقد عزمهم على تنفيذ هذا التوجيه الملزم ،
والأخذ به .

ولكن حين تدور رحى الحرب ، ويحمى الوطيس ، قد تنحل بعض العزائم ،
وتستكره بعض النفوس ربح الموت . فيدعوها ذلك إلى التمسك في الفرار .
أو المسارعة إليه ..

وهنا موقع الإعجاز فيما جاء في الآية من إحكام وتدبير ؛

ومن يؤلمهم يومئذ دبره الامتحرافاً للقتال أو متحيزاً إلى فئة . فقد باء بغضب
من الله . . .

إنها تمسك بالمقتاتين من المسلمين فرداً فرداً . لتقول له : اذكر أنك إذا وليت
ظهرك العدو - الامتحرافاً للقتال ، متحيزاً مكاناً مناسباً ، أو متضماً إلى جماعة من
إخوانك — إنك إن أعطيت العدو ظهرك فاراً من ميدان القتال ، فقد رجعت
محملاً بغضب من الله ، على حين ترجع جماعة المسلمين بثواب عظيم ورحمة
ورضوان . سواء منهم من رجع إلى الله مستشهداً في ميدان القتال ، أو رجع إلى
بيته سالماً أو جريحاً . .

* * *

ونعود إلى موقف القرآن من الإنسان . .

ولسأل بعد هذا ؟

أهناك نظام اجتماعي سليم معاني من أدواء الانحلال والتفسيخ — يقوم على
وحدات من الأفراد لا ترابط بينهما . كل فرد فيها عالم وحده . يعيش بنفسه
ولنفسه . أو يقوم على جماعة قد اندمجت فيها الأفراد اندماجاً كاملاً حتى ذابت
ذاتية الفرد . وذهبت معاملته ؟ ؟

هل هناك مجتمع على هذه الصورة أو تلك ؟

ربما ؛

يحدث جان جاك روسو في كتابه «العقد الاجتماعي» عن صورة متخيلة غير
مختلفة فالمجتمع الأول .. المجتمع الذي تتأثر فيه الأفراد كما تتأثر قطع الأحجار
على صدر الصخراء .. كل فرد يعيش منفقاً على نفسه . لا يشعر بأحد
ولا يشعر به أحد ..

يقول « روسو » :

« ولا يبق بعد ذلك سوى دين الإنسان (١) ، أو المسيحية .. للمسيحية
اليوم ، ولكن مسيحية الإنجيل وهي تختلف عنها تماماً .

« فبمقتضى هذا الدين المقدس السامى يترف الناس - وهم جميعاً أبناء نفس
الرب - بأن الجميع إخوة ، وأن المجتمع الذى يؤلف بينهم لا يحل حتى الموت .

« بيد أن هذا الدين المالم تكن أية علاقة خاصة بالجسد السياسى - فإنه - يترك
للقوانين - السامرية - القوة الوحيدة التى تستمدّها من ذاتها ، ولا يضيف إليها أية
قوة أخرى ..

« وبذلك تظل رابطة من روابط المجتمع الخاصة - بلا أثر ..

« وأكث من ذلك .. فبدلاً من أن يربط قلوب المواطنين بالدولة ، يبعدها
عنها . باعتبارها من أشياء الدنيا ..

« ولعلت أعرف شيئاً أكثر تناقضاً مع الروح الاجتماعية من ذلك .

ويسطر « روسو » فيقول :

« ويقولون لنا : إنه إذا أوجله شهب من المسيحيين الحقيقيين . فإنهم
يؤلفون مجتمعا ، هو أكثر المجتمعات التى نستطيع أن نتصورها كمالا ..

(١) أى النظام الذى يجعل الإنسان وحدة قائمة بذاتها ، لا صلة لها بمن حولها .

« وأنا لا أرى في هذا الفرض سوى صعوبة كبرى واحدة ، هي أن المجتمع
المكون من مسيحيين حقيقيين لا يعود مجتمعاً من بشر .

، بل وأقول أيضاً إن هـ . المجتمع المزعوم لن يكون — رغم كل هذا —
أقوى المجتمعات ولا أدومها .

، فبقدر كماله ستوزع الرابطة ، وستكون جرثومة هلاكة في كماله ذاته . . .
— أى في هذا المجتمع المثالي .

« فكل إنسان سيقوم بواجبه : يخضع الشعب للقانون ، والرؤساء عادلون
ومنصفون . والحكام يخلصون ولا يفسدون . ، والجنود يحترمون الموت .
ولن تكون هناك خيلاء ولا ترف وكل ذلك جميل جداً .

« ولكن دعنا ننظر فيما هو أبعد من ذلك :

« إن المسيحية دين روحاني تماماً . لا تشغله سوى أمور السماء وحدها .
فوطن المسيحي ليس في هذا العالم . .

« وصحيح أنه يقوم بواجبه : ولكن يقوم به بعدم مبالاة عميقة بنجاح ما يعمد
به لإليه أو فشله ، فهو إذ لا يحده ما يلوم عليه نفسه . لاسمحوا كثيراً أن يسوء
الحال أو ييسر على هذا الأرض .

« فإذا ازدهرت الدولة لا يكاد يحرق على التمتع بالبهجة العامة . ويخشى أن
يفخر بمجده بلاده . وإذا هلكت الدولة يبارك في الرب التي ألقي ثقلها على
شعبه !

ويستطرد روسو أيضاً بهذا الموقف فيقول :

« ويجب في هذه الحالة أن يكون جميع المواطنين بلا استثناء مسيحيين صالحين
على السواء . حتى يود السلام المجتمع ، ويتم التوافق .

« ولكن إذا وجد — لسوء الحظ — رجل واحد طموح . . وراء واحد
تأملينا مثلاً — أو كرومويل — فإنه سيوجد بلا ريب سوقاً رائجة في مواطنيه
الأتقياء . . فإذا استطاع واحد من أولئك أن يفرض نفسه على مواطنيه

ويستولى بخدمة ما على جزء من السلطة العامة ، فمرعان ما يصير موضع كل
تسكيريم : فمن إرادة الله أن يكون موضع احترام . . وسرعان ما يصير صاحب
سلطان ، وإرادة الله أن يطاع . . ١١

ثم يقول روسو :

« بيد أني أخطئ إذ أتكلم عن جمهورية مسيحية . . فالكلمتان متنافيتان . .
« إن المسيحية تبشر بالعبودية والطاعة . وروحها ملائمة أكثر بما ينبغي للظلمين .
ويستغل الظلمين دائماً هذه الحقيقة لصالحه . . إن المسيحيين الحقيقيين خلقوا
ليكونوا عبيداً . .

ثم يقول أيضاً :

« ويقال لنا : إن الجنود المسيحيين يمتازون . وأنا أنكر ذلك وأتحدى من
يثبت لي ذلك !

« أما أنا فلا أعرف كتاب مسيحية !

« وسيدكر لي البعض الحروب الصليبية . ولكنني دون أن أناقش في قيمة
الصليبيين أقول إنهم لم يكونوا مسيحيين ، بل جنود القساوسة ، ومواطني
الكنيسة . . فالوطن الذي قاتلوا من أجله كان وطناً روحياً ، ولست أدري كيف
جعلته الكنيسة زمدياً (١) ٢٢ ،

وليس بعد قول هذا المكاتب الاجتماعي العظيم الذي أشعل نار الثورة الفرنسية
بكتائبه وآرائه . . ليس بعد قوله من يقول إن النظرة المتوازنة التي نظر إليها
الإسلام إلى الإنسان ، حين جهل له ذاتية ، ثم جعل هذه الذاتية تعمل بإرادة .
وضمير وعقل في كيان المجتمع الإنساني . . ليس من يقول بعد هذا إن الإسلام كان
جائراً على الفرد . محقراً من شأنه . وخاصة أولئك الغربيين الذين يحاولون دائماً
أن ينزلوا من قدر الإسلام بحسبان أن ذلك مما يعلى قدر المسيحية . ويرفع شأنها !

ولكن أكثر هؤلاء القوم يعلمون من أمر الإسلام ما يعلم هذا الكاتب الحق ،
إلا أنهم يعز عليهم أن يقولوا كلمة الحق ، إذا كان فيها ما يركز الإسلام ، أو
يكشف حقيقة من حقائقه المشرقة .

يقول جرونيدياوم في كتابه ، حضارة الإسلام :

« والإسلام .. من بدايته — لم يعترف للإنسان إلا بقليل من التقدير ،
وينزع القرآن إلى إقناعه بمهانة أصله الجسدى ، فيصف خاق الفرد وتكوينه
تفصيلاً : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ،
ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا
العظام لحماً » (١) .

فإذا يريد هذا السيد من القرآن أن يقول غير هذا فى الإنسان ؟ الإنسان الذى
ينسب دائماً أنه من سلالة يرجع إليها أصل كل إنسان ؟ ماذا يقال للإنسان الذى
يحقر أخاه الإنسان . ويتخذ لنفسه نسباً آخر غير هذا النسب الذى يلتقى فيه مع
الناس جميعاً ؟

أليست هذه حقيقة خالق الإنسان ؟ ثم أليس هذا هو موقف كثير من الناس
من الذهول عن هذه الحقيقة : وتقسيم الشعوب الى منازل ودرجات ، حسب
ما يجرى فى عروقها من دم ، وحسب ما يكون لبشرتها من لون ؟

إن الإسلام لا يكافئ للإنسان عن أصله هذا إلا ليقتل نوازع التفرقة
العنصرية التى عانت البشرية منها ما عانت من ألوان التسلط والقمع ، ومن صور
الاستعباد والاستبعاد . . ولا يزال هذا الداء يخامر أمماً وشعوباً إلى يوم
الناس هذا .

يريد الإسلام بهذا أن ينزل الإنسان — كل إنسان — على حكم الآية

الكريمة : « يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وتبائن
لتعارفوا .. إن أكرمكم عند الله أتقاكم .. إن الله عليم خبير » (١) .. وأن يكون
سلوك الإنسان — كل إنسان — قائماً على هدى الرسول الكريم : « أيها الناس
إن أباكم واحد وإن أصلكم واحد .. كلكم لآدم .. وآدم من تراب ، لا فضل
لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى » .

* * *

تلك هي الرسالة التي تلقاها « محمد » من ربه ، ونصب نفسه لها ، وجاهد في
سبيلها ، واحتمل ما احتمل من ألوان الأذى والضرب من أجلها .. فكان له هذا
النصر المبين ، وكان لرسالته هذه الثمرات الطيبة المباركة في الحياة ، بما غرست في
القلوب من إيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .. وبما سمعت
للناس من مناهج الحق ، والخير والإحسان .. وتلك عقبى الدعوات الصادقة ،
والنيات الخاصة .. لا يخطئها النجاح أبداً ! وإن قامت في وجهها العواصف ،
واعترضت طريقها المعابر ، فإن يد الله قائمة عليها ، تشد أزرها وتثبت خطوها ،
وتمكن لها أسباب البقاء في الحياة .

خاتمة ... ومفتتح !!

وبعد ..

فهل فرغ حديثنا في سيرة الرسول !

وهل أخذت النفس بحفظها من حديث السيرة ، على الوجه الذى قصدت إليه ،
وتصورته ، وخططت حدوده ومعامله ؟

والحق أن حديث السيرة النبوية — حسب ما أردت — لم يبدأ بعد . .
إذ أنى حين أقلب هذه الصفحات الكثيرة التى كتبته هنا ، والتى تبلغ المئتين
عداً — أكاد أنكرها ، لأنها لم تكشف لى من سيرة الرسول بعض ما عرفت من
آياتها الوضيئة المشرقة ، ولم تقصص على من النفحات الزكية الطيبة ما كنت أجد
حين أمسك بطرف من أطراف السيرة الكريمة ، أو أورد الخاطر على منهل
من مناهلها !!

وأشهد لقد غلبنى على أمرى فى هذا البحث ما وجدت من مغريات وأباطيل
رمى بها المفترون المبطلون فى دهاء خبيث وفى حقد أعشى — رموا بهذه
المغريات فى ثنايا السيرة الكريمة ، رجاء أن يكسفوا من أضوائها ، أو يحجبوا
من أنوارها ، ثم ليكون لهم من ذلك الضلال طريق إلى الشريعة الإسلامية وإلى
كتابها الكريم ، حين قدروا ألا قيام للشريعة ولا احترام لكتابها إذا كان فى
صاحب الشريعة وحامل كتابها ما يريب أو يعاب . وهم فى هذا التقديم مصحبون
إلى عهد بعيد ، لو أنهم بلغوا ما ينفون ، ونالوا ما يمشنون ، وهيبات ، وهيبات

وكم قلنا من قبل : إنه وإن كانت للنبي ذاتية . والقرآن ذاتية — فإنهما فى
واقع الأمر كيان واحد ، وإن أى مثلية نصيب أحدهما — وهيبات — هى
قسمة سواء بينهما . إذ كان القرآن هو شريفة الإسلام قولاً ، ولذا كان النبي

هو شريعة الإسلام عملاً ، فإذا خالف قول صاحب الشريعة عمله ، أو كذب عمل صاحب الشريعة قوله لم يكن للشريعة ، ولا لصاحب الشريعة سلطان على الناس ، ولا مقام في الحياة . .

ولهذا كان أبلغ وصف وأصدق للنبي ما وصفه به ، « السيدة عائشة » ، وقد سئلت عن خلقه ، فقالت : « كان خلقه القرآن » أي أنه والقرآن كيان واحد ، فالنبي هو التفسير الحق لما نزل عليه من آيات الله .

ولاذن فلم تكن هذه المفتريات التي زحف بها الجبهة والمضللون على سيرة الرسول — لم تكن مقصوداً بها الرسول لذاته ، وإنما كانت غايتها تدمير الشريعة وصاحب الشريعة جميعاً ، ثم يأتي من وراء ذلك تدمير المجتمع الإسلامي كله ، وتضييع أكثر من أربع مئة مليون إنسان يدعون بهذه الشريعة ، ويجهلون مصيرهم إليها !

أرأيت إذن جنابة آثم من هذه الجنابة ، وأغلظ جرماً وشناعة منها ؟ فإلى أين توجه هذه الملايين ؟ وإلى أي مساق تساق هذه الأمم إذا صح تقدير هؤلاء المضللين ، فتخطت هذه الملايين عن شريعة الإسلام ونبذتها وراء ظهورها ؟

أتذهب إلى المسيحية ؟ إن أصحاب هذه المفتريات لا يؤمنون بالمسيحية ولا يعترفون بها ، وإن نسبوا إليها ، وحسبوا من أهلها ؛ لأنهم أعداء المسيحية ، وعدو لكل دين !

وما للإسلام عندهم من ذنب إلا أنه دين . . دين نزل من السماء ، ولم يخرج من التراب والطين !!

وإذا كان في المسيحية وفي أسرارها ومعتقداتها الثلاث فيها ما لا تُدسِّفه عقول هؤلاء الذين كفروا بالمسيحية ولا تفهمه فليستهم . . فهل كان ذلك شأن الإسلام عندهم ، وهل جاءوا إليه بقلوب سليمة . وعقول صحيحة فوجدوا فيه شيئاً لا يستقيم مع العقل أو يخرج على شرائط التفكير . . في أوسع مجالاته وأعرق أغواره ، وأدق مسائله ؟

هذا هو الإسلام — عقيدة وشريعة — في معرض النظر لكل ناظر ، لا يقوم
دونه سدة أو كمان ، ولا يستأثر بشيء منه أحد دون أحد . فهل جاءوا عليه
بشاهد واحد من العقل يقول فيه قولا ينكره عاقل ، أو ترده الحياة ، ويأباه
نظامها وعمرانها ؟

وكذب واقتراء ، وإمعان في الكذب والافتراء أن ينظر في الإسلام ناظر
منصف ، بعيد عن الهوى ثم يجد في الإسلام مالا يستقيم مع الحياة ، أو مالا يجري
مع من الطبيعة ونواميسها !

لقد بذر الإسلام بذوره الأولى في أفقر مكان وأجدبه ، وفي أقسى قلوب
وأصلدها ، وفي أظلم عقول وأضلها ، ثم لم يمض جيل من أجيال الناس حتى أثمر
هذا البذر أطيب ثمرات الإنسانية وأكرمها ، فخرج في جيل واحد من العلماء ،
والفقهاء ، والساسة ، والقادة ، أعداداً وفيرة ، يصلح كل فرد فيها أن يكون قائد
ركب الحياة كلها ، إلى مواطن الخير والفلاح !

ولم تكن مغارس الإسلام هذه في أمة من الأمم ، أو في شهب من
الشعوب ، بل كانت مغارسه في الإنسان من حيث هو إنسان . . ففرس في قریش
كما غرس في الفرس ، والروم ، والحبش !! لجمع إبلالا الحبشى مع عمر القرشى ،
مع عمار الفارسي مع صهيب الرومي ، ليقم لمن ذلك شاهد على أنه دين الإنسان
— من حيث هو إنسان — مجرداً من الجنس واللون والمواطن ! وأن أي إنسان
يشجعه إليه ، ويرد موارده يجد أطيب زاد للدنيا والآخرة جميعاً .

ذلك هو الإسلام .

أفليس من المدون على الحق ، والتضليل للخير أن تسكدر موارد هذا المورد
الغني ، وتعنى متبلة ، وتعلن معاملته ، أو يضلل الناس عنه أو يحال بينهم وبينه
هالك الأراجيف وهذه المبطلات ؟

ثم هذا نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام .

ماذا أخذ من دنيا الناس ، وماذا جمع من أموال ، وحصل من ذهب وفضة ،
وماذا اقتنى من ضياع وقصور ؟

أيحسب في المخادعين ، والكذابين والمسلمين من يرد كل هذه الدنيا التي وقعت
بين يديه ؟ .

وماذا ينفي الخاتل بختله ، والكذاب بكذبه ، والمنافق بنفاقه ، والمدعى
بإدعائه ، والمشعوذ بشعوذته — ماذا يريد هؤلاء ومن على شاكلتهم إلا أن
يفيدوا مالا . أو يحصلوا ثراء ، أو يستكثروا مما عندهم من المال والثراء ؟

ولقد عرفت الحياة كيف كان طعام محمد ، وكيف كان لباسه ، وكيف
كان مأواه وفراشه .

أما ماخلفه وراءه من حطام الدنيا . . فلا شيء ، إلا درعاً مرهونة عند
يهودى ، في قوته وقوت أهله .

ثم كان أن حسم الأمر جميعه فيما فرض على ورثته من بعده ألا يرثوا شيئاً
من ممتلكاته إن ترك وراءه مايورث . فقال : « نحن معاشر الانبياء لانورث ،
ما تركنا فهو صدقة » .

فلن كان هذا الجهاد الذى جاهد ، وهذا الضر الذى وجد ، وهذا الاذى
الذى احتمل ؟

لأنه لله ، وفى سبيل الله ، والحق الذى بين يديه ، وفى سبيل الامانة التى حملته
السماء لإياها ، وكلفته أداءها إلى الناس جميعاً . . « قل ما سألكم عليه أجرأ ، إلا
المودة فى القربى » (١) .

فلو لم يكن محمد ، نبياً . . أفما كان من حقه على الإنسانية — كإسان —
أن يمجده وأن يكرم ، وأن تكون سيرته فى مسمع الحياة وبصرها ، آية
للتوسمين ، ودرساً للدارسين ، وقدوة للمقتدين . لهذه المعاني الكريمة التى اشتمل
عليها ، ولهذا المثل العالية التى عاش بها ، ولهذا السمو الروحى الذى خلق فيه ؟

فأى خير فى الحياة ، وأى صلاح يرجى للناس إذا كان يحفظ الماملين المخلصين
الشرفاء الأطنهار أن يلقوا من الناس إنكاراً ، ووجوداً ، وأن يكون فى الناس
من يفتق طم الأكاذيب ، ويزيف عليهم الأباطيل ؟

ومع هذا . . فان الخير هو خير حيث كان ، وإن الكلمة الطيبة لا تسقط
أبدأ . . لأنها كشجرة طيبة . أصابها طيب وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين
بإذن ربها . .

وقد وفى الله سبحانه « محمد » أجره ، وأجزل له المشوية ، فرفع ذكره فى
العالمين ، ومكن لدعوته فى الحياة ، وجمع قلوب الملايين من الناس على حبه
والولاء له ، جيلا بعد جيلا ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو
خير الوارثين ؟

ولقد شهد « محمد » بنفسه منزلته فى قلوب أصحابه ومكانته من نفوسهم ،
حيث كان أثر عندهم من أنفسهم ، وأحب إليهم من آبائهم وأزواجهم
وعشيرتهم ، فقر بذلك عيناً ، وطاب نفساً . . هذا إلى ماقرت به عينه ، وطابت
به نفسه مما له عند ربه من رضى ورضوان ، بشر به الوحى ونطق به القرآن :
« ولأسوف يهطيك ربك فترضى » (٢) .

* * *

أقول : إن هنى فى هذا البحث — كان منصرفاً إلى مواجهة تلك
المبطلات ، والمذعيات التى ادعانا خصوم الإسلام على نبى الإسلام ، وعلى الكتاب
الذى أنزل عليه .

وكنى أقدر أن هذا الموقف لا يصرفنى عن الغاية التى قصدت إليها من هذا
البحث ، وهى الوقوف على موارد السيرة النبوية ، وإرواء النفس من رحيقها
الطيب الطهور . .

ولكن جرى الأمر على غير ما كنت أحسب وأقدر . . فلقد وجدت بين
يدى كثيراً من المفتريات والباطيل والخرافات التي تحتل مكاناً كبيراً يرحم
الحقائق المعتمدة في السيرة النبوية ، ويكاد يغلبها ، ويحزنها عن مواضعها .

ولقد شغلني هذا الموقف ، الذي ربما أكون قد أسرفت فيه بعض الشيء ،
والذي ربما يكون قد حملني فيه الحماس الديني ، والنيرة على حمى الرسول — أن
أشدد الحساب على أولئك المفترين ، وأن أضرب حتى في تلك المفتريات المبتعة
التي نهج الباطل لها أكتافاً من يوم أن ولدت . . ولم آخذ نفسي فيها بالقول
المعروف : « الضرب في الميت حرام » بل كنت أضربها مرة بعد مرة ، ولم يشفع
لها علمي أنها ميتة بأن أتركها وشأنها . . بل كان هذا العلم عندي داعية للزبد من
توجيه الضربات لها ، إذ كان مما أعلم أيضاً أن البتة الحبيثة تستمسك بالأرض
الحبيثة ، وإن تكن ما تكون من الفساد والعطب . . ١

وهذه المفتريات النكدة وإن تكن ميتة ، خامدة الانفاس ، فإنها قد
تصادف قلوباً مريضة ، أو عقولاً فاسدة ، فتبيض فيها وتفرخ ، وتنتج أشأم
مواليد . . تنصاع في كيان أصحابها بالمروق من الدين ، وبالتجديف بالكفر
والإلحاد فيه ١ .

من أجل هذا جاء ما كتبت في السيرة ، وإن كان محققاً - على ما أرجو -
لبعض الواجب في الدفاع عن حمى الرسول ورسالته - أقول قد جاء ما كتبت
في السيرة شيئاً أشبه بمن يقف إزاء المجاني الطبية من عمل النحل ، ثم يجد حولها
جماعات من الزنابير والأفاعي ، فيشغل نفسه بإجلائها عن هذا الرزق الحسن ،
والزاد الطيب ، ليأخذ ما يشاء من رزق ، ويحمل ما يستطيع من زاد ١ .
له والناس ؟

كان ذلك هو موقفي تماماً !

فلقد بحثت إلى السيرة النبوية الكريمة ، فوجدت رزقاً غنياً ، وزاداً كريماً
طيباً ، واسكن وجدت زواحف كثيرة من الضلالات ، والمفتريات . والجهالات .
تأخذ على الطريق ، وتحول بيني وبين مواردها الصافية ، وبجانيها الطيبة .

وكنت - والحال كذلك - بين أمرين:

إما أن أمضى في طريق ، متخبطاً بين سحب متكاثفة من الضباب والدخان وأقنع بصحبة السيرة في هذا الجو المظلم العاصف ، وأرضى بما يلوح لي خلال تلك الصحبة من شعاعات .

وإما أن أكشف معالم الطريق ، وأجلى هذا الضباب والدخان عنه ! حتى أملاّ العين بهذا النور العاوى . . لا يتحول بيني وبينه ضباب أو سحب .

وغير منكور أن علماءنا - قديماً وحديثاً - قد كانت لهم ضربات قاصمة لتلك الضلالات والمفتريات . وأنهم قد استطاعوا أن يجلّوا عن حى السيرة النبوية هذه المنكرات ، وأن يضعوا على الطريق معالم كاشفة بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال . . وليس على من يرد موارد السيرة الكريمة إلا أن يأخذ طريقه إليها ، وأن يسلك أى طريق من تلك الطرق الكثيرة المستقيمة الممهدة .

وكان يمكن أن آخذ طريقاً من تلك الطرق الممهدة ، وأن أتفقد آثار من سبقوا من الرواد . . كان يمكن أن أفهل هذا ، وأن أوفر الجهد الذى بذلته في محاربة هذا الباطل ، وإذاقته موتاً بعد موت !

ولكنى آثرت أن أهد لنفسي طريقاً إلى السيرة النبوية المطهرة ، وأن أجلى بيدى عنه هذه الضلالات وتلك البدع ، ليكون لي من هذا العمل ثواب المجاهدين أولاً ، ثم ليكون لي ثانياً من الطمأنينة ما يثبت أقدامى على الطريق ، فلا تهجم على خاطرة من تلك الخواطر السوداء التى ترصد غفلة القلب ، أو ضعف النفس ، فتفسد على صحبى السيرة المطهرة ، وتقطع أمداد النور التى تفيض منها . .

• • •

ولست أزعم أنني شفيت ما بنفسى من الخواطر التى كنت أجدها حيناً التقيت بهذه المفتريات والباطيل التى تسلفت إلى حى السيرة المطهرة . .

لا أزعج أننى شفيت ما بنفسى من هذه الخواطر المزعجة ، فها زلت أجد بين
يذى كثيراً من هذه الأباطيل ، لم أعرض لها فى هذا البحث ، ولم ألقها لقاء
مباشراً ، ولو وقفت منها هذا الموقف لأنفقت أضعاف هذا الجهد الذى بذلته فى
تلك المحاولة دون أن تبلغ النفس غايتها من مجاهدة تلك الأباطيل ، وتحريرتها من
أساليب الخداع والتويه الملفة فيها !

لهذا ، فقد اكتفيت بهذه الأمثلة القليلة التى سقتها فى هذا البحث ، فإنها على
قلتها تمثل أوجهاً كثيرة من وجوه الباطل التى تظهر شائبة كالحية فى معرض السيرة
النبوية ، وتطل متلخصة بين أحداثها وشخوصها المشرفة الوضيئة !

* * *

وعلى أى ، فإن ما ضمت عليه فصول هذا الكتاب يمكن أن تكون مدخلا
إلى السيرة النبوية لمن يريد أن يلتقى بها ، وأن يهبطها عقله كله وقلبه كله ، دون
أن يلتفت إلى هذه الأباطيل التى تصادفه ، ودون أن يدخل عليه منها ما يزيغ به
قلبه ، أو يضطرب له عقله ، فقد عرف فيما جاء فى هذه الفصول — إن لم يكن قد
عرف من قبل — عرف عما جاء فى هذه الفصول أن نبي الإسلام فوق الشكوك والريب ،
وأن القرآن أرسخ من الجبال فى مراسيها ، وأسمى من الكواكب فى مداراتها ..
إنه كلام الله الذى لا يأتى الباطل من بين يديه ولا من خلفه « تنزيل من حكيم
حميد » .

فأى كلام ينال من مقام النبي فى عليائه ، وأى كلام يشم منه رائحة الشك فى
أنه كلام الله ، الذى نزل به الروح الأمين ، على قلب النبي الكريم — إن أى كلام
من هذا أو ذاك هو زور وبهتان ، جاء به عدو منيظ محقق ، أو ولي جاهل أحق .
وما كان للزور أن يصد الحق عن وجهته ، ولا أن يقف له فى طريق إلا كما يقف
الغشاء وصغار الحصى فى مجرى السيل الحى المتدفق .

إن الذى يطالع السيرة النبوية المطهرة لا يستطيع أن يخلص إليها إلا بعد أن
يجتاز هذه المرحلة من القلق والأسى لما يجد فى ثنايا هذه السيرة من نفاق منصوبة ،

وشباك مهيأة ، لاصطياد الجملة والسذج ، ومن في قلوبهم مرض — بما يلتقي
لإيهام من مقابله القول ، وما يزين لهم من زور ويهتان .

على أن من كان سليم القلب ، معافى من آفات الضلال والهوى لا يحتاج إلى علم
العلماء وحكمة الحكماء حتى يجتاز هذه المرحلة ، في أمن وسلام ، وأن يلتقي بالسيرة
كما يلتقي بالقمر في ليل تمامه ، وقد خرج من وراء السحاب !

* * *

وأحسب أن هذا الكتاب ، يمثل تلك المرحلة ، التي تجابه قارئ السيرة
النبوية — وهي كما قلنا — مرحلة يعاني فيها المرء أزمت نفسيية ، وجدافية ،
وذهنية ، من هذه الضلالات والمفتريات التي اندست في ثنايا السيرة ،
وتلبست بها !

وإذن ، فليذكر هذا قارئ الكتاب ، وليعلم أنه لم يقرأ فيه سيرة الرسول
السكريم ، ولا بعضاً منها ، وإنما الذي قرأ هو إشارة بالإصبع إلى الطريق المستقيم
إليها ، وإنما هو زاد يتبلغ به من يزعم لقاء السيرة والقدس من أفواها !

ومن يدري ؟ فلعل كتاباً آخر يجيء وراء هذا الكتاب . . يتحدث عن السيرة
حديثاً بعيداً عن هذا الجو الذي انعقدت فيه سحب الخصومة واثارات الجدل . .
حديثاً يقف على حمى السيرة وقفه لإجلال ، وخشوع ، وصلاة .

فإن يبسر الله يكن من وراء هذا الكتاب ، كتاب ، وربما أكثر من كتاب ،
والله المستعان ، وهو ولي التوفيق ؟

(تم بحمد الله)

المراجع

نُتبت هنا أهم المراجع التي كانت تحت نظرنا في إعداد هذا الكتاب

أولاً : الكتب المقدسة

القرآن الكريم . . . التوراة . . . الإنجيل

ثانياً : كتب التفسير والحديث

تفسير ابن كثير .. تفسير الزمخشري .. تفسير البيضاوي
صحيح البخاري .. صحيح مسلم .. باوغ المرام من أدلة الأحكام

ثالثاً : كتب العقيدة والشريعة

الرسالة للإمام الشافعي . . . تحقيق أحمد محمد شاكر - ١٩٤٠
مقدمتان في علوم القرآن . . . (مطبعة السنة المحمدية)
النبوات لابن تيمية . . . المطبعة المنيرية - ١٣٤٦ هـ
المياسة الشرعية لابن تيمية . . . المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢ هـ
الإسلام والنصرانية .. للإمام الشيخ محمد عبده .
قضية الألوهية . لل المؤلف (جزءان) . الناشر : دار الفكر العربي .

رابعاً : كتب في التاريخ والسير

الشفاء بتعريف حقوق المصطفى . للقاضي عياض .. المطبعة العثمانية سنة ١٣١٢ هـ
السيرة لابن هشام (أربعة أجزاء) . المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٢٩ هـ
السيرة الحلبية . . . طبعة مصر سنة ١٣٣٠ هـ
الطبقات ، لابن سعد . . . طبعة صادر بيروت .
زاد المعاد ، في هدي خير العباد ، لابن القيم (أربعة أجزاء) مطبعة السنة المحمدية .

محمد رسول الله .. لإيدين دينيه . . . ترجمة الدكتور عبد الحلليم محمود.
حياة محمد ، لإميل در منجم . . . ترجمة عادل زعتر

خامساً : كتب فلسفية واجتماعية

مقدمة ابن خلدون المطبعة الأميرية سنة ١٣٢٠ هـ
حضارة الإسلام ، تأليف جوستاف جروندياوم (الألف كتاب) مكتبة مصر .
قمة الحضارة ، تأليف : ول ديورانت . طبعة جامعة الدول العربية .
تجديد التفكير الدينى الإسلامى . تأليف : محمد إقبال ترجمة : عباس محمود .
رسائل الجاحظ ، مجموعة رسائل . . . (للسندوبى) .
الزوميات ، للمعرى (طبعة صادر) بيروت .
العقد الاجتماعى ، لجان جاك روسو (الألف كتاب) ترجمة عبد الكريم أحمد .

سادساً : كتب أدبية

نهاية الأرب فى فنون الأدب ، للنويرى (طبعة دار الكتب المصرية) سنة ١٩٤٩
أدب الكاتب ، للصولى طبعة القاهرة سنة ١٣٤١ هـ .
البيان والتبيين للجاحظ (طبعة السندوبى) .

الفهرست

مقدمة	الموضوع	صفحة
٢	مقدمة	٢
٨	مقدمة الطبعة الثانية	٨
٩	صلوات وإبتهالات (الكلمة الطيبة)	٩

الباب الاول

٢٥	الاسم والمسمى	٢٥
	الباب الثاني - النبوة .. والنبي	
٤٦	هل النبوة ضرورة لإنسانية	٤٦
٥٠	بشرية الرسل	٥٠
٥٢	الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس - صفوة الحق	٥٢

الباب الثالث - المعجزة .. والإعجاز

٥٧	المعجزة	٥٧
٦٥	إمكان اتصال الانسان بالمالأ الأعلى	٦٥
٦٧	رأى ابن خلدون	٦٧
٦٨	اختلاف المعجزات باختلاف الأمم	٦٨

الباب الرابع - مصادر الرسالة الإسلامية

٧٤	شخصية الرسول	٧٤
٧٥	نخط وهديان	٧٥
٧٧	عظمة محمد	٧٧
٧٧	عظمة الانسان .. وعظمة النبي	٧٧
٧٩	موقف .. وموقف	٧٩
٨٠	ما أشبه الليلة بالبارحة	٨٠
٨١	محمد ... بعد القرآن	٨١

الموضوع

مع الجادين والمنصفين: ٩٣

لامارتين ٩٣ — ول ديورانت ٩٤ — ستانلي لين بول ٩٧

فوستيل ذو كولاوتر ٩٧ — بارتلي هيلر ٩٧ — جويستان

لوبون ٩٧ — كارليل ٩٨ — وليم ميود ٩٨ — سمورت

اسم ٩٨

دعوات الحق ونزوات الباطل ١٠٠

النبي والمتنبى ١٠٢

أنبي أم عظيم ١٠٨

الباب الخامس — خاتم النبئين

والله أعلم حيث يجعل رسالته ١١٣

محمد والوحى ١٣١

الحق والباطل ١٣٧

وما صاحبكم بمجنون ١٣٨

ثمار الصرع والجنون ١٤٥

ابن صياد واختبار النبي له ١٤٧

الرافقة العلى ١٥٠

الباب السادس — الداعى وموطن الدعوة

مفارقات ومقابلات ١٦٣

حساب غير هذا الحساب ١٦٤

ماذا هناك ما معنى هذا التوافق ١٦٥

هذا النبي الامى ١٦٧

النبا العظيم هدمه الجامعة ١٦٩

مولد النبي ١٦٩

الباب السابع — الرسول ووجوه الرسالة

أصحاب القيل ١٧٢

فداء النبي ١٧٧

الموضوع	صفحة
ماذا في جبين عبد الله	١٨٥
حلم آمنة	١٨٩
قصة الختان	١٩٤
قصة شق الصدر	١٩٥
لواصمات بين يدي النبوة	١٩٨
دين الخمس	٢٠٢
رجال في الطليعة	٢٠٥
الرهبان والسكبان	٢٠٧
من أخيار والسكبان	٢١٢
معجزات الرسول .. بعد البعثة	٢٢٤

نبع الماء ٢٢٨ — شجرة تتكلم ٢٣٢ — معجزة النبي
 للنبي ٢٣٤ — إنك على الحق المبين ٢٣٥ — انشقاق
 القمر ٢٣٧ — قصة الإسراء ٢٤٢ — مد غير منتظر ٢٥١ .

الباب الثامن - الرسول .. والمعجزة الكبرى

لو أنزلنا هذا القرآن .. الآية	٢٦٥
الرسول الكريم ٢١٩ — أسلوب القرآن ٢٨٢ — محمد والقرآن	
عند غير المسلمين ٢٨٤ — التشريع في القرآن ٣٠١ —	
صياغة أحكام الشريعة ٣١٤ .	

الباب التاسع - بشرية الرسول

شواهد من أحوال الرسول .. القرآن وشخصية الرسول	٢٢٠
ما شهدت به الأعداء	٢٢٦

الباب العاشر - المرأة في حياة النبي

الرجل والمرأة ٣٢٧ — النبي البشر ٣٣٨ — الحقيقة والظل ٣٣٩	
لوججات النبي	٢٥٢

الباب الحادى عشر -- فبى الملحمة

٢٦٩	الاسلام والصف
٣٨٨	الجهاد . . فى الاسلام
٣٩٧	عود على بدء

الباب الثانى عشر -- فبى الرحمة

٤٠٢	النبوة
٤٠٤	الرسالة المحمدية
٤١١	الرحمة العامة الشاملة

الإيمان بالله ٤١٩ -- ما يتصل بالإنسان فى حفظ حياته ٤٢٠

ما يتصل بالإنسان فى ماله -- ما يتصل فى حياته مع الناس .

(١) الرجل والمرأة ٤٢١

(ب) الزوج والزوجة ٤٢٥ -- الرحمة الشاملة أيضاً ٤٢٦ .

٤٣٩	الإنسان فى القرآن
٤٥٠	خاتمة . . ومفتتح
٤٥٩	المراجع
٤٦١	الفهرس



